البرتغاليون في بحر عُمان

أَحداث في حوليات

من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م

المجلد التاسع

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

منشورات القاسمي

البرتغاليون في بحر عُمان

أَحداث في حوليّات

من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م

البرتغاليون في بحر عُمان

أَحداث في حوليّات

من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م

المجلد التاسع

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

منشورات القاسمي

اسم الكتاب :
البرتغاليون في بحر عُمان ، أحداث في حوليات ، من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م ، المجلد التاسع .
الدكتور سلطان بن محمد القاسمي (الإمارات) .
....
اسم الناشر : منشورات القاسمي ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة .
سنة الطبع : ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة

التوزيع : منشورات القاسمي
ص . ب : ٦٤٠٠٩ الشارقة ، دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف : ٠٠٩٧١٦٥٠٩٠٠٠٠ — براق : ٠٠٩٧١٦٥٥٢٠٠٧٠
البريد الإلكتروني : Info@aqp .ae
....
الفهرسة الوصفية أثناء النشر :
مكتبة الشارقة العامة ، هيئة الشارقة للكتاب ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة :
٩٥٣،٠٧٥٣
ق س . ب
القاسمي ، سلطان بن محمد بن صقر ، حاكم الشارقة ، ١٩٣٩م- البرتغاليون في بحر عُمان : أحداث في حوليات ١٤٩٧م — ١٧٥٧م / سلطان بن محمد القاسمي .- الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي ، ٢٠٢٥م .
٢١ مج . ؛ ص : ٥٠٢ ؛ ١٥،٥ X ٢٣،٥ سم .
يشتمل على هوامش .
تدمك : ٠-٩٧-٧٢١-٩٩٤٨-٩٧٨
١- عُمان (السلطنة) — تاريخ — العصر الحديث — الاحتلال البرتغالي ٢ - عُمان (السلطنة) — تاريخ — عصر اليعاربة ٣ — دول الخليج العربي — تاريخ — الاحتلال البرتغالي أ — العنوان
....
الترقيم الدولي : ٠-٩٧-٧٢١-٩٩٤٨-٩٧٨
إذن طباعة رقم MC-٠٣-٠١-٤٨٨٠٣١٢ بتاريخ ١٨ /٠٢/ ٢٠٢٥م ،
مكتب تنظيم الإعلام ، وزارة الثقافة والشباب ، الإمارات العربية المتحدة
الطباعة : AL Bony Printing Press — Sharjah، UAE
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

المحتويات

مقدمة المجلد التاسع ٧

- أحداث عام ١٥٤٩م ٩
- أحداث عام ١٥٥٠م ٢٣٥
- أحداث عام ١٥٥١م ٤٤٥

دليل الباحثين ٤٨٥

هوامش المجلد التاسع ٤٩٩

مقدمة المجلد التاسع

يضم هذا المجلد بين دفتيه أحداث ثلاثة أعوام ، من العام ١٥٤٩م إلى العام ١٥٥١م ، وقد جاءت تلك الأحداث من قبل الأتراك ، باحتلال عدن ، وكذلك احتلال البصرة ، والقطيف والبحرين .

أما التنصير فقد اشتد من بداية عام ١٥٤٩م ، وما تلاه ، حيث طلب الكاهن "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" من الملك أن يعتنق المسيحية . وأخطر من ذلك أن نصّروا زوجة زيد الفارسي المسلم وزوّجوها برتغالياً مسيحياً وهي على ذمة زوجها المسلم . قام المسؤول البرتغالي في هرمز ، بإغلاق المسجد ومنع الناس من الصلاة .

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

أحداث عام ١٥٤٩م

بعث الأب "فرانسيسكو شافير" "Francisco Xavier" رسالة إلـى الأب "سيماو رودريغيز" "Simao Rodregues" ، "كوتشين" "Cochin" في العشرين من شهر يناير عام ١٥٤٩م ، ويذكر المسيحية في سوقطرة : [١]

فليكن عِظَم ومحبّة المسيح سيّدنا دائماً في عوننا وحمايتنا ، آمين .

سيّدي "سيمون" ، أخي ،

لا أستطيع أن أطلعك على كلّ شيء عبر الكتابة ، أو الراحة التي حصلت عليها من وصول "أنطونيو غوميز" ، وكل الآباء الآخرين ؛ لأنّك تدرك أنّهم يمنحون أرواحنا نفعاً كبيراً ، ويقدّمون خدمة كبيرة للربّ إلهنا ، ليس فقط بأرواحهم ، بل بوعظهم واعترافاتهم ، ممّا يمنح الأرواح تجربة وتمارين ووشائج مع الناس ، وكل من يعرفهم يفيد منهم ..

(١) رقم الوثيقة والهامش.

إن احتياجات أفراد مجتمعنا في هذه الأنحاء كثيرة وعديدة ، وبخاصّة في المدن الكبيرة مثل هرمز و"ديو" أكثر من "غوا" ، بسبب عدم توفّر الوعّاظ ، والآباء الروحيّين ، مما يجعل العديد من أرواح البرتغاليّين خارج دائرة أعرافنا .

لأنّني أعتبر هذه الحاجة كبيرة وملحّة ؛ فإنني سوف أرسل "أنطونيو غوميز" إلى هرمز و"ديو" طالما أنّ الربّ أبانا قد منحه موهبة كبيرة ، وحماسة في الوعظ وأداء الاعتراف ، ومقدرة روحية ، وحبّبه إلى المسيحيّين ، وأرسل السيّد "غاسبر" إلى "سانتافي" حيث الجماعة .

ملخص صفحات ٢٣٤ - ٢٣٦ :

أخي العزيز ،

سوف تؤدي خدمة جليلة للربّ ، إذا ما أتيت وأعضاء الرهبنة إلى الهند ، وإذا ما بين أعضاء الرهبنة حوالي سبعة أو ثمانية من الوعّاظ ، فهؤلاء سوف لن يحتاجوا لتعليم ، طالما أنّ غير المؤمنين في هذه المناطق غير متعلّمين ، ولكنّهم من ذوي الفضيلة وعّاظنا ، مصطحبين بالقساوسة ، يقومون بتلقّي الاعترافات ، والعظات الروحية للمحتاجين ، ممّا يسهّل عمليّة إنتاج مدرسة للصغار من أبناء البرتغاليين أوّلاً ، ثمّ لأبناء المواطنين المحليّين .

لقد تلقّيت معلومات كثيرة حول جزيرة "اليابان" ، والتي تبعد حوالي مائتي فرسخ خلف "الصين" ، وذلك من طرف برتغاليّين كانوا هناك ، ومن يابانيّين أيضاً ، هؤلاء أبحروا معي في العام المنصرم من "مالاقا" ، وتحوّلوا إلى المسيحيّة في أبرشية "سانتافي" و"غوا" "Goa" .

أرسل لك مفكّرة مكتبيّة بالمعلومات التي اعتمدت فيها على تقارير "باولو دي سانتافي" "Paolo de Santafe" .

لقد عقدت العزم على السفر إلى "اليابان" في شهر إبريل من عام ١٥٤٩م ، مع الأب "كوسمي دي توريس" "Cosme de Toris" ؛ لأنّني أؤمن بأنها المكان المناسب لنشر ديننا ، ومع وصول الآباء هذه السنة ، والآخرين الذين سوف ترسلهم في العام المقبل ، فلسوف لن يُفقَدَ وجودي هنا ، وفي ذلك الوقت آمل في إرسال أخبار من "اليابان" ، وموقفها حيال نشر الإيمان هناك .

أتمنّى عندما يكون كلّ شيء على ما يرام في الهند أن نلتقي في "اليابان" ، إذا ما سمحت الظروف ، وناسب الترويج لديننا ، والذي أعتقد أنه سوف يناسب بمشيئة الربّ ، فإنّ كثيرين من الأبرشية سوف يتوجّهون إلى "الصين" ، وبلاد التتار ، وما خلفهما .

حسب "باولو" فإنّ هذه البلدان تتقاسم المعتقدات مع "اليابان" ، وتستخدم لغة في كتاباتهم المقدّسة مشابهة ، وتناظر اللاتينيّة عندنا .

عندما أصل إلى "اليابان" سوف أرسل لكم تقريراً عمّا تحتويه كتبهم ، والتي يدَّعون أنها آتية من عند الربّ ، ولسوف أزور ملكهم .

عندما أعرف المزيد حول البلاد سوف أكتب لـ الهند ، وللأمراء في "كويمبرا" "Coimbra" ، و"روما" ، وفي كل الجامعات ، وبخاصة تلك التي في "باريس" .

في هذا العام سوف يغادر "سيريانو" "Ceriano" إلى سوقطرة مع

كاهن ومساعدَين اثنين ، في تلك الجزيرة يحكم مسلم بالقوّة ضد كل أسباب العدالة ، وبدون أن يكون له الحقّ الشرعيّ في ذلك ، ولقد أساء كثيراً للمسيحيّة بأخذ ما يخصّ أبناءها ، وبتحويل الفتيات إلى الإسلام ، إلى جانب أفعال شريرة أخرى .

عليكم أن تطلبوا من جلالته ، خدمة للربّ ، وخلاصاً للضمير ، أن يصدر تعليماته ، وأوامره بأن يتم طرد المسلمين من الجزيرة ، ويمكن أن يتحقّق ذلك بدون أتعاب إضافيّة ، وذلك بالأمر لكلّ المبحرين في المضائق بالأساطيل ، إنّه عند العودة من هناك أن يطردوا المسلمين المتواجدين على سواحل قريبة من شاطئ سوقطة ، لن يكون عددهم بأكثر من ثلاثين من المسلمين في بيت صغير على شكل قلعة ، أو حصن .

إنّهم لا يسمحون للأهالي المحليّين بحمل السلاح ، وبالتالي فإنّهم في حكم العبيد .

حبّاً في الربّ ، اعملوا على مساعدة هؤلاء التعساء ، والمحرومين من المسيحيّين ليُنقَذوا من الأسر ؛ فهم في قبضة قاسية ، ومذلّة من طرف المسلمين ، ويمكن طردهم من الجزيرة عند عودة الأسطول من المضائق وإحضار الماء للجزيرة .

إنه ممّا يفطر القلب ، سماع تلك الحكايات عن حزن ، وآلام مسيحيّي سوقطة ، فقبل ستّ سنوات مررت بـ سوقطة ، وأحزنني كثيراً أن أرى المآسي ، والعذابات التي تقع عليهم من أيدي المسلمين من الساحل العربيّ ، وكلّ ذلك يتوقّف منعه على مشيئة الملك ، وسوف لن يكلّف شيئاً .

لكن لـ "مارتيم أفونسو دي سوزا" "Martim Afonso de Sosa" ، وهو سيد غادر إلى الهند ، أن يقدّم معلومات معتمدة لجلالته عن قسوة المسلمين الذين يحكمون الجزيرة ، كذلك يمكنه أن يؤكّد بدون مصاريف إضافيّة إمكانية أن يسحق الأسطول العائد من المضائق المسلمين ، بهدم عشّتهم التي بنوها تشبّهاً بحصوننا ، ولأنّ كل أعضاء الأبرشيّة يكتبون لكم حول الثقة التي يحرزونها في هذه المناطق ، والأقاليم ؛ فإنّني وبعون الله سوف أترك كلّ شيء تحت أيديهم .

ملخص ص ٢٣٧ – ٢٣٩ :

... (نص ناقص) ...

وفي العام نفسه (١٥٤٩م)

بعـــث الأب "فرانسيسكـــو شافـير" "Francisco Xavier" (جمعية يســوع) رسالــة إلى الأب "سيماو رودريغيز" "Simao Rodregues" (جمعيــة يســوع) ، "كوتشين" "Cochin" ، في العشرين من شهر يناير عام ١٥٤٩م ، ويذكر فيها زيادة المسيحية في هرمز وسوقطرة : [٢]

هناك حاجة ماسّة لأشخاص من جمعيّتنا في هذه البلاد ، خاصة في هرمز و"ديو" ، أكثر من "غوا" ، لأنّ العديد من الناس لا ينتمون إلى ديننا المقدّس ، وذلك لحاجتهم لمن يعظهم عن ذلك ، لهذا السبب قمت في الحال بابتعاث "أنطونيو جوميز" "Antonio Gomez" إلى هناك .

"سيريانو" في طريقه إلى سوقطرة هذه السنة مع آخرين : كاهن ، واثنان من الإخوة .

(٢) رقم الوثيقة والهامش.

وفي العام نفسه (١٥٤٩م)

بعث الأب "فرانسيسكو شافير" "Francisco Xavier" رسالة إلـى الأب "سيماو رودريغيز" "Simao Rodregues" ، "كوتشين" "Cochin" في الثاني من شهر فبراير عام ١٥٤٩م ، ويذكر فيها تقوية المسيحية في هرمز : [٣]

رسالة من "شافير" إلى الأب "سيماو رودريجز" "كوتشين" في الثاني من شهر فبراير عام ١٥٤٩م ، لتكن نعمة وحبّ سيّدنا يسوع المسيح معنا دائماً ، آمين .

لن أتمكن من نقل ذلك في كلمات ، أيّها الأخ العزيز "سيمون" ، عن كمٍّ السعادة التي منحني إيّاها وصول "أنطونيو جوميز" ورفاقه ، أعلم أنّهم يحقّقون تقدّماً ونجاحاً عظيماً في أعمالهم النقيّة الورعة ، وذلك عبر نموذج حياتهم في القيام بالاجتماعات ، والاستماع للاعترافات ، ونشر التعليقات ، وعمل محادثات ونقاشات ، خاصّة أنّهم يساعدون ،

(٣) رقم الوثيقة والهامش.

ويعينون الهدف المسيحيّ ، وقضيته بأسلوب رائع ومدهش ، انطلاقا من حسن نيّة الجميع .

لا شكّ أن الجمعيّة تحتاج إلى رجال متميّزين خاصّة في مدينة هرمز وبلدة "ديو" ، فهي أماكن في حاجة إلى وعّاظ أتقياء ، أكثر حتّى من "غوا" ، لوجود الكثير من البرتغاليّين الذين ضلّوا عن مبادئ المسيحيّة وشعائرها .

عليه ، لسدّ هذه الحاجة ، فقد قرّرت إرسال "أنطونيو جوميز" إلى هرمز ، وهو رجل متفوّق في عقد الاجتماعات ، ونَشِط في تنفيذ واجبات أخرى للجمعيّة .

سيبقى "م . غاسبار" "M . Gaspar" في جمعية "سانكتاي فيدي" .

ملخص للصفحات ٢٧٥-٢٨٥ :

(تتعلق بقية الرسالة بشؤون الجمعية في سوقطة ، "غوا" ، الهند ، "ملقة" ، "الصين" ، "اليابان" ... ، الخ ، وخاصة بالترشيحات لتلك المناطق) .

ونهايتها :

في التاسع من شهر فبراير ، "كوتشين" (التوقيع) "فرانسيسكو" .

وفي العام نفسه (١٥٤٩م)

رسالة من الملك "جواو الثالث" "Joao III" يمنح بموجبها الريّس نور الدين ابن الريّس شرف ، استحقاق أن يكون رئيس وزراء وحاكم هرمز على أثر وفاة والده ، الرسالة يؤكّدها الملك "دوم سباستياو" "Dom Sebastiao" ، "الميريم" "Almeriem" ، في الثامن من شهر فبراير عام ١٥٤٩م : [٤]

بعون الربّ ، فإنّ "دوم سباستياو" ملك "البرتغال" ، و"الغاريف" ، هنا وهناك في أفريقيا ، لورد "غينيا" ، والأراضي المحتلّة ، والملاحة ، والتجارة في "إثيوبيا" ، وبلاد العرب ، وفارس ، والهند ... الخ .

بهذا أعلن لجميع من يطّلع على هذه الرسالة أنّه لصالح ريّس نور الدين "جوازيل" مدينة ، ومملكة هرمز ، فإنّ نسخة من رسالة منحه من طرف الملك سيّدنا وجدّنا ، فلينعم بالسلام ، بموجبها ينال شرف

(٤) رقم الوثيقة والهامش.

منصب "الجوازيل" حسب ما وافق ، ووقّع عليه "فرانسيسكو نونيز" "Francisco Nunes" ، و"فرانسيسكو بدروسو" "Francisco Pedroso" العاملان في الوكالة في هرمز ، فلقد قدّمت لي المنحة لتقول ما يلي :

الدوم "جواو" ، بمشيئة الربّ ، حاكم "البرتغال" و"الغاريف" هنا وهنا في أفريقيا ، لورد "غينيا" ، والفتح ، والملاحة ، والتجارة في "إثيوبيا" ، وإفريقيا ، وبلاد العرب ، وفارس ، والهند ... الخ .

أجعل بهذا معلوماً لكلّ من يطّلع على رسالتي هذه ، إنّه تقديراً للخدمات العديدة التي قدّمها لي الريّس شرف "جوازيل" مدينة ، ومملكة هرمز ، وما يزال يقدّم خدماته لي ، فإنّه ليسعدني أن أشرّف أبناءَه ، وبخاصّة ريّس نور الدين ابنَه الأكبر ، والذي قدِم إلى بلاطي حيث لزِم خدمتي ، إنّه شخص أثق فيه ليخدمني بإخلاص فيما أوكل إليه ، ولسوف يقدّم نفسه بشرف .

لكلّ هذه الأسباب ، ولأنّها رغبتي أن أُسعِد أباه ريّس شرف ، فإنّني بهذه الرسالة قرّرت أن أمنحه استحقاق منصب "الجوازيل" في تلك المدينة ، والمملكة في هرمز على أثر وفاة أبيه ، والمرتّب ، والحقوق المناسبة للمنصب ، والأمر ، والصلاحيّة ، والامتيازات ، وحقوق التجارة ، والرسوم ، وكذلك كل ما يستتبع ، ويليق بمهام "الجوازيل" ، هي حقّ له .

هذا هو ما يتّفق مع ما كان لأبيه وفق رسالتي ، وما كان يحقّ كذلك لـ "الجوازيل" في فترات سابقة ، من رغبتي وآمر بها ، إنّه عندما يتوفى ريّس شرف ، فيخلفه مباشرة في وظيفة "الجوازيل" .

هذا الخطاب يخوّله أن يمتلك المنصب ، وكذلك كل الامتيازات الأخرى المستحقّة للمنصب ، ليس ثمّة ضرورة لأمر آخر من طرفي .

عليه ، وبهذا فإنّني أشعر القبطان المسؤول ، والحاكم في أراضي بلاد الهند ، وكذلك "القباطنة" الآخرين في قلاعي في هرمز ، ورئيس ضبّاط الخزانة في تلك البلاد ، وكلّ "القباطنة" في قلاعي في هرمز ، ورئيس ضبّاط الخزانة في تلك البلاد ، وكلّ "القباطنة" ، والمسؤولين ، والشعوب المعنيّة بهذا ، للعلم به .

إني آمرهم أنّه بمجرد وفاة ريّس شرف ، فعليهم تمليك ابنه ريّس نور الدين منصب "الجوازيل" ، بل وعليهم أن يسمحوا له بالحصول عليه ، والتصرّف فيه طوال سنين حياته على النحو المذكور أعلاه ، بل وعليهم أيضاً أن يسروه في كل منحى ، التزاماً بكتابي ، وأن يحترموه في ممارسته حسب ما ورد فيه ، بدون شكوك أو تردّد أو اعتراض ؛ لأنّ هذه هي رغبتي الملكيّة .

سوف يقوم ريّس نور الدين بأداء القسم في المستشارية ، وبحسب قانونها المعمول به ، خدمة لهذا المنصب بإخلاص وولاء ، محترماً كلّ الأعمال ذات الصلّة بخدمتي ، وللقانون ، والنظام في تلك البلاد .

لسوف يعمل بمقتضى هذا للصالح العامّ ، والسلامة ، وخدمة الملك في هرمز ، ومملكته ، ودولته ، ولإنفاذ هذا ومنحه قوة التنفيذ ؛ فإنّني أمرت تسليمه هذا الخطاب موقّعاً من طرفي ، ومختوماً بختمي ، وصادراً عن مستشاريّتي .

صدر في مدينة "الميريم" في السادس والعشرين من شهر فبراير .

"بيرو فيرنانديز" "Pero Fernandes" قام بكتابته في عام ١٥٤٩م .

بما أنّ ريّس نور الدين قد طلب منّي العمل على تأكيد هذا الخطاب له ، وهو طلب عليّ أن أقدّره وأحترمه ؛ لأنّني أرغب في مرضاته ، فلقد عملت ، ويسعدني أن أؤكّد الرسالة له ، وبالفعل أقوم بهذا ؛ ليكون هذا مطابقاً ، ومحترماً ، وبحسب منظومة محتويات الرسالة .

لأجل إنفاذ هذا ؛ فلقد أمرت بتوقيعي على هذه الرسالة ، وبختمي للسلاح الملكيّ ، ويصدر عنّي .

منح في "لشبونه" في الثامن من شهر فبراير .

"بالتازار روبيرو" "Balthasar Robeiro" كتب هذا في العام ١٥٧١م .

أنا "بارتولوميو فروِيس" "Partholomew Frues" ، طلبت كتابته ،

الملك

وفي العام نفسه (١٥٤٩م)

أمر من الملك "جواو الثالث" "Joao III" يمنح بموجبه الريّس شرف والرّيس نور الدين ابنه ، كلّ صلاحيّات "القضاة" على هرمز طوال حياتهما ويؤكد المنحة الملك "دوم سباستياو" "Dom Sebastiao" ، لشبونه ، في السادس والعشرين من شهر فبراير عام ١٥٤٩م : (٥)

أنا الملك ، أجعل هذا معلوماً لجميع من يطّلع عليه ، إنّني أمرت بأن يكون ريّس نور الدين "جوازيلاً" في مدينة ومملكة هرمز ، وبحسب ما أظهر لي من وثيقة أمر من الملك سيدي وجدّي -جعل له الربّ السلم- فلقد تمّت الموافقة ، والتوقيع من طرف "فرانسيسكو نونيز" ، والذي يعمل كاتباً في وكالة هرمز .

الوثيقة تقرأ كما يلي :

(٥) رقم الوثيقة والهامش.

أنا ، الملك ، أجعل هذا معلوماً لجميع من يطّلع على هذا الأمر الصادر منّي ، إنّه اعتباراً للثقة العالية من طرفي في الريّس شرف "جوازيل" مدينة ، ومملكة هرمز ، وكذلك لثقتي في ريّس نور الدين ابنه ، فإنّني منحت شرف مكتب "الجوازيل" إلى الأخير على أثر وفاة والده ، وإنه ليسرّني أن أمنحهما هذا الشرف ؛ لأنّ الابن سوف يعمل ، ويخدمني في هذا المنصب بنفس الأمانة ، والإخلاص الذي يتوقّع منه .

بناء عليه ، وبموجب هذا الأمر ، فإنّني أقرّ ، وآمر أنّه طالما ظلّ في خدمتي ، أو هما ، أو الآخر في منصب "الجوازيل" ، فإنّه لا يحقّ لأيّ من موظفيّ ، ولا العاملين في قلعة هرمز ، أو لأيّ من موظفيّ في القلعة ، سواء أكانوا تشريعيّين ، أو في المحكمة ، أو دار الخزانة التدخّل ، أو الإجراء في أيّ من الأمور ، وبأيّ شكل ، أو لأيّ سبب فيما يتعلّق بصلاحيّة "الجوازيل" أو إدارته ، أو سلطته ، أو صلاحيّاته العامّة .

بل عليهم أجمعين تسهيل استخدام كلّ صلاحيّتهما ، والشعور بحرّيّة التصرّف لمهامّ حقوقهما ، وكلّ شيء يتعلّق بهما بالحرّيّة الكاملة ، وهذا يعني أنّ ريّس شرف أثناء سني حياته ، وريّس نور الدين ابنه ، وفي خلال سني حياة والده ، وبعد مماته ، يخدمان بما يخدم مصلحتي .

بناء عليه ، أخطر القائد المسؤول ، والحاكم في تلك البلاد ، وكذلك الضابط المسؤول عن الخزانة هناك ، و"القباطنة" ، والمسؤولين ، والضبّاط في القلاع في هرمز ، وكلّ مسؤول غيرهم من موظفيّ حكومتي ، أو الناس المعنيّين بالعلم بهذا الأمر ، أنّه على الجميع الامتثال لهذا الأمر ، والعمل

على تنفيذه باحترام ، وبدون تردّد ، أو شكوك ، أو امتناع ، ووضع عقبات ؛ لأنّ هذا هو رغبتي ، وأمري الملكيّ .

أرغب أن يكون هذا سارياً ، وله قوّة النفاذ ، كما لو أنّه كُتِب بواسطتي ، وختم بختمي في مملكتي ، ووقّعته بنفسي ، وصدر عن مستشاريّتي ، بدون اعتبار للقرار في الكتاب الثاني ، الفقرة العشرين ، والتي تقرّ بأنّ الأوامر التي تعتبر سارية لأكثر من عام لابدّ أن توقّع في شكل أوامر ، وإلا فسوف لن يعتدّ بها .

هذا الأمر يجب اعتماده ، والاعتراف به كاملاً ، على الرغم من أنّه لم يصدر من المستشاريّة ، ولا يتوقّف على عكس ما في القرار المعاكس .

"بيرو فرنانديز" أصدر هذا في "الميريم" في السادس والعشرين من شهر فبراير عام ١٥٤٩م .

ريّس نور الدين طلب مني ان اعتمد وأؤكّد هذا الأمر له .

وعليه ، وطلباً لتحقيق رغباته ، وطمعاً في سروره ، فلقد قمت بتأكيده ، وعليه أقرّ به حقيقة .

بالتالي فإنّ هذا القرار يجب اتّباعه ، واحترامه طوال فترة حياته ، فيما يتعلّق بالتصرّف وفق مضمونه على الرغم من أنّه لم يصدر عبر المستشاريّة .

"بالتازار روبيرو" أصدر هذا في يوم السابع من شهر فبراير عام ١٥٧١م .

سيكون هذا الأمر صالحاً ونافذاً كما لو كان صادراً باسمي ، ومختوماً

بختمي ، وعلى الرغم من الأمر الصادر في الكتاب الثاني ، الفقرة العشرين ، والتي تقول بعكس ذلك .

أنا "بارثولوميو" أمرت بكتابته .

الملك

وفي العام نفسه (١٥٤٩م)

صــدرت تعليمــات من الأب "فـــرانسيسكــو شافير" "Francisco Xavier" إلى الأب "غـاسـبار بـارزيو" "Gaspar Barzio" ، تتضمّن تذكيراً بما عليه القيام به في هرمز ، والقوانين التي عليه الالتزام بها خلال فترة تواجده هناك ، لزيادة التنصير في هرمز ، بتاريخ بداية شهر إبريل عام ١٥٤٩م : (٦)

أولاً : عليك بالتركيز على تصرّفاتك ، بالبدء في تحسين أعمالك مع الله ، ومن ثَمّ مع ضميرك ، بتوافق تلك الأشياء ستفيد بلا شكّ جارك ، وستبدي رغبة أكيدة في إنجاز أعمال متواضعة ، تحقّق منها الكثير من الانصياع لأوامر الربّ ، وعليه سنكون أكثر حرصاً في تعليم الصلوات شخصيّاً لأطفال البرتغاليّين ، والذكور ، والإناث من العبيد ، والمسيحيّين المحليّين .

(٦) رقم الوثيقة والهامش.

– لا تكلّف شخصاً آخر للقيام بهذا العمل ، لأنّ من يقومون بأدائه لك هم متنوّرون كثيراً ، وإضافة لذلك ، فإن الناس تأتي لتتعلّم العقيدة المسيحيّة .

– ستقوم بزيارة الفقراء في المستشفى لتقوم بنصحهم من وقت لآخر ، وستقوم بالوعظ فيما تتطلّبه ضمائرهم دافعاً لهم للاعتراف ونيل الغفران ؛ لأنّه بسبب ذنوبهم هم في تلك الحالة الراهنة .

– ستستمع إلى اعترافاتهم بقدر ما تستطيع ، وفيما بعد ستقدّم لهم العون في احتياجاتهم الحياتيّة ، بالطلب من أولئك الذين في مواقع السلطة ، والأمر والنهي أن يحسنوا إليهم في المسائل الدنيوية .

– ستزور المسجونين ، وتعظهم ، محرِّضاً لهم على الاعتراف العامّ عن كل ما في حياتهم السابقة ؛ لأنّ الأغلبية من أولئك الناس لم يؤدّوا اعترافاتهم .

– ستقوم بحثّ ، وإرشاد مثل أولئك لدار الرحمة المقدّسة ، والتي تحتاج إلى المزيد من الاهتمام لمساعدتهم على نيل حقوقهم ، وتقديم العون الضروريّ للفقراء الذين يعانون .

– ستقوم بخدمة دار الرحمة المقدّسة بقدر ما تستطيع ، وتكون أكثر مودّة للإخوة الذين بها ، مقدّماً لهم العون بشتّى الوسائل .

– ستطلب من الذين يعترفون في هذه المدينة ، ومن تعتبرهم ملتزمين بالعودة لكنّهم غير قادرين على سداد ما عليهم للمالكين ، إمّا لأنهم توفّوا ، أو لعدم معرفة أماكنهم ، أو بسبب أن التعويض غير ممكن ، أداءه للملّاك الحقيقيّين ، وإعطاء كلّ شيء لدار الرحمة المقدّسة .

قم بعمل ذلك ، حتى وإن قدّم الفقراء من الناس أنفسهم على أنهم الأجدر في تلقّي الصدقات ؛ لأنّه بين الفقراء يوجد الكثير من المحتالين ، والأشخاص المتورّطين في الرذيلة والذنوب ، أشخاص مثل هؤلاء معروفون تماماً في أخويّة الرحمة ، الصدقات التي كانت ستؤدّى إلى أولئك كان يمكن أن توهب لدار الرحمة المقدّسة ، التي كانت ستنفق الأموال على أشياء أكثر ضرورةً ، وناسٍ أكثر فقراً ، وحاجة .

هناك العديد من الأسباب لهذا ، لذلك إن اقترب منك العديد من الأشخاص ، يطلبون أشياء ماديّة ودنيويّة أكثر ممّا يطلبون أموراً روحانيّة ، فقد ينتابهم الشعور بأنّك ستساعدهم ، دع الذين يعرفونك أن يعتبروك ستساعدهم في هذا الأمر في مسائل روحانيّة ، بل أكثر من ذلك .

سيكون من الفضل أن تسلّم كلّ الصدقات للدار المقدّسة للرحمة ، وتجنّب إحراج الناس كونهم يتشكّكون ، ويتحدّثون عن فضيحة أنّك تتلقّى الصدقات والأموال ، وتتكسّب منها أنت شخصيّاً ، هذا لأنّه عندما يغضب الرجال فإنّهم أحياناً يفسّرون الأمور بطريقة سيّئة ، إن كنت ترى غير ذلك فقم بما تراه خدمة جليلة للربّ ولجارك .

– ضع نصب عينيك أنّك في كل تصرّفاتك ، وأفعالك ، ومحادثاتك ، عليك أن تتعامل مع كلّ النّاس بأسلوب روحانيّ ، سواء أكانوا أصدقاء جيّدين ، أو سيّئين ، أو غير ذلك أيضاً ، كأنّهم أعداؤك في نفس الوقت ؛ لأنّ هذا سيفيدك في تنويرهم كثيراً بكلّ السبل ، لأنّ ذلك سيجعلهم يحسّون بالخزي عندما يبتعدون عن كونهم أصدقاء لك .

- استخدم حصافتك عند تعاملك مع هذا العالم الشيطانيّ ، ولتعش دائماً فوق اعتبارات حياتك ، وبهذا ستهنأ أكثر بقربك من الربّ ، وستتفهم نفسك جيّداً ؛ لأنّ كثيراً من المواقف قد تنشأ عن عدم الانتباه والغفلة ، بينما أولئك الذين هم أصدقاء لنا يمتنعون عن هذا ، والذين هم أعداء لنا ، وأيضاً حتى الذين ليست لهم معرفة بنا ، يتخذون موقفاً عدائيّاً تجاهنا .

- احرص على عدم تجاهل الاختبار الشخصيّ لضميرك مرّتين في اليوم ، أو على الأقلّ مرّة واحدة ، وفوق ذلك مارس حياتك واضعاً نصب عينيك لضميرك شخصيّاً أكثر من ضمائر الآخرين ؛ لأنّ كلّ من لا يشعر بالراحة فكيف يكون كذلك مع الآخرين؟

- يجب أن تكون مواعظك منتظمة بقدر الإمكان ؛ لأنّها مباركة كونيّة ، يمكن أن يكسب منها كثيراً في خدمة الربّ ، وفائدة للأرواح .

- أنصحك في مواعظك ألا تعظ في مواضيع يحيط بها الشكّ أو الصعوبات عن أطبّاء الكنيسة ، بل عليك الدخول في مواضيع مباشرة ، وعقائد أخلاقية .

- قم بشجب المعاصي بهذه الطريقة : على سبيل المثال : بإلقاء اللوم ، ومعاتبة الاستعداء الذي يرتكب ضدّ الربّ ، ولعن دائم لمرتكبي الرذائل ، وآلام الجحيم ، والموت العنيف الذي يقبض أرواحا لرجال دون أن يكونوا مستعدّين له ، ثم تعرض لأحد العوامل العديدة للعطف ، والشفقة بأسلوب حواريّ بين مذنب ، وبين الربّ .

ثم لمّح لغضب الربّ من المذنبين ، ثم قم بحثّ المستمعين إليك

بقدر الإمكان على الندم ، والأسف ، وذرف الدموع حتّى تدفعهم إلى الاعتراف ، وتلقّي مباركة السرّ المقدّس ، وبهذه الطريقة ستحظى مواعظك بالنتائج الطيّبة .

– كن يقظاً خاصة عند وعظك ، ولا تلقي باللوم على أيّ شخص ، أو أشخاص لهم سلطة بالبلاد ، وليكن تأنيبك في سرّية ، وليكن في منزلهم ، أو عند قيامهم بالاعتراف ، لأنّ أولئك الرجال يعتبَرون خطيرين جداً ، بدلاً عن تعديل ، وتحسين أساليبهم ، إلاّ أنّهم يصبحون أكثر سوءاً عندما يتمّ عتابهم في العلن .

– قدّم تلك النصائح عندما تصبح صديقاً لهم ، إن أصبحت صديقاً عظيماً ؛ فستتمكن من دفعهم لإنجاز الكثير من الأعمال ، لكن إن لم تنجح في ذلك فستظل تهدر في لومك وعتابك ؛ لذلك عليك توبيخهم وأنت تضع ابتسامة رقيقة على وجهك مع كلمات ودودة مليئة بالحبّ ، وليس كلمات فظّة قاسية تجعلهم يحسّون بالحرج .

– قم باحتضانهم وتواضع كثيراً أمامهم ، قم بكلّ ذلك حتّى يصبحوا جاهزين ومتقبّلين تقاربك منهم ، لأنّني أخشى إن عاتبتهم بكلمات فظّة فقد يفقدون صبرهم ، ويتضايقون ، ويتحولون إلى أعداء ، أقول هذا ، وأعني به الشخصيّات ذات النفوذ ، ومن بيدهم السلطة والأغنياء .

– عندما تستمع للاعترافات ، خاصّة في هذا الإقليم ، عليك قبل القيام بذلك أن تشجّع التائب أن يراجع حياته الماضية ليومين أو ثلاثة ، مستعرضاً في ذهنه كلّ ذنوبه وخطاياه ، ومسجّلاً لها حتّى تدفعه للتفكير في تحسين نفسه ، ثمّ بعد ذلك استمع لاعترافه .

- لا تقم بطلب الغفران له مباشرة ، لكن أجِّل ذلك ليومين أو ثلاثة ، حتّى يتسنّى لمثل هؤلاء الأشخاص التأمّل في أحوالهم ، وحتّى يتجلّى لهم في الأسبوع الأوّل مدى حاجتهم للممارسات الروحيّة ، حتّى يتوبوا ، ويندموا على أخطائهم ، ويشعروا بالندم ، والعقاب ، والأسف .

- حثّهم على أداء ما يدينون به ، وأن يصبحوا أصدقاء ، وأن يبتعدوا عن الشهوات ، والذنوب ، والمعاصي المتأصّلة فيهم .

- أجبرهم على فعل ذلك قبل أن تغفر لهم ، لأنّهم يقدّمون الكثير من الوعود عند الاعتراف ، لكنّهم يوفون بالقليل ، سيكون من الأفضل لهم أن يؤدّوا الأعمال التي وعدوا القيام بها قبل أن تغفر لهم ، ثمّ تطلب لهم المغفرة بعد ذلك .

- انتبه لما يلي :

- عندما تستمع لاعترافات في تلك المناطق ، لا تتعامل مع النادمين بطريقة فظّة ، أو إدخال الخوف على قلوبهم ، واتركهم حتّى يعترفوا بكل ذنوبهم .

- كما عليك التحدث لهم عن رحمة الربّ الواسعة ، مهوِّناً عليهم الأمور التي هي في حقيقتها غاية في الخطورة ، قم بكلّ ذلك حتّى يكملوا اعترافاتهم ، والإفصاح عن كلّ خطاياهم .

- كن حَذِراً عند استماعك للاعترافات ، لأنّك ستمرّ بأشخاص لن يفضوا بكلّ مكنوناتهم من باب الخجل عن بعض الذنوب ، والمعاصي الفظيعة التي اقترفوها .

- شجِّع مثل هؤلاء ، وحثّهم على الاعتراف بخطاياهم .

- عالج كلّ الأمور بهدوء ، واشرح لهم أنّك تعرف آخرين لهم من الخطايا أكثر ممّا لهؤلاء ، كما أبين المزيد عنهم .

- قدّم لهم العون أحياناً حتى يقرّوا ، ويعترفوا بتلك الذنوب التي يمنعهم الشيطان من الاعتراف بها من باب الخجل ، أو الخوف .

- اشرح ، وصِف لهم ماضيك الشخصيّ المحزن في كلمات عامّة ، وهذا أمر ستعلّمك إيّاه التجارب .

- ستجد أنّ بعض الناس ، ودعنا نأمل أن لا يكونوا بتلك الكثرة ، تنتابهم الشكوك بخصوص الطقوس الدينيّة ، خاصّة العشاء الربانيّ ، والسبب في أنّ الكثيرين لا يتلقّون القدّاس ، هو صحبتهم للوثنيّين ، وهناك أسباب عديدة أخرى أحجم عن ذكرها ، عندما يرون كيف هي مختلفة حياتنا ، فإنّهم سيتخيّلون كلّ أساليب الخطايا التي ارتكبناها نحن المذنبون والتي تتعلق بالتكريس ، ستحاول مع هؤلاء الأشخاص ، اجعلهم يبوحون بكلّ الخرافات ، والخيانات ، والشكوك التي بداخلهم ؛ لأن أفضل علاج هو اكتشاف مثل تلك الأكاذيب .

وعدم اليقين منذ البداية ، ومن ثَمّ تشجيعهم على الإيمان ، والتصديق بجدّية ، ودون أدنى شكوك في أن المسيح مخلّصنا وسيّدنا موجود في ذلك الطقس الدينيّ ، بهذه الطريقة تقدّم لهم المساعدة ليعترفوا بتلك الأخطاء ، ويتلقّوا الغفران .

- عندما تستمع للاعترافات ، ستحرص كثيراً على سؤال الرجال

عن الوسيلة التي يتكسّبون بها في حياتهم من التجارة ، إن اعتقدت أن هناك بعض الرِّبا فلا تصدّق قول الكثيرين الذين يقولون : "إنّ ضميري لا يعذّبني بخصوص أيّ شيء يتعلّق بالتعويض" ؛ لأنّ هناك كثيرين لا يعذّبهم ضميرهم بإحساس الندم ، لأنّهم في الأصل بلا ضمير ، وإن كانت لهم ضمائر ؛ فهي قليلة ، أو معدومة الإحساس .

– عندما يعترف لك موظّفو الملك خاصّة القادة ، أو الوكيل التجاري ، أو آخرون يحتلّون مناصب ملكيّة ، أو هم وكلاء تجاريّون يعدّون فواتير بضائع أشخاص آخرين ، تحقّق بكلّ تروٍّ فيما يدّعون بأنهم يتكسّبون معيشتهم بواسطته في تلك المناصب ، وعلى الأخصّ في الحسابات التي يقدّمونها .

– سترى من خلال الحسابات كيف يتكسّبون من الأموال ، أو ممتلكات الآخرين ، وذلك بعدم السماح للآخرين بالشراء قبل أن يأتي القادة ، و"القباطنة" بما معهم ، ويبيعونه ، وكيف يساعد الوكلاء التجاريّون أنفسهم بأموال المِلك ، وعليه فإنّه هو من يدفع لهم ، بذلك عليك بالتحقّق على وجه الخصوص من الوسائل ، والسبل التي يمارسونها في التجارة لكسب عيشهم .

طالما أنّك بهذه الطريقة ستتعرّف منهم إن كانوا قابلين للتعويض أم لا ، هذا أفضل بكثير عن سؤالهم : هل تمتلك أيّ شيء لا يخصك؟ لأنّهم عن هذا السؤال سيجيبون ببساطة لا ، لأنّ أولئك الرجال يمتلكون عادة التسبّب في الضرر للآخرين ، وكسب عيشهم عبر وسائل شيطانيّة .

– ما هو خطيئة كبرى أن تكون متمرّساً ومتعوّداً على القيام بأساليب شيطانيّة ، وماكرة في حياتك ، حتّى إنها لم تعد تبدو وكأنها أمراً خبيثاً ، بهذه الطريقة ستعرف إن كانت لهم القابلة للتعويض والعودة أم لا .

ستكون مطيعاً بلا تحفّظ للأب الأسقف ، وعندما يصل تقبّل يديه ، وتكون راكعاً على الأرض ، ستقوم بالوعظ والاستماع بعد أخذ الإذن منه ، وستصدر التعليمات في ممارسات روحانيّة أخرى ، لن تتعارض معه لأيّ سبب أيّاً كان ، اعمل جاهداً لتصبح صديقه ، حتّى تتمكّن من منحه الممارسات والتدريبات الدينيّة ، على الأقل تلك التي في الأسبوع الأوّل إن لم تكن قادراً على فعل المزيد .

– ستكون صديقاً ودوداً مع كل القساوسة الآخرين ، ولن تقدّم على أيّ خصام مع أيّ منهم ، بل على النقيض ستظهر لهم الكثير من الاحترام مجبراً نفسك على محبّتهم حتى تقدّم لهم الممارسات الدينية داخل منازلهم في بعض الأيام .

– ستبدي طاعة عمياء للقائد ، وتكون خاضعاً تماماً له ، لا تختلف معه لأيّ سبب مهما كان ، حتّى وإن رأيته يمارس أعمالاً سيّئة .

عندما تحسّ بأنه أصبح صديقاً لك ستطلعه ، وبمحبة كبيرة ، وقلق زائد عن روحه ، وسمعته بكثير من التواضع ، وبشاشة واضحة ، بما يقوله الآخرون عنه ، قم بذلك عندما ترى أنه سيعمل بكلامك ، وأنّه يعتبر أنّ ذلك أمر معقول ، ومقبول .

سيأتي كثيرون يشكونه إليك حتّى تذهب ، وتتحدّث إليه ، عندما

يصبح الأمر ممكناً اختلق عذراً بأنّك مشغول بأمور روحانيّة ، بالإضافة لأنّك لا تعرف الخير الذي يمكن أن يأتي عن ذلك .

أخبرهم أنّ من ليس له اعتبار للربّ ، ولضمائرهم ، فلن يكون لهم منه شيئاً لك .

عندما تجد الوقت ستكرّسه في تحويل الكَفَرة إلى الدين المسيحيّ ، وقبل كلّ شيء فعليك عدم تجاهل أمر كونيّ لمصلحة خاصّة ، مثل تجاهلك الوعظ حتّى تستمع لاعتراف ، أو التقاعس عن تعليم الصلوات اليوميّة في الوقت المناسب لبعض الأمور الشخصيّة .

قبل ساعة من تعليم الصلوات إما شخصك ، أو رفيقك سيذهب إلى داخل البلدة يدعو الناس للحضور ، والاستماع لتعاليم الدين المسيحيّ .

ستكتب بياناً مفصّلاً إلى المجمع ، وكأنّك تقوم بذلك من أجل الربّ ، ولكلّ أعمالك ، والصلاح الذي يجود به الربّ من خلالك ، لأنّ الرسائل التي تكتبها للمجمع ستكون لها فائدة عندما تبعث لـ "البرتغال" .

أكتب شارحاً الأشياء التي قد تثير الأشخاص الذين يقرؤونها سعياً في خدمة الربّ ، كما ستكتب لسيادة كبير الأساقفة وإلى "كوزمي إينيس" "Cosme Ianes" عن نجاح أعمالك هناك .

منذ البداية ناضل لتكتشف من الأشخاص الأمناء عن تعاملات الرجال في تلك المدينة ، كن مطّلعاً دائماً عنهم حتّى تنصحهم علناً ، ومن خلال الاعترافات بخصوص عاداتهم السيّئة فيما يتعلق بالرِّبا .

ستوصي في كلّ ليلة نفوس أولئك التي تبحث عن الطهارة بكلمات قليلة مختصرة ، تحرم المستمعين ، وتحثّهم على التقوى والإخلاص .

- ستوصي أيضاً بأرواح الذين ينغمسون في الخطايا الأبدية حتّى يمنحهم الربّ نعمة العودة للفضيلة .

ستتحدث مع كلّ شخص بكلمات مستبشرة دون أنانيّة ، وبدون تحقير أو عبوس ، وذلك لأنّهم إن شاهدوك مكتئباً ، وحزيناً سيخاف الكثيرون ، ويخشون كشف أنفسهم لك ؛ لذلك عليك أن تكون كيّساً ، وعطوفاً .

اجعل توبيخك مقروناً بالمودّة ، وحسن النيّة ، حتّى عندما يتحدّث معك هؤلاء الذين لا ينتابهم الشعور بأنّك غير راض عنهم .

إذا اعتبرت أن شخصاً ما سواء أكان كاتباً ، أو رجلاً عاديّاً ، مناسباً للانضمام لجماعتنا ، أو يودّ ممارسة التعاليم الدينيّة ، يمكنك إرساله إلى المجمع مع رسالة ، أو إن كنت ترى أن هذا الشخص مفيداً لك تمسّك به حتّى يساعدك .

في أيام الأحاد ، والمناسبات الدينيّة ، بعد الغداء ، بين الساعة الواحدة ، والثانية ، والثالثة ، أيَّها تراها مناسبة ، قم بالوعظ عن أركان الإيمان في الدار المقدّسة للرحمة ، أو في الكنيسة للذكور ، والإناث من العبيد ، والمسيحيّين الأحرار ، وأطفال البرتغاليّين :

أولاً : قم باستدعاء كلّ المدينة ، أو اذهب شخصيّاً مع زميل يقرع جرساً ، حتّى يأتي الجميع للاستماع لأركان ، وبنود الإيمان .

ستحمل معك من المنزل المذهب المسيحيّ ، والوثيقة التي تتعلق ببنود الإيمان ، والأحكام ، والنظام الذي على الرجل اتّباعه كلّ يوم ، حتى يهب نفسه للربّ ، وينقذ روحه .

ستقدّم تلك القوانين ، والأنظمة للذين يعترفون لك بخطاياهم ، نادمين على ذلك من خلال فترة معيّنة ، ستصبح فيما بعد عادةً بالنسبة لهم ، وتلك وسيلة جيّدة ، ونظاماً أفضل ، وسيشعر التائبون بالراحة فيما بعد .

عليه ستتحدّث مع الكثيرين من الأشخاص حتّى وإن لم يعترفوا لك ، ستضع القوانين ، والنظم على لوحة إعلانات في كنيسة سيّدة الرحمة ، حيث أولئك الذين يرغبون في جني العادة منها قد يأخذون بها .

إن قبلت ببعض الرجال للجمال ممن تعتبرهم يقبلون بالعودة لطريق الربّ ، فقم بعمل ترتيبات بعد انتهائهم من أداء الممارسات الدينية ، ومن أجل خطاياهم ، وأعمالهم المخزية أن يخدموا في المستشفى ، ويقوموا بزيارة المسجونين ، وأيضاً القيام بأعمال في الدار المقدّسة للرحمة ، وأن تكون تصرّفاتهم بعيدة من الهزل حتى لا تكون مصدر سخريّة .

إن حدث ذلك كثيراً فسيكون الأمر مرهوناً لك ؛ لأن تلتمس ، وتتضرّع للربّ ، أو من أجل فقراء المستشفى ، أو السجناء الذين بالسجون ، حتّى يكون كبح الشهوات مهذّباً للذين يشاهدونهم ، احرص على أن يكون هذا هو سلوكك .

عندما تكون على وشك تقديم تلك الكفّارة ، تحرّى أوّلاً بصورة أكيدة عن الشخص الذي سيؤدّيها ، كمّ الفضيلة الذي تراه فيه سيحدّد كبح تلك الشهوات ؛ عليه دع درجة الفضيلة ، والكمال

الذي تنتظره منه يزيد عن الكفّارة ، لا تمنحه سبيل كبح الشهوات كبيرة كانت ، أو صغيرة ، وتكون أعظم من كمّ الفضيلة ، والكمال عند الشخص الذي سيؤدّيها .

إن قمت بنقيض ذلك عوضاً عن الكسب منها ستبعدهم عنها ، وإن حاولوا التقرّب منها ؛ فإنهم سيفقدون فيما بعد الرغبة في كبح أيّ جماح للشهوات ، حاول أن تبعث الروح في أولئك الذين يمارسون الممارسات الدينيّة ، حتّى يكشفوا عن مدى إغراءاتهم لك لأنّ ذلك يساعد على تحويل المنحرف إلى شخص كامل .

إن وجدوك فظّاً في كيفيّة شرحك لكبح الشهوات ؛ فإنّهم لن يكشفوا ما يغويهم لك ، وهذا يزيد كثيراً في توجّسهم ، ويسبّب لهم الكثير من القلق ، والاضطراب ، عندها سيكمل العدوّ أمرهم ، ويبعدهم بعيداً ، ويتعقّدوا كثيراً ، ويبتعدوا عنك .

عندما تغوي الفضيلة ، والعقلانية هؤلاء ، ويأتوا إليك ، وفّر لهم الوقت حتّى يتفهّموا كلّ الجدل المتعلّق بتلك الإغراءات ، مهّد لهم الطريق ، حتّى يجدوا الكثير من الأسباب التي تجعلهم يواجهون ، ويعترضون تلك الإغراءات ، رتّب لهم فيما بعد بأن يكشفوا عن تلك المجادلات في صورة حصن ، ونصح .

والحديث لجماعات من الناس ، مثل النزلاء ، ومرضى المستشفى كما مثل آخرين في صحة جيّدة ، سيجنون فائدة عظيمة من إفشاء تلك الأسباب ، واقتراح علاجات هم أنفسهم مقتنعون بها ، سيشجّعهم ذلك على التصرّف بما يشعرون ، وأن يقدّموا النصائح للآخرين .

سيكون هذا المبدأ مفيداً أيضاً لعامّة من الناس الذين يقومون بالاعتراف ، لكن لهم عوائق تمنعك من أن تغفر عنهم ، اجعلهم يعتبرون إن كان عليهم إبداء الرأي بعلاج ما للآخرين لهذا الشيطان الروحانيّ ، فأيّ الطرق ، والوسائل عليهم اتباعها لحثّهم على فعل ما هو مخالف ، وتلك عليهم تبنّيها بأنفسهم ، على أيّة حال فهذا مبدأ دينيّ ، وفنّ يمنح للأنفس ، شكراً للربّ الذي خلقهم جميعاً ، ليمجّد الخالق ولينقذوا أرواحهم في هذه الحياة الحاليّة .

عندما تستمع لاعترافات الناس المنشغلين كثيراً بحاجتهم للعودة عن طريق الشهوات الجسديّة ، أو الكراهيّة ، والذين ليست لديهم الرغبة في تعديل سلوكياتهم باتخاذ خطوات جادّة ، وترك خطاياهم ؛ لأنّها متجذّرة فيهم ، فإنّ العلاج لمثل هؤلاء إن كان للمنطق أيّ قوّة ، أو قيمة ، فذلك عن طريق الحبّ ، والتبجيل الذي عليهم الإحساس به تجاه الربّ ، حتّى يتخلّصوا من مثل تلك الخطايا والآثام ، عندما يفتقدون ذلك فيجب أن تكون خشية الموت ، وعذاب النّار هي التي تشغلهم ، لكن معظمهم يحتاجون لهذا الخوف كما يفتقدون الحبّ أيضاً .

مع مثل هؤلاء الناس ستواصل سعيك بالطريقة التالية :

صف لهم عقاب الربّ في هذه الحياة ، مثل اختصار حياتهم ، إصابتهم بأمراض خطيرة ، عار في الحياة الحاضرة ، خسارة التجارة ، المضايقة من قبل القادة ، محن في البحار ، وكوارث دنيويّة أخرى يأذن بها الربّ ، كلّها نتيجة لآثامهم .

من خلال الخوف من تلك العقوبات هناك كثيرون يطلبون الكفّارة ، لعلّها

خوفاً من ذلك أكثر ممّا هو الخوف من الربّ ، أو من آلام جهنّم ، يلاحظ الآثمون تلك الفواجع والمحن بسبب تجاهلهم المريع للربّ ، ولضمائرهم ، ولحاجتهم للإيمان ، هم يؤمنون بما يشاهدون ، ويتشكّكون فيما يجب أن يدركوه في الحياة الآخرة .

عندما يتوجّب عليك التعامل في أمور دينيّة مع شخص بعينه ، وتتحادث معه عن أسئلة تتعلق بالربّ ، وإنقاذ الروح ، عليك الحرص ، والحذر فيما تقول ، لاحظ أنّ هناك ما يثير هذا الشخص ، أو يبدي نوايا تعارض مبدأ إنقاذ النفس ، أو إن كان مستعدّاً لقبول النصح ، والتعليمات الدينيّة ، إن لاحظت توتّره ، أو ضيقه ، أو انزعاجه ، وغضبه ، فتحدّث معه بلطف ، وقده بكلّ لطف ، وبالتدريج حتّى يصل لقناعة أن يفعل ما هو مطلوب منه لإنقاذ النفس .

إن كنت تعتقد أنّه مليء بالعاطفة ، وقابل لأن يتلقّى التأنيب ، ابدأ حديثك بقليل من الكلمات ، فإن قبلها أضفت أخرى بسبب إقناعه ، وبذلك يمكنك بدء حديث مباشر عندما تجد أنّه على استعداد لتقبّل الحقيقة ، والسبب الذي أدّى لذلك .

من هنا كما قلت ادفعه بحرص لما يجلّي ضميره من الشوائب ، وإن فقد أعصابه ، أو ضاق ذرعاً ، فعليك بتبديد غضبه بما عرضه عليك من أشياء ، وإلقاء اللوم على ما فعل في ثورة غضب ، نتيجة الجهل ، وليس الخبث ، هذه هي الطريقة التي يرى بها الأشياء عندما يكون في حالة غضب .

أخبره أيضاً أنّ ذلك بسبب ذنوبه وأنّه في وقت ما قام بذلك تجاه والده ، أو والدته ، أو شخصٍ آخر كانت له معه مجادلات

خطيرة ، وكعقاب على أعماله ؛ فإن الربّ يجعل شخصاً آخر يردّ له نفس الفعل .

لذلك ستستخدم كلمات أكثر رقّة من هذا النوع لتخلّصه من غضبه ، وما أقوله عن الغضب هو نفس ما أقوله عن أيّ مشاعر قويّة أخرى ، وذلك بالتأكيد دائماً على أنّه لا يملك سبباً ، أو منطقاً يجعله يأخذ الأمور بإحساس أكثر من اللزوم .

عليه ، ستتحدّث بالأسلوب التالي مع الذين يشعرون بالغضب ، أو تثار حفيظتهم لأتفه الأسباب :

ستبعدهم عن المشاعر التي تجعلهم يبتسمون ، ثم تتحدّث معهم فيما بعد بأسلوب مختلف موبّخاً لهم بشدّة بناءً على تقبّلهم للمنطق .

أينما كنت اجتهد كثيراً لتتعرّف على التعاملات ، الأساليب ، والسبل التي يستخدمها الرجال لكسب عيشهم ، وممارسة التجارة في داخل البلاد وخارجها .

تأكّد من الحصول على المعلومة الجيدة من خلال أشخاص على اطّلاع بتلك الصفقات ، هؤلاء هم من سيعلّمونك كيف تنجح في التقدّم عبر البلاد حيث تعيش ،

بجانب ذلك فإنّهم يوفّرون معلومات يعتمد عليها عن الآثام والجرائم التي تحدث هناك ، عليه يمكنك تلقّي معلومات مفصّلة عن المعاملات ، والرِّبا الذي يتمّ بين هذا المكان وهرمز ، وأنت في طريقك يمكن أن تبرز الأسلوب الذي بواسطته تستطيع إقناعهم حتّى يدركوا الأخطاء التي يمارسونها ، والرجوع عنها الذي عليهم القيام به .

يمكنك التفكير في طريقة بدايتك للوعظ ، وكيفية التعامل معهم أثناء الاعترافات ، والمساعدة التي يمكنك تقديمها لهم .

فكّر دائماً أنّك لن تجد أفضل من حثّهم على تقديم اعتراف عام لخطاياهم ، قم ببعض الحديث عن الأفكار في الأسبوع الأوّل حتى يسترجعوا أنفسهم ، وقد تتملّكهم الرغبة في الندم ، والأسف ، والبكاء ، والحسرة ، عند رؤيتهم للعنة التي ستحلّ بهم .

اطّلع بنفسك أيضاً على الكثير من النزاعات ، والغشّ ، وقضايا الاحتيال ، التي لهم فيها يد من خلال المحاكم ، واستخدام اليمين الكاذب ، والرشاوي ، وعلاقات ، وخداع حيث يحجبون عن قول الحقيقة ، ويخفونها .

لعرض ذلك صراحة وباختصار فإنّك لن تجني قبول الرجال في هذه المدينة سوى بمعرفة تفاصيل حياتهم ، هذا هو التحقيق الأساسيّ الذي يساعد في تحسين الأنفس ، تتألّق من قراءة الكتب التي تدرس الأشياء التي لا توجد في كتب فانية ، القيام بهذا لن يساعدك في إثراء الأنفس من حيث الحصول على معلومات من الرجال الأحياء الذين يتقاسمون نفس أسلوب الحياة .

لقد أحسست دائماً بالسعادة تجاه هذا القانون ، والحكم في أيام الآحاد ، والاحتفالات الدينية ، أو أيام العمل ستشغل بوقف الصداقات ، ومنع وتسوية القضايا ؛ لأنهم ينفقون الكثير من القضايا عن الموضوع الذي يسبّبه أقيمت القضية ، وحتّى إنّ المحامين ، والكتبة يضايقونهم بذلك .

حاول تقديم التعاليم الدينيّة لأولئك المحامين ، والكتبة ؛ لأنّهم هم من يثير كلّ تلك القضايا .

ستبقى في هرمز حتّى تتلقّى الإجابة منّي عمّا عليك القيام به .

ستكــتب لــي بالتفصيل من هرمز وإلى "فرانسيسكو بيريز" "Francisco Perez" في "ملقة" عن كلّ التقدّم ، والنجاحات التي تقوم بها هناك .

سيقدم لي "فرانسيسكو بيريز" رسائلك من "ملقة" إلى "اليابان" إن شاء الربّ ، ورأى بوجوبها ، وأنّها في خدمته بأن أذهب أنا إلى "اليابان" .

إن لم تلق إجابة منّي من خلال فترة ثلاث سنوات ؛ فستظل أنت هناك لأنّ تلك هي رغبتي ، حتّى وإن كتبوا لك من الهند ، إن لم تتلقّ إجابة منّي بعد ثلاث سنوات .

عندها انتظر في هرمز حتّى يصدر إليك الأمر بخلاف ذلك من قبل قسّ مجمع "سانتا في" .

عندها ستكتب بتفاصيل شاملة لمن كان القسّ في تلك الدار بالتقدّم التي تحقّقه هناك ، إضافة كما قلت ، فستنتظر رسالتي بعد ثلاث سنوات ، حتّى وإن كان قسّيس تلك الدار قد طلب منك التصرّف بطريقة مختلفة .

بعد نهاية الثلاث سنوات ، وبعد أن تكون قد قدّمت له تقريراً بالتقدّم الذي تحقّقه ، وكيف سيفتقد وجودك الآخرين إن غادرت ذلك المكان .

عندها قم بما طلب منك القيام به .

ستبعث لي برسائل بواسطة كلّ السفن المغادرة هرمز إلى "ملقة" على عنوان "فرانسيسكو بيريرز" .

ستقوم بترتيب إقامة صلوات ، وتعليمها على ظهر السفينة ، وستهتمّ كثيراً ببحّارتك ، حتّى تدفعهم للاعتراف لك ، احرص على جعلهم راضين عن وضعهم بالسفينة ، ستقوم بوعظهم أيام الآحاد وأي أيام أخرى تراها مناسبة .

إنّني أعتمد عليك في هذا الشأن ، وأن تتصرّف بناءً على الوضع الذي تراه ، وتلاحظه .

من خلال مواعظك ستشير بأقلّ القليل الممكن للسلطات ، تحدّث عن الأمور الروحانيّة التي اعتاد على سماعها الآثمون ؛ لأنّهم يمارسون حياة سيّئة .

قم بالإشارة في النهاية إلى مكر الأعداء ، والأشياء التي يستوعبها الرجل العاديّ .

إن شئت الحصول على نتائج جيّدة لنفسك ، ولجارك ، والعيش في قناعة ، تحدّث مع المدنيّين ، واجعلهم يفضفضون عن كوامن أنفسهم لك .

تلك هي الكتب الحيّة التي عليك دراستها حتّى تتمكّن من الوعظ ، وتواسي نفسك والآخرين .

لا أقول بعدم قراءتك لكتب مكتوبة عن المناسبة ، لكن قم بذلك

حتّى تجد الأدلّة لتبرز بها العلاجات ضدّ الآثام ، والمعاصي التي تجدها في كتاب الحياة ، وحتّى تعزّز ، وتساند شجبك للرذيلة ، مستخدماً نصوصاً من الصفحات المقدّسة ، وأمثلة لما قام به القدّيسون ، طالما أنّ الملك يأمر بأن يقدّم لك كلّ ما تحتاجه ، فإنّك ستقبل منه أفضل مما تقبل ذلك من شخص آخر .

إنّه أمر خطير عدم قبولك ما تحتاجه من شخص ما ، لأنّ أيّاً كان من يأخذ فقد أخذ ، وما أعنيه أنّ الكلمات لا تحمل نفس الطاقة التي تتعلّق بشخص ما يتقبّل أخذ شيء من آخر لم يكن ملزماً بذلك ، عليه ، فيما بعد ، عندما يكون علينا لومهم فإنّنا نشعر بالحرج ، ونفتقد الكلمات ، فننتقد بها مثل هذا الشخص .

سنقابل الكثير من الناس الذين يعيشون في الرذيلة ، والذين سيبذلون جهداً خارقاً لنيل صداقتك ، حتّى لا تتحدّث بالسوء عنهم ، لكنّهم لا يفعلوا ذلك لأنّهم سيربحون فيما بعد ، ويبتعدوا ، ويتركوا آثامهم عن طريق وساطتك .

أقول لك من باب التحذير ، عندما يبعثون لك بالدعوات ، أو الهدايا اقبلها شريطة أن تقوم بتحفيزهم لما هو مفيد لإنقاذ أرواحهم من الرذيلة ، إذا وجّهوا لك الدعوة للطعام فاذهب إلى هناك ، وعند العودة ادعوهم لأداء اعترافاتهم لك .

أوصي بعدم قبولك لأيّ شيء ، فإنّني لا أعني بأن ترفض حتّى الأشياء الصغيرة مثل الماء ، والأشياء المماثلة ، والتي إن لم نأخذها تتسبب في مشاعر بالعداء ، لا تقبل أخذ أشياء كبيرة ، إن قدّموا لك

كمّاً من الطعام لتأكله ، فستبعث به إما للمرضى ، أو السجناء ، أو أشخاصٍ آخرين هم في حاجة له .

اجعل الجميع يعلم أنّك ترفض الأشياء الصغيرة التي تتلقّاها ، وبهذه الطريقة سيصبح الناس أكثر تنويراً ممّا لو رفضت الأشياء ؛ لأنّهم سيعتبرونها كنوع من الإساءة عندما لا تقبل الهدايا الصغيرة التي يمنحونها لك ؛ يتسبب البرتغاليّون في الكثير من الاستعداء عندما يرفضون كل شيء .

أمّا فيما يتعلّق بمكان سكنك ، فعليك التفكير فيما تراه أكثر مناسبة :

في المستشفى ، في الدار المقدّسة للرحمة ، أو في كوخ بالقرب من الكنيسة .

إن حدث واتّصلت بك من "اليابان" فعليك الكتابة للقسّيس لتلك الدار تقول له أنّ عليه توفير بعض الأشخاص المناسبين لراحة سكّان تلك المدينة ، والقيام بأعمالك .

ابعث بنسختين ، أو ثلاث من هذا في السفن التي ستبحر من هناك .

أخيراً ، أوصيك قبل كلّ شيء أن تهتمّ بنفسك ، وتتذكّر أنّك عضو في جمعيّة يسوع ، عندما تتعرّف على البلاد فإنّ الأمور التي ستمارسها ستفيدك ، وتعلّمك الكثير عمّا يمكن تقديمه في خدمة الربّ ، وهو أكثر الأمور أهميّة .

اذكرني دائماً في صلواتك ، وفي صلوات متردّدي كنيستك .

في نهاية الأمر أثق بأنّك ستقرأ هذه المذكّرة كلّ أسبوع ، حتى لا تنسى ما أوصيك به كثيراً .

"فرانسيسكو"

وفي العام نفسه (١٥٤٩م)

بعث "لوبو هيرتادو دي ميندوزا" "Lopo Herotado de Mendonca" رسالة إلى الملك "شارلز الخامس" "Charles V" وملكة إسبانيا ، بشأن تحصين "جبل طارق" و"مليلة" ، ووفاة "دوم جواو دي كاسترو" "D . Joao de Castro" ، ونجاح تركي في الهند ، والمعاهدة مع فارس بخصوص مضيق هرمز في خطر ، "لشبونه" في الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٥٤٩م ، ويذكرهما باحتلال الأتراك لعدن والبصرة : (٧)

أصحاب السيادة ، والسموّ ، النبلاء

مرفق مع هذا الردّ لسموّك من عظمة الملك "جواو الثالث" ملك البرتغال ، الذي طلب مني الكتابة لسموّك ، مثل ما طلب في السادس من الشهر ، ويتعلّق بقراره بخصوص موضوع "شافير" ، وبما أنّني أبعث لسموّك بنسخة ممّا كتبت لجلالته فإنّني لن أكرّر ذلك هنا .

---

(٧) رقم الوثيقة والهامش.

يقول الملك في "سيرين" أنّه وافق على ما تطلبه سموك من "كوندي دي بتنديلا" "Conde de Betandela" و"دوم بيرناردو دي ميندوزا" "D . Bernardo de Mendonca" ، على أن يذهبا إلى "جبل طارق" و"مليلة" ، ويعملا على تحصينهما ، وأن تتعاملا مع ملك "فيليز" أو "الأليد" حتّى يحصلا على الصخرة .

إنّه يشكر سموّك على كلّ المعلومات التي أمرت بتسليمها له ، وأيضاً على إرسالهم لرؤية قلعة "سينار" وأماكن أخرى تعود إليه ، حيث قدّموا رأيهم إلى "دوم ألونزو دي نورونها" "D . Afonso de Noronha" ، وها أنا أبعث به إليك .

وصلت سفينة من بلاد الهند مع أنباء بوفاة "دوم جواو دي كاسترو" ، الذي كان رجلاً عظيم المكانة ، وسيفتقده الجميع بشدّة ، خاصّة في هذا الوقت الذي تتوفّر فيه أخبار بأنّ الأتراك قد كسبوا من المسلمين بلدة تسمى "أدام" (عدن) ، وتقع بالقرب من بلدة أخرى استولوا عليها العام الماضي تسمى البصرة .

وكلا البلدتين تقعان في جزء من المضيق حيث يمارس البرتغاليّون تجارتهم ، وملاحتهم ، وعلى وجه الخصوص إلى هرمز التي تقع في فارس ... ، وأكثر الأماكن ربحية يمتلكها الملك في "سيرين" تقع في تلك الأنحاء ، ويقال إنّ هذه التجارة ستضيع ، أو تصبح أكثر صعوبة ، ويصعب الاحتفاظ بها ، وتكون غير مربحة .

للأتراك اثنتا عشرة سفينة في ذلك الساحل مع العديد من الرجال . من المؤسف جدّاً أنّه وبالرغم ممّا قيل عن قدوم سبع سفن تجارية

محمّلة تماماً بكلّ شيء في هذه السنة إلاّ أنّ أيّاً منها لم يصل حتّى الآن .

أجابت رسالة سموّك بتاريخ السادس والعشرين من شهر يونيو عن رسالة الملك في "سيرين" ، وقد أطلعته أنّ سموّك قد طلبت منّي إرسالها ، وقد أخبرني أنّه سيراها ، وردّ في الحال بأنّ الرجال الذين تمّ حجزهم في السفينة قد تمّ تحريرهم شريطة أن يقدّموا أنفسهم في بلاط سموّك انتظاراً لأيّ قرار يصدر من ناحية قانونيّة ، قدّمت السفينة ، وكلّ المحتويات كضمانة .

عندما يردّ على الملك سأكتب مطوّلاً لسموّك .

لم أتسلّم الرسالة الأخرى التي ذكرتها لسموّك ، والموقّعة من قبل أعضاء المجلس ،

كما لم يردّ البطريرك للرسالة التي كتبتها له عندما علمت أنّ السفينة قد تمّ الاستيلاء عليها .

ليحمي الربّ روح سموّك ، ويزيد من عمرك ، ودولتك .

من "لشبونه" ، في الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٥٤٩م .

وفي العام نفسه (١٥٤٩م)

جاءت رسالة تتعلق بالأب "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" إلـى اليسوعيّين المقيمين في "غوا" "Goa" هرمز في شهر سبتمبر عام ١٥٤٩م ، وذكر فيها وصف هرمز والأوضاع هناك : (٨)

تعطّل كثيراً خلال رحلته البحريّة لنقص الطعام ، والمياه ، وبسبب اللصوص الذين هاجموا سفينته في الطريق ، وقد أجبر على رفع السلاح .

تقع إحدى قلاع الملك في جزيرة هرمز هذه .

البلاد حارّة جداً حتّى إنّ البرتغاليّين يتحرّكون عراة على الطرقات ، وفي معظم الأحيان يغمسون أنفسهم في صهريج من المياه .

تغطّي الأملاح الأرض ، وتملأ أجواءها الرذيلة بدرجة كبيرة ، وكانت هناك حاجة ماسّة للأخ "غاسبار" في تلك البلاد ، ولكثير من الآخرين .

يقوم بالوعظ ثلاث مرّات في الأسبوع ، يوم الأحد ، الأربعاء ،

(٨) رقم الوثيقة والهامش.

والسبت ، يقدّم التعاليم الدينيّة كلّ يوم للشباب ، والزنوج ، ويدعوهم مرّتين يومياً عن طريق قرع جرس صغير خلال سيره عبر الطرقات .

في البداية رشق بالحجارة في مناسبتين من قبل المسلمين .

يقيم الندوات في أيام الأحد مع اليهود في معابد اليهود ، وهو يستحوذ على مشاعرهم بدرجة كبيرة .

له نفس التأثير على المسلمين ، وقد تحول الكثير منهم إلى مسيحيّين ، ويسمونه السيّد "غاسبار زاكارياس"(أ) .

يتجمّع حوله المسلمون ؛ لأنّهم يرونه يعيش كرجل فقير ، يقدّمون له بعضاً من ملابس وَبَر الجمال التي يرتدونها ، لكنّه لا يرغب في قبول أيّ شيء .

يحبّه القائد كثيراً(ب) ، كما يحترمه البرتغاليّون ، والمسلمون ؛ لأنّهم في خلال تعاملاتهم مع القائد ، فإنّ السيّد "غاسبار" هو داعمهم الوحيد .

تقع هرمز في فارس ، وهي منطقة ضخمة جداً ، على مسافة اثني عشر فرسخاً خلف هرمز تقع منطقة ذات ثلج دائم ، والتي يقال إنّها على مسيرة شهر من القدس ، بها كلّ الأجناس ، مثلاً : الفرس ، الأتراك ، الروس الذين على حدود شمال ألمانيا ، الجورجيّون طوال الأجسام مثل الألمان ، البراهمانيّون الذين يبدو أنّهم ينتمون للعنصر اليهوديّ ، الجزجرانز ، وهناك طوائف وثنية أخرى ، أحباش ؛ وهم

(أ) يثني القرآن على "زكريا" ، والد "يوحنا" المعمدان .

(ب) كان القائد في ذلك الوقت هو "دوم مانويل دي ليما" .

مسيحيّون تابعون لـ "بريستر جون" "Presteer John" ، يهود قشتاليون عديدون جاءوا إلى هنا عن طريق البندقيّة .

بين الأخيرين يوجد عالم للإنجيل يدعى "سليمان" ، وهو يحاضر مع السيد "غاسبار" .

في كلمة واحدة هناك تقريباً كل أمم العالم هنا .

يوجد في هذه البلاد الكثير من الناس الذين يقرضون الآخرين بالأموال .

كلّ الخيول المتّجهة إلى الهند تغادر من هنا .

يوجد بعض الأرمن في هذا المكان ممن يتجوّلون في ملابس المسلمين (مع أغطية الرأس) إلاّ أنّهم يعدّون مسيحيّين ، وهم عادة يغيّرون أزياءهم ، وعاداتهم في أيّ بلد يذهبون إليه ، كما يتحدّثون العديد من اللغات ، ذهب اثنان من هؤلاء في إحدى الليالي للسيّد "غاسبار" ملتمّسين منه أن يذهب ليتلقّى اعترافاً من أخ لهم كان على فراش الموت ، ذهب إلى هناك في منتصف الليل حيث توفّي الرجل بعد أن ألقى باعترافه ، ودفن في قبره .

يوجد عدد ليس بالقليل من النسّاك في هذه البلاد ، ينظر إليهم كرجال أصحاب قداسة (يحترمهم الناس جدّاً) ، يعيش الكثيرون منهم يغطيهم الرماد في كهوف تحت الأرض ، يأكلون الرماد عندما تسألهم : لماذا يفعلون ذلك؟ فيجيبون بأنّ هذه هي المادّة التي خلقوا منها ، يؤلّهون ثالوثاً مقدّساً : الأب ، الابن ، والشبح المقدس[أ] ، كلّ من أولئك النسّاك جاهزون .

(أ) من الواضح أن هذا إشارة إلى "تريمورتي" ، المكوّن من "براهما" ، "فيشنو" و"سيفا" .

وفي انتظار ظهور زعيمهم ، ويقال : إنّه عند ظهوره ؛ فإنهم جميعاً سيصبحون مسيحيّين ، عندما يحتاجون للطعام ؛ فإنّهم يقتربون من المدينة حاملين بوقاً ، ويعلنون أنهم يريدون الأكل ، ليس عليهم الدخول ، لذلك ينفخون في البوق حتّى يؤتى لهم بالطعام ، وهم لا يحتفظون بما تبقّى من الطعام ليوم آخر .

عند وصول السيد "غاسبار" كانت الجزيرة تعاني من هزّات أرضيّة في ثلاثين مناسبة ، حيث حدث بعضها أربع مرّات في اليوم ؛ بسبب ذلك ، وبسبب آثام البلاد أصبح السكان أتقياء بطريقة كبيرة ، ممّا دعا الرجال لهجر عشيقاتهم ، والتمسوا المغفرة ، وهم جاثون على ركبهم في الكنائس المليئة بالناس ، منتقدين أنفسهم ، ويجلدونها أجسادهم .

عندما طلب من أحد الرجال المخلصين من بين العديدين منهم بأن يجلد نفسه بالسوط كنوع من الكفّارة ، قام في الحال بعمل ذلك ، دخل الكنيسة التي كانت ممتلئة يوم الأحد بالمتعمّدين ، وأراد أن يكشف عن خطاياه إذ لم تكن بيّنة جليّة ، صرخ عالياً طالباً للرحمة ، وجلد نفسه حتى نزف الكثير من الدماء ، ركض الكاهن[أ] لمساعدته .

الناس تعترف كلّ يوم ، وغالباً ما يتلقّون الصلاة المباركة في أيّام الآحاد ، حتّى يتمّ صلاح كل هذه البلاد ، يذهبون كلّ يوم أحد ليستمعوا لوعظه ، في إحدى المناسبات ذهب أحد المسلمين التابعين لملك البلاد للاستماع إليه دون أن يكون قادراً على الكلام ، أو فهم

(أ) كان اسمه "أنطونيو دي مورا" .

اللغة البرتغاليّة ، عاد للمك ليقدّم له بياناً عن كلّ شيء ، كان ذلك الرجل خادمه ، طلب الملك استدعاء السيد "غاسبار" أمامه ، لكن القائد منعه من الذهاب .

يقضي الليل في حالة عَوَز داخل كوخ من أعواد القصب داخل المستشفى ، القساوسة الذين هناك بأمر من الأسقفّ تمّ تحويلهم وإصلاح أوضاعهم ، يذهب الجميع كلّ سبت في موكب ، يلقون الابتهالات ويغنّون (لضريح) العذراء الذي يبعد نصف فرسخ عن هذه الجزيرة .

كلّ ما تحتاجه الجزيرة من موادّ إعاشة يأتي من داخل البرّ الرئيسيّ ، كلّ أنواع الفاكهة ، الطيور ، وحيوانات الصيد ، تماماً مثلما في البرتغال ، أيضاً العديد من أنواع الحيوانات ، والطيور ، توجد الكثير من حقول النخيل في هذه البلاد التي تنتج كميّات وافرة من التمور ، يوجد بينها ذكر نخيل لا يحمل ثماراً إلاّ أنّه يلقى شهرة كبيرة .

لأنّ كلّ الأشجار الأخرى تتقدّم له بهذه الطريقة : (في يناير وفبراير ؛ وهو الفصل الذي تبدأ فيه هذه الثمرة بالظهور) يؤخذ غصن من الشجرة الذكر ، ويمرّر به على كلّ النخلات الأخرى ، يتمّ التلاقح بهذه الطريقة ، وتظهر الثمار بعد فترة ، النخلات التي لم تلمس بهذا الغصن تفقد ثمارها في تلك السنة ولا تثمر[أ] .

(أ) الأب الجليل "ويكي" يختار هذا النص إشارة إلى "apropos" من هذه النخلة "Phoenix Lifera" والنص التالي من Blatter, S, J . . في العمل : "أشجار نخيل الهند البريطانية وسيلان" ("همفري ميلفورد" ١٩٢٦م) .

٢٤ – ٣٧ : "أزهار الشجرة الذكر مع البذور المغلّفة في كيسها تقطع من الشجرة عادة قبل أو بعد انفجـار الكيس ، تحتوي الزهـرة الواحدة على مائة من الأفرع الصغيرة التي تحمل حبوب اللقاح التي تقوم بتخصيب كلّ زهرات الشجرة الأنثى" .

Documenta Indica I, PP 502 - 7.

الأشياء التي حدثت للأستاذ "غاسبار" في هذه البلاد لا نهاية لها ومن الصعوبة الكتابة عنها بالتفصيل .

وفي العام نفسه (١٥٤٩م)

بعث الكاهن "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" رسالة إلى اليسوعيين المقيمين في الهند و"أوروبا" ، هرمز في الأول من شهر ديسمبر عام ١٥٤٩م ، جاء فيها شرح واف عن هرمز وبلاد فارس والأتراك : [٩]

لم يتوفّر لديّ الوقت الكافي ، والورق ، والحبر ، أو الفرصة كي أكتب بالتفصيل عن الأحداث التي وقعت هنا فيما يتعلّق بمجتمعنا ، فالمجد للمسيح الذي أثبت في كلّ الأحوال إنّه النصير ، والعاصم لمجتمعه[أ] .

ففي أيّ مكان آخر نجد رهباننا ، وكهنتنا الأعزاء ، يكتبون بإسهاب ،

(أ) تمكّنت هيئة الوثائق من نشر نسختين من هذه الوثيقة الهامّة والتي لا توجد منها هنا سوى النسخة الأولى فقط ، وكما يحدث في جميع الوثائق الأخرى تجد أنّ الملاحظات التي أخذت من هذه المجموعة قد تمّ توفيرها بواسطة المحترم الكاهن "جوميز ويكي" "Gomes Wiki" من كنيسة القدّيس "جون" .

---

(٩) رقم الوثيقة والهامش.

وبتفصيل ، بحيث إنّ كلّ فرد من الذين تفرّقوا وسط الوثنيّين ، مأمور بتوجيهات الكاهن "فرانسيس" راعينا الأمين ، الذي ندين له بالطاعة ، والولاء ، واتّباع تعاليمه الدينيّة ، فمنه-وليبارك الربّ اليسوع-يجب أن نحرص على أخذ التعاليم حتّى الممات ، وخصوصاً شخصي ؛ لأنّ نقائصي معلومة لكهنة هذا المحفل المقدّس .

لولا أنّني أجد نفسي مجبوراً على الطاعة لوجدت نفسي خجِلاً من كتابة ما كتبته في العام الماضي ، وأكثر منه هذا العام عندما أُمرت بسَوْق الحديث عن تفاصيل الأشياء التي تحقّقت لنا بفضل الربّ ، وقد أصبحت مجبراً على فعل ذلك ليس امتثالاً وإذعاناً ، وإنّما بسبب أنّني لم أخفق في الاغتباط فيما يجب أن أكتب فيه ، حيث إنّني خفت أن يتسبب ذلك في إحداث تنسّك ، وتعبّد عظيم .

ليس بمقدوري أن أتجرّأ بالكتابة بشيء من التفصيل حسبما أُمرت ؛ لأنّني لست قادراً على ذلك ، لأنّ عقوبات الربّ هي مثل هاوية بلا قرار ، بل هي على الأقلّ حفرة عميقة مخفيّة عنّي ، مناشدات تغور بعيداً في مجاذيف الشلالات[أ] ، ولسوف أفعل هذا بشكل عامّ وفق قواي .

عندما كنت في "كوتشين" في العام الماضي مع الكاهن المعلم "فرانسيس" ، كتبت بإسهاب للكاهن "لويس دا غرا" "Luis da Gra" عن تفاني ، وتعبّد صدّيق ، راعي الأبرشية ، الكاهن "أنطونيو جوميز" ، وكان قد أرسلت إلى "شالي" لأجل تأسيس مدرسة لتعليم الرهبان

(أ) CF . PSALM Xl1,8.

الناشئة الذين أرسلوا إلى "غوا" لتعزيز معارفهم الدينيّة ، وتطوير قدراتهم كي يكون لها مفعولها في أواسط الوثنيّين في "كاليكوت" و"تانور" وجميع مناطق ساحل "مالابار" .

هذا وقد تمكّنت من الحصول على سبعين "بارداو" كصدقة كي أبدأ بها هذا المشروع ، وأيضاً على بعض المساكن كي نقيم فيها بحريّة ، وحديقة مسوّرة بحيطان مبنيّة من الحجارة ، والكلس ، وهي مناسبة لأيّ شيء .

غير أنّ المعلّم الكاهن "فرانسيس" "Francis" لم يرغب في ذلك ، إذ إنّ عددنا مازال قليلاً ، وقد أرسلني من هناك إلى "غوا" ، كنّا قد قضينا تلك الليلة مع الرهبان الفرنسيسكان ، الذين عاملونا بكلّ احترام ، وحبّ ، وكأنّنا إخوة لهم في نفس الإخوانيّة .

عدنا أدراجنا من هناك إلى "غوا" ، حيث أعطاني الكاهن "فرانسيس" الكثير من العمل لإنجازه ، حيث وضع على عاتقي عبئاً ثقيلاً لا قِبَلَ لي به ، إذ إنّه يعتقد أنّ بوسعي فعل كلّ شيء ، وفي النهاية قدمت التماساً لسيّد "غوا" ، الكاهن "فرانسيس" ، وذلك كي يستشعرا عجزي ، ويزيحا عنّي ذلك النيّر الذي يخنقني ، والمجد للربّ .

لقد قرّر إرسالي إلى هرمز ، وهي مملكة داخل فارس ، تقع في الخليج الفارسي بين الجزيرة العربية وفارس ، وهي منطقة لم يزرها قطّ ، وكان بودّه أن يزورها لولا ظروف رحلته المزمعة لـ "اليابان" ؛ لأنّه قد سمع أن خطايا عظيمة ، وشروراً تحدث ، وترتكب في هرمز .

في هذه البلاد تكون الحرارة في فصل الصيف لاهبة ، وشديدة ، لا

يمكن مقارنتها بأيّة منطقة في العالم ، وبالنسبة للذين كانوا في "مينا" ، و"استومي" ، و"غينيا" ومنطقة "مليندي" الواقعة جنوب خطّ الاستواء ؛ فإنّهم يشيرون إلى أنّه لا مجال لمقارنة حرارة هذه المناطق الشديدة .

اكتشفت أنّني لم أر قط منطقة أكثر قحلاً ، وجفافاً ، بسبب شدّة الحرارة التي تسببها الرياح الحارّة ، فهذه الجزيرة مالحة بأكملها ، وهناك أنهار مالحة المياه تنهمر باستمرار ، وهناك تلال ملحية تضارع الجبال ارتفاعاً ، لكن ملوحتها مفرطة بحيث إنّها إذا ما استخدمت لتمليح اللحم فسوف تجعله صلباً متخشباً ، وهكذا فمن الصعوبة بمكان تناول أي غذاء مملّح ، وما يكاد المرء يتمكّن من إزالة أيّ تلّ ملحيّ في أيّ منطقة حتّى يتكون تلّ ملحيّ آخر في نفس محلّه .

أمّا في فصل الصيف فالأنهار تصبح صلبة تماماً ، كتلك الموجودة في "فلاندرز" في فصل الشتاء ، وهم يطلقون عليها اسم ملح الصخور .

توجد في هذه الجزيرة العديد من مناجم الكبريت ، وقد روي أن الجزيرة قد ظلت تحترق مدة سبع سنوات ، وقد شوهد في السنوات القليلة الماضية أحد الجبال وهو ما يزال يحترق ، فالجبال في هذه البلاد تبدو على هيئة صخور من الجير المحروق .

الغطاءات الخضراء ، والأشجار يندر وجودها في هذه الجزيرة باستثناء شجيرات قليلة من أشجار الأناناس ، وهناك حوالي ثلاث شجيرات ، أو أربعة لم يطلها الملح ، وباختصار ؛ فهي منطقة جافّة قاحلة ، كئيبة خالية من أسباب ، ومقومات الراحة .

أيضاً حدثت بعض الهزّات الأرضية خاصّة في هذا العام منذ

وصولي ، وهذه تمثّل مصدر الرعب بالنسبة للمسلمين ، والمسيحيّين الذين يقولون إن سببها الآثام والخطايا ، وحقيقة إنّني أؤمن بذلك ، إذ إنّ الهزّات تحدث عادة في أوقات غير تلك التي يتكهّن بها علماء الطبيعة .

توجد على أرض هذه الجزيرة واحدة من أكثر مدن العالم ازدحاماً بالسكان ، وهي عاصمة المملكة التي يتّخذها الحاكم مقرّاً لسكناه ، وهو الريّس شريف ، الذي أُخذ أسيراً في "مونتيمور" "Montemore" من البرتغال[أ] .

يعتبر هذا البلد من أغنى بلدان العالم ، وعلى أرضه تعيش مجموعات من الناس تنتمي لجميع أمم العالم ، فهناك المسلمون بمساجدهم الرائعة ، والوثنيون ، واليهود الذين تواجدوا هنا منذ الاحتلال الثاني لـ بابل ، واستقروا في المنطقة ، فالمسلمون ، والأتراك يعيشون جميعاً كما يحلوا لهم ، وهنا توجد الأعياد في أربعة أيام في الأسبوع ، فللوثنيّين يوم الاثنين ، والجمعة للمسلمين ، والسبت لليهود ، والأحد للمسيحيّين ، وبالتالي يبدو أن كلّ يوم بمثابة يوم عيد ، والحمد للربّ ، فالصياح الصادر من المآذن يزعجني ، ويسبّب لي مشاكل كثيرة في الليل .

يوجد في هذه المدينة العديد من مختلف سفراء البلدان ، وقد قدموا

(أ) لم يكن الريّس شريف نور الدين هو الحاكم على هرمز ، وإنما كان "الجوازيل" أو الوصي على العرش ، فقد كان الملك يعرف باسم توران شاه الثاني ، ريّس شريف كان في الحقيقة نزيل أحد السجون في البرتغال منذ عام ١٥٢٩م وحتّى عام ١٥٤٥م .

إلى هنا عن طريق الميناء ، ويحصل كل واحد منهم على كوتة من الأدوية من الجزيرة العربية ، ومن الصحراء على جانب البحر الأحمر .

تقع تلك البلاد بالقرب من بابل التي تسمى الآن بغداد ، والتي انتزعها كبير الأتراك من السلطان العظيم حاكم بابل المعروف باسم شاه "طهماسب" ، والذي تربطنا به علاقات وديّة طيّبة ، وقد كان دائم التجوال في معظم أنحاء البلاد تماماً كما يفعل البدو ، ويستخدمون في حربهم الرماح ، والأقواس ، ويقاتلون بضراوة خاصّة التركمان ، وهو السيد الحاكم في "سوريا" بأكملها ، ويخوض حرب طويلة ضدّ كبير الأتراك ، والآن أمر بضرورة مواصلة القتال ، وهدم جميع القلاع الموجودة على البرّ ، وتدميرها ، وأمر بمواصلة القتال .

هؤلاء فلاسفة كبار في هرمز ، ودكاترة .

هؤلاء من حملة الدكتوراه ، وعظماء الفلاسفة في هرمز .

ويمكن تشتري "المانا" هنا-وهذا نوع من السقط يوجد في أماكن بعينها في فارس ويبدو أشبه بفاكهة مسكرة غير أنّ هذا لا يتوافق مع الوصف الذي ورد في المخطوطات-

يلاحظ أن نهري "الفرات" و"الفيسون"[أ] يصبّان في هذا الخليج الذي نوجد فيه الآن ، ويجرى نهر النيل في وسط "مصر" ، بعدما ينشأ ويتكوّن في بلاد "بريستر جون" ، وفي "مصر" يصبح أكثر فيضاناً ، وتصبح المنطقة شهيرة بوجود التماسيح ، أمّا في فصل الصيف فيصبح

(أ) هذا نهر "دجلة" وكان يسمى نهر "فيسون" في العهود القديمة .

أكثر تلوّثاً وقذارة ؛ لأنّ هذا الوقت يوافق حلول فصل الشتاء في رأس الرجاء الصالح حيث يصعد حينها في بلاد "البريستر" ، ويصبح رائعاً في "مصر" في فصل الشتاء ؛ لأنّ ذلك يصادف حلول شهر الصيف في "رأس الرجاء الصالح" .

أمّا نهر الغانج فإنّه ينبع في "البنغال" في الهند أي : تلك المنطقة التي قيل : إنّ الإسكندر الأعظم قد وصل إليها ، ومن ثَمَّ قفل عائداً ؛ لأنه وجد مقاومة صلبة من أهالي المنطقة أجبرته على العودة ، يبدو أنّ معابد "الفانتي" و"كناري" قد بنيت بأيدي رومانيّة ، وسوف يقدم الكاهن "بلشيور غونسالفس" "Belchior Goncalves" مزيداً من المعلومات عن هذه المنطقة بحكم وجوده داخل البلد ، وهنا أصبحنا بالقرب من صحراء الجزيرة العربية .

لقد صمّمت أن أكتب إلى سلطان بابل العظيم ، واسمه "شاه طهماسب" ، إذ يقال : إنّه رجل ذو عقل راجح يمكنه تحدّي أكثر الرجال علماً ، فيما يختصّ بمعتقداتهم حول الخرافات في ديانتهم ، وتكامل ، ودقّة ديننا ، أو طلب الإذن منه بالذهاب إلى هناك ، أو أن يعمل على إرسال أحد رجاله للزيارة ، وأيضاً عن الروس ، والبولنديّين ، والمجريّين ، والأرمن الذين يجدون منه معاملة قاسية برغم استمراره في أخذ الجزية منهم .

من هناك من هرمز تمّ إرسال السفير البرتغاليّ مع مجموعة من البرتغاليّين ، وعندما وصلوا في بلاط السلطان كان أحد المطارنة المسيحيّين من تلك الشعوب قد كتب إليهم طالباً منهم ، حبّاً في

المسيح ، أن يتجّهوا للموقع الذي ينتظرهم فيه ، وأنّه يرغب بشدّة في رؤيتهم بحكم أنّهم مسيحيّون .

كانت الرسالة التي كُتِبَت بخطّ لاتينيّ رديئة ، ولم يكن بين جميع أولئك البرتغاليّين من له معرفة باللغة اللاتينيّة ، وبالتالي فإنّهم لم يذهبوا .

هناك الكثير من الأسرى ممّن يؤتى بهم هنا بين المسيحيّين ؛ لأنهم يعرضون واحداً من كلّ عشرة أطفال كجزية يقدّمونها للحاكم التركيّ ، ولقد بذلت الكثير من الجهد في هذه البلاد كي أوجد تصالحاً بينهم وبين الكنيسة .

في الهند أرسلت بعضاً منهم إلى مدرسة "إس باولو" ، وعملت نفس الشيء بالنسبة للقوات الإنكشارية التي وجدتها هنا ، والعديد من الأحباش من بلاد "بريستر" الذي أمكنني استيعابهم في المسيحيّة ، إذ إنّني لم أكن راضياً عن تنصيرهم ، وبعد ذلك عملت على تحريرهم ، وأصبحوا مسيحيّين ، والحمد للربّ .

هناك أعداد كبيرة من الأسرى هربت من الأتراك ، والإيطاليّين ، واليونانيّين ، وبعض المرتدّين ، وآخرين ، ولقد استقبلتهم جميعاً في الكنيسة ، ومن ثَمَّ أرسلتهم لـ الهند بعون الربّ .

إنني أرسل الآن لمدرسة "إس باولو" أحد مواطني "جنوة" وهذا الرجل ظلّ مرتدّاً مدّة تجاوزت عاماً ، وإنكشاريّاً ، وأحد الجنود البحّارة من جنود الحاكم التركيّ ، وقد شاءت إرادة الربّ أن يترك كلّ ماله ، ويهرب إلى هرمز ، وهأنذا أرسله لأجل المصالحة ، وأكتفي بهذا القول ولا أزيد .

أمّا ملك هرمز فهو أكثر تأثّراً بالهداية .

عودة إلى حكايتي ، أشير إلى أنّني أبحرت قبل أن يغادر الكاهن "فرانسيسكو" إلى "اليابان" حيث وصلت الى هرمز ، وكنت أقوم وأنا على متن السفينة بالتبشير في أيّام الأحد ، حيث أقوم يوميّاً بتدريس الأسرى ، والشبّان المسيحيّين العقيدة يوميّاً في الصباح ، والابتهال في الليل ، وكذلك الطقوس ، والشعائر الدينيّة في أيام السبت ، حتّى تمكّن معظمهم من الاعتراف ، والجهر بالإيمان ، الأمر الذي أثار دهشة المسلمين ، والملحدين ، واليهود ، وأعجبوا بهذا التنسّك ، غير أنّنا نختلف مع اليهود فيما يتعلّق بعيد الفصح .

كان هناك شابّ تمّت هدايته ، ومعه ثلاثة ، أو أربعة من المسيحيّين الذين لم يتمّ تعميدهم .

تلك الرحلة استغرقت من الوقت حوالي شهرين عانينا خلالهما الجوع ، والعطش ، وكثيراً من الأخطار في مضيق مكة ، لكن شاءت إرادة الربّ أن نصل سالمين للميناء .

وصلنا في قلهات ، وهي مدينة تقع على ساحل الجزيرة العربية ، حيث وجدنا هناك عدة بساتين للنخل ، وعلى مبعدة مسافة ميلين وصلنا إلى نهر توقفنا هناك للنزول ، ووجدنا مجموعة من العرب يقيمون في تلك المنطقة ، هذا وقد أبدى مرافقي "ريماو بيريرا" "Rimao Perriera" رغبته في البقاء لتحقيق بعض الإنجاز ، وتعميد مجموعة من الناس المقيمين على ضفة النهر ، لكنّي لم أوافقه على ذلك حيث سيبدو الأمر وكأنه غمرة من الحماس .

أيّها الإخوة الأعزّاء أرجو أن يأخذكم الحماس الروحيّ في اختبار الروح كي تروا ما إذا كانت من عند الربّ ، ولتركّزوا اهتمامكم على الربّ ؛ فهو القادر وحده على تغذية أرواحكم ، أرجوكم فقط أن تتحلّوا بالطاعة ، وألاّ تتجاوز رغباتكم المطامع الكبيرة ، فهذا أفضل لكم ، وأبرك ، لا تؤمنوا بكلّ روح فيوماً ما سيأتي الوقت الذي تملّون فيه هذا الترحال .

لكن أعزّائي لو كنت أعلم بأنّني سوف أكون متنقّلاً هنا في الهند بين هذه الأراضي الصحراوية لكي أجد هذه المعاملة البربريّة ، لكنت طوّرت روحي ، ولما أهدرت كلّ هذا الوقت في المستشفى التي أصبحت أزورها بسبب شعوري الحسيّ .

آه! كم هم مختلفون جدّاً ، الحجّاج في موطني عن الموجودين هنا ، ويا لروعة شعائرهم التي تستمرّ شهراً بكامله ، سوف تجدون النُزل حتّى ولو كانت تضج بالبراغيث ، وأسِرّة تنامون عليها ، والأمل في العودة للمدرسة ، والإخوة الذين سوف يرحّبون بكم ، ويزيلون عنكم كلّ آثار التعب ، والاجهاد ، فمنظرهم يبعث على الراحة ، والاطمئنان ، وهذا يكفي ، لكن هنا لم أدرك ، وأستشعر معنى حبّ الرهبنة ، إلاّ بعدما وجدت نفسي خارجها .

بما أنّني لن ألقاهم مرّة أخرى قطّ سواء الموجودين في الهند أو جميع من يوجد في "أوروبا" ، وإذا ما سقطت هنا لن تجد من يساندك ، فهنا لا توجد سفرة للطعام ، ولن تجد قطّ سريراً تنام عليه ، أو منزلاً يأويك ، وإنّما النوم على السطح ، وسوف تجد هنا الليالي حارّة تفوق حرارتها الشديدة حرارة "غينيا" ، وهنا يُمنّي المتزوّجون البرتغاليّون أنفسهم

بالنوم في حوض كبير من الماء ، بحيث لا يظهر منهم شيء سوى الوجه طافياً فوق سطح الماء .

ويستلقون هناك على مدار اليوم يستمتعون بهواء المراوح ، والطعام ، بينما لا يجد إخوانهم الفقراء في جزيرة هرمز أيّ شيء من أسباب الراحة هذه ؛ لأنّه عندما تشتدّ الحرارة في النهار ، ويترتّب عليه العمل في حقل سيّده ، ويأتي في المساء لسماع الاعتراف ، لا يسمح وقته بساعة واحدة لمناجاة نفسه .

في "كويمبرا" تمّ تخصيص ساعات محدودة لأجل تناول الطعام ، معروفة لديك ، ولكن هنا لا حيلة لك ، هناك تجد الإخوان يلتفّون من حولك ، وهنا لا أخ لك ، ولا كتب ، ولا طعام ، ولا نوم ، لا ملابس ، ولا وقت ، ولا جمهور ، ولا حياة خاصّة ، فكلّ شيء يؤول للسيّد ، فأنا أفعل ما لا أرغب في فعله ، وما أرغب فيه لا يمكنني أن أفعله .

ليس هناك من شيء يستحقّ أن أفرح له ، باستثناء ما يتعلّق بصليب سيّدنا المسيح ، ففيه وحده خلاصي ، وشرفي ، ومجدي ، وإذا مرضت فهو نصيري ، ومصدر قوّتي ، فهو من سيبقى في حنايا صدري ، وداخل كياني .

لذا يجب أن لا تفزعوا من الابتلاءات التي وردت في هذه الرسالة ، وأيّة مِحَنٍ واجهتها ، فإنّني لست سوى جنديّ هزيل من جنود المسيح .

كلّ هذا يبدو قليلاً مقارنة بما أرغب ؛ لأنّ التأسية التي يقدّمها كتعويض عن تلك المعاناة ، تختلف كثيراً عن تلك التي في "كويمبرا" ، فالابتلاءات هناك محيّرة ، ومربكة ، تؤدّي للإلهاء ، وشرود الذهن ، لأنّك لن تجد

سوى الربّ للاعتماد عليه ، فأنت مضطهد من العالم أجمع ، بشرف ، أو بدون شرف .

فهم من يشفقون عليك ، ويعذّبونك ، فالشيطان لا يمنحك أيّ وقت كي تجد حلولاً في الشهادات ، ففي المدرسة تحسّ أنّك أكثر صدقاً ، وأكثر تفانياً ، في خدمة الربّ ، وأكثر طاعة لدرجة البقاء ، وإلى جانب ذلك تحسّ بالحزن الذي يقلّل من ذلك التفاني ، لكن هنا لدينا المواساة ، والتأسية ، في الحنين ، وفي أرض جدبة غير مطروقة ، لا ماء فيها .

أيّها الأخوة ، فلتعِدّوا حقائب ضخمة من الفضائل ، لكي تكون زاداً لكم لمواجهة مثل ذلك الوقت ؛ لأنّكم ستجدون أنفسكم خاليي الوفاض منها فالأولى والأساسيّة منها ، هما : الخضوع والتواضع ، ومعرفة النفس ، والطاعة ، والفقر ، والعفة ، والحبّ ، وهذه هي السمات السائدة في الهند ، فالتواضع والخشوع هما معرفة الربّ التي تنبع من نفوسنا ، والطاعة هي العبودية التي تنطوي على مطلق الحريّة .

فالحرّ هو من ينقذ المطيع ، والفقر هو الغنى الحقيقي ، فمن هو الغني بحقّ إذا كان المرء فقير الروح والإيمان؟! والعفة هي مرآة يُرى فيها الربّ مجسداً في مخلوقاته ، فتمسّك فأنت على حقّ أيّها الحبيب ، تمسّك فالحقّ معك ، لك عينا حمامة ، والزوجة ترنو إليك بإعجاب ، وتفهّم ، لقد جرحت قلبي يا أختي ، يا زوجتي[أ] ، الأخت تقول : إنّ الفضائل مثله .

(أ) "الشاه طهماسب" ملك فارس في الفترة ما بين عام ١٥٢٤م وعام ١٥٧٦م .

إنّ آخر المناقب هي الإحسان ، إن رداء الربّ الخالق يكفي لتغطية كل الخطّائين ، والأشرار الموجودين في البلاد .

من هنا وصلنا إلى مسقط ، وهي مدينة أخرى في الجزيرة العربية ، حيث وجدت فيها مجموعة كبيرة من الثوّار البرتغاليّين الذين ظلّوا مقيمين وسط المسلمين لأكثر من عشر أو إحدى عشرة سنة دون أن تكون لهم ملّة دينيّة ، أو جهر بالإيمان ، وبالتالي قمت بالتبشير مرّتين في الميناء ، وذلك لسعادة نائب القائد في الخليج ، وللكثيرين من الناس .

وعندما انتهت الموعظة كانوا قد طلبوني لأجل الجهر بالإيمان ، وذلك تلبية لحاجة الكثيرين من الناس ممن ارتكبوا الجرائم ، وكانت هناك اعترافات عديدة بطلب من نائب القائد ، ومجموعات كبيرة من الناس ، اقتضت الضرورة تأجيل إبحار السفينة التي سوف أستقلّها في رحلتي .

هذه البلاد تعتبر ملجأ للأزواج الهاربين من زوجاتهم ، والزوجات اللاتي هجرن أزواجهن .

لقد ناسبني الأمر كثيراً عندما غادرت "غوا" أعطاني المطران الصلاحيّات ، وخوّلني للصفح في كل القضايا بالنسبة للموجودين في مقاطعة "كويتا" "Kowita" وكذلك الذين أوكلت لي السلطات عليهم ، وذلك لإجبارهم على احترامي ، كما هو الحال بالنسبة له شخصياً .

لقد استمعت إلى عشرين اعترافاً في قضايا مهمّة ، وخطيرة ، وتمكّن الأشخاص الذين كانوا يعيشون مع محظيّاتهم من طردهن من منازلهم ، والانفصال عنهن ، وأحمد الربّ كثيراً ، فهو الذي بعثني

لتلك الصحراء لهداية تلك الأرواح الضالّة ، كما تمكّنت من تحريرهم ، وتخليصهم من اتفاقيّات رِبويّة فاحشة ، كانوا قد عقدوها مع أولئك المسلمين ، ومنحتهم وسائل معيشيّة مناسبة .

طلب مني نائب القائد أن أسافر في إحدى سفنه من نوع "فوستا" "Fusta" غير أنّني آثرت استخدام سفينتي ، غادرنا تلك المنطقة متّجهين إلى هرمز ، وقبيل وصولنا للميناء تقدم مركبان يعملان بالمجاديف نحونا بسرعة شديدة ، وكان على متن أحدهما قائد حرس ملك هرمز "تريستاو دي أورتا" "Tristao d'Orta" الذي أرسل لي كميّة كبيرة من الطعام ، كما أتى القارب الثاني بكاهن هذه المدينة ، وجميع رجال الدين التابعين لها(أ) ، ألقيت بنفسي تحت قدميه مقبّلاً يديه ، وبالمثل فعل مرافقي ، وبقية أعضاء جمعية اليسوع ، وكانت لفتة وجدت كلّ التقدير والاحترام .

عموماً ، قادنا أولئك الكهنة إلى المستشفى ، والقلعة حيث استقبلنا القائد(ب) بكلّ التشريف ، والترحاب ، ورغب في إيوائنا في القلعة ، ومن هناك توجّهنا كي نأخذ قسطاً من الراحة مع الكاهن الذي دهش كثيراً عندما أخبرناه بأنّنا سوف نقيم في المستشفى ، وقد أخذنا إليه بكلّ سرور .

يبدو أنّ مطران "غوا" قد أمر الكهنة بأن يحيطوني بكلّ الاحترام الذي يكنّونه له ، وفي الحقيقة أخجلوني كثيراً لما قدّموه لي من هدايا ،

(أ) كان كاهن هرمز هو الأب "أنطونيو دا مورا" "Antonio de Mora" .

(ب) كان ذلك هو "د . مانويل دي ليما" "Manuel de Lima" .

وخدمات جليلة ، وظلّوا يرافقونني طيلة الوقت ، ولقد طلبت منهم حبّاً في المسيح أن يكفّوا عن ذلك ؛ لأنّ رهبنتنا لم تؤسّس كي تُقدَّم لها الخدمات ، وإنّما قامت أساساً لأجل خدمة العالم أجمع ، وإنّني في ظلّ آثامي رجل فقير لا أستحقّ هذا التكريم ، وطلبت منهم أن يتركوني وصحبي وشأننا .

حقيقة قدّموا لي الكثير من الملابس الحريريّة ، بحيث إنّني لم أعرف ما أقول خاصّة في وجود الكثيرين ممّن يعرفون أحكامنا ، وقد أخبروهم كيف هو أسلوب حياتنا ، فهو مختلف عن غيرنا ، وإنّنا لا نأخذ شيئاً من أيّ فرد بقدر ما نعطي للفقير ليس لأجل التبشير ، أو الجهر بالإيمان ، إذ إنّ ذلك من شأنه أن يربكهم كثيراً ، ويدفعهم لبدء حياة جديدة .

كان جمهور الناس الذين جاءوا لرؤيتنا كبيراً جداً ، بحيث أصبح المستشفى الذي نقيم فيه مليئاً بصفة دائمة ، وكان بعضهم جاء لكي يتلقّى النصح ، وآخرون للشكوى والتعلّم ، أمّا القائد فقد أمر بتشييد مسكن من القشّ على سطح المبنى .

في يوم الأحد التالي قمت بالتبشير ، وفي ضوء السمعة التي تتمتّع بها رهبنتنا ، فقد كان تجمّع الناس كبيراً ، وجميعهم يذرفون دموع الإيمان ، والورع ، والخشوع ، وبعد انتهاء الموعظة -بحمد الربِّ- كانت هناك المناقشات ، والاعترافات ، والجهر بالإيمان ، وكان عليّ أن أستمرّ في الاستماع لاعترافاتهم لساعات متأخّرة من الليل ، وفي ليلة واحدة بلغ العدد ستّة اعترافات .

كانت المواعظ قد حرّكت ، وأثارت العواطف ، بحيث بدا لي الأمر

وكأنّها كشف أسرار عظيمة ، وبرغم أنّه يمكنك أن ترى في ذلك نوعاً من التفاخر ، إلاّ أنّني حقيقة لم أستطع أن أهمل تفاصيل ما حدث هنا نتيجة تلك الاعترافات ، والمواعظ ، لأنّني أعرف أنّ ذلك كان مقصوداً بإخواني الذين يتحرّقون شوقاً لليسوع ، فالمواعظ الأولى كانت قد حرّكت الشجون ، والعواطف بقدر كبير ، وكذلك ما جاء بعدها ، فالمياه قادرة على جرف الصخور .

وكذلك كانت كلمات الربّ عندما شرعت في اكتشاف هذه البلاد ، وكيفيّة الحياة فيها ، تعجّبت كثيراً ، وصُعِقت ، معتقداً أن ما أُخبرت عنه أمر لا يصدّق ، وأخيراً عرفت - حسب وجهة نظري- أنّ هذه البلاد أكثر البلدان فساداً ، وكثيراً ما انتحبت بسبب ما تبيّنته من فجور ، وفسق ، فهنا تجسّدت لي الممارسات الشهوانيّة ، والبهيميّة في أسوأ صورها .

الآن ، وبفضل الربّ ، أمكنني بسبب الخوف الذي زرعته في قلوبهم من خلال تبشيري في تلك الأمور ، أن أقنع الكثيرين من المسيحيّين على تغيير أسلوب حياتهم ، فأكثرهم مذنبون بسبب الجهل ؛ لأن معظم المبشرين الذين جاءوا إلى هذه البلاد ، لم يعملوا في التبشير أكثر من مرّتين فقط .

هنا اختلطت مجموعات كبيرة من المسيحيّين بالمسلمين ، والأتراك ، واليهود ، والوثنيّين ، بحيث إنّهم لم يعودوا يعرفون أنفسهم ، ولعلّ ما يبعث على الحزن ، والأسى ، كثرة الأطفال المسيحيّين الذين أصبحوا مسلمين .

قد ساد الفسق ، والانحلال ، حتّى ظهرت الممارسات الخليعة ،

والإباحيّة ، بين البرتغاليّين ، ونساء المسلمين ، وبالتالي كان عليّ أن أطلب من القاضي النظر في تلك القضايا ، كي يأمر بأن يحرق كلّ من تثبت إدانته في مثل تلك القضايا .

كان هذا التحذير رادعاً بحقّ ، حيث توقّف العديد من الآثمين عن تلك الممارسات ، بحيث إنّهم في الماضي لم يعتبروها ذنوباً ، وآثاماً ، أيضاً لم تعُد هذه الممارسات مشاعة بين المسلمين ، كما كانت سابقاً ، كما هو الحال أيضاً بالنسبة للوثنيّين ، وكانت النتيجة اعترافات الناس الممزوجة بالبكاء ، والنحيب ، وقد كفّروا عنها بشكل جماعيّ ، وبهدف تطهير نفوسهم عند باب الكنيسة في أيّام الأحد ، والأيّام المقدّسة ، كما أنّها أيضاً دفعت بالقليل من الجهور لتطهير أنفسهم بشكل خاصّ .

كان هناك أيضاً من بينهم من شعر بالندم ، ورغب في تطهير نفسه أمام كلّ من في الكنيسة في يوم الأحد ، وظلّ يطلب الرحمة جهراً كي يطهّر نفسه من الآثام ، والذنوب ، وبعد أن يكشف آثامه حتّى يعلم العالم عن حقيقته ، يترتّب عليه أن يصلّيَ لأجل الخلاص ، وإنقاذ نفسه ، لكن لأنّه شخص نافذ ومحترم ، فإنّ كاهن الاعتراف لن يسمح بذلك ، وإنّما سيدعه يدخل بصمت وهدوء ؛ لأن هذا الإثم يُخشى عليه أنّ الاعتراف وحده لن يفيده ، ولن يكون كافياً ، وإنّما يجب أن يسامحه الربّ ، كي يكون مستعدّاً لتقديم كفّارات عظيمة .

الخطيئة الثانية التي اكتشفتها هنا هي بلوى الرِّبا في العالم بأسره ، فالرِّبويّون في هرمز أصبح لهم اسمهم في الهند ، فصاروا سادة هناك ، لكنهم يزجّون الناس في مآزق رهيبة ، ويبدو أنّ من أقصاهم الربّ

عن الكنيسة ، قد هربوا إلى هنا كي يستوطنوا في هذه المنطقة ، غير أنّ المتعاملين بالرِّبا ، والغشّ كانوا كُثراً ، بحيث تطلّب منّي ذلك جهداً كبيراً لأتعرّف عليهم ، ومازال الكثير منهم مجهولين بالنسبة لي ، وباختصار لا يوجد أسلوب آخر للحياة في أواسط المسلمين ، والمسيحيّين ، والوثنيّين ، واليهود غير ذلك الأسلوب .

هنا أحد الرجال يملك عشرة "بارداو" ويرغب في أن يقرضها لآخر ، وفي الحقيقة دأب هذا الرجل على البقاء معتمداً على هذا القرض طيلة العام ، بحيث إنّه يعود عليه بفائدة تقدر بمائة "بارداو" سنويّاً .

عموماً ، كنت قد أعددت نفسي لتقديم دروس في كلّ يوم أحد ، بخصوص عواقب هذه الممارسات ، وما يكتسبه كلّ شخص من ذنوب ، وآثام ، من خلال ممارسات الجشع ، والطمع تلك ، تماماً كما كنت قد فعلت في كاتدرائية "غوا" .

لقد قضيت مدّة ثلاثة شهور وأنا أقوم بتقديم هذه الدروس ، وكثيراً ما كنت أذهب للمتعاملين في تبديل الأموال عند فترة انتهاء القرض ، وأحسب أن دروسي التي ألقيتها في أيّام الأحد ، والأيّام المقدّسة ، قد عادت بالكثير من الثمار ، والفوائد ، أكثر ممّا توقّعت ؛ لأنّ التجّار عندما يعتزمون الذهاب للسوق أينما وُجِد الوثنيّون ، فإنّهم قبل أن يفكّروا في الربّ يفكّرون في الكيفية التي يخدعون بها جيرانهم .

لكن الآن أصبح كلّ همّهم في هذه الأمور هو تجنّب الخداع ، وإنّهم أصبحوا أكثر شعوراً بوخز ضمائرهم ، واعترافاتهم أمام كهنتهم ، وبقدرة الربّ على إخراس الألسن .

كان التغيير ملموساً ، وكبيراً ، وقد حدث أن مرض تاجر ثريّ ، وتلقّيت طلباً بالحضور لأجل الاستماع إلى اعترافاته ، وكذلك كان الحال بالنسبة للبعض الآخر ، ولكن بسبب انشغالي لم أتمكّن من الذهاب ، إلاّ إلى الناس الذين أحسست بأنّهم في أمسّ الحاجة إلى حضوري ، وعندما دخلت منزله سارع ذلك التاجر الثريّ بإلقاء نفسه عند قدمي متوسّلاً للاعتراف .

قبل الشروع في الاعتراف طلب منّي قائلاً : "أيّها الأب ، إنّني أعظم الناس إثماً في هذا العالم ، وأرغب في الخلاص من هذا الإثم لإنقاذ نفسي ، ففي الحقيقة لم يسبق لي أن اعترفت بشكل كامل ، إنّني أملك ثلاثة آلاف "بارداو" أضعها الآن تحت قدميك ، كما أملك الكثير من الأملاك ، والسفن .

هذا نوع من الرجال يتمثّل في شخصي أنا ، وإنني أخضع لك جسدي ، وحياتي الدنيويّة ، ولك حقّ التصرف فيها كما يحلو لك ، إنّني أرغب في الخلاص ، والنجاة لتصفو روحي من تلك الآثام ، وإنّني أتوسّل لك بحقّ الربّ ألاّ تضع أيّة اعتبارات لثروتي ، وممتلكاتي ، وجسدي ، فإن كلّ ما سوف تسمعه يجب أن يكون في سبيل إنقاذ روحي ، وتطهيرها ؛ لأنّني تركت لك أمر التصرفّ فيها" .

هذا الأمر لم يحدث فقط بالنسبة لهذا الرجل ، وإنّما للكثيرين غيره من التجّار الذين شرحوا لي كيف حصلوا على تلك الأموال الطائلة ، وكانت هناك ساعتها عائدات ضخمة بلغت ثمانمائة "بارداو" ، وللبعض الآخر ستمائة ، أو أقل .

لقد ترك ذلك انطباعاً كبيراً على المسلمين الذين قالوا : "إن هذا يعتبر عملاً عظيماً لهذا القسّيس" حيث أطلقوا عليّ لفظ القسّيس "ابن زكريا" والذين قالوا إنّه لا يوجد سوى ثلاثة منهم فقط في العالم ، وأنا واحد منهم . كان كثير منهم على استعداد للاهتداء ، ونتيجة لذلك قدم معظم المسلمين الذين أخطأوا مع المسيحيّين من خلال ممارسات الرِّبا للاحتكام للعدل .

اليهود اعترفوا لي أن قوانينهم تحرّم الرِّبا ، وأنّهم قد تابوا ، وانتهَوا ، ورجعوا عن تلك الممارسات .

الآن أتاني المسيحيّون لأخذ النصيحة في ذلك الأمر ، كي يعيشوا في سلام ، ويلقوا عن كاهلهم عذابات الضمير .

في هذا الوقت جاءني أحد أعيان المدينة يطلب منّي لوجه الربّ أن أهتم بأمر أسرته ، زوجته ، وأطفاله ، وخدمه ، وكلّ ممتلكاته ، وشخصه ، وعندما رأى أنّني ضحكت إزاء ذلك احتج قائلاً إنّه إذا ما غدا مستحقّ اللعنة فإنّها سوف تكون غلطتي ، وبالتالي كان لزاماً عليّ أن أعالج أمره ، وبعد اعترافه ، والوقوف على طبيعة عمله ، أخبرته بما يجب عليه عمله ، كان حجم أعماله التجارية ضخماً ؛ لأنّه يحوز على اثني عشر ألف "بارداو" كعائد سنويّ ، وسوف أعمل على إعطائه ، وزوجته ، أنشودة دينيّة ، وشعائر أخرى في هذه المدينة .

في هذا الوقت طلب منّي أعيان هذه المدينة أن آخذ أحد مفاتيح المصنع الملكيّ على أن يأخذ حاكم المدينة المفتاح الآخر ، وذلك

كإجراء أمنيّ ، لكنّني رفضت ذلك ؛ لأنّه ليس من صميم عملي ، ولا دخل لي في هذه الأمور الماليّة .

عـندما وضعت رحالي في هذه المدينة كان البعض الضالّ من سكّانها ، والضليع في الآثام ، والذنوب ، لا يتجرّأ على الاعتراف لأيّ شخص آخر غيري .

بالفعل كان من بينهم أحد الأشخاص ممّن أغواهم الشيطان ، لم يأت للاعتراف حتّى وقت مغادرتي ، لكن بسبب ملك الخير ، أتاه الإلهام كي يعترف لي ساعتها ، حيث أدرك الرجل حاجته الماسّة للاعتراف ، وفي النهاية أقدم على الاعتراف .

الأمر الذي جعلني في حيرة شديدة ؛ لأنّني أدركت أنّه من بين آلاف الاعترافات التي استمعت لها منذ انضمامي لهذا المجتمع ، جاء اعترافه هذا شاملاً لها بأكملها ، وزاد عليها ، والمجد للربّ وحده ، كان هذا الرجل قد قدّم كفّارة عن آثامه في الليل ، وتمّ الصفح عنه في صبيحة اليوم التالي ، عندما أغلق نفسه في قفص الدجاج[أ] .

كانوا قد أحدثوا شغباً ، وفتنة ، بحيث فزع ذلك الرجل ، وصار يتضرّع ، ويستجدي حتّى تحرّر ، ومن ثَمَّ صفحت عنه ، كان حقيقة قد أصبح مرعوباً من الجانّ ، ولأنّ الربّ قد شدّ من أزره بسبب ما قدّمه من كفّارة ، فقد تطهّرت روحه ، وأصبح الآن أشبه بالقدّيس ، وبعدها أبدى رغبة شديدة كي يرافقني في رحلتي لـ "الصين" كي يموت هناك حبّاً في الربّ .

(أ) تضمّنت النسخ الأخرى العديد من الخطط والفترات والأشياء السوداء .

أيضاً كان هناك نادم آخر ، أحدثت فيه الموعظة التي ألقاها الكاهن في رهبنتنا تأثيراً عظيماً ، وبعد الاعتراف التزم بتقديم كفّارات عديدة ، وهذا ما جعل الكاهن يقضي معه وقتاً طويلاً في مناقشته دون أن يصفح عنه ؛ لأنّه أحسّ أن الشرّ ما يزال مسيطراً على هذا الآثم ، اعترف بأنه منشقّ عن العقيدة ، ولم يكن قطّ مسيحيّاً ، وأنّه سوف يلتزم باحتفالات أيّام السبت ، والأحد ، ومنذ ذلك الحين أصبحت له مناقب ، وفضائل عديدة ، والحمد للربّ .

لوحظ هنا أيضاً وجود الكثيرين من الرجال مع المحظيّات ، والزناة الذين لا يؤمّون الكنيسة قطّ ، لذا قلت من منبر الوعظ ، إنّني عندما أجد فسحة من الوقت فسوف أذهب إليهم ، من منزل لآخر ، كي أخرجهم من محنتهم تلك .

عندما دخلت في أحد المنازل ، وجدت أحد الرجال في سريره ، ومعه إحداهن ، فجلست بجانبهما ، ولم أبرح مكاني قطّ ، فبدا عليهما الارتباك ، والخجل ، بحيث قطعا لي وعداً بأن ذلك الفعل لن يتكرر قطّ ، البعض من الرجال ممّن عاشوا مع المحظيّات لوقت طويل أقدموا على الزواج منهن ، وبالمثل فعل آخرون مع عشيقاتهم ، والمجد للربّ وحده .

وجدت أيضاً بعض المرابين الذين كانوا من الصعب أن تحرّك عواطفهم تلك المواعظ ، حيث أخفوا عمليّاتهم الرِّبوية ، وممارساتهم عنّي ، فأضافوا رؤوس الأموال التي أقرضوها ، والفوائد في حساب واحد ، وحاولوا إثبات أنهم فعلوا كذا وكذا ، وتلقّوا الكثير ، ولكن

عموماً ، أدنت كلّ تلك الممارسات ، وأدنت كُتّاب العدل ، والموثّقين ، وكان هناك تحسّن كبير .

ثالث الخطايا التي لمستها هنا ، هي عملية التجارة في الأسلحة مع المسلمين ، والأتراك ، وأعدائنا ، وجميعهم من المحرومين كنسِيّاً من مقاطعة "كويتا" ؛ لأنّ هذه التجارة ، وتجارة الكبريت ، هي أفضل أنواع التجارة في تلك البلاد .

قد وجدت أنّهم متورّطون في أمور بغيضة تستحقّ اللعنة ، والإدانة ، لذا فقد تحدّثت بشكل مطوّل ، وقدّمت دروساً في هذا الأمر ، وترتّب على ذلك الكثير من الاعترافات ، والتراجع ، والكفّارات ، ولعلّ الفصل الخاصّ بتحرير الأرض المقدّسة من أنظمة اليهود ، والمسلمين[أ] كانت بمثابة عقاب لمن لم يستطيعوا دفع المال ، وقد أسهمت في زيادة ثرواتهم ، كما أنّهم أثرَوا كثيراً من الحروب الصليبيّة ، وإذا لم يكونوا يملكونها ، فبالنسبة إلى آلية العقاب ، فإنّها تعتمد على مكتب القاضي البابويّ .

في هذه الأمور ، وفيما يتعلّق بأمور المراباة ، وجدت إهمالاً كبيراً في الهند ، فهناك المماطلة من جانب المطران ، والملك يحاول بدوره التملّص من واجبه ، دون أن يكون لأحد القرار الحاسم لوقف تلك الممارسات .

البعض من خلال الأوامر البابويّة للسرّ المقدّس[ب] ، والآخرون من

(أ) انظر : The Fxtravagantes Joannis XXII, section 8 .

(ب) انظر : The Decretales Gregorii IX, bk 5, section 6, chapter 17 .

خلال النشرات البابويّة التي ليس بمقدورهم تنفيذها بالتطرّف ، بسبب الكتاب السادس[أ] الذي يبطل ويلقى امتيازات مقاطعة "كويتا" .

لهذا السبب لم أرغب في النطق بالحكم دون أن أكتب في المقام الأول إلى المطران عنها ، وذلك كي يقرّر ، وكي أثبت له بشكل كامل كيف يمكن حرمانهم كنسيّاً .

الأمور الأخرى تتناول مسألة المراباة التي ظللت أصفح عنها بغرامات تحذيريّة ، لقد تمكّنت من جمع مبلغ كبير من المال من تلك الغرامات بحيث سخّرتها لتكون في متناول مطران رهبانيّات "غوا" .

كان هناك تبادل تجاريّ بين هذه البلاد وبين الهند إبّان فترة حصار "ديو" ، أي عندما كانت جميع الممالك المسيحيّة تواجه خطورة السقوط ، لكن الربّ هو المدبّر لكلّ الأمور ، أيضاً وجدت هنا كراهيّة عظيمة في الأسواق ، وكثيراً من عمليّات الغشّ ، والتغرير بالجيران .

رابع الخطايا التي وجدتها في هذه البلاد هي نوع من الكراهيّة من الصعب استئصالها ، وهي موجودة في الأساس وسط مائتين من الجنود ، أو نحو ذلك ، كان الحاكم قد أرسلهم إلى هذه البلاد ، وآخرون تمركزوا هنا ، لأنّه عادة ما يكون هناك حوالي سبعمائة ، أو ثمانمائة جنديّ يقضون الشتاء ، وهؤلاء سبّبوا لي الكثير من المتاعب .

عموماً ، التجّار مسالمون جدّاً ، ولكن هؤلاء يخلقون الكثير من المشاكل عند قدومهم ، ففي كل يوم يحدث الخصام ، والإهانات ،

(أ) هذا المرجع ينسب للكتاب السادس من The Decretals of Gregory X .

والقتل ، ويبدو أنّهم رجال لا يخافون الربّ ، وعليه بعد إلقاء الموعظة الدينيّة ، والصلوات الأخرى في المنازل ، فإنّ كلّ ما أفعله في اليوم الواحد يبدّدونه في ظرف نصف ساعة فقط ، فيصبح أثراً بعد عين ، فلم تجد الدروس ، ولم يجد التبشير عن الموت ، أو التوبيخ ، أو تهديدهم ، أو حتّى الطلب من قائد البلاد بإخراجهم منها ، وفي بعض الأحيان أستجديهم داعياً الربّ العفو عنهم ، لكنّهم يجيبون أنّ المسيح هو الربّ ، فهم رجال يعتزّون كثيراً بمجدهم على نحو يفوق تمجيدهم للربّ ، لقد أضرّوا كثيراً بأطفالي الروحيّين الذين يأتون للاعتراف .

لم يكن بوسعي أن أذهب للمجلس بسبب عملي الكثير الذي يأخذ جُلّ وقتي ، فهناك أعمال الاعتراف ، والسجناء ، والمرضى ، كما يوجد رجال مسيحيّون مع نساء مسلمات ، ومسلمون مع نساء مسيحيّات ، فالمسيحيّون هم مثل اليهود في عبوديّة بابل ، فبعدما أمكنهم التكيّف مع تقاليد ، وعادات الوثنيّين ، لم تعد لهم رغبة في العودة إلى القدس ، وإنّما نسوا الربّ ، واتّجهوا للمعابد ، لقد تخلّوا عنّي ، وهجروني ، ينبوع مياه الحياة ، فالأحواض الخربة لا يمكن أن تحتفظ بالماء ، كانوا يختلطون ، أو يتشاركون في المأكل ، والمشرب .

كما أنّ المسيحيّين يعيشون مع بعضهم البعض ، وكانت هناك دعاوى أخرى بعضها له صلة بالجدل ، وأخرى بالتشاور ، وباختصار لم أكن قادراً على الأكل خلال اليوم ، أو النوم خلال الليل ، وكان أكثر الأشياء المزعجة بالنسبة لي ، هي أنّني لم أتمكّن من عمل كلّ شيء ؛ لأن الجميع يريدونني ، ويحتاجون إليّ .

اقتضت الأمور أن أتوقف عن أخذ الاعتراف ، فقد اعتقد المسلمون ، واليهود والوثنيون ، إنّني وليّ تقيّ ، وإنّ خلاصهم سوف يكون على يديّ ، فإذا ما ذهبت إلى منزل ما ، يسارع الجميع بما فيهم النساء لإلقاء أنفسهم تحت أقدامي ، لتقبيل ردائي ، وبعضهم لا يرعوى عن تقبيل يديّ ، لذا فقد صرت أتجوّل ، ويدي ممدودة بشكل مستمرّ داخل قبعتي .

أيّها الإخوة ، إنّني أفعل هذا ليس لأنّني لي أفضلية خاصّة بي ، وإنّما بصفتي عضواً في أكثر الجمعيّات اليسوعيّة قداسة ، فنساء اليهود يهرولن عندما يشاهدنني قادماً برفقة صاحبي ، لأجل التعاليم المسيحيّة ، غير أن أكثر ما أثار دهشتهنّ هو فقري ، لقد كنت أتجوّل ، وأنا في حالة رثّة ، رأسمال بالية ، وكنت أسير ، وأنا نصف عارٍ ، غير أنّ فقر جمعيّة اليسوع ، هو أمر محمود بشكل كبير في هذه البلاد ، ولقد اضطررت أن أطلب منهم في يوم ما أن لا يأخذوا قبّعتي ؛ لأنني دائماً ما أضطرّ للذهاب هنا وهناك ، وأنا حاسر الرأس .

أيها الأخوة الأعزّاء ، سوف يتملّككم العجب عندما تدركون أنّني لم استهجن بالزهو ، وأنّني لست كاملاً ، ولكن يجب عليّ أن أخبركم هذا ، فخالقنا الذي لا ينظر إلى من نكون ، وإنّما يراقبنا كخلق من خلقه ، يحيطنا بعنايته ، وحفظه ، وقد وهبني قدرة المعالجة حتّى لا أضيع بسبب الادّعاء ، ما آل له بسبب الطاعة والخشوع ، فقد منحني الكثير والكثير من العمل المتواصل ، بحيث إنّني لم أعد أملك الوقت حتّى ولو سعيت لامتلاكه ، كي أضيعه في الزهو .

عندما يتوفّر لي الوقت للراحة ، فإنّني لا أكاد أحسّ ، أو أعلم ما

إذا كنت نائماً فوق الأرض ، أو على سرير مريح ، فماذا كان لي ، ولم أحصل عليه؟ المجد للربّ وحده ، إنّني ما أنا ، وعليه فلماذا أعتزّ ، وكأنّي لم أحصل على السناء والرفعة؟ كم رغبت في تحقيق التفاني والتنسّك في مدرسة "كويمبرا" ، وفي جميع أنحاء "أوروبا" ، سوف أوفّر العمل للجميع ، كم هو الفرق كبير ما بين رغباتنا وأعمالنا ، كما هو الحال بين ما هو واقع ومحتمل ، دعنا نطوّر من قوّتنا ، كي نقف تماماً على حقيقة أن الشرق مستقلّ عن الغرب .

إخوتي في رهبنة اليسوع ، كيف يتسنّى للفتنة أن تدخل؟ أين يوجد المسيح الذي يمتلك كلّ شيء ، ولكن كيف تثبت هذه الفتنة؟ لقد كانت ساعة مباركة عندما أرانا الربّ كم هو رحيم بعبيده ، يعزّ من يشاء من عبيده الفقراء ، ليرفعهم إلى مقام الأمراء والملوك ؛ لذا فلنقل كلّنا كم كانت هذه الساعة مباركة في غياب ظاهرة كبت الأصوات التي ستكون كالمزامير .

أقدم لترى ماذا فعلت روحي ، سوف أتغنى ببركات وتسامح الربّ للأبد ، من جيل إلى جيل ، عندما رضى الربّ ، ومكّن كاهننا المقدس "اغناتيوس" "Ignateus" من تأسيس هذه الرهبنة .

أيها الأب "سيماو" ، كم أنا مدين لك في حبّ الربّ ، أيها الأب "جـواو دي اروجـو" "Joao de Arogo" و"مانويل دي موريس"[أ] "Manuel de Moris" كيف أفي بديني للربّ عن كلّ ما أعطانيه؟

(أ) الكاهن "مانويل دي موريس" من هرمز .

ليس في وسعي عمل شيء غير الذهول والبكاء ، وإذا كنت أقول هذا بنفسي فماذا يقول ملائكة "كويمبرا" عن أنفسهم؟ فليبارك الربّ دخولكم في رهبنة المسيح عيسى .

أيتها النبتة المقدّسة التي زرعتِ في حقل معرفة المسيح ، ورويتِ بدمائه الطاهرة ، لتظللي الشهداء المحروسة بالعذارى المبجلة ، وبالملائكة المحاطة بحب وعناية الكهنة ، الموجهة بالروح المقدّسة المسمّاة والآيلة للمسيح ، وبالرغم من أنّها أخويّة مقدّسة ، فإنّكم تبدون كنبتة جديدة .

إنّكم الأكثر قوّة ؛ لأنّكم استُزرعتم في فقر المسيح ، فامتدت جذورها حتّى البحر ، وانتشر شعاعها حتّى النهر ، فالبحر هو العالم ، والنهر هو حبّ الجار ، والجنّة هي الدار التي أعدّها الربّ لعباده الصالحين ، وكلّ من لا يتّبع هدى مخلّصنا المسيح سوف يكون موضع الكره والبغض ، ماذا يصل النور بالظلام؟

المجد للربّ وللكهنة ، وليبارك لنا الربّ في حاضرنا للأبد .

عودة إلى موضوعي ، ولي عذركم ، فإنّ ضميري الحيّ يدفعني لإيجاد وسيلة أخرى كي أكون أكثر حزماً مع أولئك الناس ، حتّى يكفّوا عن أذى الآخرين ، والإضرار بهم ، فعندما قمت بالتبشير كنت قد ألقيت خطباً ، ومواعظ ، يشهد بها الربّ عن رضاء العدوّ ، وفي النهاية عملت من خلال مواعظي طالباً من الجمهور ثلاث صيغ مكرّرة ، وثلاثة "آفى مارباس" لمن يتصرّفون على ذلك النحو ، وذلك حتى يكون تأثير الربّ فيهم على النحو الذي يستشعرونه في ممتلكاتهم الدنيويّة ، أو في سمعتهم ، أو في أجسادهم

بكسور تطال أيديهم ، وأرجلهم ، وسواعدهم ... الخ ، بل ربّما يفقدون حياتهم كي تنقذ أرواحهم .

يغطّون وجوههم خجلاً كي يعرفوا اسم الجلالة ، وهذا سيجعلهم أكثر حيرة ، وخوفاً من أن يحدث لهم أيّ شيء من هذا القبيل ، فيتملّكهم الغضب ، لكن فيما بعد أخبرتهم عن السبب الذي جعلني أفعل ذلك ، وإنّ الأشياء التي دعوت الربّ أن يحجبها عنهم ، هي تلك التي تضرّ بهم ، وتحول دون تطهيرهم من الآثام ، والذنوب .

لأنني إذا لم أكن ثريّاً ، فربّما لم أكن فخوراً ، وإذا لم أكن صحيح الجسم ، لما تمكّنت من القتال ، فمن الأفضل لي أن أُحشَر في النعيم بعين واحدة ، ورجل واحدة ، ولا أُحشَر في الجحيم بالإثنين ، وهذا ما دعاني كي أشير إلى أنّ بعض الأذى يمكن أن يصيب الأطراف ، والممتلكات .

إنّ عين الربّ الحارسة بالعدل ، وهو سميع الدعاء ، مجيب دعوة السائل ، رغم وجود الكثيرين من الخلق ممّن لا يعلمون ما يدعون له ، فصلواتهم ، ودعاؤهم ، تأتي وبالاً عليهم ؛ لأنّ الرب شاء ، وقدّر أن تكون الحرب على القلعة التي يحكمها المسلمون ، وتسمى "ماندجان" "Mandagan"(أ) ولأجل الاستيلاء عليها ، اقتضت الضرورة إرسال تلك الكتيبة المكوّنة من مائتي جنديّ التي ذكرتها ، ومائتي جندي آخرين ، بحيث أصبح مجموعهما أربعمائة جنديّ ضد قائد مسلم على رأس خمسة آلاف جنديّ ، يذودون عن تلك القلعة .

(أ) تبعد "مانودجان" حوالي مائة وخمسين كيلو متراً من هرمز .

كان نائب قائد ذلك الجيش هو ابن أخ حاكم الهند[أ] ، لقد نصحت أولئك الرجال كي يأتوا للاعتراف ، وأخبرتهم عمّا يمكن أن يحدث لهم إذا ما رفضوا المجيء ، لكن ما حدث هو تأجيل كلّ شيء ، والمزيد من الانتظار ، والمماطلة ، فالبعض يقول : "ارحل عنّا ؛ لأننا لا نريد علمك ، ولا رغبة لنا فيه ، فمن ذا الذي يتمتّع بالسلطة ، والنفوذ ، حتّى نعمل على خدمته؟ أو ماذا سنستفيد؟

وماذا يعود علينا من خدمته؟ نحن المسيطرون ، ولنا اليد العليا ، ودع الربّ يفعل كلّ هذا ، نحن متحالفون مع الموت ، ولقد عقدنا العهد مع جهنّم ، وعندما نصبر فإنّ الكارثة لن تطالنا ؛ لأنّنا وضعنا كل آمالنا في الشرّ ، ونحن محميّون بواسطته" .

خاف البعض الآخر ، وأقبل نائب القائد مع مجموعة من الجنود ، وطلبوا منّي أن أباركهم ، غير أنّني أخبرته عن سوء أولئك المسيحيّين الذين برفقته ، وعليه أن يحسب حساب ذلك ، ويخشى جانبهم ، وعند وصولهم للقلعة كانوا قد اشتبكوا في حرب ضدّها ، لكنّهم لم يتمكّنوا من الاستيلاء عليها ، بعد ذلك ظهر مرض وبائيّ في المعسكر ، أدّى إلى موت مجموعات كبيرة ، فقد هلك خمسة وأربعون شخصاً ، كما أصبح باقي الجند ما بين جريحٍ ، ومريض ، وذلك دون أن يتعرّض المسلمون لأيّ أذى .

كان أولئك النفر يشعرون بالرعب عندما يتذكرون ما قلته لهم صباح ومساء ، فصراخ وصيحات المرضى ، والمحتضرين ، والأصحاء ،

(أ) "بانتالياو دى سا" .

كبيرهم وصغيرهم ، كانت جميعها موجهة إليّ ، ويعتقدون في ذلك النداء الذي يوجهونه إليّ الكثير من التأثير .

مرّة أخرى تمّ إرسال مائتي جنديّ لأجل مساعدتهم ، ولكنّهم عندما رأوا ما ابتلاهم به الربّ من محن ، ومصائب ، تملّكهم الهلع ، ومن ثَمَّ اتّفقوا جميعاً على هجر القلعة ، والعودة إلى هرمز لتقديم الاعتراف ، والموت .

الذين عادوا ، وكانوا في أكمل صحة ، أخبروني أنّ الأمر كان متميّزاً جدّاً ، وإنّهم كانوا ينادونني كلّ يوم ، وفي كلّ ساعة ، وكأنّ الربّ أراد أن يريهم في ذممهم المصاعب التي تعرّضت لها من بعضهم ، ممّن لا ضمائر لهم ، بالإضافة إلى مشاكلهم الخاصّة التي لم تخرج عن إطار إما تحدثهم بالاستفسار منّي أو عنّي .

عموماً ، كي نعود للموضوع الذي بين أيدينا ، وبعد أن غادر أولئك الجنود ، وهم أسوأ من رأيت من البشر ، قمت بتجهيز كلّ ما يلزمني من التوابع ، والحواريّ الشباب الذين أتوا من أجل النهل من تعاليم العقيدة المسيحيّة التي أقوم بتدريسها كلّ يوم ، وبالمثل كان هناك الخدم ، وبعض المسيحيّين المحليّين ، الذي ترتّب عليهم الذهاب في مظاهرة كلّ يوم إلى تمثال سيّدتنا سيّدة الرجاء .

والذي يبعد مسافة نصف ميل من المدينة ، وجميعهم يحملون الشموع والمصابيح في أيديهم ، أيضاً كان قد قدم من حاملي السّياط حوالي خمسين رجلاً ، وهم ينشدون ، ويردّدون الابتهالات ، وكانوا يفعلون ذلك وهم ممتلئون نشاطاً ، وحماساً دافقاً .

عندما سمع الناس بهذا ، حدث في المنطقة اهتياج شديد ، وتمكن

الأولاد ، والنساء والبنات ، من الانضمام للمظاهرة التي اتّسمت بالكثير من مظاهر التديّن ، والخشوع ، والورع ، بشكل لم يسبق له مثيل .

عندما وصلوا جميعاً كان معظمهم حفاة ، كما شهد مكان العبادة تفجّع ، ونواح ، وصراخ الأطفال ، والنساء ، والرجال ، وجميعهم يهتفون : "الرحمة يا ربّ" ، وكان ذلك مشهداً رائعاً ، ولا أعتقد أنّ رجلاً واحداً من هذا الجمع الضخم من الأشخاص لم يبك لمدة نصف ساعة واحدة ، منادياً بأعلى صوته بعدما اغتسل الضارب بالسوط ، وقد واصلت العمل في تبشيرهم جميعاً حتّى منتصف الليل .

كانت العديد من تلك المظاهرات قد حدثت في ذلك الوقت ، فالمجد للربّ ، وقد جاء معظم الناس وجميعهم حفاة آملين في أن يجنّبنا الربّ شرّ غضبه ، أمّا المسلمون فقد دهشوا عندما رأوا ذلك .

نظراً لأنّ حجم المسيرة كان ضخماً ، فقد صعب علينا معرفة المصدر الذي تسبّب في إلحاق الأذى بأحد الشباب من جرّاء قذف الحجارة .

كان نائب القائد قد أرسل لي خطاباً رقيقاً جدّاً من موقع الحصار ، وكم كان أسفي شديداً لعدم تمكّني من الذهاب إليهم لمواساتهم ، والتخفيف عنهم ؛ لأنّ المعلّم "فرانسيسكو" عندما أرسلني إلى هذه المناطق ، كان يخشى إمكانية ذهابي إلى فارس أو "تركيا" على الرغم من أنّني لم أكن متحمّساً لتلك الفكرة ، كان يعتقد إذ إنّه يريد أن يأخذني لـ "اليابان" أو "الصين" .

لم يكن يدري ماذا سيفعل الربّ به هناك ، لكنّه كان يريد أن يرى في المقام الأول ، ثمرة جهودي في هرمز لأنّ تلك البلاد التي كانت في

حاجة ماسّة لي ، وذلك حتّى تكون الهند السبّاقة للإفادة من رهبنتنا ، فإذا ما قدّر له الربّ أن يصل لتلك البلاد سالماً ، وأحرز نوعاً من التقدّم ، فبوسعه أن يرسل في طلبي ، ويكون على ثقة من أنّه سوف يجدني .

لقد أمرني بالبقاء في هرمز لمدّة ثلاثة أعوام ، وألاّ أخرج من حدود هذه الجزيرة مطلقاً ، وهي عبارة عن حوالي ميلين تقريباً ، حتّى ولو صدرت أوامر مناقضة من الهند ، فلو طلب منه سيّدي شيئاً آخر ، وتوفّي ، فإنّني سوف أكون تحت الأمر والطاعة في "غوا" ، إنّ لديه هذه المخاوف ؛ لأنّني طلبت أن يُسمح لي بالذهاب إلى فارس إذا ما كانت الحرب دائرة هناك ، غير أنّه أمر ألاّ يسمح لي بذلك كما ذكرت أعلاه .

لذلك أرسلت إلى "فرانسيسكو جوميز" "Francisco Gomes" كي يبحث عن كاهن يمكنه قبول الجزء الرئيسيّ ، إذا ما قدمت أيّة مجموعة من "البرتغال" هذا العام ؛ لأنّ مرافقي "ريماو بيريرا" والمرسل من قبل "فرانسيسكو" معي من الهند لا قدرة له على البقاء في هذه البلاد ، نظراً لقسوة مناخها الحار .

لذلك أشفقت عليه ، ومن ثَمَّ أرسلته إلى منزل الكاهن هنا ؛ لأنّه أكثر برودة ، وهكذا من منزل لآخر ؛ لأنّ الطقس كان شديد الحرارة ، والرطوبة ، بحيث إنّه لم يحتمله على الإطلاق ، بل إنّه لم يكن ليطيق حتّى لمس الكتب الموجودة على طاولته ، لكنّي كنت أعاني من البرد .

وكنت أرتدي رداءين متماثلين تحت رداء الكاهن الكتّانيّ ، والحمد للربّ ، البلد تبدو مألوفة ، وطبيعيّة بالنسبة لي ، فهي حارّة جدّاً ، جافّة في فصل الصيف ، وباردة جداً ، جافّة في فصل الشتاء ، وقد سبق أن

أصبح مرّتين على شفا الموت ، بحيث إنّني اضطررت لإرساله إلى "غوا" ، إذ لم يعد معي أحد سوى واحد فقط من شباب العرب .

في هذا الوقت وصل الجنود عائدين من الحصار ، غير أنّ الغالبية العظمى منهم ذهبوا للمستشفى ، وهناك ألقوا بأنفسهم فوق الأرض ، وعندما أبصروني رفعوا أكفّهم بالدعاء تضرّعاً للربّ ، وشكراً له على وصولهم إلى المكان الذي يمكنهم أن يروني فيه ، وطالبوا جميعاً بالاعتراف .

لكن مع الكثير من الاتفاقيّات ، وبعد إكمال الاعترافات ، لم تعد لهم رغبة في شيء ، سوى الموت ، وإذا ما عاشوا أن يكثروا من الكفّارات لإنقاذ أنفسهم ، ولخدمة الربّ ، حيث يوجد البعض في رهبنة القدّيس "فرانسيس" وآخرون في رهبنة "دومنيك" كما يوجد النسّاك وغيرهم في المستشفى .

كانوا جميعاً ينتحبون ، ويغمرهم الحبّ ، فعانقتهم جميعاً ، متمنّياً لهم الراحة ، والسعادة ، ووعدتهم بأنّني سوف أفعل ما بوسعي ، لكنّني لم أستمع لهم جميعاً ، نظراً لوجود أربعمائة منهم ، بالإضافة للموجودين في منازلهم ، وكان الكهنة الذين يساعدونني ، بينهم خمسة من المعترفين ، وأضفت السادس ، غير أنّهم أثمة ، ويرغبون في الاعتراف قبل الموت .

أيها الإخوة الاعزّاء ، والكهنة ، كم راعني وآلمني ، أن أشاهد العديد من هؤلاء الرجال البؤساء في تلك الحالة ، فمنهم من ينتحب ، ومنهم من يهذي ، وآخرون ذوي جروح مهلكة ، وأكثر من ذلك ، كانت الغالبية العظمى منهم تستمرّ في اعترافها الذي شمل حياتها كلّها دون

توقّف ، الأمر الذي أشعرني بالندم الذي يسيطر عليها ، والمجد للربّ ، كانوا جميعاً قد انفجروا بالبكاء عندما رأوني ، تماماً كما يفعل الأبناء عند عودتهم بعد طول غياب ، يحملون همومهم ، ومشاكلهم ، عند لقاء آبائهم ، وما كادوا يتركونني أغادر .

بعدما تأكّدت أنّ من يوجد في المستشفى ، وبعض الرجال المرموقين الذين يقيمون في منازلهم سوف يعترفون لي ، قرّرت أن أحمل الصليب ، وشرعت في الاستماع لاعترافات الضعفاء ؛ أي الذين يحتضرون ، بل إنّ نائب القائد نفسه الذي كان مريضاً أيضاً ، قد أرسل يطلبني كي أستمع إلى اعترافاته ، ولم أشأ أن أترك أولئك الضعفاء ، ما لم أستمع إليهم جميعاً .

بعد أن استمعت لهم غادرت في اليوم التالي لأجل الاستماع صباح مساء ، ولم أفرغ من تلك المهمّة إلاّ بعد انقضاء شهر بكامله .

عموما ، توفّي عدد كبير منهم ، حيث بلغ عدد المتوفين حوالي المائة ، والمجد للربّ ، كم كنت أرغب في أن يبقى بعض الكهنة بجوار الذين توفاهم الربّ ؛ لأنّه ما من أحد كان معهم .

عموماً ، ذهبت إليهم ، وألقيت بعض الكلمات ، ومن ثَمَّ عدت لمواصلة العمل ، كان مضيفي قد ساعدني كثيراً حيث تلقّينا العديد من الرسائل من المقيمين في منازلهم ، الذين لم أقدّم لهم شيئاً .

لكنّ الشيطان الذي لا ينام في الأوقات التي لا تناسبه ، ولا توائم رغباته ، فعل ما بوسعه كي يكون عقبة في كلّ عمل خير أقوم به ، فقد نثر بذور الخلاف وسط الكهنة ، وعندما أدركوا أن لا رغبة لأحد في

الاعتراف لهم ، بل حتّى أطفالهم أتوا إليّ ، فقد تسرّب إلى نفوسهم البغض ، والحقد تجاهي ؛ لكن لم أهتمّ لذلك ؛ لأنّ الشيطان قد مسّهم كما ذكرت أعلاه ، فيما يختصّ بالمشكلات ذات الصلّة بالمتزوّجين ، والمقيمين ، والتجّار ، إذ إنّ العديد منهم كانوا رغبة منهم في ألا يخيّبوا آمال كهنة الاعتراف ، يعترفون إليّ سرّاً حتّى لا تكون اعترافاتهم معلومة لدى الجميع .

لقد اكتشف الكهنة هذا الأمر ، وعندما أدركوا أن الاعتراف إليّ مستمرّ ، بحيث إنّني لا يمكنني أن أستمع لهم جميعاً ، تشاوروا فيما بينهم فيما يجب عمله ، وبالنسبة لما أبلغني به الكاهن ، فقد أدركوا أن السبب الذي يجعل كلّ واحد يقصدني للاعتراف هو بركة الروح المقدّسة التي أصبحت سمة رهبنتنا .

بعدها توقفت الاحتجاجات ، وأصبحوا أكثر وُدّاً تجاهي ، ويبادلونني المشاعر الطيّبة والصداقة ، ووعدوني بالمساعدة .

أعتقد بأنّني استمعت لاعترافات ستمائة شخص في مدة ستة شهور ، عندما كنت في هرمز ، والحمد للربّ .

إذا كانت هذه البلاد آمنة ، بحيث يمكن إقامة مدارس فيها ، فمن الممكن للمرء أن يرفد البعض منها برجال الدين من رهبنتنا ، وأيضاً بالمال لأجل ذلك ، فمن الممكن جدّاً أن يتمّ توفير ستّة آلاف "بارداو" هنا ، وقد أرسلتها إلى أديرة الرهبان في الهند ، وأخرى إلى الصحراء للنُسّاك ، أسأل الربّ أن يكون عوناً لهم .

لقد صمّمت بالفعل على إنشاء مدرسة للشباب في هذه البلاد ،

لأجل الفرس ، والعرب ، والإنكشارية ، وللروس ، وللأحباش ، غير أن البلاد ليست آمنة ، كما أنّ القلعة تبدو صغيرة نوعا ما .

لقد استشعرت فيما يتعلّق بحبّ الناس للمسيح في هذه المنطقة ، أنّه يمكن للمرء أن يحكم أنّها تضجّ بأكثر الناس سوءاً ، وفساداً في العالم ، وأنّهم منغمسون في مئات الخطايا ، فالبعض منهم قد اتّخذ محظيّات مسيحيّات ، وآخرون مهووسون بالزنا ، وفئة أخرى اتّخذت نساء مسلمات ، ورابعة مع يهوديّات ووثنيّات ، كما عرف الكثيرون من المرتدّين ، واللصوص ، وقطّاع الطرق ، وهذه الأمور تعتبر ممارسات عامّة يعرفها الجميع ، بالإضافة لهذا فقد بلغت الثمانين من العمر ، ولم يسبق لها الاعتراف قطّ .

هناك أيضاً فئة دأبت على النزوح من منطقة لأخرى ، تعمل منذ عشرات السنوات في تقتيل ، وذبح كلّ من يعترضهم ، ولم يتجرّأوا قطّ على قول ذلك .

هناك مرتدّون يتناولون اللحم طيلة أيّام السنة ، ولا يصومون ، وهذه ظاهرة معروفة في هذا الجزء من الهند ، آخرون كهنة هجروا أديرتهم ، بعضهم من له ثلاثة من الأموات ، والآخر أربعة ، أو خمسة أموات ، وهؤلاء هم أناس همج فيما يتعلّق بالأمور الدينيّة دون أن يحكمهم قانون .

المجد للربّ ، كانت سلطات ، وصلاحيّات المطران التي أمتلكها مفيدة جدّاً بالنسبة لي في مقاطعة "كويتا" وبقية المناطق الأخرى ، على كلٍّ لم أر في حياتي قطّ أناساً بمثل ذلك الفساد عندما يأتون ، وأكثر توبةً وصلاحاً عندما يرجعون ، وقد لاحظت أنّ زارعي الشرّ يعودون

باكين يحملون الأسف والتوبة ، وبالرغم من أنّه يمكن أن يفهم هذا في إطار آخر إلاّ أنّ الأمر ينطبق تماماً عليهم هنا .

المجد للربّ ، إنّني حقيقة لم تفتر لي همّة فيما يتعلّق بالاستماع للاعترافات ، فكثيراً ما تذرف الدموع بحيث يجعلوني أنتحب .

من جملة من توفّوا في حصار القلعة ، كان هناك عاهر اعتاد أن تكون له ثلاث من النساء المسلمات يشاركنه الطعام ، والشراب ، والخوض فيما نهى عنه الربّ علانية ، وقد دأب على لعن اليخوت التي تحمل الملائكة ، هذا العاهر توفّي بشكل مفاجئ دون أن ينطق كلمة واحدة ، وعندما سكنت روحه وتوقّف جسده عن التنفّس ، هبّت عاصفة ضخمة من الغبار كانت أشبه بإعصار ، أو فيضان جارف ، ولقد اعتقد الجميع أنّه من الآثمين ، وكان رحيله عن الدنيا بغيضاً ، واعتقد الجميع أنّ تلك الظاهرة سببها ذلك الرجل .

أيضاً هناك أمور حدثت كانت أعجوبة ، ومثار دهشة الناس ، لا يمكنني ذكرها في هذا السياق ، ولكن بوسعي أن أذكر أن معجزات كثيرة حدثت في هذا الوقت .

لقد كسب الاعتراف هنا شهرة واسعة ، بحيث إنّه لم يظلّ سوى عدد بسيط ممّن لم يعترفوا ، بسبب أنّ كثيراً من المعترفين من الأرض ، قد كُتِبَ لهم الشفاء بعد اعترافهم ، ولقد منّ الربّ على أولئك الناس برحمته ، وأراهم أفضال كفّارة السرّ المقدّس ، حتّى وهم مرضى كانوا يرغبون في الاعتراف ، أكثر من رغبتهم في زيارة الطبيب لمعالجتهم ،

لقد كان ضرورياً أن يريهم الربّ ظاهرة السرّ المقدّس ؛ لأنّهم لا يعلمون عنه سوى القليل .

كان بعضهم يقوم بالاعتراف كلّ عشر سنوات ، لكنّهم لم يأخذوا قطّ السرّ المقدّس قائلين إنّهم لا يستحقّون ذلك ، إخوتي لقد بكيت كثيراً نظراً لهذا الهلاك ، والضياع الذي يخيّم على هذه الأرض ، والتي أصبحت الآن طاهرة .

معجزة أخرى حدثت ، أنّه عندما عاد الجنود أدراجهم من الحصار في هرمز عبروا أراضي المسلمين ، والعديد من قطّاع الطرق ، أحد الرجال الراكبين على شفا الموت ، حيث كان قد سقط من دابّته ، وظلّ طريحاً على قارعة الطريق دون أن ينتبه إليه أحد .

كان عليه أن يقطع مشياً مسافة تقديريّة ، بمسيرة ثلاثة أيّام قبل أن يلتقي بتلك المجموعة ، فقال لهم لقد أُخذ إلى بستان نخيل ، وتسلّق أحد أشجار النخيل لكي يملأ سلّته بالتمر ، ويسدّ حاجته ، وقد التقى أحد المسلمين في الطريق كي يسأله عن مكان وجود الفرنجة المسيحيّين ، وقد أفاد بأن الرجل أخذه كي يريه ذلك .

في اليوم الثالث وصل للقلعة حيث يوجد المسيحيّون ، وعندما وصل إليهم اكتشفوا أن سلّته مليئة بالتمر ، وسألوه كيف نجا؟ وقد كان على وشك أن يهلك ، لكنّه أخبرهم بما ذكرته أعلاه ، بالرغم من عدم وجود مزارع ، وبساتين للنخيل في جميع أنحاء البلاد ، كان أول ما ذكره هذا الرجل عند وصوله ، أنّه لقد مرت ثلاثة أيّام منذ أن قرأ عنوان مكتب سيّدتنا .

كان هذا الرجل يقوم بالاعتراف من وقت لآخر ، ولقد تمّ التأكد من ورعه وتقواه .

كان العديد من الناس يعملون على الاعتراف في كلّ يوم أحد ، ويأخذون السرّ المقدّس ، وبالتالي كان ذلك مصدر إلهام الناس ، وتزويدهم بالتقوى والإخلاص .

لكن عموماً ، فإنّ تقاليد هذه البلاد كانت من السوء بمكان ، بحيث بدا السكّان مستحين من تلقّي الإيمان ، والهداية ، خشية أن يقال إنّهم من المنافقين ، وعليه فقد اعترف الكثير من الناس الذين قدموا إليّ ، خاصّة القائد الذي يكاد أن ينخرط في البكاء ، والنحيب ، خلال استماعه للخطب الدينيّة ، والمواعظ ، وكانوا يحاولون حبس ، وكبت مشاعرهم تلك ، الأمر الذي وبختهم عليه .

باختصار إنّني في حياتي لم أقابل أشخاصاً أكثر سوءاً من هؤلاء الناس ، ولو في الأماكن التي ترتكب الآثام فيها دون استحياء وخجل .

حيث يمتهن اسم المسيح ، ويضاع الشرف والكنيسة ، فالناس يبدون أكثر بساطة في فهم جوهر الحقائق السامية ، فرايات المسيح يتمّ إسقاطها على الأرض لتدوسها الأقدام ، بل حتّى أنّ المرء يكاد أن يستحي من الحديث ، ومخاطبة المسلمين بشأن موت المسيح ، فكلّ ما أرغب في إنقاذه ، هو المجد المتمثّل في الصليب .

في أيّام الأحد في فصل الصيف لا أحد يأتي للقدّاس الرسميّ ، وذلك بسبب حرارة الجوّ الشديدة ، فحضور النساء للكنيسة يعتبر أمراً

نادر الحدوث ، إذ يتعلّلن بأنّ الجوّ يكون حارّاً جدّاً في فصل الصيف ، وأكثر وحلاً في فصل الشتاء .

كان الحاكم قد شدّد قبضته على مسيرة الأمور في الكنيسة ، وقد أهان الكهنة ، والقساوسة ، بمحض رغبته ، دون أن يفتكر ، ويضع في اعتباره أنّهم من العارفين بالربّ ، وإنّ هؤلاء الكهنة لم ينتبهوا لمسألة الحرمان الكنيسيّ ، أو أوامر الكنيسة ، والمجد للربّ ، والعالم بكلّ شيء ، كم أصبحوا دعويّين عندما رأوني وقد استشطت غضباً في واحدة من مواعظي في هذا المجال ، الذي كنت أبشّر فيه بشكل متواصل مهدّداً إيّاهم بالحرمان الكنيسيّ ، حيث إنّني أستخدم شعبة ، وقوّة الجيش الكنيسيّ ضدّ المنشقّين ، والثوّار ، كي أتمكّن من مقاضاتهم ، وسجنهم .

كنت أفعل ذلك مع الكاهن باعتبار أنّه من أكثر الأنصار المتحمّسين لرهبنتنا ، فقد كان مندفعاً ، وراغباً جدّاً في الانضمام لرهبنتنا ، وسوف أقوم بتقديم التدريبات اللازمة له ، فقد أرادنا أن نذهب إلى "بريستر جون" الذي كان قريباً منّا ، كي يموت في خدمة الإيمان ، وكان قريباً من الربّ ، وما بيدنا شيء سوى أن نحتسبه إلى خالقه .

بعد ان استمعت النسوة للخطبة الدينيّة الأولى ، هرولن للاستماع للموعظة التي تشرح التسامح ، وبينما لم يُعرنها أيّ اهتمام في الماضي ، أصبحن الآن يحرصن على الحضور ، وبينما كنّ في الماضي يستشعرن النزوة ، والهياج الجنسيّ ، أصبح أمرهنّ الآن مختلفاً جدّاً ، ولو كان العرق يتصبب من أجسادهن التي تضجّ شهوة ، ورغبة للممارسة .

أمّا الرجال فلم يكتفوا بالسماع إلى قدّاس واحد ، وإنّما حبّذوا

الاستماع لها كلّها ، كم كنت أشعر بالأسى ، والأسف ، عندما أرى الرجال ، وملابسهم مبتلّة بالعرق بسبب حرارة الجوّ اللاهبة ، كان حجم الكنيسة صغيراً إذا ما قورن بعدد الناس الموجودين هناك ، غير أنّ كلّ شيء يبدو لهم صغيراً مقارنة بحبّ الربّ ، ولذا فقد كانوا يتطلّعون إلى يوم الأحد باعتباره مهرجاناً ضخماً ، والحمد للربّ .

منذ قدومي ، والمجد للربّ ، لمست تديّناً عظيماً من جانب الكهنة ، ففي أيّام السبت كنّا نخرج حاسري الرؤوس في الليل لأداء الابتهالات ، والأناشيد ، وسط الجمهور ؛ لأنّه منذ وصولي حدثت عدّة هزّات أرضيّة بشكل غير مألوف ، وغالباً ما كانت تحدث في أوقات غير متوقّعة .

حدثت تلك الهزّات الأرضيّة حوالي سبع ، أو ثماني ، أو تسع مرّات ، وكانت تحدث في بعض الأحيان في وقت ما قبل بداية التبشير ، كي تذكّرني بما يجب أن أقوله ، وكانوا يقرأون القدّاس الاحتفاليّ بصورة جليلة ، وبإمعان ، فقط كان في حادثة خلاف وقع لم أتمكّن من معالجته ، هو عندما قدم إليّ الأطفال ، إذ إنّني لم أتمكّن من سؤالهم عن حقيقة ما كان يحدث بين الأطفال ، والعبيد ، من كلا الجنسين ، والمواطنين ، والمسيحيّين ، والحمد للربّ .

كان قد سرّني ، وأفضل ما سمعت عنه ، ومنذ رحيلي من "غوا" وفي كلّ يوم كنت أعمل على تدريس التعاليم المسيحيّة في الكنيسة الرئيسة ، وبعد أن أتناول الطعام أقضي قرابة الساعتين في تدريس تلك التعاليم ، ومن ثَمَّ أخرج في الطرقات لدعوتهم للحضور مستخدماً جرساً صغيراً .

عموماً ، سواء صغرت مجموعاتهم تلك ، أو كبرت ، فإنّهم الآن قد علموا بتلك العقيدة ، وكلّ ما يتعلق بالأوامر الكنسيّة ، والاعتراف العامّ ، والأسرار المقدّسة في الكنيسة ، وأعمال التسامح والرأفة ، والعديد من الصلوات الأخرى ، التي أثارت دهشة الناس ، وقد أصبح الأطفال يعلمون أكثر من آبائهم ، وأمّهاتهم ، فيما يتعلّق بالتعاليم المسيحيّة ، والعبيد أكثر من أسيادهم .

قد استفادوا كثيراً من تلك الدروس ؛ لأنّ هناك مجموعة منهم كانوا لا يعرفون كيف يرسمون شارة الصليب ؛ لأنّهم لم يعيشوا كمسيحيّين ، فأصبح الأطفال يقومون بتدريس آبائهم ، وأمّهاتهم ، وقد بلغ حماسهم أنّهم أصبحوا ينشدون التعاليم المسيحية بشكل يحرم آباءهم ، وذويهم من النوم .

هناك الكثيرون لتمجيد الربّ ، إذ في فترة المساء ، وفي معظم البيوت ، كانوا يقومون بتدريس الخدم من الرجال الذين لا يرتادون الكنيسة ، وكذلك الخدم من النساء بطرق لم يسمعها الرجال حتى في منازلهم ، وبفضل الربّ ، أصبح هؤلاء ينصرفون عن أعمال السوء ، ويقومون بتمجيد الربّ ، والخروج إلى الطرقات لأجل الإنشاد .

في أحد الأيّام استدعاني أحد الرجال البارزين ، كي يبلغني أنّ أحد أبناء المسلمين الصغار ، وكان هذا صبيّاً صغيراً ، يجوب الطرقات ، وهو ينشد باسم الكاهن ، والروح المقدّسة ، تعتبر ظاهرة تمجيد المسيح شيئاً كثيراً ؛ لأنّ المسلمين يتحدّثون فقط عن الربّ ، ويذكّرني هذا بالنبيّ "بالام" "Balaam" الذي أراد لعنة أطفال إسرائيل فباركهم .

يتجادل الأطفال مع المسلمين حول انتمائهم للمسيحيّة قائلين : إنّه لن يتمّ إنقاذهم دون تعميدهم ، هكذا كان المسلمون قد انشغلوا كثيراً وهم يراقبون أطفالهم خشية أن يصبحوا مسيحيّين .

كان إنجازنا كبيراً في صفوف العبيد ، والنساء ، باعتبارهنّ محظيّات ، وآثمات عن جهل ، وحقيقة كما قال النبيّ : إنّ أفضل تمجيد للربّ ، هي تلك الكلمات التي يلفظها الأطفال ، والرضع .

عموماً ، فالآن لم تعد هناك أحداث اقتتال ، أو أعمال شريرة .

كان لديّ الكثيرون من المتهمّين في أوساطهم ، وقد أصبح الأطفال يوجّهون اللوم لذويهم فيما يختصّ بأعمال الشتم والاستهجان ، وفي أيّام الأحد ، وغالباً بعد تناول الطعام ، كنت أقرع الجرس إعلاناً ببدء تدريس التعاليم المسيحيّة .

بالتالي يتجمّع لديّ حوالي خمسمائة ، أو ستّمائة من الأفراد في الكنيسة من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، كي أعلّمهم ركائز الإيمان ، والوصايا ، وكلّ ما يتعلّق بالآثام البشرية ، والكتابات المقدّسة ، وبعدها آمرهم جميعاً بأداء ، وإلقاء الدروس بشكل جماعيّ في شكل إنشاد ، والحمد للربّ لهذا الورع ، والطاعة التي غرسها في نفوسهم .

في النهاية كنت أجمع بين كلّ الأطراف المتخاصمة ، وأطلب منهم أن يستغفروا ، ويطلبوا السماح من الربّ ، وهم جاثون على ركبهم ، وعندما يخرجون تخالهم فرقة من الجيش .

كان المسلمون قد دهشوا لهذا الأمر ، وقد ردّد الرجال ، والكنيسة قائلين

إنّ هذا الإيمان قد تمّ تجديده بواسطة رهبنتنا ، ولقد أبلغوني أنّ المسلمين يعتقدونّ أن فكرة الخروج في المساء بواسطة هذا الجرس فكرة جيّدة ، ومن ثَمَّ أصبحوا يقومون بعمليّة الاستدعاء للحضور من المآذن لنفس الغرض!

كان أسلوب حياتي في هذه البلاد قد حتّم عليّ أن أقيم في المستشفى ، وكنت أؤدّي القدّاس كلّ يوم للمرضى ، إلى جانب أداء السرّ المقدّس ، والاعتراف ، وبثّ الطمأنينة فيما يختصّ بالأمور الدينيّة ، والدنيويّة ، مستعيناً في ذلك بالصدقات ، وما توفّر لديّ من الموادّ الغذائيّة ، بعدما تلقّيت الكثير منها في شكل صدقات ، وفي الليل كنت ألازمهم ، وأقوم بغسلهم ، وأحياناً أعاونهم على ارتداء ملابسهم ، وتدريسهم ، قد بلغ عددهم في المنطقة حوالي ستّين فرداً .

في أيّام الأحد أعمل صباحاً في مجال التبشير ، وأداء القدّاس الصباحيّ ، ومن ثَمَّ أذهب لتناول الطعام مع كلّ من يحتاجني ، أمّا في فترة الظهيرة ، فإذا ما كان هناك من تعميد فأقوم بإجراءات التعميد ، وبالمثل أقوم بتدريس التعاليم الدينيّة للأطفال ، وللمواطنين المسيحيّين ، سواء كانوا رجالاً ، أو نساء ، أم من الخدم ، وتبشيرهم ، وعند انتهاء الموعظة كان الكثيرون يرغبون في اصطحابي إلى منازلهم لأشاركهم تناول الطعام ، لكن ليس بوسعي أن أفعل ذلك .

في أيّام الإثنين ، كنت أقوم بإعداد نفسي للدخول في مناظرة وجدل مع اليوغائيّين ، والوثنيّين ، باعتبار يوم الإثنين يوم عيدهم ، وفي أيّام الثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس أستقبل القادمين للاعتراف ، وأعمل على تفعيل المصالحات بين المتخاصمين ، ومن ثَمَّ أذهب إلى السجن

لمواساة المسجونين ، والتخفيف عنهم ، وعن المرضى ، وبالمثل وضع حدّ للخلافات ، وجمع الصدقات ، وتقديمها للفقراء .

في أيّام الجمع عادة ما تكون لي مناظرة مع المسلمين ، وأرتّب الأمر بحيث يكون هناك فلاسفة ، وأطباء ، ومنجّمون ، وسحرة ،

وعموماً ، فحتّى هذه اللحظة لم تسنح لي الفرصة لفه+م المسلمين ، وآمل أن يتسنّى لي ذلك في المستقبل .

إذا ما أمكن أن يرسلوا لي من الهند أحد الكهنة ممّن يلتزم بصفته قسّاً باصطحابي ، فسوف أعمل على هداية المسلمين ، واليهود ، وإذا ما كان هذا القسّ مبشّراً بحيث يمكنه القيام بمهمة تبشير الناس ، فسوف أكون سعيداً ، إذ حينها لن تكون لي اهتمامات أخرى غير ما يتعلّق بأمور الملحدين .

في أيّام السبت أعمل على مفاوضة اليهود في الكنيس الذين سبق أن كانت لي معهم مناقشات كثيرة في مقرّ إقامتي ، حيث يقومون بزيارتي في كثير من الأوقات ، وحيث يكون الجمع غفيراً من البرتغاليّين ، واليهود ، وقد سبق أن أحدثت لهم ارتباكاً عظيماً في صفوفهم ، الأمر الذي نال إعجاب المسيحيّين ، وقد نسبوا ما حدث للروح المقدّسة .

عندما انتهى ذلك الجدل ، كان الارتباك في وسط اليهود كبيراً دون أن يعرفوا أيّة إجابة ، وكان المسيحيّون يشعرون بالنصر ، والفرح ، وقد عزوا كلّ شيء إليّ ، وإلى الروح المقدّسة ، أمّا الإجابات على هذه ، والتي يفترض أن يقدّموها لي في المناظرة القادمة ، فإنهم لم يتجرّأوا

على طرحها ؛ لأنّه من السخف أن نوردها هنا ، إذ إنّها عبارة عن حلقة مغلقة بمعنى الوحدة المقدّسة .

فقد قرّروا أن لا يردّوا عليّ ، وبالمثل هجروا المعبد عند قدومي ، وأن يستمرّوا في توجيه الأسئلة لي ، وأخذ الحيطة في كلّ ما يرد على ألسنتهم ، متعلّلين بالجهل ، وعدم المعرفة ، لقد حضر إليّ "رابي جوزيف" ، وطلب منّي حبّاً في الربّ ، ألاّ أضعهم في مواقف مربكة ، ومحيّرة ، خاصّة فيما يتعلّق بشخصه ، فبالرغم من أنّه يعتبر أستاذهم ، ومعلّمهم في الإنجيل ، فإنّه ليس لديه من العلم ، والمعرفة ، ما يمكّنه من أن يردّ عليّ .

قد أكدّ لي أنّ الكثيرين من اليهود سوف يصبحون مسيحيّين ، ولكن من المعروف أنّ المعاملة التي يلقاها اليهود من المسيحيّين بعد أن يصبحوا مسيحيّين ، ستكون سيّئة لا شك ؛ لأنّهم كشعب يهوديّ يحترمهم المسيحيّون بسبب ثرائهم ، ولكن عندما يعتنقون الدين المسيحيّ فمن الضرورة بمكان ، أن يعود المال إلى أصحابه .

لأنّ هذا المال مكتسب عن طريق الرِّبا ، وإذا ما كان على النحو الذي عليه عندما تكون في وسط المسيحيّين ، فسوف يترتّب عليه أن يكون مسيحيّاً حتّى ولو لم يكن لديه أيّ مال ، لقد ذكر هذا لكلّ المسيحيّين الذين تحدّث معهم .

قد أخبروني بدورهم ، والشيء نفسه قاله اليهود ، إنّهم غالباً ما كانوا يطلبون منّي أن أحضر معهم إلى منازلهم كي أشارك عائلاتهم الطعام ،

والشراب ، وكنت أفيدهم بأنّ الطعام يجب أن يكون متوفّراً للجميع ، وليس لأشخاص بعينهم(أ) .

كنت حبيباً إلى نفسه ، ومصدر إعجابه ، وكثيراً ما دهش لحالة الفقر التي تسود رهبنتنا ، وكان يرغب في التحدث إليّ .

عندما حضر إلى منزلي طرح عليّ عدة نقاط عن الميثاق القديم كي يختبرني ، وبعد الإجابتين الأوليتين لم تعد لديه رغبة في الجدل قطّ ؛ لأنّني كي أبيّن له ما يثبت علمي بتلك المسائل ، صرت أسرد عليه الفصل بكامله .

أمّا "الرابي سليمان" وهو أغزرهم علماً ، ومعرفة ، وهو يقرأ في معبد اليهود الآخر ، وكان قد دخل في نزاع مع المعلم "فرانسيسكو" في "ملقة" ، فلعلّ أبلغ ما دلّ على مثابرته أن ظلّ مع أحد اليهود الآخرين بالقرب منّي ، ولم يبرحا مكانهما قطّ ، موجّهين لي عدّة أسئلة في كلّ ما قلته ، لقد استمتع كثيراً برفقتي ، بحيث إنّه لم يكن يأتي لأيّ غرض آخر ، سوى النهل من العلم ، والاستماع لكلّ ما يتعلق بالأمور اللاهوتيّة ، وفي أحد الأيّام كان قد عاد إلى منزله لتناول الطعام مع زوجته ، وأطفاله ، ومن ثَمَّ قال إنّه لولا مبلغ العشرين أو الثلاثين ألف "بارداو" التي بحوزته لمّا تخلّى عنّي قطّ .

غير أنّ المسيحيّين سبّبوا لي الكثير من المتاعب ، بحيث لم أعد أجد الوقت الكافي للنوم ، أو الأكل ، ولكي أتمكّن من تقديم المساعدة للمجموعة التي أصبحت تنتمي إلى عقيدتنا ، فقد أصبحت غير قادر

(أ) إن المرجع يشير إلى الصفحات الأساسية عن العهود القديمة والتي تدعم مفهوم عيد الثالوث الأقدس .
Cf . Genesis I, 26; III, 5; Isaiah VI,3.

على التحدّث ، أو المناقشة ، أو فعل أيّ شيء آخر مع اليهود ، باستثناء واحد منهم فقط ، عندما وجدته مريضاً في الطريق فأخذته إلى منزلي ، وبعد ذلك كشف لي عن رغبته في أن يصبح مسيحيّاً .

بسبب الألفة ، والمحبة التي وجدت نفسي محاطاً بها من قبل الفئات اليهوديّة ، فقد استشعرت ضرورة الذهاب إليهم ، كي أقرأ عليهم الإنجيل في معبد اليهود ، وأكشف لهم عن الأخطاء التي يرتكبونها ، وكان من المدهش حقّاً ذلك الاستعداد الذي أبدوه ، والاحترام والتقدير الذي يكنّونه لرهبنتنا .

لقد تمكّنوا من تصحيح العديد من الخرافات التي كانت تعشّش في عقول البعض منهم ، وبالمثل قوانينهم ، والمجد للربّ ، وعندما كنت ألتقيهم كانوا يسلّمون عليّ بحرارة ، وكثيراً ما جاء إليّ بعضهم كي يحدّثني عن المضايقات التي تلحق بهم من جرّاء أفعال المسيحيّين ، وكانوا يعجبون كثيراً عندما يشاهدونني أسير حاملاً جرسي الصغير .

كذلك الحال بالنسبة للمسلمين ، والوثنيين ، حيث يقول كيف يكون حال تلك الرهبنة التي تدار بكل هذا الحرص ، والاحترام ، في هذا البلد ، على نحو لم يسبق له مثيل ، وكيف لهذا الكاهن أن يتّسم بكلّ هذا التواضع الجمّ .

كان قد جاء إلى منزلي في أحد الأيّام يهوديّ ، كي يخبرني ما يفعله الحاخامات في معبد اليهود ، وإنّ المستمعين سألوا الأطبّاء الذين كانوا يقرأون ، كيف أنّهم نجحوا في المناطق الأولى التي أقيمت معي في المنزل الذي كنت فيه ، وسوف أخبرك بما حدث :

قبل أن أعرف أيّة مجموعة يهوديّة في أول زيارة لي في هذه البلاد ، كانت شهرة ، وسمعة القدّيس العظيم ، حسبما أخبرني به الوثنيّون ، قد بدأت في الانتشار على نطاق واسع .

في يوم عيد الثالوث المقدّس تأكدت من قيامي بالتبشير لجميع الناس ، ولم يكن عددهم بالشيء القليل ؛ حيث أثبتُّ وجود الثالوث المقدّس لعدة أسباب ، والسرّ المقدّس قديمه وحديثه ، موجّها اللوم لجميع من لا يؤمنون ، ولا يقدّسون الثالوث الأقدس ، وهم اليهود ، المسلمون ، الوثنيون ، والهمج .

يبدو أنّ هناك فئة من اليهود ضمن الجمهور ، أو إنهم ربّما أخبروا عنه ، قد صمّموا على مجادلتي حول ما كنت قلته عن "هوليم" ، دعنا نجعل منكم آلهة مقدّسة مقدّسة مقدّسة[أ] وأشياء أخرى ؛ لكني أجبت بطريقة ما جعلتهم عاجزين عن الردّ ، ما لم يلجأوا لقراءة النصوص ، بالرغم من أنّهم يعلمون كلّ ما ورد في الإنجيل ، ويحفظونه عن ظهر قلب .

قد طلب منهم ذلك وأجاب "رابي سليمان" قائلاً : إنّه لم ير من الناس من هم أعلم من كهنة رهبنتنا ، وإنه برفقة الكثيرين من العلماء لكنّهم لا شيء إذا ما قورنوا بكهنتنا ، وإننا بارعون في المجادلة ، وإنّ هذه سمات خصّنا بها الربّ وحده ، ومن خلالها يمكننا أن ننتصر في كلّ أمر .

(أ) كان المدعو "غاسبار بارزيو" قد أدرج أسماء جميع اصدقائه اليسوعيين أو الأشخاص الذين قابلهم في قوائم وتعتبر هذه الفقرة مؤشراً جيداً عن شخصية "شافير" القوية والمستحكمة ، وقد عرف الكاهن ويلي جميع الأسماء .

عندها أجاب مستمعوه : كيف تعتقد أنّه بإمكانك أن تنتصر ، ما لم تكن ذا علم ، وبارعاً ، وحادّ الذكاء؟ لم يقل لي أيّ شيء آخر ، وإنّما طلب منّي عدم إخبار أيّ شخص آخر ، كي يظلّ الأمر مخفيّاً ، ولا يعرف من أخبرني بذلك .

كانت إحدى بنات اليهوديّ قد اعتنقت المسيحيّة ، ولقد حرمها أبوها من كلّ شيء من مستحقّاتها ، ولكن عندما ذهبت لزيارته في منزله طرح أمامي ، وتحت قدميّ جميع الذهب ، والفضة ، وكلّ ثروته ، وكلّ ما يؤول إليها–أي : بنته–لكنّ هذه الممارسات يجب أن يصار إلى إيقافها ، ولأجل تحقيق هذه الرغبة لابدّ من أن يرسلوا لي أحد الكهنة كي أعود إليهم .

كان المسلمون يحيطونني بالكثير من الحبّ والإجلال ، ويبدو أن الربّ قد تلطّف ، ومنّ بالكثير من الخير من خلال رهبنتنا ، كانوا يسلّمون عليّ بحرارة شديدة عندما يقابلونني ، وكانوا يعجبون كثيراً لما قمت به لأجلهم ، ولعلّ أكثر ما أثار دهشتي ، هو أنّهم لم يناصبوني العداء ، وكان شعورهم نحوي متّسماً بالودّ ، وكثيراً ما كانوا يفسحون لي الطريق للمرور في الطرقات في تلك المدينة ، أثناء الليل ، وسط مجموعات كبيرة من المسلمين ، فيقفون جانباً كي أتمكّن من المرور .

كانوا أيضاً شبه مرتبكين لأنّ الوقت الذي كانوا يتخيّلون أن تغييراً ما سوف يطرأ على قانون فترة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) قد مضى دون أن يحدث شيء ، كان زعيمهم في التحدّث إليّ عن الفقر ، قد

انصاعوا إلى الأوامر التي أرسلتها لهم عندما يتسبّب شخص ما في إلحاق الضرر بشخص آخر .

الوثنيون في هذه المنطقة يعبدون ، ويقدّسون الأبقار ، وكانوا قد حرّروا الكثير من الأبقار التي كانت تحوم في طرقات المدينة ، وكانت هنالك بيوت عامّة ذات دخول ، وعائدات ضخمة ، تقدّم الشراب للأبقار ، حبّاً في الربّ ، سيما في ظلّ عدم توفّر أيّة مياه للشرب .

هؤلاء لا يأكلون أي شيء حيّ أو ميّت ، وإنّما يعتمدون في غذائهم على الخضرة ، والنباتات ، ولديهم نوع ما من عيد الثالوث الأقدس ، وحسب اعتقادي هو ما اتّفق عليه الفلاسفة في أن ينسبوا السلطة للكاهن ، والحرّيّة ، للابن ، والصلاح للروح المقدّسة .

هذا وقد أطلقوا على الربّ العديد من الأسماء ، تضمنّت كلّ شيء ، وهم متواضعون بشكل كامل ، وإذا ما شاهدوا شخصاً يريد أن يقتل أيّ كائن حيّ ، حتّى ولو كان برغوثاً ، أو قُملة ، وهي كائنات نادرة الوجود في هذه البلاد ، نظراً لوجود السحالي ، فإنّهم يتوسّلون له كي يمتنع عن قتلها ؛ لأنّهم يؤمنون أنّهم يجب أن يمتنعوا عن قتل أيّ كائن ، وفي حالة عدم موافقتك على ما طلبوه منك فإنّهم يعملون على شرائه منك لإنقاذ حياته .

لقد اكتشفت خارج المدينة أنّ هناك مجموعة من المحبوسين ، يعيشون في كهوف ، ويدينون بالطاعة ، والولاء لأحد الزعماء المتقشّفين ، أيضاً كالوثنيين لهم عيد الثالوث الأقدس ، لكنّهم يجوبون العالم كالقدّيسين ،

ويعرفون باسم اليوغائيّين ، وهؤلاء يحبّون الفقر ، والبساطة ، ويعملون على تغطية ملابسهم بالوحل دلالة على الفقر ، فهم فلاسفة عظماء .

ولا زلت أحلم بأن يكون بينهم زعيم تكون أفكاره مقبولة ، إذ إنّهم مقتنعون بما يفعله ، كما أنّهم يرغبون في البقاء بجانبي بسبب حبّهم واحترامهم لي ، ويعتقدون أنّ حياتي تماثل حياة اليوغائيّ ، فيقومون بقرع الأجراس كنداء لصلاة الليل ، وهؤلاء هم الناس الذين أحبّ أن يكونوا برفقتي عندما أذهب للوثنيّين ، ولولا انشغالي بالمسيحيّين لفضّلت أن أعيش وسطهم .

لو كانت لديّ صلاحيّات من قبل المعلّم "فرانسيسكو" ، أو الكاهن "أنطونيو جوميز" الذي أدين له بالفعل كثيراً ، وليس بوسعي أن أنفي إذا ما كان لدي حماس في الهند أنه مصدر ذلك الحماس ، وإنّني قد كسبته بفضل حمايته ، أسأل الربّ أن يوفّقني في اللقاء به ، كي أشكره على ذلك ، وربما تحقّق لي ذلك إذا ما قدّر الربّ أن يستشهد الكاهن "فرانسيسكو" ، وكان يصلّي لأجل ذلك .

لقد تمّ إبلاغي بالعديد من الأوامر الدينيّة ، مثال الرهبان ، والراهبات ، في أوساط الوثنيّين ، وربّما كانت الدولة التي نأمل فيها سوف تعطي إلينا من قبل الربّ ، فيجب عليكم أيّها الإخوة أن تصلّوا ، وتدعوا لنا ، كي يتحقّق لنا ذلك .

كان المسلمون أكثر قلقاً ؛ لأنّهم ينسبون كلّ شيء إلى الدافع ، والمحرّك الرئيسيّ ، الذي يفعل كلّ شيء ، وإذا كان ما يفعله المسيحيّون لأجل الربّ ، فحينها لن تكون هناك أيّة حروب ، مثل ما هو عليه الحال الآن .

المسلمون يجوبون الطرقات ، وهم ينشدون تعاليمهم ، وكأنّهم مسيحيّون ، وهناك أحد المعتنقين يسير هنا وهناك ، وهو ينشد بتلك الطريقة ، وقد كافأه المسيح .

في أمسيات أيّام السبت ، كنت أقوم بتدريس المسيحيّين التعاليم المسيحيّة عن الإثم الناتج عن الجشع ، وقد أثمرت هذه الجهود في هذه البلاد من خلال ظاهرة المراباة ، وفي كلّ يوم تتمّ هداية الكثير من الهمج ، والمجد للربّ .

بعد تناول الطعام كنت أخرج يوميّاً في الطرقات أقرع الجرس لأجل جمع الأطفال لحضور الدروس الدينيّة .

في كلّ أمسية أردّد نفس الأقوال "المسيحيّون المخلصون" مذكّراً النفوس بالأعراف -الحاجز بين الجنة والنار- والصلاة الربّانيّة ، والصلاة لأجل تطهير النفوس من الذنوب الدنيويّة .

أيضاً كان الأرمن قد دعوني لزيارة الفئات التي تحتضر ، وكانوا يعترفون من خلال مترجم ، ويعملون على الحضور للاستماع للمواعظ .

عليه فيمكنكم أيها الإخوة أن تقفوا على حقيقة ما يجرى بشكل عامّ في هذا الجزء من فارس ، فهناك العديد من سكّان هذه الدولة والكثير من الرجال الأثرياء ممّن يرغبون في إعطائي أبناءهم ليكونوا في خدمتي ، ويرغب معظمهم في الانضمام إلى رهبنتنا التي بفضل الربّ اتّخذت تلك الشهرة الحسنة .

أرسلت أحد السادة إلى المدرسة هنا في "غوا" طالباً منهم أن يقبلوه

عندهم ، فهو شخص درس النحو لمدة ثلاث سنوات ، أمّا البقية فهم أميون ، لذا لم أرسلهم ، لكنهم يرغبون بشدة في أن يأتوا معي لـ "الصين" ، أو إلى أيّ مكان آخر ، عندما أرسل لي المعلّم الكاهن "فرانسيسكو" ، فإخلاص هؤلاء الناس نقي بحقّ وحقيقة ، والمجد للربّ .

إذا لم تتلقّ الكثير من خطاباتي أرجو ألا تنساني من صالح الدعوات في صلواتك ؛ لأنّك إن لم تفعل ، فكيف سيكون مصيري؟

أعتقد أن هناك عاملين قد ساندا كهنتنا ، الذين برغم كل هذا العذاب ، يجوبون تلك البلاد الغريبة ، آخذين بتعاليم المسيح ، ويتعاملون مع مختلف الأجناس ، والأمم ، وحدهم وسط أشرار الناس ، وربّما يحدث أن تقوم إحدى النساء المتزوّجات بمهاجمة الكهنة في رهبنتنا ، لا لشيء سوى الاعتقاد بأن أطفالهم سوف يصبحون طاهرين وصالحين ، وهذه هي أسلحة الشيطان ، دع من لهم آذان يسمعون بها ، ومن لهم عقول يفهمون بها ، حتّى لا تخدع أحداً في عقيدته الروحيّة ، بل يجب أن يجاهد كي يكسب المزيد .

يجب ألا يتسرّب الغرور إلى رهبنتنا ، برغم أنّ رهبنتي ليست على النحو الذي أقول ، يجب أن تكون عليه ، والحمد للربّ ، وأقول يجب أن تتمسّكوا بهذه النصيحة من كاهن فقير ، بحيث إنّه عندما تُرسلون يجب أن تكونوا متسلّحين بتعاليم المسيح ، لأنّ الربّ هو نورنا ، وحامينا ، لذا ممّ نخاف ، ونخشى ، إن لم نخش غضبه وعقابه؟!

هذان الأمران هما ما أحافظ عليه على الدوام ، وبخلاف ذلك يستحيل على أولئك الناس في ظلّ إهمالهم ، وتخلّفهم ، كما أعرف ،

أن يفيدوا من وجودي هنا ، ويكونوا ذوي جدوى للرهبنة ، ومن يتمكّن من المرور فوق نيران عظيمة دون أن ينصهر بفعل نيران الابتلاء ، تماماً كما هي تجارب تذويب ، وصهر الذهب في الفرن ، إنّنا عبرنا لـ "الأردن" بعصا ، ولكن عدنا بأسطولين ، حسبما كتبت للمدرسة "اس باولو" في الهند ، وكان أولاها أن المسيح يحمي تلك الرهبنة ؛ لأنّها ومن فيها من الكهنة ملكاً له ، وإنه لا يقيم وزناً لكفاءاتنا بقدر اهتمامه بها .

أمّا الأمر الثاني فهي صلوات كهنتنا الأعزّاء في الصحراء ، وإخوتنا في "أوروبا" والهند ممّن يتّقدون حماساً أمام الربّ ؛ لأنّنا نمثّل جسداً واحداً له عدّة أعضاء ، رأسه اليسوع .

هؤلاء الخدم باختلافهم ، وتنوّعهم ، يؤدّون خدمة واحدة ، بعضهم بمثابة الأيدي التي تعمل ، ومثل ذلك الذين ينتشرون في الصحاري بعيدين عن مواطنهم ، وآخرون بمثابة الأقدام ، وهم من يتّسمون بحماس دافق ، ورغبة شديدة في العمل لأجل اليسوع .

آخرون يخدمون بألسنتهم ، الذين يخدمون غيرهم من الذين يمثّلون العيون التي تراقب القطيع ، كرعاة مخلصين .

آخرون بمثابة الآذان ، وهم منكبّون على الدراسة .

آخرون كالأنوف التي تشتمّ روائع الفضائل .

آخرون يمثّلون الفئات الواعية المتفكّرة .

آخرون كالمفكّرات ، الأطبّاء ، وغيرهم ، الذين يعملون في المطابخ ، وعند الأبواب ، وفي حجرات الطعام .

آخرون كمديرين في وزارات الجمهور .

لا أحد يعتقد أنه في غنى عن الآخرين ، فكلّ ما نعمله هو أمر واحد ، وهو خدمة الربّ .

كيف يعنى لي الأمر أن أكون عضواً يجد من الآخرين المساعدة بالمثل ، بحيث لا يعمل عضو دون مساعدة الآخرين ؟

كيف لي أن أعيش إذا كنت يداً دون قدم ؟

كيف يمكنني أن أعيش ، إذا ما كنت أعمل دائماً كطبّاخ ، وليس كمبشّر لجميع الناس في العالم ، إذا ما كنّا نفعل أمراً واحداً ؟

إخواني الأعزّاء ، لكي تعرفوا مدى أهميّة إنجازكم أمام الربّ ، انظروا لما يجري هنا في الهند والبلدان الأخرى ، واعلموا أنّكم تقومون بأداء كلّ هذه الأعمال .

أيّها الإخوة الرهبان ، إنّني في هيئتي هذه التي ترونني عليها ، أكثر المعذّبين عن كلّ ما حولكم ، وإنّني مجبر من قبل الجميع أن أطالب بهذه المحبّة ، والابتهالات بالإنابة عن جميع الإخوة الرهبان ، الذين يتّجهون للبلدان الأجنبية ، والذين يحملون همّ ، وعبء الرهبنة ، حتّى لا يضعفوا ؛ لأنّ شرف هذه البذرة يكمن في جمهور اليسوع ، فالويل والثبور لمن يعمل وحده ؛ لأنه لن يجد أحداً يساعده ، ويشدّ من أزره .

آه كم هو جميل أن يعيش الإخوة جنباً إلى جنب ، في وحدة وتآزر ، بحيث إذا سقط أحد يجد من حوله ثلاثمائة من الإخوة ، يمدّون له أيديهم لمساعدته ، وهذا ما يجعلني أقول لمن هم في الخارج :

احملوا العبء كي تتذكّر كلّ المدارس هذه الابتهالات ، والكهنة في تدارساتهم ، وجمهورهم ، حتّى يصبح شرف القدّيسين شرفاً لنا .

هنالك ثلاثة عوامل تعمل على مؤازرة الرهبنة :

أوّلاً : معرفة النفس ، والتواضع ، والفقر .

ثانياً : معرفة الربّ ، ومعرفة الآخرين ، وذلك عن طريق التفكير ، والتأمّل الذي يتعلّق بحبّ الربّ ، ونشاط المرء في الحياة ، ويختصّ هذا بحبّ الشخص لأخيه ، وحبّه لجاره .

ثالثاً : حسن التميز ، وحرّيّة التصرّف ، والتمسّك بهما ؛ لأنّهما أساس العلم ؛ لأنّه في وسط المسلمين ، والوثنيّين ، والملحدين ، واليهود ، يصبح ذلك أمراً ضروريّاً ، لذا فيجب أن تبدأ بالخطوات الثلاثة هذه ، وسوف يتبيّن لك إلى أين تقودك ، فمن خلال التواضع يمكننا أن نوطّد معرفتنا بالربّ وبالجار ، ومن هناك للتعلّم ، إنّني لم أقل كي أدرّسه ، وإنّما لأجل تذكير الإخوة الأعزّاء ، وذلك كيلا تعتقد أن التعلّم هنا ليس ضرورياً كما هو هناك ، وأسأل الربّ أن يمن به عليكم .

لقد سمعت أن أحد الكهنة في رهبنتنا ، في هذه المناطق من الهند ، يعمل جاهداً لاستدراج أحد الرجال الأقوياء من ذوي النفوذ للاعتراف ، وهو طاغية جبّار ، وكانوا قد أخبروه عن الفظائع ، والأعمال الوحشيّة التي سبّبها للناس ، ولم يجد شخصاً قطّ يذكره بالخير ، وعندما حاول الكاهن أن يلومه بسبب نقائصه تلك أجاب بشكل فظّ ، وهو يستشيط غيظاً ، وحينما رأى الكاهن أنّ في ذلك هلاكًا لهذا الرجل ، شرع يدعو الربّ في صلاة القدّاس أن ينوّر بصيرته .

لقد حدث في إحدى الليالي ، وقبل بزوغ الفجر ، أنّ ذلك الرجل أبصر الكاهن واقفاً أمامه ، بالرغم من أنّ كلّ الأبواب كانت موصدة بإحكام ، وقد ظهر أمامه في هيئة متوهّجة تنبعث من يديه ، ووجهه ، نكهة عطرة ، ملأ شذاها أرجاء المنزل ، ورأى في نفس الوقت رجلاً آخر يخاطبه قائلاً : ماذا تفعل أيّها الآثم؟ لماذا لا تعترف للكاهن بكذا وكذا؟ ألا ترى هذا التوهّج الماثل أمامك؟

بعدها اختفى الكاهن ، وأصبح الرجل وحيداً مع نفسه ، وكان سعيداً ، وعندما تبيّن أنّه لم يعد هناك وجود لذلك الكاهن ، بدأ يسأل عنه ، وعن مكانه ، فأخبروه أنّه موجود في المستشفى يقوم بأداء القدّاس ، استغرب الرجل ، وأرسل في طلب الكاهن ، وهو يشعر بالكثير من السعادة ، كي يخبره بما حدث ، وبالفعل تمّ له ذلك ، وطلب الاعتراف ، وكان له ما طلب ، واستمرّ في التمرينات لأسبوع كامل ، وأعلن توبته ، وعيونه تفيض بالدموع .

إنّني لم أتحدّث في معظم الأمور ذات الصلة بهذا الكاهن ؛ لأنه لا يحبّ أحداً أن يكشف هذه الأمور ، وقد حدثت عدّة أمور سرّيّة لهذا الكاهن مع ذلك الرجل ، سوف يأتي الوقت للتحدّث عنها ، أيضاً حدث أنّ هذا الكاهن طلب منه أن يقوم بقراءة القدّاس ، والصلاة على أحد الأبناء ، وكان الابن كفيفاً يحتضر ، وفي نفس اليوم الذي أدّى فيه القدّاس تمّت معالجته من حمّى بعد أن سقطت قشرة من عينه ، وبالتالي تمّ شفاؤه .

أيضاً كان الأب الكنسيّ نفسه قد ذهب يدعو أحد الرجال لكي

يعترف له ، كي يخلّصه من الكثير من الشرور ، والذنوب التي يقترفها ، لكنّ الرجل رفض قائلاً إنّه لا يؤمن بالربّ ، وبالتالي فإنّه لن يعترف ما لم يأخذ بثأره من كلّ ما حدث له ، وبالإضافة لذلك ، فإنّه لن يعترف قطّ ، وإنّه يعتزم قتل أحد الرجال .

قال له الأب الكنسيّ : إيّاك ؛ لأنّك قبل منتصف نهار الغد سوف تطلب الاعتراف أكثر من خمس مرّات ، وحينها لن تجد من يستمع إلى اعترافاتك .

بالفعل حدث هذا ؛ لأنّه بعدما غادر المنزل أصابته حمّى شديدة ، حتّى أصبح على شفا الموت ، وقد طلب الاعتراف أكثر من خمس مرّات ، ولم يعثر على أيّ أثر للكاهن كي يأتي للاستماع إلى اعترافه .

أيضاً كان هناك رجل شرّير آخر ، كان قد سبّب لهذا الكاهن الكثير من القلق والإزعاج ، لما كان قد ارتكبه من جرائم قتل ، كان الكاهن قد قال عنها كذا وكذا ، وأشار أنّه عند الاعتراف سوف يدعو الربّ لهذا المجرم بأن تصيبه حمّى ، وفي نفس اليوم سقط هذا الرجل مريضاً ، ومن ثَمَّ جاء مسرعاً طالباً الإذن للاعتراف قبل أن يموت ، وعندما انتهى من الاعتراف قاده الكاهن من منزل إلى آخر في المدينة ، كي يستسمح من أعدائه الذين بلغ عددهم أكثر من عشرة أفراد .

كان بعضهم قد عبّأ بندقيته أملاً في قتله ، وتسلّح بعض آخر للنيل منه ، ولجأ آخرون لاستخدام عصابة لقتله .

عموماً ، حدث أن عفا عنه جميع أعدائه ، وبعدما كان في الماضي يصحب مجموعة كبيرة من أتباعه لأجل حراسته ، خاصّة وهو من

النبلاء ، وأحد القادة ، فالآن ها هو يسير فقط بجانب الكاهن دون أن يحمل سيفاً ، أو أي سلاح آخر .

بعدها أكمل اعترافه الذي شابه الكثير من الأسف ، والتوبة ، وبالفعل تمّ علاجه .

لا تعتقد أن ما أكتبه هنا يتعلّق بشخصي أنا ، وهو شرّير آثم ، لقد خبرت الكثير من الأشياء عن الهند وعن الكهنة عندما غادرت المنطقة ، وبالرغم من أنّني موجود في منطقة تبعد كثيراً عن الهند مازال تواصل الكهنة معي مستمرّاً ، من خلال الرسائل ، بحيث أتى الكثيرون من تلك الأنحاء .

أيّها الإخوة الرهبان الأعزّاء : هل بوسعي أن أكتب لكم عن كل ما سيحدث؟ إذا ما كان فقط بوسعك أن ترى كلّ يوم بهذين العينيين الآثمتين كم سيزداد ورعك عندما تصلّي للربّ لما يمكن أن تراه ، وإذا كان لي أن أكشف لك في الاعتراف عمّا أعلمه عن عظمة الربّ الذي يُعنى بالرهبنة هنا ، فإنّني أتوسّل لك أن تبادل ، وتظهر حبّك لكلّ فرد ، ولكلّ عزيز ، بقدر متساوٍ من الحبّ للجميع ، وألاّ تكون غريب الأطوار ، أو مستخِفّاً بأيّ فرد مهما كان صغيراً ؛ لأنّهم هم من يستخدمهم الربّ ، ويعمل من خلالهم .

قد اختار هذه الطبقة الوضيعة كي يذلّ بهم الأقوياء ، والجبابرة ، فكلّ فرد منهم يعلم أنّه الأكثر جهلاً ، وخسّة ، ودناءة عن الجميع ، كي يكون بين أولئك العظماء ، وسوف تدرك كم إنّ الربّ رحيم بعباده الصالحين ، من ذوي القلوب الطاهرة .

أعزّائي لن أقول المزيد ، حتّى لا أبدو مسهباً أكثر ممّا أنا عليه ، وأقلّل من حماسكم ، خشية أن تنتبهوا لجهلي ، ووقاحتي التي أمارسها عليكم ، وأنا أجسّد لكم النموذج السيّئ في القول ، والفعل .

أتمنّى أن تكنّوا لي من الحبّ ما أكنّه لكم ، وحسب اعتقادي أنّه متغلغل في وجدانكم ، وربّما يكون أعظم ، أسأل الربّ أن يحكم فيما بيني وبينكم ، وآمل أن لا تدعوا أحداً يحكم عليّ أو يقيّمني على نحو أكبر ممّا أنا عليه ، فالطاعة ، والحبّ لهذا المجد ، يجب ألاّ توجّه إلينا وإنما لاسم اليسوع ، الشكر للربّ أن خلقنا في الصورة التي نحن عليها الآن ، لقد أنقذنا من كوارث ، ومصائب عدّة ، وحقّق لنا هذه الرهبنة المقدّسة ، ولهذا دعَونا أن نكون شاكرين غير جاحدين لهذا الفضل ، والمنة التي أعطانا إياها الربّ .

إنّه التعميد الأكثر عظمة ، والذي نشرناه في مختلف المناطق ، ونسأل الربّ أن يجمع شتاتنا ، ويجعلنا نتحدّ مع بعضنا البعض في منزلة مقدّسة ، آمين .

الأب الكنسيّ "جوميز" ، الأب "باولو" ، الأب "بالتازار غاغو" "Balthasar Gago" ، و"فرانسيسكو لوبيز" "Francisco Lopez" ، و"ريماو بيريرا" ، و"بيرنالدو اندريه" "Bernardo Andre" ، وجميع إخواننا الرهبان في رهبنة القدّيس "باولو" في "غوا" .

الأب الكنسيّ "سيماو" ، الأب "جواو" "Joao" ، الأب المعلّم "غونسالو" ، الأب "فرانسيسكو دي استيرادا" "Francisco de Estrada" ، الأب "لويس غونسالفس" "Luis Goncalves" ، الأب "لويس دا غرا" ، الأب "كاثيرو"

"Cathero" ، الأب "مانويل" ، الأب "جواو نونيس" "Joao Nunes" ، الأب "بلشيور نونيز" "Belchiore Nunes" ، الأب "أوريانو" "Oriano" ، الأب "غونسالو فاز دي ميلهو" "Goncalo Vas de Melho" ، الأب "فيريرا" "Perriera" ، الأب "مانويل كوتنهو" "Manuel Coutinho" وجميع الآباء الكنسيّين .

الراهب "فرانسيسكو أنريكوس فروتوسو" "Francisco enriquos Frotoso" ، "سواريس" "Soares" ، "منديس" "Mendes" مع الممرّض عندما دخلت هذه الرهبنة ، والإسكافي "فيسنتي" "Vicente" ، و"جواو" الطبّاخ مع جميع إخوتي من الرهبان في مدرسة "كويمبرا" و"البرتغال" .

الآباء والرهبان في "قشتالة" ، و"سلمنقة" ، و"الكالا" و"سيراقوزا" و"فالينسيا" ، الآباء والرهبان في "إيطاليا" .

الأب الكنسيّ "أنيغو" "Anigo" ، الأب "سانتا كروز""Santa Cruz" ، الأب "بوبا دلها ماسكارينهاس" "Buba Delha Mascarinhas" ، مع جميع الآباء الكنسيّين في "روما" و"إيطاليا" .

الأخ الراهب "بوتلهو" "Botelho" وجميع الأخوة الرهبان .

الآباء الكنسيّين ، والأخوة الرهبان في مناطق "فلاندرز" و"لوقيين" ، والآباء في "مانكونغو" "Mancongo" "جورج فاز" "George Vaz" وجميع الرهبان

الأب الكنسي "هنريك انريكس" "Henrique Enriques" ، الأب "أنطونيو" ، والأب "باولو دي فالها" "Paolo de Valha" ، الأب

"نيكولاو" "Nicolao" ، والأب "سيريانو" في "أس تومي""S . Tume" ، وجميع الأخوة الرهبان .

الآباء الكنسيّين في "ملقة" ، "فرانسيسكو بيريرا" "Francisco Perriera" ، والإخوة "دي بيريرا" إذا لم تستلم التاج حتّى الآن ، الأب "موريس" "Moris" ، الراهب "جواو فيرنانديز" "Joao Fernandes" ، وإلى جميع الآباء الكنسيّين الأعزاء في "اليابان" ، المعلّم "فرانسيسكو" ، الأب "كوسمي دي توريس" ، الأخوة الرهبان "باولو" الياباني ، والآخرين ، جميع الآباء ، والإخوان فأنا العبد المذنب الفقير لرحمة الربّ "غاسبار" "Gaspar" .

لقد حدث أنّ أحد الآباء الكنسيّين في رهبنتنا تعرّض في أحد الأيام لإزعاج شخص أراد منه أن يساعد إحدى النساء ، وكانت تعاني من حالة تشنّج ظلّت تعاودها من وقت لآخر ، وحينها كانت ترى خيالاً أمامها ، وهذا ما جعلها مريضة بصفة دائمة .

لقد ظلّت هذه الحالة تسبّب لها اكتئاباً عظيماً ، كان لدى الأب الكثير من الأشياء كي يفعلها ، لذا لم يذهب كي يقدّم مساعدته ، ففي ظلّ عدم ذهابه شخصيّاً عمد لكتابة بعض الكلمات المقدّسة من نصوص السرّ المقدّس من إنجيل القدّيس "جون" ، وأخبرها أن تعلّقها حول عنقها ، وعندما أصيبت تلك المرأة بذلك التشنّج قام الرجل بوضع الكتابة على عنقها ، وقد حدث أن عوفيت هذه المرأة فوراً ، والمجد والعظمة للربّ الخالق الشافي ، ولم يعاودها ذلك المرض مرّة ثانية قطّ ، والحمد والفضل للربّ وحده .

عند حضوري لأوّل مرة إلى هذه البلاد مارست الفقر ، وكنت

أتجوّل في أسمال بالية جدّاً ، الأمر الذي كان بمثابة صدمة للناس في هرمز ، الذين قالوا إنّ هذا أمر لا يشرّفهم ولا يقبلونه ، وبالتالي قدّموا لي العديد من الأقمشة ، وهذه تبدو أفضل بكثير من التي كنت أرتديها ، وأتجوّل بها ، لأنّ شرفهم كان في شخصي خاصة ، وإنّهم لا يرغبون في أن يكونوا عرضة للسخرية من قبل المسلمين ، والقساوسة .

عندما كنت في يوم ما في منزلي أرسل لي أحد التجّار الأتراك قطعة من وبر الجمال ، بواسطة أحد اليهود حيث طلب منّى أن ألبسها غير أنّني كنت قد خيّبت ظنّهم ، لقد بذلوا الكثير من الجهد معي بحيث إنّهم أجبروني أيضاً على ارتداء ملابس جديدة ، وآخرون أرسلوا الأحذية ، وبعض القمصان ، وسترة ... إلخ .

بعد كتابة هذا الخطاب قمت بإلقاء موعظة ، إذ كانت هناك بعض الرذائل ، والآثام ، صعب عليهم هجرها ، والتخلّص منها ، وكانوا غاضبين أشد الغضب منّي ، وأخبروني أنّه ليس من الصواب أن أفعل ذلك ، غير أنّني أخبرتهم أن اللوم الذي وجّهته كان بصيغة العموم ، وإنّهم إذا ما اعتبروا أن ذلك ينطبق عليهم ، فإنّهم لا شكّ هم مخطئون في ذلك .

أخيراً جثوت أمامهم طالباً منهم أن يسامحوني على ما سببته لهم من مشاكل ، غير أنّ ذلك لم يأت بفائدة تذكر ، حيث قالوا إنّهم ليسوا سوى أجساد ، وقد مُنِيَ الناس بخيبة الأمل تجاه هؤلاء الكهنة الذين لا يحبّون أن يتمّ انتقادهم ، وتوبيخهم عندما يقعون في أيّ خطأ .

لقد قرّرت أن أترك هذا الأمر للربّ وحده ، الذي يعلم كم هو

ضئيل هذا الأمر ، ومن ثَمَّ عدت في اليوم التالي كي أقوم بواجب التبشير ، والقدّاس ، وعندما انتهى القدّاس كان زعيمهم الذي ظلّ يعارضني بصفة مستمرة قد جاء إليّ ، ورمى بنفسه تحت قدميّ طالباً السماح ، وقال وعيونه ملأى بالدموع ، ووجهه على الأرض : إنّك رجل صالح تقيّ وطاهر ، وإنّه رأى في الموعظة التي ألقيتها أنّ الربّ قد ألهمه فهم حقيقة كم أنا طاهر القلب ، ونقيّ السريرة تجاه الربّ .

انخرط باكياً ، وظلّ ينتحب طيلة استمرار الموعظة ، وقد قطع لي وعداً بأنّه لن يفعل ذلك مجدّداً قطّ ، وأنّه سوف يغيّر من تصرّفاته ، وطلب منّي التحدّث معه قائلاً : إنّه يريد أن يغيّر حياته هذه ، بعد ذلك رفعته من ركوعه ، ومن ثَمَّ أصبح أكثر قرباً منّي ، والحمد للربّ .

لقد استودعت نفسي للربّ ، وأثنيت وحمدت الربّ ؛ لأنّني آمل قبل أن ينقضي هذا العام أن يحدث تغيير كبير في حياة هؤلاء الناس من الهمج ، والمسيحيّين ، وبالنسبة للسبل التي ألهمني إيّاها الربّ ، المجد للربّ الآن وللأبد .

"غاسبار"

****

ملحوظة المترجم : النص المكتوب بلغة مائلة باللغة اللاتينية هو الأفضل وهي في المقام الأول ذات صلة بالكتاب المقدس ، وعلى وجه الخصوص بالأناشيد أو نشيد الإنشاد .

وفي العام نفسه (١٥٤٩م)

رسالة من الكاهن "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" إلى اليسوعيّين المقيمين في الهند و"أوروبا" ، هرمز ، العاشر من شهر ديسمبر عام ١٥٤٩م ، ويذكر فيها وصفاً للمنطقة حول هرمز والأحداث التي جرت هناك : (١٠)

١- نسأل الربّ أن يحمينا ببركة الأب الكاهن ، ويؤمّننا بسلام المسيح ، وينعم علينا بفضل جميع القساوسة ، ويهدينا إلى طريق الرشد ، وباب السلام ، ويلهمنا حبّ سيّدنا المسيح الذي يبعث في نفوسنا النور والضياء . (أ)

ونسأله أن ينقذنا ، وينقذ كلّ المظلومين ، والخائفين من العواصف ، وأن ينشر رحمته ، وعطفه ، ويؤمّن كلّ خائف ، ومتشرّد في كلّ مكان ، وأن يوحّد صفّهم ، ويجمع كلمتهم في رباط دينيّ واحد .

(أ) المصدر- الحكمة - ٣ ، ٧ .

---

(١٠) رقم الوثيقة والهامش .

أعزّائي ، وأحبابي الكهنة ، والرهبان في أفضل جمعيّات اليسوع تميّزاً ، يجب ألا تفرّقكم هذه الحياة الفانية ؛ لأنّها ليست إلاّ فترة زائلة ، لكن مع المستتر ذي القدر .[أ]

إنّه من الحماقة أن تنصب شراكك كلّها على مرأى من الطيور[ب] ؛ لأنّ ذلك هو الجنون ، فلابدّ لك من إجراء عمل صغير ثانويّ ، كي يتعلّم أتباعك التجربة ، إنّنا جميعاً إخوة ، ولابدّ من أن نتعاون معاً ، ولذلك فعندما يرى أيّ أحد أمراً مناقضاً ، فلابدّ له من الاهتمام به ، من منطلق الأخوّة ، كي يتمّ التدارك ، وتصحيح الخطأ .

٢- لم يبق لي هنا أيّ وقت ، أو أوراق ، أو حبر ، أو حياة لي ، كي أكتب لكلّ فرد عن الأشياء التي حدثت لنا في رهبنتنا .

المجد للمسيح الذي يطاول عدله عمق[ت] مياه البحر ، والذي يتراءى في كلّ شيء ، وهو الحامي لشعبه ، وأنصاره .

من على البعد يتبادلون الرسائل الشخصية عن كلّ واحد من أحبائي الرهبان ، والكهنة ، وذلك بسبب الطريقة التي اتّخذها الأب الزعيم "فرانسيسكو"[ث] في إصدار أمره إلى الفئات المنتشرة في المقاطعات الوثنيّة لأتباعه ، بصفته راعٍ أمين في الطاعة ، والمبدأ ، والقدوة ، ويجب أن نعمل على التعلّم منه حتّى المَمات خاصّة شخصي .

(أ) الكورنثيون – سفر في العهد الجديد ١٨ ، ٤ .

(ب) المصدر– المزامير ١٧ ، ١ .

(ت) المزامير ٣٥-٧ .

(ث) انظر أمر الزعيم "فرانسيس شافير" في القسم الثاني ٢١ ، ٩٢ .

بما أنّني كنت الأقلّ قدراً ، ومقاماً في وسطهم[(أ)] ، فقد كنت قد عرفت بذلك في رهبنة اليسوع ، وإنّني أطرح أعمالي كي تشهد لي .

لولا التزامي بالانصياع لعمل هذا في العام الماضي[(ب)] عام ١٥٤٨م لكنت خجلاً جدّاً أن أكتب ما كتبته ، بل وأكثر منه في هذه السنة التي أُمرت فيها أن أكتب بالتفصيل ، بالأشياء التي تحقّقت لرهبنتنا ، بفضل الربّ .

بالرغم من ذلك ، فقد واصلت جني قدر وافٍ من الرضا ، والقبول ، من خلال ما ألزمت بالكتابة عنه ، لأنّني أؤمن -انطلاقاً من مهاراتي مع شيء من الاستدراج والتقوى- أنّ كلّ شيء سوف يتطوّر بشكل جيّد .

عندما يفهمون أنّ هناك حماساً متوهجاً وسط شيء غير متميّز ، فإنّ الهمم سوف تُستنهض ساعة يرون الربّ يساند كلّ فرد ، معتمدين على الاستعداد الذي يحسّونه ، وبما أنّ الوقت لا يسمح لي بعمل أيّ شيء آخر ، فسوف أواصل الوصف بشكل عامّ ما أمكنني ذلك ، متناولاً نقاطاً بعينها ، كشخص تناجي أعماقه أعماق الآخر ، بين هدير ، وصوت شلالاتك[(ت)] .

٣- في الرسالة التي كنت قد بعثت بها في العام الماضي إلى الأب "لويس دي غراو"[(ث)] عند مغادرتي من "غوا" إلى "كوتشين" ، حيث يقيم الأب الآمر "فرانسيسكو" ، كنت قد أعطيت معلومات خاصّة

(أ) المصدر الكورنثيون ١٥-٩.

(ب) انظر رسالة "بارزيو" أعلاه الوثيقة ٥٦.

(ت) المزامير ٨ ، ٤١.

(ث) فقد "بارزيو" الخطاب المرسل من "لودفيكو دا غرا" (المصدر الوثيقة ٥٦ أ).

عن الكيفيّة التي تمّ إرسالي بها إلى "شاليام" بواسطة الكاهن "أنطونيو جوميز" لأجل بناء مدرسة خاصّة بالسادة المبتدئين حديثي الدخول في المسيحيّة ، الذين قدموا إلى "غوا" ، لأجل تدريبهم في كلّ ما يتعلّق بالأمور العقائديّة ، والعيش مع المقيمين في "كاليكوت" .

كان ملك "تانور" حريصاً جدّاً على الدخول في المسيحيّة في الوقت الذي مررت فيه على تلك المناطق ، غير أنّني امتنعت عن زيارته ، وأيضاً عن زيارة اثنين من رهبان إخوانيّة القدّيس "فرانسيس" الذي أسدى له معروفاً كبيراً في العمل بدلاً عنّي(أ) .

في "شاليام" "Shaliam" كنت قد أوجدت كلّ شيء تحتاجه تلك المدرسة تقريباً ، هذا إلى جانب سور من الحجر ، وغرفة للطبخ ، وحديقة يمكن أن يُبنى فيها منزل ، ومجموعة كبيرة من المنازل الراقية ، لكي نسكن فيها ، هذا إلى جانب سبعين "بارداو" نقدا .(ب)

بهذه الطريقة غادرت إلى "كوتشين" كي أقدّم تقريراً عن هذا الكاهن المدعوّ "فرانسيسكو" .

نظراً لأنّه كان قد خطّط لأمر آخر خاصّ بي ، فقد تبيّن أنّ هذا لا يناسبه ، وعليه أمرني في اليوم التالي بالذهاب فوراً إلى "غوا"(ت) مرّة أخرى ، هذا وقد قضينا تلك الليلة مع كهنة رهبنة القدّيس "فرانسيس" الذين جهّزوا لنا احتفالاً كبيراً ، وكأنّنا إخوة في الرهبنة نفسها .

(أ) كان "فيسنتي دي لاتوس" O-F-M واحداً منهم .

(ب) المصدر الوثيقة- ٤١ ، ٣٩.

(ت) يبدو أنّ ذلك قد حدث في شهر يناير عام ١٥٤٩م ، (المصدر- القسم ١١ ٧٢ ، ٣٦).

٤- ومن هناك انتقلنا إلى "كانانور"(أ) "Cananor" حيث تمّ استقبالنا بكلّ الترحاب ، والودّ ، في دير القدّيس "فرانسيس" ، وبما أنّنا وصلنا "غوا" ونحن لا نعلم أيّ شيء ، فقد علمت أنّ الكاهن الزعيم "فرانسيسكو" قد أعدّ لي برنامج عمل ضخم ، بحيث إنّني خشيت أن العمل سوف يشغل جُلّ وقتي ، ولقد رأيت أنّه من الحماقة فعلاً أن أحتجّ ضدّ ذلك البرنامج ، أو أطلب العطف ، والشفقة ، أو حتّى أكشف عن قصوري وضعفي ، كي أُعفى من تلك المهمّة . (ب)

على كلّ حال كانوا قد تفهّموا الأسباب التي جعلتني أعترض ، وبالفعل تمّ إعفائي من ذلك العبء الذي أرهقني ، وأثقل كاهلي ، والمجد للربّ وحده .

بعد ذلك قام بإرسالي إلى هرمز ، وهي بلاد لم يكن لرهبنتنا حتّى الآن موقع قدم فيها ، أو حتّى من يقوم بالتبشير ، وإنّما فقط هناك مطران حدث أن توفّي هناك(ت) ، وذلك بسبب الخطايا الخطيرة التي ترتكب في هذه البلاد .

(أ) تحتل مدينة "كانانور" موقعاً بين "كاليكوت" و"منقالور" حيث امتلك "الفرانسيسكان" إحدى الرهبنات في عام ١٥٤٢م . (المصدر شوير هامر) كيو ١٠٣٢ ، كما أشير في موقع آخر أنّ أحد الملوك المحليّين قد خلفهم . وفي ذات الوقت ورد عموماً ذكر الحاكم البرتغاليّ وعامله في المكان نفسه (المصدر شروهامر) كيو .. بي ٤٩١ ، ولقد جاء وصف القلعة ، والمدينة بواسطة "كوريا" ١١١ ١١ .

(ب) قيل أن المذكور "شافير" كان قد رفض إعطاءه عمادة الكليّة في "غوا" غير أنّه انتهى إلى ترقيته قبل مضيّ أيّام قليلة ، بطلب من الكاهن "غاسبار" ، المصدر : المزامير ١٠ ٥ .

(ت) د . فيرناندو فاقويرو ، وهو أحد المطارنة المتقاعدين وكان قد توفي في الرابع عشر من شهر مارس عام ١٥٣٥م في هرمز (انظر نازاريث ، متراس ١٣ سفيزا المجلد ٤-٢٦٠-١ غونساليفس غوا ١٣٧ن ٢٠٨ تى) .

كان للزعيم الآمر "فرانسيسكو" رغبة شديدة في زيارتها ؛ لكنّه لم يتمكن من ذلك بسبب قيامه بالرحلة إلى "اليابان" ، وقد حدّد مدّة ثلاث سنوات حتّى أتمكّن من استلام رسالة منه من "اليابان" كي أذهب بها إلى "الصين" ، أو أيّ مكان يأمرني بالذهاب إليه[أ] .

قد بدا له الأمر أنّ بوسعه نقض الأوامر ، والتوجّه إلى فارس أو "تركيا" ، حيث كان قبل عدّة أيام ماضية قد استشهد البعض من رجال الدين من رهبان "فرانسيسكان" مع رجل آخر يعتبر من المتعبّدين المسيحيّين[ب] ، وكان يتجوّل هنا وهناك ، مرتدياً زيّاً تركيّاً ، وقد اغتيل في سبيل الله .

كان هذا الرجل ومن معه من رفاقه قد استشهدوا بشجاعة ، حيث تعرضوا للقتل بواسطة الرماح ، فبالنسبة لما ورد على لسان أحد المرتدّين من "جنوة" ، فقد أخبرني بذلك ، كما أخبرني أيضاً جنوي آخر بقصّة ثانية عن الراهب .

عموماً ، بصفتي شخصاً غارقاً في الذنوب ، والآثام ، لست تقيّاً مكثراً من الطاعات ، كما يحسب الكاهن الزعيم "فرانسيسكو" ، وبناء على ذلك أصدر لي توجيهاته بعدم مغادرة هرمز وضواحيها في تلك الفترة من الزمن .

٥- تحتلّ مملكة هرمز موقعها في فارس على الخليج الفارسي ، الذي

(أ) انظر النموذج الثاني ، ٩٨-٣٤ .

(ب) كانت عادة سابقة أن الأب "جيرونيمو" من رهبنة الروح المقدّسة قد كتب عن السنة التي حدث فيها الاستشهاد . ومن الممكن أن يكون "بارزيو" قد تطرق لذكر هذا .

يعتبر الحدّ الذي يفصل الجزيرة العربية من فارس ، هناك نهران يصبّان في هذا الخليج هما تحديداً نهر "الفرات" ونهر "فيسون"(أ) الذي يصبّ في البصرة(ب) حيث يقيم الملك(ت) ، وكانت هذه الدولة قد حظيت بحاكم قويّ جدّاً ، كان يُطلق عليه مصطلح حاكم المشرق والمغرب ، وهذه المدينة البصرة كثيفة السكّان ، وهي ليست أقلّ ثراء ، وغنى عن أيّة مدينة عالميّة أخرى .

يقولون إنّه لو كان العالم بمثابة الخاتم ستكون هرمز جوهرتها الثمينة(ث) ، وبالتالي فلا غرو أن نجد أثرى التجّار في الهند ينتمون إلى هرمز ، ونتيجة ذلك فإنّ أكثر الناس فساداً ، وغيّاً يعيشون في تلك المدينة ، وسوف أتطرّق بالحديث لهذا الأمر فيما بعد .

في هذه البلاد يبدو المناخ شديد الحرارة والرطوبة غير محتمل ، وإن الذين يعيشون في "مينا"(ج) و"جوينا" "Gweina" و"ساو توم"(ح) وأيضاً

(أ) يطلق على نهر "دجلة" اسم "فيسون" في الكتابات المقدّسة (سفر التكوين (٢-١١) .

(ب) تقع مدينة البصرة ، وهي مركز تجاريّ هامّ ، في الجزء الأسفل من "العراق" ، وقد استولى عليها الأتراك في شهر يناير عام ١٥٤٧م (المصدر نفسه شوير هامير / ليو ٢٧٨٩-٤٣٣٢) .

(ت) "توران شاه الثاني" (شويرهامير / ليو ٤٤٣٨-٤٨٨٩) .

(ث) في اللغة اللاتينية هناك مثل سائر : (لو أنّ كلّ العالم مهما كان امتداده قد أصبح بمثابة الخاتم ، فإنّ هرمز ستكون الجوهرة التي تزينه) . (فالينفانو- تاريخي ٢٧٤) بند صغير آخر / كوريا (كنوع من الحكم وسط الأهالي أنّ الهند هي الخاتم ، وهرمز هي الجوهرة) . (١-٨١٥) .

(ج) "مينا" في شبه المنطقة الاستوائيّة لغرب افريقيا ، تُعرف الآن باسم ساحل الذهب "غانا" .

(ح) "ساو تومى" جزيرة برتغاليّة في شبه المنطقة الاستوائيّة في غرب أفريقيا .

في "ماليندي" يقولون إن حرارة منطقتهم تلك لا يمكن أن تقارن بحرارة أي بلد(أ) آخر في العالم .

عموماً ، لم أتمكّن من إيجاد أيّ توضيح طبيعيّ آخر لوصف ذلك ، سوى أن أشير إلى أنّها ذات حرارة مفرطة ، وجفاف فوق العادة ؛ لأنّ هذه الجزيرة تتكوّن من تربة مالحة ، وتجري فيها أنهار ملحيّة ضخمة تتحرّك هنا وهناك ، مكوّنة كثباناً ضخمة ، وما أن يسيل ، أو يذوب أحد هذه الكثبان الملحيّة ، حتّى يتكوّن كثيب ملحيّ آخر في مكانه في الحال .

في فصل الشتاء تبدو هذه الأنهار كدلاة جليديّة متحجّرة ، يكون الملح فيها من الصلابة بحيث من المستحيل بقاء أيّ شيء على حاله إلاّ وقد تحوّل طعمه إلى مرارة لاذعة(ب) ، وبالتالي فإنّه لم يعد مستخدماً ، بحيث يمكن الإفادة منه ، ويسمّى بالملح الصخري .

توجد أيضاً عدّة مناجم لـ "الكبريت" في هذه الجزيرة ، وقد رُوِيَ أنّ كل شيء كان قد خضع لحريق استمرّ سبع سنوات ، وهذا الأمر لا يدانيه الشكّ ؛ لأنّ قمم التلال تبدو حقيقة إسفنجيّة ، أشبه بالصخور الجيريّة المحروقة ، فهي رماديّة اللون حمراء ، ومنذ سنوات قليلة مضت كان جزء من الجبل قد ظلّ يحترق لوقت طويل .

(أ) أيضاً كتب "ماركوبولو" عن شدّة الحرارة البالغة التي شهدها في هرمز . المصدر نفسه- ١١ مليونى- cap . 199, ed, L . Foscolo Benedetto فلورنس 216-1928.

(ب) أيضاً كتب "كوريا" "Correa" الذي أبحر إلى "هرمز قائلاً" : الجزيرة عبارة عن بركة مالحة تتدفّق المياه في البعض من مناطقها ، مكوّنة محلولاً شديد الملوحة ، بل أكثر ملوحة من مياه البحر . (أ-١٨٥) .

كان كلّ شيء يبدو جافّاً ، فلا وجود للأشجار باستثناء أشجار العنّاب[أ] ، واثنين ، أو ثلاثة أنواع من الأشجار الأخرى[ب] ، كما تنعدم الغطاءات النباتيّة كالحشائش ، فلا توجد طيور ، أو أيّة كائنات حيّة في السهول ، مثل الحيوانات ، وقطعان الماشية ، جفاف كامل دون وجود أيّة مصادر لمياه عذبة من نوافير[ت] ، أو ينابيع ، وبالمثل ينطبق هذا الجفاف ، وهذا القحل على الأمور العقائدية .

في فصل الصيف يقضي الجنود ، والسكّان الجزء الأعظم من النهار والليل في أحواض المياه ، متّكئين على وسائد في المياه ، تغطّي المياه أجسادهم عدا وجوههم تكون بارزة فوق سطح المياه ، أمّا الليالي فهي أشدّ حرارة من بقية اليوم في "ميناس" ، و"ساو تومى" ، و"ماليندي" .

لهذه البلاد أفضليّة واحدة ، وهي أنّها تبدو صحيّة نوعاً ما ، فليست هنالك أمراض يُستقصى تطبيبها [اثنا عشر آر] وهذا بسبب كميّات العرق الذي تفرزه الأجسام .

الهزّات الأرضية كثيرة ، ومتعدّدة ، وقد حدثت غالباً في السنة التي وصلت فيها إلى هذه البلاد ، وعندما تحدث هذه الهزّات يصبح كلّ فرد مصعوقاً مندهشاً ، وهي هزّات تسبب الرعب للمسلمين ، والمسيحيّين على السواء .

(أ) انظر النصّ (أ) .

(ب) "كوريا" : إنّها أرض صخريّة جرداء خالية من الأشجار ، إلّا من أشجار شوكيّة تخلو من الأوراق . (١-٨١٤-١٥) .

(ت) "كوريا" : في جميع أنحاء الجزيرة لا توجد أيّة مصادر للمياه على الإطلاق كمياه الشرب . (١-٨١٥) وبالمثل انظر : (Oderico de Porenone (Quoted by YULE- BURNELL 646) .

كان الكاهن الزعيم "فرانسيسكو" قد بدا قلقاً جداً إزاءها ، بسبب الآثام الصارخة التي يقع فيها سكّان المنطقة هنا .

كانت تلك الهزّات قد حدثت في وقت كان الفلاسفة المحليّون في نزاع استمرّ لفترة طويلة من الزمن .

في إحدى المناسبات حدثت هزّة في وقت كنت على وشك أن أبدأ التبشير ، ولقد أعقبت الموعظة التي ألقيتها فترة حسنة ، زامنت حجم تلك الهزّة ، وكأنّ الربّ أراد أن يبصّرني بما يجب عليّ أن أبشّر به .

لقد قيل إنّ ارتباكاً قد حدث بسبب تساقط حجارة بعيدة في مدينة مأهولة ، أصبحت الآن ذات مياه ضحلة بها كميّات ضخمة من الأسماك ، هذه الارتجاجات ، والهزّات الأرضية حدثت عموماً حوالي ثماني ، أو تسع مرّات خلال مدّة شهرين فقط .

٦- الملك شرف الذي كان قد سُجِن في "مونتمور"[أ] يقيم الآن في هذه المدينة ، التي يوجد أيضاً فيها أضخم مسجد للمسلمين لأداء الصلاة[ب] ، ويعتبر هذا المسجد من أكبر المساجد على المستوى العالميّ .

توجد أيضاً مجموعات ضخمة من السكّان الوثنيّين ، ولهؤلاء عدّة خرافات ، فهم يقدّسون الأبقار والثعابين ، ويقومون بإصدار وثائق

(أ) ذلك هو "الريّس شرف نور الدين" (وقد عرف باسم "ريس شرفو نوردين" لدى البرتغاليّين . وكان قد سُجِن في "البرتغال" في عام ١٥٢٩م . وفيما يتعلّق بأمره- انظر شوير هامر- كيو- القائمة ب ٥٠٩- وهو "القاضي" (الوزير ، أو نائب الحاكم) أمّا الحاكم فقد كان في الحقيقة هو "توران شاه الثاني" .

(ب) يمكن أن يكون لفظ "الكوران" قد ورد بمعنى المعبد ، أو الحصن . و في النصّ تمّ استخدام اللفظ بمعنى البرج- البرج الذي كان المؤذّنون يستخدمونه لأجل رفع النداء المسلمين للصلاة . مئذنة (دلقادو ١-٢٢ . صورة لمئذنة معاصرة في هرمز- انظر كوريا ١١-٤٣٩ .

خاصّة لأجل تحرير أبقارهم ، بحيث يسمح لها بالتجوّل في الطرقات ، وهناك بيوت تؤجّر بمبالغ ضخمة تخّصص لرعى هذه الحيوانات ، هؤلاء القوم لا يأكلون أيّ حيوان يتمّ اصطياده ، أو قتله ، كما أنّهم يتجنّبون قتل أيٍّ من الحيوانات ، ويعتمدون في غذائهم على النباتات فقط ، والأعشاب ، و"البلمنتو"(أ) ، وبصفة عامّة فهم متواضعون ، ولا يتسبّبون في إهانة ، أو إغضاب أيّ شخص .

اعتاد هؤلاء الناس بناء وصناعة (كارّات) للنقل في بلاد الهند ، وهذه تنقل مجموعات ضخمة من السكّان على متنها .

يقومون بالتضحية بأنفسهم في سبيل المعابد ، وذلك بواسطة تمزيق أجسادهم بالمديّ حتّى يخرّوا للأرض موتى ، وبعد ذلك ، وباستعمال الأقواس يقومون بقذف قطع من أجساد المضحين إلى الحشود المتجمّعة حولهم .

أيضاً هناك البعض ممّن يلقون بأنفسهم تحت عجلات القوّة الماحقة التي تسحقهم إلى قطع صغيرة .(ب)

عندما يموت الأزواج تعمد الزوجات إلى حرق أنفسهن أحياء .(ت)

على كلّ حال ، كثيرة هي الخرافات ، وأشكال الممارسات الوثنيّة التي يقومون بممارستها في المنطقة .

(أ) يتحدث "غاسبار" عن الزهد ، والتنسّك في الديانة اليهوديّة- بلمنتوم).
Pulmentum (a relish) Latin, lentilhas (Lentils) Portuguese .

(ب) المصدر نفسه - "فالينيانو- تاريخ ٣٦-٣٧- ديبوا باريس ٢-س-٣٣.

(ت) إنه يشير إلى وصمة وعار حرق الأرامل- أو (sati).

يوجد أيضاً في هذه البلاد مجموعات كبيرة من اليهود الذين استقرّوا وبقوا في المنطقة بعد عملية السقوط ، والاستيلاء الأول على بابل ، وهناك عدة جماعات يهوديّة محلية تجتمع في الكنيس للعبادة ، أيضاً يوجد الكثير من الأتراك ، والفرس ، والأرمن ، والروس ، والبولنديّين ، وشرائح أخرى من الأمم غير المتحضّرة .

لدينا أربعة أيّام مقدّسة في الأسبوع وهي تحديداً : أيّام الأحد للفئات المسيحيّة ، الاثنين ، وهو باعتباره يوم الأحد للوثنيّين ، أيّام الجمع للمسلمين ، والسبت لليهود ، وهو لفظاً يعتبر اليوم المقدّس ، والمجد للربّ .

لقد سبّبوا لي كثيراً من الحزن ، خاصّة عندما أشاهد كم هم منحرفون ، ومنغمسون في الفسوق ، والفساد ، وما أن أنزع إلى الراحة حتّى تصبح نفسي حزينة ، وتغمرني سحابة من الحزن ، والكآبة ، بسبب ما أسمعه من نداء من مآذنهم فأصحوا كي أنخرط في البكاء ، وليس لي من أحد كي يواسين(أ) ، فالشيطان يجوب المنطقة فرحاً بنصره .

٧- يوجد في هذه المنطقة سفراء من معظم بلدان العالم ، فثروات الجزيرة العربية من البقول موجودة هنا ، وصحراء الجزيرة العربية على الشاطئ الآخر من مضائق مكة والبحر الأحمر ، الذي يفصل "مصر" على الجزيرة العربية ومن "إثيوبيا" و"بريستر جون" .

في تلك المضائق ينهمر نهر النيل الذي ينبع من "رأس الرجاء الصالح"(ب) ومن ثَمَّ يمرّ مخترقاً أراضي "بريستر جون" (إثيوبيا) .

(أ) المصدر نفسه- المراثي - ١ ، ٢١٧.

(ب) لم يكن من المعروف من أين ينبع نهر "النيل" إبان القرن السادس عشر ، وقد بينه رسّام

تبدأ مياه في البرّ بالغرب من الرأس[أ] ، ومن ثَمَّ تفيض عبر ممرّات[ب] جيولوجيّة كي يظهر فجأة في "مصر" حيث تنتهي حدود بلاد "بريستر جون" .

يجب أن تعلم للحقيقة أنّ نهر "النيل" يمرّ عبر "مصر" بسبب وجود التماسيح ، لكن في فصل الصيف تكون مياهه طينيّة بشكل وفير ، بحيث إنّها تروي كلّ أراضي "مصر" كي تنتج أنواعاً جيّدة من المحاصيل ، إذ حينها يكون الشتاء قد حلّ في "رأس الرجاء الصالح" ، وتصل المياه إلى أراضي "مصر" نقيّة جدّاً في فصل الشتاء ، لأنّه في هذا الوقت يكون الصيف قد حلّ في "رأس الرجاء الصالح" .

رابع أنهار الفردوس هو "الغانج" ، وهذا النهر يجري مخترقاً مناطق "البنغال" ليصل حتى المكان الذي وصل[ت] إليه "الإسكندر الأعظم" ، ومن ثَمَّ يستدير راجعاً بسبب المقاومة التضاريسيّة الضيّقة التي تواجهه .

تعتبر معابد "أليفانت" "Alevant"[ث] و"كانهرى" "Canheri"[ج]

الخرائط في ذلك الوقت في مناطق جنوب "إفريقيا" . وبالتالي- فعلى سبيل المثال نجد في خرائط "ماباموندو . د . ربيرو" عام ١٥٢٩م أنّ تحرّكات نهر "النيل" قد بيّنت في "رأس الرجاء الصالح" نفسها . المصدر نفسه روج- عصر الاستكشاف ٤٣٨) . أيضاً بالنسبة لـ (ابرهام اورتيليوس ١٥٧١)- كان قد أشار إلى أنّ مصادر نهر "النيل" توجد في جنوب "أفريقيا" .

(أ) هذا ليس بصحيح .

(ب) هذه الحقيقة لا تتوافق قطّ .

(ت) "الإسكندر الأعظم" هو قائد شهير جدير بالاعتبار ، ويذكر أنّه قد توغل كثيراً إلى داخل إقليم "البنجاب" غير أنه لم يتمكن من الوصول إلى نهر "الجانج" .

(ث) فيما يتعلق بـ "أليفانتا" (وغارابورى) وهي الجزيرة التى أقيم فيها أشهر المعابد ، وربما يعود تاريخ بنائها للقرن الثامن (انظر يولى بيرنيل) ٣٤١ .

(ج) بالنسبة للأعمال التى نفذت في دير رهبان "كانهيرى" ، انظر مجلة بومباى العدد ١٤ (٨٨٢)- ١٢١-٩٠ .

أدلّة تشهد بأنّ تلك كانت أعمالهم(أ) ، وسوف يقوم الكاهن "بلشيور غونسالفيس" بإعطاء تقرير كامل عن هذا(ب) فيما بعد .

كانت مملكة هرمز تحتلّ موقعها بالقرب من بابل أي التي تعرف الآن باسم بغداد ، وكان الحاكم حينها هو كبير الأتراك الذي استولى عليها من قبضة سلطان بابل(ت) العظيم الذي نسمّيه الآن "شاه طهماسب"(ث) سيّد فارس ، وواحد من أقوى الملوك في العالم ، فجميع أنصاره خيّالة من الطراز الأوّل من سكّان الريف ، ويجولون مناطق المملكة طولاً وعرضاً ، كما أنّهم عرفوا بأنّهم رماة ماهرون عظماء ، لا رغبة لهم في استخدام أيّ نوع من المدافع .

(أ) ملحوظة مثل الكثير مما ورد في النصّين أ و ب فإنّ المقتنيات ذات الصلّة بالرومان الذين ثبت أنّهم لم يحتلّوا الهند قطّ ، ومن ثَمَّ لم يقوموا بتشييد أيّ مبانٍ هناك ، غير أنّ الهنود تمكّنوا من بناء أروع المعابد والقصور . وهذه من السهل بناؤها إذا ما قورنت بمباني الرومان في الغرب . ولقد بيّن الخبراء وجود ثلاثة أنماط من فنّ العمارة الهنديّ ، وهذه الأنواع مصدّقة ومثبتة وهي كما يلي : "أندو أريان" في الشمال ، "درافيدك" في الجنوب ، و"شوكوليان" في وسط الهند . انظر مشهد جى فيرجسون تاريخ الهند والعمارة الشرقية (لندن (١٨٩١م) ٢٧٩ : أي بي هافيل العمارة الهندية ، لندن ١٩٢٧م . وهذا يتناول أيضاً الفنّ الهنديّ . وقد وردت إشارة في ص -١- ما يعنى حسب نظرية "قانداران" والتي باعتبار أنّ فنّ النحت البوذيّ يدين بالكثير للفنّ الإغريقيّ الرومانيّ .
يزعـم بعض المؤلّفين أنّ المسلمين هم الذين أدخلوا الطراز البيزنطيّ في الهند ، الأمر الذي أنكره المؤلّف المذكور . المصدر انظر الصفحات ٨ ٨١ ١٥٤).

(ب) في الحقيقة كتب الكاهن "غونساليفس" شيئاً ما عن المعابد في العشرين من يناير من عام ١٥٥١م إلى أعضاء جمعيّة البرتغاليّين / شوير هامر (٤٥٩٤) .

(ت) في عام ١٥٣٤م كانت مدينة بغداد هذه قد استولى عليها الأتراك . ومنذ عام ١٥٠٨م احتلّها سليمان العظيم ١٥٢٠م-١٥٦٦م) شوير هامر (٢٤-٢٥).

(ث) "الشاه طهماسب" ملك "فارس" في الفترة من عام ١٥٢٤م إلى عام ١٥٧٦م ، هو ابن إسماعيل مؤسّس الأسرة الصفويّة ، وهي الأسرة الإسلاميّة حامية الضعفاء . ولقد عُرف عنه عطفه الكبير . (الموسوعة الإيطالية ٣٣-١٨٨ اسباسا ٦١-٥١١) .

وعرفوا إنّهم قاوموا الأتراك بصورة شرسة بالرغم من تمكّن الأتراك من قتل أعداد ضخمة منهم ، فقد أمروا بأن يتمّ هدم جميع حصون الأتراك ، وذلك لنقل الحرب إلى المناطق الريفيّة ، هؤلاء القوم من كبار الفلاسفة ، وعلماء الطبّ والعارفين بالتنجيم .

٨- هنا يوجد نوع من أنواع المنّ ، وهو عبارة عن طلّ ذي طعم[أ] حلو رائع ، غير أنه لا يبدو لي أنّ ذلك يتّفق مع ما ورد في الإنجيل ، حيث جاء وصفه أشبه ببذور الكزبرة ، ويعتقد السكّان المحليّون أنّها الشيء نفسه ، ولقد وددت أن أرسل البعض منها إلى "أوروبا" ، غير أنّني خشيت من تعرّضها للتلف ، فهي شبيهة بالحلويّات .

٩- كنت قد صمّمت بإذن الله على كتابة رسالة أبعث بها للسلطان العظيم ، وذلك عن الأخطاء الواردة في ديانته[ب] ، وعن حقيقة ديانتنا ، وذلك كي يعمل إمّا على إرسال بعض الأشخاص إلينا للتباحث معهم ، أو أن يأذن لي بالذهاب إلى هناك ، وعموماً ، فقد تبيّنت أنّه لا وجود لرجل واحد في هذه البلاد ممّن يرغب في الإجابة عليّ ، فجميعهم يردّدون أنهم جهلاء ، ويعتبر هذا أكبر عيب في أوساطهم .

وسوف أوضح هذا الأمر فيما بعد ، بالإضافة لهذا فلو كان الزعيم الآمر "فرانسيسكو" أتاح لي الفرصة فسوف أقوم أيضاً بزيارة البولنديّين ،

(أ) أيضاً فيما يتعلق بطبيعة المنّ انظر فيقوروكس منجد الأنجيل . الجزء- ٦٥٦-٦٣ .

(٤٩) المصدر نفسه الأرقام ١١-٧.

(ب) "الفرس" من طائفة الشيعة المحمّدية .

والروس ، والأرمن ، الذين يجاورون "الفرس"(أ) ، ودافعي الجزية الذين كانت جزيتهم عبارة عن تقديم واحد من الصبيان ، كانوا يشتكون دائماً عن ضعف الملوك المسيحيّين ، وتخاذلهم عن شنّ الحرب ضدّ الأتراك .

في هذه المنطقة كنت قد قابلت العديد من أسرى هذه الشعوب ، كما قابلت مجموعة من المرتدّين ، تمكّنت من إعادتهم جميعاً إلى حضن الكنيسة ، ومصالحتهم بها ، كما سعيت مؤخّراً في الترتيب لأجل تحريرهم ، وإعتاقهم من عبوديّتهم .

١٠-كان السفير البرتغاليّ للحاكم في الهند قد غادر هرمز بنيّة الذهاب لمقابلة سلطان بابل العظيم(ب) ، وتلقّى السكان رسالة بخطّ لاتينيّ ركيك من المطران المسيحيّ الذي أبدى رغبة شديدة في مقابلتهم .

ذلك لأجل زيادة ورفع معنويّاتهم(ت) ، ولكنّهم لم يجدوا أيّ فرد بين الجميع من يتحدّث اللاتينية ، وبالتالي لم يذهبوا إلى هناك ، سوف أقوم بإرسال البعض إلى "ساو باولو" وآخرين من الإنكشاريّة(ث) ،

(أ) لم تكن لـ "بولندا" أيّة حدود مشتركة مع "فارس" .

(ب) "اليكسو كارفالهو" أو "انريك دى ماسيدو"- انظر شوير هامر (١٧١٩-٤٥٠٥)؟ .

(ت) إنّنا نساند الرأي الذي يقول إن الكاتب بطريك مسيحي من الأرمن (كاثوليكي) "استيفن" ٧ (١٥٤٢م-١٥٦٤م) والذي كان قد أرسل إبّان فترة إقامته في "روما" في (١٥٤٨م-١٨٥٠م) إلى الأسقفّ "بول الثالث" أو إلى مساعده "مايكل دى سيباستى"(١٥٤٢م-١٥٦٤م) . المصدر شوير هامر- ٤٤٦٤-٦٥- قاموس التاريخ والجغرافيا الكنسية/ الجزء الرابع ٣٢٣-٣٧٣ أو البطريك النسطوري "سايمون بار ماما" (المصدر شوير هامر كنيسة مالبار وروما ٤١).

(ث) "جانيزارو" ، "جانيسارو" (كتيبة جنود المشاه الأتراك) حيث كانت تخدم في قوّة حرس السلطان ، أي بما يشبه بقوّة الحرس "البريتوريان" الروماني . ويستخدم هذا اللفظ أحياناً كي يعنى "الجنديّ العادّ" (دلاقادو . ١-٤٨٦) وهم عموماً أبناء المسيحيّين .

وبالمثل بعض المرتدّين من الأحباش من أرض "بريستر جون" ، وبعض الأسرى الإيطاليّين ، والمرتدّين عن العقيدة ، وقد ساعدتهم بكلّ الوسائل الممكنة حتّى لا يعودوا مع بعض الإغريق إلى المسلمين بعد أن اكتملت عمليّة المصالحة مع الكنيسة .

لقد حضر إليّ أحد المرتدّين الإيطاليّين ، ويبلغ من العمر أربعة عشرين عاماً ، وكان قد أحضر معه سرّاً من البصرة أحد أخلص أصدقائي من اليهود ، وكان الأخير هذا رجلاً ذا نفوذ هامّ ، ويجد احتراماً وتقديراً كبيرين لدى الأتراك ، وقد هرب من بابل .

عموماً ، قمت بإرساله إلى الهند ، وذلك كي يتمّ توجيهه ، وإعادته إلى "البرتغال" .

كان هذا الرجل قد أبدى تحسّره ، وتوجّعه بشكل باكٍ ، بعد أن تبيّن له أنّ الإيطاليّ لا يرغب في إيوائه خشية أن يكون أحد الجواسيس الأتراك .

على كلٍّ أعتقد أنّ ملك هرمز قد أصبح قريباً جداً من اعتناق المسيحيّة ، وأعتقد أنّه لولا خوفه من اندلاع ثورة في أوساط شعبه ، بحيث يشقّ عليه عصا الطاعة فيما بعد لفعلها ، وإنّني أنتظر اللحظة المواتية .

١١- وعودة للموضوع ، فقبل مغادرة الكاهن الزعيم "فرانسيسكو" لـ "اليابان" أبحرت من هرمز حيث أخذت معي "ريماو بيريرا" وهو سيّد لطيف كان قد قدّم نفسه هنا في "غوا"[أ] بصفته رفيقي ، هذا ولقد دأبت

(أ) "رايمندو بيريرا اس جى" وردت عنه الملاحظة ٣٧- بشكل مطوّل .

على التبشير في السفينة في أيّام الأحد ، وكنت أقوم بتقديم محاضرة حول التوجيهات الدينيّة للجنسين ، وذلك في كلّ يوم تقريباً ، يحضرها الأطفال ، والعبيد ، كما أنّني أؤدّي صلاة الابتهال في الليل .

التطهير المعترف به في أيّام السبت ، وهذه أمور يجب أن يتعوّد عليها إخواننا في الرهبنة لتسيير أمور حياتهم .

عليه فقد أمرت بمسيرة الضاربين بالسياط ، والأطفال في أيام الجمع(أ) ، وقمت بتحديد عدّة اعترافات ، والجلد بالسياط ، لم يعمد اليهود ، والمسلمون ، والوثنيون ، الذين يبحرون للمشاركة ، وقد دهش البعض ممّن أصبحوا مسيحيّين بهذا الحماس .

كنّا في تلك الرحلة لمدة شهرين نعاني من الجوع والعطش ، وبالمثل من أخطار الدخول في مضائق مكة(ب) .

لقد اتّخذت قراراً مفاده إذا ما أتيحت لنا الفرصة المرور بجزيرة سوقطة أن أتخلّف هناك لعدّة أيام لأجل إصلاح أحوال المسيحيّين الذين قامت رهبنة القدّيس "ثوماس" بهدايتهم هناك ؛ لأنّهم حقيقة في حاجة ماسّة للتوجيه فيما يتعلّق بتعاليم المسيحيّة ، وهم مسيحيّون اسميّاً فقط .

عموماً ، شاءت إرادة الربّ أن ننجو من تلك الأخطار ، ومن ثَمَّ هطلت بعض الأمطار ، وبالتالي لم تعد لنا مشكلة نقص المياه .

(أ) الجمعة العظيمة في ذلك العام ١٥٤٩م ، قد كانت في التاسع عشر من شهر إبريل / انظر النص أ.

(ب) الآن أصبحت تلك المضائق تُعرف باسم "باب المندب" .

١٢- هنا وصلنا إلى مكان في ساحل بلاد العرب(أ) يسمّى قلهات(ب) حيث وجدنا العديد من بساتين النخيل ، فاتّجهنا للرسوّ في البحر على مبعدة ميلين من هناك ، حيث يسكن في المنطقة العديد من العرب(ت) ، كان مرافقي قد رغب في البقاء هناك لهداية المقيمين على ضفاف النهر ، لكنّني لم أشأ أن يفعل ذلك ؛ لأنّ حماسه ذلك كان ناتجاً عن كونه حديث عهد بالمسيحيّة ، أي مبتدئاً .

أعزّائي وأحبّائي الكهنة ، لا تكونوا غرباء على التقوى(ث) فلابد من البحث والتدقيق على الأرواح كي تتبيّنوا أنّها من عند الربّ(ج) ، فألقوا بهمومكم على الربّ فهو من سيعينكم ؛ لأنّه لن يدع العدل للشكل

(أ) كانت الجزيرة العربيّة حتّى وقت "بطليموس" قد قسمت إلى ساحل الجزيرة العربية أو "بانشيام بترايا" أو "ناباثى" والصحراء "او اسكينيتى" .

امّا الجزء الشرقى فهو غير معروف- انظر بيرين / جميع الأسماء وردت باللغة اللاتينية .Onomasticon Aotius 152-153.

The three Arabias figure on the Didaco Ribero's map 1529 as can be seen in RUGE, Geschichte des Zeitalters aer Entdekkungen (Strata of the Ages of Discoveries) 838 .

(ب) تقرأ في النص "كالاجالو" (انظر الملحق الفنى) مثال "كالياتى" التى تعرف الآن باسم "قلهات" وهي تحتل موقعاً بين "رأس الحد" ومسقط . توماشيك ، موتى تاب ١١ وقد وردت في وصف كوريا ١ ٧٩٢-٩٣ .

(ت) حسبما ورد في وصف "بارزيو" يمكن العثور على موقع قرية "تيوا"/ "طيوي" في المكان المذكور (انظر أيضاً في أعمال توماشيك موهت القائمة ١٢ وهو المكان الذي أخذت منه اسمها .).

(ث) "بيتر" ١٢ ، ٤ .

(ج) "جون" ١ ، ٤ .

والغموض . [أ] خذوا منّي الالتزام بالطاعة[ب] ، ولا تتمنّوا أكثر من الأمانيّ العليا ، هذا أمر جيّد ، ولا تؤمنوا بكلّ روح . [ت]

أحبّائي ، سيأتي اليوم الذي ستكونون فيه عاجزين عن التجوّل في ذلك المكان ، ولو كنت أعلم ما ينتظرني من سفر في الهند عبر تلك الأراضي الصحراوية ، والاختلاط بتلك الشعوب الهمجيّة ، لكنت قد جنيت فوائد روحيّة أكثر ممّا فعلت ، ولما أهدرت الكثير من الوقت أيضاً في دار العجزة ، ولكنت تركت تلك الزيارات التي تضمّنت حاجيّات تلك الأجناس ، وأبقيتها لمستشفيات الهند .

آه كم هي مختلفة تلك الأسفار هنا عن مثيلتها هناك ، وكم هي رائعة تلك الرحلات هناك التي تستمرّ على مدى شهر[ث] كامل ، فهناك تجد المستشفيات حتّى وهي مليئة بالحشرات المتطفّلة ، والأسرّة للراحة ، وحلم إرسال التحايا لإخواننا الكهنة الذين ينتظرونك على قارعة الطرق للترحيب بك وتطهيرك ، فمنظرهم وحده يبعث عليّ الطمأنينة والراحة .

(أ) الزبور ٢٣ ، ٥٤ .

(ب) "ماثيو" ٢٩ ، ١١ .

(ت) "جون" ١ ، ٤ .

(ث) يتحدّث "بارزيو" عن الرحلات التى قام بها حديثو العهد بالمسيحية/ انظر عزم المجتمعات– (حدود المجتمعات) ١٥٣٩م وقوانينها (الدساتير).
١٥٤١م : ام ١ الدستور ١-١٢ ٤٠ حيث كان هدفه من الحكم هو تأسيس المدارس والمنازل . وتشرح هذه الكلمات باختصار أنه يسافر راجلاً من غير مال أو طعام لمدّة شهر آخر واضعاً كلّ ثقته في الربّ والخالق ونبيّه وعازماً على الخوض في أشياء تبقيه بلا طعام غير قادر على النوم . لكي يعلم كلّ فرد أنّه من لا يعرف كيف يمكنه قضاء اليوم بكامله دون طعام ودون نوم لا يمكنه العيش والبقاء في مجتمعنا (دستور ١-٤٥) .

نحن نفتقر لكل هذا هنا : الأسرّة ، والترحيب ، حجرة الطعام ، إخواننا ، وسبل الراحة التي يوفّرونها ، أمّا ما أذكره جيّداً عن عدم تعلّقي بشكل كبير بإخوتي في الرهبنة ، فهو إنني أتفهّم كم سيكون الأمر جيّداً عندما يحدث الحرمان .

الآن فإنّني أحسّ بذلك التأثير ، والله على ذلك شهيد[أ] ، إنني أعلم أنني لن أراهم مجدّداً أو أتحدّث للكثيرين منهم .

عموماً ، فالإخوان من الهند لا يقلّون أهميّة عندي عن أولئك الموجودين في "البرتغال" و"أوروبا" .

إذا ما سقط أيّ فرد فالآخرون سوف يساعدونه ، فمن الصعب على الفرد أن يعيش وحيداً منعزلاً ؛ لأنّه إذا ما سقط فلن يجد بجانبه من يمدّ له يد المساعدة .[ب]

هذه أعطتني قوّة دافعة ، وإحساساً قويّاً لمقاومة حالة الكآبة ، وثَبْطِ الهمّة ، التي تُحدثها حرارة نهار اليوم ، ولياليه ، ليست ضرورية تلك المطالب الكثيرة من قبل مواطني هذه الديار الذين كانوا قد حذّروني ، ونبّهوني إنّني لن أتمكّن من الاستمرار في تحمّل هذه الصعوبات ، فهناك الاعترافات المستمرّة بالليل من غير حدوث الوفيات .

أخيراً أحمد الربّ كثيراً إذ إنّني أصبحت أخصّص مدّة ثلاث ساعات للنوم ، والراحة .

(أ) "الفلبنيون" ٨ ، ١.

(ب) المزامير ١٠ ، ٤.

لقد اقتضت الضرورة أن أكون فقيراً في كلّ شيء هنا ، في جسمي ، وروحي ، وفي حياتي ، وكل أوقاتي ، في كلّ ساعة ، وكلّ لحظة ، فهناك يمكنك أن تخصّص ساعات لصلواتك ، أو للنوم ، أو الدراسة ، أو التأمّل ، أو التجوّل ، أو الأكل ، أمّا هنا فما لا أرغب في فعله أفعله ، وما أريد فعله لا يسعني فعله .(أ) ولأجل ذلك كلّه فهل كتب عليّ ألا أفاخر بشيء قطّ سوى برسم صليب سيّدنا المسيح(ب) وحده؟ وبأيّة سبل يمكن أن تؤسّس في نفسي ، وتوجد الصحّة ، والرفعة ، والشرف؟

لأنّني عندما أكون ضعيفاً أعود بعدها قوياً(ت) وحبّي بالنسبة لي حزمة من المرارات يستقرّ بين حناياي .(ث)

من في مقدوره فصلنا عن حبّ الربّ؟(ج)

١٣- ربّما أنّني عامل ضعيف في خدمة المسيح ، فلا تدع هذه المشقّات وغيرها ممّا ذكرت أدناه كي تفصلك ، فكلّ هذه لا شيء يمكن مقارنته بما أردت أن أعانيه من أجله ؛ لأنّ المصاعب هناك إلهاء ، وذهول ، لكنّها هنا مهرب ، وملجأ للنفس ، ونظراً لأنّه لا معين لنا سوى الربّ في هذا العالم المضطرب ، فقد أضحى الشرف خزياً وذلّاً ، والحزن فرحاً وابتهاجاً .

(أ) الرومان ١٩ ، ٧.

(ب) "الغالاتيان" تابع لمنطقة في أواسط آسيا الصغرى ١٤ ، ٦.

(ت) الكورنثيون ، ١ ، ٨.

(ث) نشيد الإنشاد ١٢ ، ١.

(ج) الرومان ٣٥ ، ٨.

هنا نجد الكثير من التدليل ، أمّا هناك فإنّهم يرجموننا(أ) ، ويصلبوننا ، وهنا لا يتيح لنا الشيطان فرصته لمعالجة الأمور كما يحدث هناك ، لذا فإنّك تستمدّ تأسية عظيمة من الدموع ، ومن دونها لن يصيبك سوى الغمّ ، فالبحث في الطرقات ، والميادين ، وفي سريرك أثناء الليل مع الشخص المحبّ(ب) والمكان .

إنّك تبدو في أرض قاحلة مهجورة دون ماء ، أمّا هنا وسط هذا القحل العظيم فتوجد التأسية الكبرى . (ت)

أيّها الإخوة ، فلتعدّوا سلالاً مليئة بالمناقب لرحلة طويلة ؛ لأنّكم ستجدون نفوسكم عارية معزولة عن كلّ شيء ، حصّنوا نفوسكم بالتواضع ، بالفقر ، بالبساطة ، والطاعة ، وبالحبّ العظيم للربّ ، وللجار .

هذا هو واقع الحال هنا ، فمن باب التواضع تمكّنا من الدخول لمعرفة الربّ من خلال معرفتنا لنفوسنا ، ومن خلال الطاعة والعبوديّة حصلنا على أعلى مراتب الحريّة .

الفقر هو أعظم ثروة ، فالغنىُ يرغّب في الحصول على المزيد ، لكنّ الفقير لا يرغب في الحصول على شيء ، فمن هو الفقير إذن؟ أهو الفرد الفقير الزاهد الذي لا يرغب في شيء؟ أم الغنيّ الذي يرغب في الحصول على كلّ شيء؟

(أ) يجب أخذ هذا النص حرفياً لأن "بارزيو" تعرض في البداية للرجم مرتين من قبل المسلمين (انظر الوثيقة ٧٦-١).

(ب) قارن : نشيد الأنشاد ٣ ، ١-٢ .

(ت) المزامير ٦٢-٣.

البساطة أشبه بالمرآة التي ينظر فيها الرب لنفسه في الخلق قائلاً : كم أنت جميل أيّها المخلوق الحبيب ، وكم جميلة عيناك تشبهان عيني اليمامة .(أ)

لقد تمكّنت أخيراً من جرح مشاعري المتواضعة ، وعقلي ، وزوجتي ، لقد أذيت قلبي وشقيقتي(ب) ؛ لأنّها تمثّل الجمال ، والبراءة ، فالصدقة تغطّي الذنوب وتمحوها ، مهما كثرت ، وتعددت(ت) ، فستر الربّ في عظمته وجلاله ، لذا يجب أن تعمل كي يتحقّق لك(ث) فالأرض هي ما تمدّنا بذلك .

١٤- من هناك وصلنا إلى مسقط(ج) إحدى الأماكن الأخرى في ساحل الجزيرة العربية التي التقيت فيها كثيراً من البرتغاليّين الساخطين .(ح)

(أ) نشيد الأنشاد ٤ ، ١.

(ب) نشيد الأنشاد ٤ ، ٩.

(ت) جيمس ، ٥ ، ٢٠.

(ث) الكورنثيون ، ٩ ، ٢٤.

(ج) "مسكات" ، مسقط مدينة وميناء تقع بين منطقتى "رأس الحد" و"صحار"/ المصدر تومشيك موهيت القائمة ١١) وكان "كوريا" قد أشار لها بلفظ "مسقط "قائلاً إنّها مدينة كبيرة تقع على شاطئ أحد الخلجان الصغيرة ، وهذه المدينة تمثّل مرفأ جيّداً إذ هناك جبال تطوّق جانبه الأيسر ، وبالتالي يبدو هذا الميناء محاطاً ومحمياً بشكل طبيعيّ من جميع جوانبه . أمّا الأقليم فإنه محصور في كلا الشاطئين بقمم جبلية عالية في كلا الضفّتين ، وكذلك المنطقة الممتدّة إلى الداخل وسط الجبال ، وتكون هذه سهلاً توجد به بعض مزارع الخضر ، وأشجار النخيل ، والآبار ذات المياه العذبة . يبلغ مجموع عدد سكان هذه المدينة سبعمائة ألف نسمة يسكنون في مساكن بنيت من الحجر ، وهناك أراضي مزروعة ، ومساجد ، وتلك أماكن يسكنها العديد من التجّار الأجانب الذين يأتون إلى هنا لأجل شحن الخيول ، والتمور ، والأسماك المملّحة (١/ ٨٠٢) وهنا يعيش الشيخ أو الحاكم المسلم . وفي عام ١٥٠٧م أي في فترة البرتغاليّين حدث أن دمّر جزء من المدينة بقوّة السلاح (كوريا ١/ ٨٠٢- ٨٠٨) واليوم فالمدينة أصبحت تمثّل عاصمة سلطنة عمان/ انظر : (الموسوعة الايطالية (٢٢-٤٨١).

(ح) هؤلاء كانوا من الهاربين .

يعيش هؤلاء وسط المسلمين ، ولم يسبق أن قدّموا اعترافات منذ عشر أو اثنتي عشرة سنة(أ) .

لقد قمت بإلقاء موعظتين هنا في أحد الملاجئ(ب) وذلك لأجل القائد الساحليّ ومجموعة من السكّان الآخرين ، وعند انتهاء الموعظة طُلب منّي الاستماع لاعترافات عدّة أشخاص يعيشون حالات يائسة ، لأنّ الغالبيّة العظمى منهم هم هاربون ، وكانت هناك فئة أخرى اضطررت لتأخيرها يوماً إضافياً آخر بعد وصولي كي أستمع إلى اعترافات أفرادها ، وقد كانت سلطات الأسقفّ والزعيم(ت) كبير الكهنة (الحبر) (ث) لديّ ، والذي أصبح مفيداً بسبب أنّ هذه البلاد تبدو أشبه بملجأ يأوي الهاربات من أزواجهن والعكس صحيح .

عليه ، فهنا تتوفّر المساكن للمتزوّجات ، وغير المتزوّجات ، وبالمثل للعديد من المدينين الذين يتقاسمون الأموال مع المسلمين .

لقد حمدت الله وشكرته كثيراً على وصولي إلى هذا الميناء الذي بدا لي مهجوراً تماماً .

(أ) ربما لم يكن يعيش هنا أيّ قسّيس أو كاهن .

(ب) "رامادا" ، مثال الملجأ الذي يصنع من سعف وأوراق شجر النخيل أو من القماش . انظر دالكادو ٢-٢٤٦- اى إلى ١-٢٠٠ أيضاً لا توجد كنيسة معروفة في هذه المنطقة .

(ت) في الثامن والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٥٤٦م حصل "جواو دى البوكيرك" من خلال وساطة بسيطة على سلطات وصلاحيّات قانونية للصفح والإعتاق سواء للقضايا التى تمّ التحفّظ عليها بموجب الأمر البابويّ "سينا دومينى" (عشاء الرب) أو لنادمين آخرين (شور هامير ٢٤٧١) .

(ث) الوثيقة ٤٦-١ ، انظر المرجع أدناه : ١١٨-٢٠ .

١٥- رغب سعادة القائد أن أبحر بسفينته الخاصّة ، ولكن بدا لي أنّه ليس من الأفضل أن أترك مضيفي ، وعليه فقد أبحرنا من هناك بعد أن حظينا برياح مساعدة حتّى وصلنا إلى هرمز .

قبل نزولنا في ذلك الميناء قدمت بعض المراكب على متنها فئة من الرجال لاستقبالنا .

كان على متن إحداها قائد حرس ملك هرمز(أ) الذي أصدر تعليماته لإطعامنا .

في المركب الآخر يوجد جميع رجال الدين ، وكاهن(ب) المدينة المذكورة ، وبعض الرهبان(ت) الذين حضروا كي يستقبلونا ، ويرحّبوا بنا ، ولقد حثّونا كي نقبّل أيديهم .

من هناك كان أولئك الناس وبعض الأشخاص النافذين في تلك المدينة قد رافقونا للقلعة لمقابلة القائد(ث) الذي كان في انتظارنا .

هذا ، ولقد استقبلنا القائد ، ورحّب بنا أعظم ترحيب ، وقدّم لنا هدايا عظيمة ، ودعانا للسكن والبقاء معه في القلعة ، غير إنّنا بيّنا له أنّ مكان إقامتنا هو دار العجزة(ج) المشفى ، حيث أبدوا دهشتهم لسماع هذا الأمر .

(أ) "تريستان دى اورتا"- قارن- النص أ.

(ب) "أنطونيو دى مورا" ، حسبما ورد ذكره في / ن ٢٣ / الفقرة ب / من هذه الرسالة .

(ت) الكهنة ، مثال- الكهنة المدنيّين .

(ث) "دى مانويل دى ليما" .

(ج) "شافير" في التوصية التى كتبت بخصوص الإسكان في شهر إبريل عام ١٥٤٩م ، وهي تعطي "شافير" هذه النصيحة . بالنسبة لمقرّ سكنك فيمكنك أن تفكّر في اختيار المستشفى ، بيت الرحمة المقدّس أو الكوخ المجاور للكنيسة . (من ١١-١٠٠).

بعد ذلك أصرّ القسّ على أن نرافقه إلى مسكنه ، ولقد أظهر لنا ، ومن معه من الكهنة من الحفاوة ، والاحترام ، وكرم الضيافة ، الكثير حتّى حسبنا أن المطران قد وصل بنفسه ، وكان الجمع غفيراً ، ولم يدعنا نخرج قطّ إلاّ بمرافقة البعض منهم ، وحقيقة صرت أشعر بالخجل خاصّة في وجود هؤلاء الكهنة المشهورين .

عموماً ، عندما علمت أنّ مطران الهند قد أمر هؤلاء الناس بضرورة معاملتي باحترام وكأنّهم يعاملونه شخصيّاً ، توسّلت إليهم كي يسمحوا لى بالتجوّل وحدي بأسمالي الباليّة تلك كما أستحقّ ؛ لأنّني إذا ما تصرّفت حسب هواهم فإن ذلك سوف يكون فيه إجحاف لرغبتنا التي أسّست على الفقر ، والعوز .

لقد كان ذلك الأمر مثار دهشتهم ، لكنّهم نفّذوا ما طلبته منهم ، وأخبرتهم إنّني أتيت هنا لخدمتهم ، لا أن يقوموا بخدمتي ، إنّهم لم يفتقروا لمن يمكنه أن يخبرهم عن رهبنتنا ، وإنّها لا تقبل أيّ شيء إلاّ إذا كان موجّها للفقراء من قدّاس ، ومواعظ ، واعترافات ، أو الخدمات الدينيّة . (أ)

بعدها أمر القائد ببناء ، وتجهيز مسكن لنا في حديقة المستشفى ؛ لأنهم في الصيف يبيتون فوق أسطح منازلهم .

١٦- كان الحشد كبيراً جدّاً حولنا ، بحيث إنّنا لم نتمكّن من

(أ) "بارزبو" هذا اتّبع روح قانون عام ١٥٤١م ، حيث ورد فيه مايلي : بالنسبة للقدّاس الخاصّ ، الاعترافات ، والوعظ ، فلا يمكنك طلب مقابل ، أو توقّع أيّة عطيّة ، بل وأكبر من ذلك بالنسبة لهذه الأعمال ، لا قبل ، ولا بعد ، يمكنك أن تقبل ما يمنح حسب العادة ، والتقاليد لمختلف الشعوب . (الدستور ، ١/٣٨/٦).

المغادرة سواء في صبيحة اليوم ، أو في بقية اليوم ، فهناك البعض ممّن أتوا للاعتراف ، والبعض الآخر أتى ينشد النصح ، والآخرون لتلقّي العلم ، وقضاء الحوائج .

في يوم الأحد التالي ، وعندما أكملت التبشير ، احتشدت مجموعة ضخمة من الناس بعد الموعظة ، وقد بدا عليهم التأثّر حتّى تساقطت دموعهم ، وذلك بسبب ما نالته مجموعتنا من شهرة ، ونتيجة لتلك المواعظ المتعاقبة كانت هناك مناقشات مطوّلة بين الناس لأجل الاعتراف ، وقد كانوا كثراً ، بحيث إنّني لم أتمكّن من الاستماع إليهم خلال النهار ، أو الليل ، ولكنّني استمعت لاعترافات ستّة أشخاص فقط .

كانت بليّة أولئك الناس محيّرة ، وحتّى لو أنّك اعتبرتني مغروراً نوعاً ما ، فإنّني لن أملك نفسي من سرد بعض تفاصيل ما حدث نتيجة للاعترافات ، والمواعظ ، لأنّني أعرف أنّ هذا الأمر يهمّ معظم أحبّائي من الكهنة ؛ لأنهم يفهمون جيّداً شؤون المسيح أكثر من العالم ، رشح المياه على الحجر الصلد بصفة مستمرّة يؤدّي إلى خرقه(أ) ، وتفتيته ، والحال نفسه بالنسبة لكلمات الربّ عندما تصدر من قلب نقيّ صافٍ .

١٧- لقد دهشت ساعة بدأت في جمع المعلومات عن تلك البلاد ، وسبل الحياة فيها ، لقد اكتشفت أنّها تضم أكثر الناس انحرافا ، وفساداً في الأرض ، ولا أرى مثلهم في العالم حسب وجهة نظري .

ماذا يمكن أن يفعل المرء أكثر من الندم على الآفات ، والآثام ،

(أ) بالنسبة للقول المأثور إنّ سقوط الماء على الحجر الصلد يؤدّي إلى تفتيته .

كالشتـائـم؟ مـن يجعل من رأسـي ينبوعاً للمياه ، وأعيني نوافير للدموع ، كي أنوح صباح مساء ، تحسّراً على فساد قومي[(أ)] فإن كان هناك ما تبّقى[(ب)] من دمنة آثار ، فقد نثرت هنا ، وإن كان مقرضو الأموال الذي هربوا من المعابد مازالوا أحياء[(ت)] فقد استقرّوا هنا .

فهنا يوجد كلّ الفجور ، وكل معاني الفسق ، واللواط ، والممارسات البهيميّة بين المسلمين ، والمجد للربّ ، وبسبب الرعب الذي تولّد في أذهانهم من خلال المواعظ ، أقدم الكثيرون لأجل تصحيح تصرّفاتهم ، بعد أن خاضوا في الآثام ، والذنوب ، بسبب جهلهم ، وبسبب عدم قدوم من يرشدهم ، وينوّر بصائرهم هنا .

لقد عاشوا جميعاً ، جنباً إلى جنب من المسيحيّين ، والمسلمين ، واليهود ، والأتراك والوثنيّين ، خلف أبوابهم المغلقة ، وفي النهاية شارك بعضهم البعض الأكل ، والشرب ، والحديث ، لكن ما يزيد من بكائك هو أنّ العديد من أطفال المسيحيّين أصبحوا مسلمين نظراً لانتماء أمّهاتهم للطائفة المسلمة .

هذه الخطيئة بدت واضحة بين البرتغالّيين ، والمسلمين ، وهذا ما جعلني أركّز في التبشير إزاءها بصفة مكثّفة ، كما تردّدت على القضاة ،

(أ) "جيريميا" ١ ، ٩.

(ب) التكوين : ١٩- الصفحات ٥ .

(ت) "ماتيو" ٢١ ، ١٢-١٣.

والمحاميّين بشكل قاسٍ ، وعملت على متابعتهم لاعتقالهم ، وحرقهم ، وفق ما تقرّه القوانين(أ) المدنيّة المعترف بها .

كان لمواعظي أثر كبير في إحداث خوف عظيم في نفوس المسيحيّين ، والوثنيّين ، الأمر الذي جعلهم يشعرون كثيراً بالقلق لما كانوا يمارسونه في الماضي ، وبالمثل كان الحال بالنسبة للمسلمين والوثنيّين الذين صاروا يحجمون عن تلك الأمور حسبما كانوا يمارسونها في الماضي .

بالتالي كانوا يعترفون ، ونفوسهم ملأى بالندم ، وعيونهم تذرف الدموع ، وقدّموا كفّارات عظيمة بشكل علني ، وصاروا يتطهّرون عند أبواب الكنيسة ، ومن خلال القدّاس اليومي ، وفي أيّام الأحد ، وأيّام الأعياد ، وقد أدّى هذا إلى زرع الخوف في نفوس الكثيرين من الآثمين .

أيضاً كان هناك البعض ممّن قدّموا كفّارات عظمى بشكل سرّيّ ، وكان بينهم أحد المتحمّسين من الموجودين هناك ، وهو عارٍ في مشهد للتكفير عن نفسه ، مناشداً كلّ فرد أن يعفو عنه .

كان يتوسّل للجميع ، وهو يصيح بأعلى صوته معترفاً بأخطائه ، كي يساعدوه ، ويعفوا عنه ؛ ونظراً لأنّه شخص معتبر فقد رفضت ذلك خشية الفتنة ، لكنّه حسبما يرى كان يعتقد أنّه مالم يفعل ذلك ، فإنّه لا سبيل لإنقاذه ، وتخليصه من آثامه .

خلال اعترافه أمسك بي قائلاً : إنّني يجب أن أعتبره قد ضاع تماماً ، وإنّه سوف يقدّم العديد من الكفّارات آملاً في أن يسامحه الربّ ، ويعفو عنه .

(أ) تلك كانت العقوبة القانونية بحقّ من يمارسون اللواط .

١٨-كانت أولى الخطايا الممارسة بشكل كبير علنيّ في هذه البلاد من قِبَلِ ساكنيها قد عرفت في شكلها ، ومضمونها بما يسمّى مقرضي الأموال في هرمز ، وهؤلاء حقيقة كانوا منغمسين في ممارسة هذه الظاهرة الخسيسة ، وإذا كانت هناك من آثار عن الذين أقصاهم الربّ من المعبد(أ) فإنّهم قد خرجوا ، واتخذوا هذه البلاد ملجأً لهم ، وفي الحقيقة كانت هناك مكائد ، وخدع كثيرة ، في مسألة استبدال العملة ، وتحويلها ، وفي كلّ الصفقات التي يقوم بها أولئك القوم .

في الحقيقة تَطلّب هذا الأمر أن أبحث فيه كثيراً ، بل أُكثِر من إعداد المواعظ بشأنه ، عموماً ، كان عملي شاقّاً في هذا الأمر ، بحيث إنّه استعصى عليّ معرفتهم كلّهم ، وذلك لأنّه لا توجد حرفة بين المسلمين غير الرِّبا ، وليست هنالك من سبل أخرى للعيش بين السكّان المسيحيّين والملحدين .

فهنا ، وبموجب قرض قيمته عشرة "بارداو" بوسعهم أن يعيشوا طوال العام ، معتمدين على فوائده فقط ، مع بقاء استحقاق أصول القرض (العشرة "بارداو") وبسبب هذا أعددت موعظة كي ألقيها في كلّ يوم سبت ، وذلك وفق توجيهات دينيّة عن الخطيئة ، والمعصية التي يسبّبها هذا الجشع .

كلّ التحسّن الذي طرأ على أحوال الناس بموجب تلك المواعظ جدير بالذكر ، إذ جرت العادة بين الناس في هذه البلاد أنّهم بعد

(أ) انظر : "ماتيو" (متى) ٢١ ، ١٢.

الاستيقاظ صباحاً يتّجهون للسوق[أ] في الساحة حيث يتجمّع الناس لقضاء بقيّة اليوم .

لكنهم الآن يتّجهون أولاً للكنيسة ، ومن ثَمَّ للسوق حيث تجري معاملات قرض الأموال ، وبالتالي فقد أصبحوا كالتلاميذ الذين يحفظون دروسهم عن ظهر قلب ، ونتيجة لذلك أصبحت التجارة ، والمعاملات ذات الصلة باقتراض الأموال غير مبرّرة ، بحيث إنّهم لم يعودوا يوافقون على ممارستهما فيما بينهم .

مؤخّراً كان البعض ممّن استمرّوا متعمّدين في ممارستها يعملون على إخفاء الحقائق ، وذلك بإدراجها ، وإدراج فوائدها في حساب واحد ، في صفقة تجاريّة ، وذلك حتّى لا أعلم بحقيقتها .

المجد للربّ ، فعندما تمّ إطلاعي على هذا الموضوع عملت على وقف هذه الممارسات ، انطلاقاً من عملي في تبشير ، وتنوير كُتّاب العدل ، وموثّقي العهود ، الذين يقومون بذلك خاصّة ، وهناك بعض التعويضات التي يفترض أن يدفعها المشاركون .

١٩-أخيراً تغيّر كلّ شيء ، وبدأ الناس يتخوّفون من حياة الغشّ ، وممارسات المكر ، وينأون عنها ، بعدما كانوا يمارسونها في الماضي ، والمجد للربّ ، وكانت هنالك تعويضات ضخمة نظير الأضرار التي ألحقوها بالمسلمين ، والوثنيين ، والمسيحيين .

(أ) "بازار" السوق في الشرق ، حسبما هو معروف بشكل عامّ في الشرق ، ولكن أحياناً يعرف بالمعرض ، أو الاحتفال في "فارس" . السوق الدائمة ، أو سلسلة من المحال التجارية . (دالقادو ١-١٠٦).

كانت النزاهة التي تحلّى بها المسيحيّون قد خلقت رعباً وسط الملحدين ، ومن خلال ذلك حدث هرج شديد ، وصخب في أوساط التجّار ، وكان أحد هؤلاء الأثرياء قد ادّعى أنّه مريض ، الأمر الذي اقتضى أن أقوم بسماع اعترافه ، وأيضاً كان الحال بالنسبة لبعض الفئات الأخرى ، وفي ظلّ وجود رغبات عدّة أشخاص في الاعتراف ، لم يعد بإمكاني أن أحضر اعترافات الأصحّاء ، سواء في النهار ، أو الليل .

كان ذلك الرجل قد أرسل في طلبي للاعتراف ، وحينها رمى بنفسه تحت أقدامي متوسّلاً لي أن لا أتجاهله ، أو أعرض عنه ، قائلاً : أيّها الأب الكاهن هأنذا أرمي بنفسي تحت قدميك ، واضعاً أمامك عدّة آلاف "بارداو" ، مانحاً لك جسدي ، وحواسي ، وروحي ، راجياً أن تخلّصني من آثامي ، وعليه فإنّني أحمّلك كلّ المسؤولية كي تعمل ما يحلو لك .

وما تراه ضروريّاً كي تخلّصني ممّا أنا فيه من الآثام ، فدونك كلّ ثروتي ، فافعل بها ما تشاء ، وعليك أن تسدّد كلّ ما هو مطلوب منّي من هذه الأموال ، وإذا كانت غير كافية فإنّ جسدي سوف يكون كفّارة لذلك ، أرجو ألا تأخذ من الآخرين كي تعطيني ؛ لأنّني أفضّل أن أكون فقيراً ، وليس هالكاً ومستحقاً اللعنة .

كان الكثيرون قد اعترفوا على هذا النحو ، وحقيقة تركني هؤلاء الناس في حيرة من أمري ، فإذا كانوا يطالبون الغير بعشرة ، فالآن يرغبون في دفع عشرين مصرّحين لي أنّهم إذا لم يعترفوا لي ، فإنهم سوف يكونون أفظع الآثمين في العالم .

كانت التعويضات ، والصدقات ضخمة جداً ، بحيث إنّ قيمتها

تجاوزت ثمانية آلاف "بارداو" ، وبواسطة هذا المال تمكّنت من حلّ أزمات الكثيرين من الفقراء ، حيث عقدت عدّة زيجات من النساء الأيتام(أ) كما قمت بإجراء أعمال صيانة في بيت الرحمة المقدّس ، والمجد للربّ وحده .

٢٠- في أحد الأيّام كان قد استعطفني أحد الرجال من ذوى النفوذ باسم المسيح كي أتولّى مسؤوليّته ، ومسؤوليّة ممتلكاته ، وزوجته ، وبناته ، وبالمثل خدمه من الإناث والذكور .

قال هذا الرجل إنّه لا يرغب في عمل أيّ شيء غير الأمر الذي أخبره به ، ونظراً لأنّني ضحكت من قوله هذا ، فقد أحسّ بالمهانة ، والإثم ، بشكل جرح مشاعره ، وبالتالي بدأ يناشدني ، ويتوسّل لي باسم المسيح عيسى-عليه السلام-كي أتولّى أمره ، وصرّح بأنّه سوف يلقي باللائمة عليّ إذا ما ذهبت روحه .

بالتالي اقتضى الأمر أن أتولّى أمر كلّ ممتلكاته ، وأن أرتّب له النمط الذي يجب أن يتّبعه في حياته ، وفي تلك اللحظة لم يكن يرغب في عمل أيّ شيء بمنأى عنّي ، وبالتالي أوقفت عملي كي أهتمّ بشؤونه ، خاصّة وقد كانت ممتلكاته كثيرة ، وهو من أكثر وأقوى الناس نفوذاً ، وجاهاً في البلاد ، وكانت لديه ولدى زوجته رغبة شديدة في مرافقتي لـ الهند للموت هناك .

٢١- ومنذ أن قدّم اعترافه ظهر أيضاً أحد المسنّين ويبلغ من العمر

(أ) هذه الأمور أُسيء فهمها بشكل كبير من قِبل المفسّرين . انظر "فالينيانو" : تاريخ ٤٨٨-٨٩ .

سبعين عاماً ، وبدأ يلازمني صباح مساء ، دون أن يتركني لحظة واحدة ، بل وعندما كنت أدخل في أيّ منزل لأداء أيّ عمل لم يكن يهتمّ لما أقوله له ؛ لأنّه لا يرغب في أن يبرح المنزل قطّ ، وينتظرني حتّى أفرغ من عملي ، وفوق كلّ هذا فإنّ الرجل لم يعد يهتمّ بزوجته ، أو بناته ، وإن كلّ شيء يدور حول الاستشهاد الذي كان يرغب في أن يشاركني إياه في "الصين" ، لقد خفت كثيراً ؛ لأنّني اعتقدت أنّه عندما أغادر هذا المكان قد لا أتمكّن من إقناعه بالبقاء حيث هو مع زوجته ، وبناته .

لقد كانت روحه طاهرة عظيمة(أ) ، وأرجو أن تدعوا له بالخير .

هناك عدّة أشخاص اتّخذوا هذا النهج والأسلوب ، ولم يرغبوا في أن يتركوني وحدي ، ويبدو أنّ هذه فترة أخرى لتلك الكنيسة البدائية .

٢٢- لقد كانت دهشة المسلمين ، والوثنيين كبيرة ، فأطلقوا عليّ اسم الكاهن العظيم .

في "أوروبا"(ب) ابن زوج "اليزابيث" في العهد الجديد القدّيس "جون"(ت) ويقولون إنّ في هذا العالم ثلاثة فقط منهم .

هناك عدّة أشخاص اهتدوا أيضاً بعض الملحدين الذين خضعوا لأعمال

(أ) ورد ذكر آخر عن هذا . انظر شوير هامر / كيو ٤٥٣٨ .

(ب) "القسّيس" وهو بمثابة الكاهن عند المسلمين (المطوع) . وفي اللغة العربية فإنّ القسّيس لفظ منشأه "سوريا" وهو يماثل اللفظ التركيّ "كاشيش" وهو بالفعل يعنى الكاهن المسيحي ، وبالنسبة إلى "دوزى دالقادو" ١-١٦٥ فاللفظ لم يوضّح بشكل صحيح / بل بيرنيل ١٦٩- وفي نص "بارزيو" فهو يطلق بشكل صحيح على الكاهن الأوروبي ، مثال ما يوجد في "البرتغال" .

(ت) انظر كلمات من القرآن زكريّا ، يحى ، القدّيس "جون" ، عيسى ، إلياس ، وجميعهم أنبياء . (٦-٨٥- النصّ الفرنسي الأب كاسميرسكي ١-١٠٨).

الغشّ ، كي أساعدهم في بعض القضايا ضدّ المرابين ، ولقد أحسست حقيقة أنّهم يكنّون لي احتراماً كبيراً ، ويثقون بي ، والمجد للمسيح .

لقد اعترف اليهود لي أنّ ديانتهم تحرّم الرِّبا ، وأنّهم قد انتهوا من ذلك .

أمّا الكفرة ، والملحدون ، فيقولون إنّني لم آتِ إلى هذه البلاد فقط لهداية المسيحيّين ، وإنّما كي أنقل علمي لكلّ فرد بحسب ديانته ؛ لأنّهم عندما أُبلغوا بأنّني سوف أغادر يوماً ما ، خيّم عليهم الحزن ، وصرّحوا بأنّ هذه البلاد سوف تصير إلى ضياع إذا ما رحلت عنها .

٢٣- لقد بذلت جهدي كي أقدّم الدروس ، والإرشادات الروحية للعديد من الرجال ، وبالمثل رجال الدين المسيحيّ ، وبالفعل كان الكاهن ، ومدقّق حسابات المطران في هذه البلاد "أنتون دي مورا" قد بدأ ممارسة هذه التمارين لمدّة ثلاثة أيّام ، وكانت غاية مناه خدمة الربّ في رهبنتنا ، وحقيقة فهو رجل ذو كفاءة واقتدار ، وسوف أتولّى مسؤوليّاته تلك ، ولنصلّي للنجاح في هذه المقاصد .

عندما أتيت لهذه المدينة ، كان قادتها قد قدّموا لي طلباً كي أقبل مفتاح المحطّة التجاريّة ، بحيث يكون المفتاح الآخر بحوزة سيّدنا الملك والقائد ، وذلك نظراً للمشاكل القائمة بينه وبين الوكيل[أ] لكن هل من أحد مؤمن يشرك مع الربّ شيطاناً؟

٢٤- أتى الشيطان بالعديد من الرجال هنا ، كي يخوضوا في الذنوب والآثام ، ولم يأتوا للاعتراف إلاّ بعدما غادرت البلاد ، وذلك حتى لا ينعموا بالأمن ، والراحة ،

(أ) ربما كان فيرناندو الفاريس قد تولى هذا المنصب في ذلك الوقت / انظر شوير هامر كيو ٣٣٦٨ .

كما لاحظت فقد كان ذلك هو الحال بالنسبة للبعض ، وقد شجّعتهم على الاعتراف .

بينما عمل أحد هؤلاء على تقديم كفّارته التي حدّدتها له ، كان قد رأى في إحدى الليالي مجموعة من القطط ، والفئران ، وبعض المخلوقات السوداء ، وهي تتزاحم لدخول المنزل ، وكانت تلك المخلوقات كثيرة جدّاً ، بحيث إنّها انتشرت في جميع أرجاء المبنى ، وسبّبت له من الأسى ، والغمّ ما جعله يعتقد أنّها سوف تختطفه ، وتأخذ جسده وروحه .

في وسط هذا الهجوم اتّجه بكلّ أحاسيسه ، وكيانه ، يدعو الربّ كي ينفذه من هذه المخلوقات ، وسرعان ما اختفت عن ناظريه محدثة ضجّة كبيرة ، بدت له وكأنها سوف تهدم هذا المبنى ، وبعدها تحرّر هذا الرجل ، والحمد والشكر للربّ ، والآن أصبح هذا الرجل ورعاً تقيّاً بعدما كان في السابق يغوص في وحل الذنوب ، والآثام .

٢٥- رجل آخر أيضاً ظلّ يتحاشى لقائي وجهاً لوجه ، وذلك خشية أن يأتيه إلهام منّي ، ولم يكن هذا الرجل قد أدّى أيّ اعتراف منذ عدّة سنوات ، ولقد أخبرني أنّه لن يعترف أمامي قطّ ، ولو كلّفه هذا الأمر أن يقف لمواجهة جيش بأكمله .

لقد قرّر الذهاب لـ الهند دون أن يعترف لي ، وعلى متن السفينة سقط مريضاً بشكل مفاجئ ، وبالتالي تمّ منعه من السفر ، وعندما أعيد إلى منزله أحسّ ساعتها وكأنّ الربّ يهدّده بإرساله ، وعندما سمع قصف المدفعيّة أحسّ وكأنّهم يوجّهون نيران أسلحتهم لقتله ، ولهذا

السبب تخلّى عن عناده ، واندفع مهرولاً طالباً منّي الاستماع لاعترافه ، وذلك لأجل إنقاذ روحه .

لقد استمعت للعديد من أمثاله ممّن يدفعهم الخوف من الموت للمجيء إليّ لسماع اعترافاتهم ، والآن يمكنك أن تلاحظ السبل التي سخّرها الربّ لهداية أولئك العصاة ، مثل الهزّات الأرضية ، والمواعظ التي يستمعون إليها .

٢٦- هنا كاهن أيضاً لم يتمكن المطارنة من النجاح في التفريق بينه وبين عشيقته ، التي أنجب منها بنين ، وبنات ، لكنّه كان قد تأثّر كثيراً عندما استمع لي وأنا أبشّر ، وأخوض في أمر يبدو أنّه متورّط فيه بشكل كبير .

حقيقة لم أحاول التحدّث معه ، وإنّما تركته وحده ، كي يصبح نهباً للندم ، والحسرة ، على أمل أن يكون في ذلك بعض علاج له ، لكنّه ، وبالعكس ، فقد سعى هذا الرجل كي أبادله الصداقة ، والودّ ، وذلك كيلا أوبّخه ، واستنكر أفعاله تلك ، ولقد علمت بهذا الأمر عندما بدأ في إرسال عدّة هدايا لشخصي ، ومن ثَمَّ قام بتوفير بعض الموادّ لأجل سقف المنزل الذي أقوم ببنائه .

عندما ذهبت إلى منزله كي أشاركه الطعام أخفى عنّي عشيقته ، وبالتالي لم أتمكّن من فعل شيء سوى توبيخ رجل الدين عموماً .

قَبِلَ ذلك اللوم ، وفسّره بأنّه موجّه إلى شخصه ، وعندما انتهت الموعظة ، وأصبح الجمهور خارج الكنيسة ، ظلّ هذا الرجل ينتظرني مع جميع الكهنة الذين كانوا أطرافاً في هذا التوبيخ ، وقد تحدّث إليّ

كرجل تنتابه الكثير من الوساوس ، وفي النهاية ، وكي أهدئهم جميعاً جثوت على ركبتي طالباً منهم السماح لآثام لم أرتكبها ، الأمر الذي هدّأ من ثورتهم .

عموماً ، يبدو أن الشيطان لم يتركهم وشأنهم ، من ذا الذي يمكنه رعاية أطفال لـ "أبراهام" "Abraham" ومن نسله[أ] ممّا سبب لهذا الكاهن ، وغيره من الكهنة الكثير من القلق .

في اليوم التالي ، وبينما كنت أقوم بالتبشير ، لم يكن بوسعه الاستمرار دون أن يذرف الغزير من الدمع ، وفي نهاية هذه المحاضرة الأخلاقيّة ألقى بنفسه تحت أقدامي ، وهو يتوسّل إليّ كي أسامحه ، وأعفو عنه ، وعيونه ملأى بالدموع ، عن كلّ ما فعله لي ، وقد وعد بأنّه سوف يقوّم تصرّفاته تلك بالكامل ، وبالتالي قرّر أن يؤدّي الكفّارة ، وهو عارٍ ، وأن يتزوّج من عشيقته ؛ لأنّه رجل ميسور الحال ، وهكذا أعطيت إنذاراً لكلّ الذين لا يرغبون في الإفادة من حديثنا .

عندما حدثت عملية التفريق بين أولئك الآثمين ، وبين عشيقاتهم ، رافق هذا الحدث صخب ، وهرج شديد من قِبَلِهم ، فقد عمد البعض منهم على التزوّج منهن ، وعمل آخرون على تزويجهن من رجال آخرين ، ولجأت فئة أخرى إلى تحريرهن من عبوديتهن ، بينما هاجرت مجموعة منهنّ تاركة المدينة ، والمجد للربّ ، وهكذا أصبحت الهند مأهولة بالسكّان .

(أ) "لوقا" ، ٨ ، ٣.

٢٧- الخطيئة الثانية في هذه البلاد تتمثّل في الحرمان الرسميّ من حضور عشاء الربّ ، وقد وجدت متورّطين كثراً في هذه الخطيئة عن جهل ، ومعظمهم من اليهود والمسلمين(أ) ، ولقد قصدت الاستفادة بشكل كامل من المطران الذي يتضمّن واجبه تسوية ، وحلّ القضايا ذات الصلة بالأمر البابويّ "سيتا دوميني"(ب) .

وبرغم ذلك فهناك صعوبات بالغة بسبب المعاناة التي واجهها شخصياً في البلاط البابويّ فيما يختصّ بنفسه ، وممتلكاته ، إذ لم يتمكن المطران من الاستجابة للعديد من الموضوعات ، وكهنة الاعتراف لا يفهمون هذا الأمر ، ويمنحون الصفح من خلال إقامة طقوس بابويّة(ت) لإحداث الأثر الروحيّ في قضايا غير ضروريّة ، ومن خلال وثائق بابويّة أخرى .

بسبب ذلك أصبحوا عرضة للحرمان الكنسيّ ، من خلال الأمر البابويّ الاستثنائي السادس ، الذي يتعلّق باعتبارات مستقبليّة ، وهذا ما حجب الامتيازات .(ث)

(أ) ورد ذكر هذا في مآثر جون الثاني عشر / الفصل الثامن / بشكل متفرّق هنا وهناك .

(ب) انظر : ملحوظة ٩٧.

(ت) تمّ العثور على هذا بين مراسيم "جورج التاسع" . (صندوق رقم ٥ العنوان ٦- انظر ١٧) . انظر أيضاً (أم أى أى ب ب ١-١٦٢).

(ث) في المرسوم السادس للملك "جورج العاشر" (١٢٧١م-١٢٧٦م) ضدّ مقرضى الأموال ، وبالإضافة لذلك ، إذا ما حدث الحرمان الكنسيّ لعامّة الناس من قبل المطران بسبب أيّة زيادات [من أموال المقرضين] فيتمّ حجب جميع الامتيازات ، المتبقيّة وذلك بواسطة أو بأمر المراقب الكنسيّ (الكتاب رقم ٥- العنوان ٥) فيما يختص بأموال المقرضين س ١) .

بموجب هذه الممارسة الخاطئة أخفق(أ) جميع المسيحيّين الهنود في "ديو" .

نتيجة لذلك اكتشفت أنّ الملكيّات قد حوصرت ، وأنّ المتاجرين ، والمستثمرين ، والعديد من المخادعين يؤذون جيرانهم . [١٥٧] .

٢٨- الخطيئة الرابعة التي وقفت عليها في هذه البلاد هي الخصومة الشائعة ، والخلافات القائمة بين السكّان ، فهناك التحدّي ، والنزاع ، والقسم تجديفاً على الربّ في جميع الأمور ، وبتصرّفات علنيّة فاسدة ، وهذه التصرّفات شائعة وسط الجنود ، وبصفة خاصّة في أوساط المائتي جنديّ الذين أرسلهم الحاكم إلى هذه المنطقة . (ب)

هؤلاء أزعجوني بكثير من المشكلات يومياً ، كلّ ما أنجزه في خلال اليوم يقومون بتدمير أثره في ساعة لا أكثر .

يثيرون النعرات ، يقتتلون! ويسبّون القانون جهرة ، وفي أيّام الأحد يتواجد أناس كثيرون من ذوي النفوذ أمام باب الكنيسة ، وهم يناشدون بعضهم بعضاً الصفح والمسامحة ، لكن هناك من صعب عليه هذا الأمر ، بل واعتبره مستحيلاً ، ولعلّهم يبرّرون ذلك بأنّ المسيح هو الربّ ، وهم رجال ، وبالتالي لا يقبلون الإهانة ، إذ يقيمون وزناً كبيراً ، وهامّاً لشرفهم ، تماماً كالرجلين اللذين حبّذا أن يذهبا للجحيم انتقاماً من أنفسهما ،

(أ) يشير "بارزيو" أنّه بسبب وجود عدّة أحداث ذات صلة بتجارة غير شرعية يمارسها المسيحيّون في الهند إبّان فترة حصار "ديو" في عام ١٥٤٦م ، فقد عمد البرتغاليّون لقمعها ، ومنعها .

(ب) كان "غاسبار دى سا" قد أرسل في شهر فبراير ، أو شهر مارس ١٥٤٩م ، حوالي ثماني سفن ومجموعة من الاسلحة من "باسين" إلى هرمز . (كوريا ٤/ ٦٧٣).

ولا يذهبا للجنة دون انتقام ، حقيقة يبدو هؤلاء القوم أكثر بعداً عن الحضارة ، فهم بلا دين ، ودون ملك ، وبدون قائد يردعهم .

البعض منهم مرتدّون ، جاحدون ، يجدفون على الخالق ، والبعض الآخر يعيش مع اثنتين ، أو ثلاث من النساء ، وآخرون مع عشيقاتهم ، وفئة أخرى دأب كلّ منها على مرافقة اثنتين ، أو ثلاث من نساء المسلمين ، يرتكبون الخطايا علناً معهنّ ، وهناك أيضاً رجال اتّخذوا من النساء اليهوديّات ، والوثنيات عشيقات لهم .

أيضاً يوجد الكثيرون من اللصوص ، وقطاع الطرق ممن يقومون بأعمال القتل من أجل المال ، بينما يوجد أيضاً ملحدون "لوثريون" ، كم هو عجيب أمر هؤلاء القوم ، الذين لم أر لهم مثيلاً قط في حياتي في أيّة بقعة من العالم .

لقد ناشدت القائد أن يطردهم من هذه الدولة ، لكن لم يكن هذا بالأمر الممكن بسبب كثرة أعدادهم ، إذ يبلغ عددهم خمسمائة نسمة ، هذا بغض النظر عن ثلاثمائة من البرتغالّيين المقيمين ، أو كذلك مجموعة التجّار المقيمين في الدولة ، وهناك مجموعة لجأت للقانون وأخيراً فالبلاد كلّها تبدو عبارة عن خليط من الملحدين ، والمسيحيين .

٢٩- عديدة تلك الصعوبات التي عانيت منها لدرجة أنّني لم أتمكّن من اتّخاذ القرار الصائب في التعامل معها ، هل أبدأ بالمعترفين؟ أم بالسجناء؟ القضايا القانونية؟ أم الفئات التي تعيش مع العشيقات؟ فهناك المشورات ، والاحتجاجات ، والتبشير ، ففي كلّ يوم تدخل

أيّة مجموعة من النساء ، فهنّ يرمين بأنفسهنّ تحت أقدامي لتقبيلها ، معتقدات بأنّ أعضاء رهبنتنا قدّيسون .

أثناء تجوّلي في طرقات المدينة يقتضي الأمر أن أتجوّل وأنا أحمل قبّعتي في يدي بسبب كثرة من يرغبون في التحدّث معي .

نساء المسلمين ، والمسيحيين ، وبالمثل مجموعة الرجال ، يتزاحمون على النوافذ كي يلقوا نظرة عليّ ، وأنا أسير حاملاً جرسي عبر الطرقات ، وهم مأخوذون بمظهري الذي ينمّ على العوز ، والفقر ، فبعضهم ينخرط في البكاء ، والعويل بصوت عالٍ ، وهناك حشود كبيرة من النساء ، والرجال يحرصون على الحضور ، والاستماع للموعظة ، تماماً كما يحدث في خميس الفصح ، ولا يحذرون بأن يلتزموا الهدوء والوقار ، كما فعلوا سابقاً ، والمجد للمسيح .

٣٠- آه أحبّائي ، وإخوتي ، لاشكّ أنّكم ستذهلون عندما تعلمون أنّني لم أستسلم تماماً لتلك الغطرسة في ظل النقائص التي تعلمون أنّها متوفّرة في شخصي ، لأنّه بحمد الله ، ذلك هو شخصي الذي خلقه الربّ كي أكون . [أ] فالربّ لا ينظر إلى أجسادنا ، وإنّما نحن ننتمي لجمعية المسيح عيسى المقدّسة ، التي يحرص على حمايتها ، وزيادتها ، وتطويرها .

ولعلّ الوسائل التي أعطاني إيّاها ، لكيلا يضيع منّي ما اكتسبه لأجلي على الصليب ، قد ألقى عليّ ضغطاً كبيراً في عملي ، بحيث إنّه

(أ) الكورنثيون ، ١٠ ، ١٥.

أساساً لم يترك لي فرصة المشاركة في أي أمر آخر سوى ما أقوم بعمله ، لأنّ التقرير ينمو ويزدهر بالتبطّل .

حقيقة لا أذكر ما إذا كنت قد نمت على سرير ما أم على الأرض ، إذ غالباً ما أذكر الإخفاقات الكبيرة التي حدثت لي في هذه الحياة ، وفي الديانة ، وهل لي أيّة حيلة في أيّ أمر غير تسبيح الربّ ، وتعظيمه ساعة ضعفي؟[أ] ماذا لديّ من الأشياء التي لم أتلقّاها؟ وإذا لم أتلقّاها لماذا أتفاخر وكأنّي لم أفعل ؟[ب]

أحبّائي ، وإخوتي كم أنا في حاجة لهذه التقوى! فلتتركوا "أوروبا" كما فعل الكثيرون من الإخوة الكهنة ، وتأتوا إلى الهند حيث ننتظركم هنا وحدنا .

آه كم تختلف الرغبات عن الأفعال! وكم هو البون شاسع بين المبادرة والقوة ، فهي التي تتّخذ شكل القدرة العليا[ت] ، وإنّكم سوف ترون كم هو الفرق بين الشرق والغرب .[ث]

أحبّائي ، وإخوتي في جمعيّة المسيح ، كيف يمكن أن يدخل التغرير إلى حيث يوجد المسيح؟ من له القدرة بالإمساك بمجامع القلوب؟

(أ) الكورنثيون ، ٥ ، ١٢ .

(ب) الكورنثيون ، ٧ ، ٤ .

(ت) هذه تكوّن وتتّخذ شكل السلطات العليا ، متمسّكة بتعاليم تقليديّة يعرفها جيّداً . غير أنّ هذه الإفادة لم تعد مستخدمة بالنسبة للسلطات . قارن "سجوريلو" . قاموس أحد أتباع أرسطو من الفلاسفة (١٨٦٤-١٢٤-٢٦) .

(ث) الجامعة ١٢ ، ١٠٢ .

أحبّائي ، فليبارك الربّ الساعة التي يسبق فيها جلالته الرحمة على عبده[أ] ، فهو يعزّ من يشاء من عباده ، ويرفعه من الحضيض ليصبح في مقام الأمراء من قومه[ب] ، ودعنا جميعاً نقول هذا بعلوّ الأفواه ، وبأعلى الأصوات في الطرقات ، والميادين ، تعالوا لتروا ماذا فعل بروحي[ت] ؟ سأظلّ أنشد رحمة الربّ للأبد من أجل الأجيال[ث] ؛ لأنّه يريد أن يجمعنا في هذه الرهبنة المقدّسة التي أسّست بواسطة كهنة "اغناتيوس" وبقية الاثني عشر[ج] .

آه كم كان الآثم "غاسبار" مديناً للزعيم الأب "سيماو"[ح] باستقباله إيّاي سيد "جواو"[خ] لهدايتي و"موريس"[د] ولتقديمي عنوة ، كيف يمكنني أن أشكر الربّ على كل ما حباني به ، وأسبغه عليَّ من فضلٍ ورحمة[ذ] لا شيء بقي لي سوى الدهشة والبكاء .

٣١- هذا إلى جانب ماذا سيقول المستقيمون من أعضاء الرهبنة إذا كنت أنا المخطئ والآثم أعتقد هذا؟

(أ) المزامير ٦٥ ، ١١٨ .

(ب) المزامير ١١٢ ، ٧-٨ .

(ت) المزامير ١٦ ، ٦٥ .

(ث) المزامير ٢ ، ٨٨ .

(ج) لقد زعم في بداية الأمر أن عدد الأفراد قد بلغ عشرة أعضاء- قارن أم أى .
M1, Fontes narr . 1 12532 EPP Broeti ….. Rodricii 425).

(ح) سيماو رودريغيز .

(خ) "جواو دى اراقون" .

(د) "مانويل دى موريس سينور" .

(ذ) المزامير ١٢ ، ١١٥ .

أيتها النبتة المقدّسة المغروسة في معرفة صليب المسيح المبلّلة بدمع الغالي ، الرطبة بدماء شهداء المسيحيّة وكهنة الاعتراف ، المحاطة بعناية العذارى ، المكرّمة بالملائكة ، المطوّقة بعطف كاهن الكنيسة ، المحكومة بالروح المقدّسة ، والمملوكة بالمسيح .

بالرغم من أنّك تبدين نبتة رقيقة استزرعت حديثاً من جذر كنسيّ ، فإنّك تبدين قويّة بما يكفي لتكوني فوق كل الرهبنات الدينيّة ، ضاربة الجذور في الفقر في الطاعة وفي بساطة المسيح ضاربة جذورك في هذا العالم ، في أعماق البحر في الحياة ، وفي حبّ الجار ، وفي التأمّل في الخالق ، وتمدّين جذورك السماويّة حتّى النهر[أ] .

من لم يتّبع تعاليم المسيح في رهبنتنا وهو مصلوب[ب] ، فهو مغضوب عليه ، وملعون كنسيّاً .

ما هو التحابّ والائتلاف بين المسيح والملاك[ت] ؟

يا أطفال الربّ فلتمجّدوا اسم الربّ ، ولتقدّسوه الآن ، وللأبد[ث] .

٣٢- عودة إلى موضوعي ، أيها الأحبّاء ، إنّني أناشدكم أن تغفروا للقلب شهواته؟ إذ إنّني في حاجة لإيجاد نظام لأولئك الناس ، وذلك حتى لا يتمكّنوا من إفساد غيرهم ، لقد ناقشت الموضوع بشكل موسّع في إحدى المواعظ ، وطرحت بعض التهديدات كعدوّ ودود .

(أ) المزامير ١٢ ، ٧٩ .

(ب) الكورنثيون ٢ ، ٢ .

(ت) الكورنثيون ٦ ، ١٥ .

(ث) المزامير ١١٢ ، ١-٢ .

لقد طلبت ثلاثة من كهنتنا لأجل أولئك الذين يعيشون الأوضاع الوارد ذكرها أعلاه ، حتى يكون اتّصال الربّ بهم في تلك المناطق التي يستشعرون وجودهم فيها أكثر ، عسى أن يستشعروا الخوف ، والوجل ، سواء بأجسادهم[أ] في ممتلكاتهم ، أو سلعهم المادية ، أملاً في الخلاص لأنفسهم ، وحينها زاد ارتباكهم ، وخافوا من مغبّة هذا ، ورفعوا احتجاجاً ضدّي ، وعندما أعطيتهم توضيحاً بمبرّرات فعلي ذلك ، وافقوا ، ومن ثَمَّ تصرّفوا بالوجه الصحيح .

لعلّ من الأفضل للمرء أن يكون متواضعاً ، لا مغروراً ، وأجزم لا سليم البدن[ب] .

٣٣- خالقنا سبحانه يرعى بعيونه الفقراء[ت] ، ويسمع دعاءهم ، وتوسلاتهم[ث] ، يسمع دعاءنا ويستجيب لسؤالنا .

كان هناك جمع كبير يستمعون لهذه الموعظة ، وليس لديهم فكرة عمّا يطلبونه ، ولقد شاءت إرادة الربّ أن تقوم حرب في البرّ الفارسيّ .

كانت هناك قلعة في تلك البلاد تسمى "موناجاو" "Monagao"[ج] قد أعلنت الثورة وتمّ الاستيلاء عليها بالخيانة ، والغدر ، وكان هناك

(أ) المزامير ١٧ ، ٧٢.

(ب) "ماثيو" (متى) ١٨ ، ٨.

(ت) المزامير ٥ ، ١٠.

(ث) المزامير ١٦ ، ٣٣.

(ج) "مانودجان" مدينة ، وقلعة تقع في جنوب "فارس" حوالي مائة وخمسين كيلو متراً من هرمز في اتّجاه القطاع الشرقيّ . انظر شوير هامر كيو ٢٠٠٥.

مائتان من أولئك الرجال ممّن ورد ذكرهم من قبل ، بالإضافة إلى مائتين أضيفت مؤخّراً ، حيث أصبح مجملها أربعمائة بقيادة أحد القادة المسلمين ، إلى جانب خمسة آلاف قد تمّ إرسالهم لمهاجمة القلعة ، وكان يتولّى قيادة هذا الجيش القائد الأعلى "بانتالاو" ابن أخ(أ) حاكم الهند .

ليست هنالك نقطة في إدارتي لفرقة التبشير ، والاعترافات عن هذا الموضوع ، فكلّ فرد يسخر من الاعترافات ، والمواعظ ، حيث إنّه ينصرف عنها قائلاً إنّها دستور فوق دستور ، فالبعض يبقى حذراً ، ويستمرّ في الحذر(ب) ، فقد أبرمنا اتّفاقيّة مع الموت ، وميثاقاً مع الجحيم(ت) ماذا يفيدنا لو خدمناه(ث) ؟

كان عشرون منهم قد اعترفوا ، وعندما أتى القائد طالباً منّي مباركته ، والدعاء له بالخير ، أخبرته عن سوء الحظّ الذي أخشاه ، وهذا ما حدث .

٣٤- كانوا جميعاً قد جبنوا وخافوا في الحصار ، وقد استحوذ عليهم مرض أشبه بالطاعون ، فهلكوا كما تهلك الأنعام دون أن يعمل أحد على مواراتهم الثرى ، وكانوا جميعاً دون استثناء قد طلبوني لحضور اعترافاتهم ، فتجمّعوا مع بعضهم البعض ، وكانوا جميعاً يرون أنفسهم

(أ) "بانلاليون دى سا" ، "غارسيا دى ساس" ، أحد الأقرباء من رابطة الدم ، "قارن آسايا" من أنبياء اليهود في القرن الثامن ١٠ ، ٢٨.

(ب) آسايا ١٤ ، ٢١.

(ت) آسايا ١٥ ، ٢٨.

(ث) جوب ١٥ ، ٢١.

مرضى بشكل قاتل ، فما استعصى الاستيلاء عليه بالتبجّح استسلم فيما بعد ، ولم تكن هناك قوّات .

في هذا الحصار توفّي خمس وأربعون نسمة ، هذا بخلاف مائة من الجرحى ، ومائة أخرى كانوا قد وصلوا وقد أعياهم المرض من الحصار ، توفّوا في هرمز ، ولقد كشفوا معبّرين عن الخطأ الذي ارتكبوه عن طريقي ضدّ الربّ ، وبدخولهم هرمز ألقوا بأنفسهم تحت أقدامي ، وعيونهم ملأى بالدموع ، رافعين أيديهم بالدعاء للربّ ، الذي هيّأ لهم الظروف ، والوقت الكافي ، كي يتمكنوا من مقابلتي .

بعدها طلبوا جميعاً الاعتراف ، ولم يرغبوا من بعده في شيء سوى الموت .

كم كان حزني عميقاً عندما شاهدت العديد من المسيحيّين يرتمون عند أقدامي ، بعضهم يحتضر ، والبعض الآخر ينخرط في بكاء مرّ .

حينها لم أكن أدري ما أفعل ، فطفت عليهم جميعاً أحتضنهم ، وأطيّب من خواطرهم ، كي أمنحهم الطمأنينة .

توسلت إليهم كي يعبّروا عن رغباتهم في الاعتراف مع الكهنة ، حيث كان يوجد منهم خمسة ، إذ إنّني من جانبي لم أتمكن من الإصغاء إلاّ لملازمة أربعمائة شخص .

على كلّ لم يكونوا راغبين في الاعتراف ، وكانوا يقولون إنّهم من مستحقّي اللعنة المحكوم عليهم مسبقاً بالهلاك الأبديّ [١٦٧] ، وإنّهم إذا لم يعترفوا معي لن يتمكّنوا من تطهير نفوسهم ، وإنقاذها .

في النهاية أعربوا عن شعورهم بأنّهم يفضّلون الموت ، ولا يعترفون لأيّ أحد آخر .

بعدما رأيت هذا بدأت أستمع لاعترافات الموشكين على الموت قبل غيرهم ، وذلك في الصباح والمساء .

بلغ عدد الاعترافات التي استمعت لها حوالي سبعة اعترافات في الليلة .

لم ألق بالاً لاحتياجات القائد ، والنبلاء التي أثاروها ضدّي ، حيث رفضت عملية تغيير الأمر ، وذلك وفقاً للحاجة التي لمستها .

عليه فحينما كنت أستمع لاعتراف أحد الرجال ، كنت أطمئن آخر كان يلفظ أنفاسه الأخيرة .

بعد مضيّ فترة شهر أمكنني الاستماع إلى اعترافاتهم .

كانت لديّ رغبة كبيرة في المغادرة للقيام بتأسية الجنود والقوّات ، ولكن لم يكن بوسعي فعل هذا الأمر باعتباره خروجاً عن طاعة الزعيم الكاهن "فرانسيسكو" ، الذي وجهني كي أغادر إلى هرمز .

عليه فقد كتبت إلى مدرسة القدّيس "بول" في "غوا" كي يرسلوا لي كاهناً آخر لمساعدتي ، وتقديم العون في الحروب التي نخوضها ضدّ الأتراك على الحدود .

غير أنّني لا أعلم ما إذا كانوا قد أرسلوه لي أم لم لا[أ] .

٣٥- أخيراً قرّرت ، عندما رأيت المسيحيّين الآثمين ، وهم في طريقهم إلى الحرب ، أن أشرع في الصلاة والدعاء لهم .

(أ) كان من المستحيل أن يرسلوه له .

في حوالي الساعة العاشرة ليلاً طلبت من أتباعي القيام بمسيرة مقدّسة قوامها أطفال ، وذكور وإناث الخدم ، ومسيحيّو تلك الدولة ، هذا إلى جانب خمسين من الضاربين بالسياط للتوجّه إلى ضريح سيّدتنا المقدّسة على بعد نصف ميل من هرمز .

كان جميع الكهنة قد حضروا وهم يرتدون المِدرَعَة-رداء كهنوتيّ- ويحملون الشموع في أيديهم ، لم يكن هذ الأمر سريّاً ، وقد جاء كل فرد وهو حافي القدمين ، وكان الأعراب عن الأسف بإخلاص جمّاً في لحظة الابتهال ، والرحمة من عند الربّ ، ولم يكن هنا من فرد واحد قطّ لم يجهش بالبكاء ، وأخيراً في منتصف الليل قمت بالتبشير في جمع من الناس ، وكثيراً ما كانت تلك المسيرات تقام في العديد من المناسبات .

٣٦- كان الزعيم الكاهن "فرانسيسكو" قد أمرني بالبقاء في هرمز لمدّة ثلاث سنوات حتّى أتلقّى رسالة منه من "اليابان" ، وعليّ ألاّ أغادر هذا المكان ، وألا أقدم على عمل أيّ شيء بمبادرة من جانبي ، حتّى ولو تلقّيت أمراً مناقضاً[أ] من الهند ، وكان حريصاً جدّاً على مسألة مقابلته في الهند ، إذا ما تمكّن من تمهيد الطريق هناك ، وإذا حدث بعد ثلاث سنوات أنّني لم أتلقّ أيّة رسالة منه ، فإنّ هذا يعنى أنه قد توفّي ، وسوف أنفّذ كلّ ما يأمرني به القسّيس القائد في رهبنة القدّيس "بول" في "غوا" .

٣٧- كان الكاهن "ريماو بيريرا" الذي وجّهه الزعيم الكاهن "فرانسيسكو" بمرافقتي قد أمرته أن يعود مرّة أخرى لـ الهند لأنّه كان

(أ) انظر : كلمات شافير في ١١/ ٩٨ .

مريضاً جدّاً ، وذلك لأنّ البلاد شديدة الحرارة بحيث يصعب عليه تحمّلها ، وإنّ أيّ فرد يعاني من ضعف ، أو مرض صدريّ لا يمكنه أن يعيش طويلاً هناك ، ونظراً للرشح ، والتعرّق الكثير بسبب حرارة الجوّ هنا اضطررت لإرساله من منزل لآخر كمحاولة لإيجاد جوّ أقل حرارة ، عموماً ، كان على وشك الموت .

هذه البلاد ، والمجد للربّ ، بلاد شديدة الحرارة ، شديدة الجفاف ، لكنّني رغم ذلك أرى أنّها تناسبني ، حيث أحسب أنّ عملي تشوبه روح الدعابة فيصبح برداً وسلاماً ، والمجد لله .

أنا موجود الآن هنا مع شابّ واحد فقط ، يرافقني ويقدّم لي المساعدة حباً في المسيح .

٣٨- كان الندم الذي ظهر على العائدين من الحرب كبيراً جداً ، ولم يصيبني الكلل والملل من الاستماع لاعترافاتهم ، نظراً للدموع التي ذرفتها عيونهم ، ولعل الغالبية العظمى من الاعترافات التي استمعت لها في هذه البلاد تبدو بشكل عام اعترافات تغطي كل فترات حياتهم ، إذ جرت العادة في الهند أن يعترف الرجال مرة واحدة كل عشر سنوات .

كان البعض يلازمني أين ما ذهبت ، ولا يريد أن يفترق عني ، وبعض آخر يأخذ بيدى أو يتعلق برداء الكهنة صارخاً بأعلى صوته كيلا أذهب عنه ، معتقدين أنهم بتلك الطرق سوف يتمكنون من تخليص وتطهير نفوسهم .

كان أحدهم وهو يوشك على الموت قد نهض واقفاً عند منتصف

الليل وأخذ سيفه كي يقتل نفسه ، وبعد أن مُنع من ذلك ، نهض بقوة الموت كي يهاجمني ، ويالها من قوة ، أما بقية المرضى الآخرين فقد كانوا يصرخون مستنجدين بأي شخص كي يأتى لمساعدة الكاهن ، لكنهم لم يفعلوا نظراً لعدم قدرتهم على النهوض ، لقد جاء المسيح لمساعدتي وإنقاذي من فم الأسد(أ) ، إذ سرعان ما توفي الرجل وصعدت روحه إلى بارئها .

لقد حسبت أن الشيطان أراد أن ينهى حياتي ، غير أننى كنت أقوى منه والحمد للرب .

هناك أحداث مماثلة وقعت هنا لا أحب الخوض فيها والكتابة عنها ، لأن الوقت لا يسمح بذلك . [١٧] .

٣٩- عموماً لم تنم أعين عدو الفضيلة لأن ما يريده ليس سوى إعاقة كل شيء حسن تم فعله .

عندما رأى الكهنة تلك الجموع الغفيرة عند الاعتراف والدروس الدينية بدأوا يشعرون بالحسد تجاهي ، كما أنهم شعروا أنهم محزونون أكثر لأنني أقوم بالاستماع لاعترافات أبنائهم ، ولأنني لم أقم بدعوتهم لمساعدتي ، وهذا أمر كانوا يرغبون فيه كثيراً .

لم أتجرأ بتوضيح السبب بأن النادمين لم يرغبوا في الذهاب إليهم والاعتراف ، وأنهم يحبذون الموت دون اعتراف لأن الكهنة كانوا في محنة وخزي .

(أ) الملوك ٣٧ ، ١٧ .

لكن كانت هناك مساعدة المسيح إليّ ، لأنهم عندما طلبوا المشورة والتوجيه بماذا يعني ذلك ، استنتجوا أن ذلك لا يعني سوى منة وفضلاً الروح المقدسة ، وهي ما تلقته رهبنتنا من خلال اعترافات الجمهور للكهنة .

عليه فقد اطمأنت نفوسهم بذلك الاعتقاد ، ومن ثم صاروا يكنون لنا كل الاحترام والتوقير ، وهذا ما أخبرني به الكاهن .

لقد اتضح لي خلال مدة الستة الشهور التى قضيتها في هذا البلد إنني قد استمعت إلى أكثر من ستمائة أو سبعمائة اعتراف ، وفي النهاية لم يبق سوى القليل منهم كي أستمع لاعترافاتهم ، وسوف أستمر في الاستماع لاعترافاتهم بشكل يومي حتى أتمكن من الفراغ منها قبل حلول عيد الميلاد ، وإنني أشعر بالقلق خاصة في ضوء رغبتي في تقديم عدة مواعظ ، ولا أحب أن تكون الاعترافات عائقاً ليّ ، المجد للمسيح ... ، فموسم الحصاد على الأبواب لكن العاملون قلة[أ] .

أتمنى عندما يفرغ الكاهن من تدريباته الروحية أن يأتى لمساعدتي بكل حماسه البابوي .

إذا كان هذا البلد مستعداً لاستيعاب مدرسة لرهبنتنا النصرانية فبوسعنا وبكل سهولة أن نبني أفضل مدرسة في الهند ، نظراً لوفرة المال الذي رصدناه لهذا المشروع ، هذا ولقد أنفقت أكثر من ثمانية آلاف "بارداوس" علي بعض أعمال البر والمشروعات الخيرية .

(أ) ماثيو ٣٧ ، ٩ .

هنالك الكثير من الناس في وسط البرتغاليين ممن يرغبون في الانضمام إلى رهبنتنا لكن كان الاهتياج مذهلاً ... ، فالمجد للرب ، وبالنسبة لمجموعة الناس الذين أرسلتهم للهند فقد رغبت في أن يصبح بعضهم رهباناً والآخر نساكاً ، وهناك عدد كافٍ منهم بغض النظر عن الكثير من الإنكشارية والهنقاريين والأرمن ، والروس والبولنديين وسكان جنوه والأحباش والمسلمين والأتراك الذين يعتنقون المسيحية يوماً بعد يوم والمرتدين من ايطاليا بحيث تزايد العدد بحيث يمكن أن يملأ مسكنين من مساكن الرهبان .

على كل ، فالبلاد تعيش حالة حرب بصفة مستمرة ، بحيث إنه يتعذر علينا أن نقتات في سلام أو دون أن نتخذ الاحتياط اللازم وتنبيه من يقومون بواجب حراستنا ، إذ إننا محاطون بالكثير من الأعداء ونفتقر للهدوء ورباطة الجأش ، ولعل أكثر ما يتوفر في هذه البلاد هو المال .

٤٠- أينما وجد العديد من الآثمين والمذنبين ، ولا نقول قساة القلوب ، لوحظ أن العديد من الناس ممن تعرضوا للحرمان الكنسي والمعاصي في هذه البلاد قد لجأوا إلى تغيير ما بأنفسهم نحو الأفضل .

كم كان تأثري عميقاً جداً وأنا أشاهد آثار الندم والأسف تغمر تلك القلوب القاسية ، سيما التغيير[أ] الذي طال قلوب ذوي النفوذ منهم ، وكان من بينهم الرهبان الذين هجروا ذلك الأسلوب فأصبحوا جنوداً ،

(أ) الزبور ١١ ، ٦٧ .

ومثل ذلك أشبه بالفخ الذي يستخدمه الشيطان عند الصيد ، وبالملاذ للذين تم إقصاؤهم من الرحمة المقدسة .

كان الأب "فرانسيسكو" مصيباً عندما أمرني بالمغادرة فوراً إذ إنه خشي أن يصار إلى إخفاء كل ذلك عند وصولى ، وجميع السكان يعلمون كم كان الرب رحيماً بنا ، ولعل أبلغ دليل على ذلك تلك الهزات الأرضية التي ظلت تحدث بواقع مرتين وثلاث مرات في اليوم الواحد .

كانت المجموعة التي غادرت ، باكية تذرف الدموع ، قد حملت معها بذوراً لزراعتها ولا شك إنها سوف تعود وهي تنشد أغاني الفرح بعدما عانت الأسف العميق(أ) ، فكم كانت تلك النفوس كئيبة يعتصرها الحزن والأسى وهي تخوض في الذنوب متجهة للحرب ، وكم هي نادمة تائبة وهي تعود ، وبالرغم من أن العالمين بالأمور والأكثر تبصراً لديهم تفسير آخر لهذا الأمر ، إلا أن ذلك يتوافق تماماً مع ما ورد هنا ... ، والمجد للرب إنهم لم يتبرموا من الاعتراف .

٤١- بين هؤلاء الناس هناك قائد كانت ترافقه ثلاث من النساء المسلمات اللائي يمارسن معه الفجور بشكل علني ، وهذا الرجل ملعون من الفجر حتى الغروب ، فهو رجل مجذف على الرب ، يقوم بتدريس مجموعة من الناس وتدريبهم للتفوه بالتجذيف على الرب وإستخدام لغة تجذيفية ضد الترنيمة الزياحية في عوامة مليئة بالنساء الجميلات(ب) .

هذا السيد توفي بشكل مفاجئ إبان الحصار .

(أ) الزبور ٦ ، ١٢٥ .

(ب) اعلاه ، ان ٢٨ .

٤٢- هناك أيضاً أشياء لفها الغموض نتجت عن تلك الأحداث ، ونظراً لضيق المجال فإنني لا أريد أن أتطرق لها أو أشير إلى إعتبار الكفارات المقدسة أو تكالب الناس بكل الورع على الاعتراف كظباء تتزاحم على جدول الماء(أ) ، لأن أعمالك فاضلة جليلة أيها الرب(ب) .

العديد ممن شارفوا على الموت ، استعادوا عافيتهم وقواهم بعد الانتهاء من اعترافاتهم ، وآخرون تم علاجهم وتطبيبهم من عجزهم وعاهاتهم الجسدية الأمر الذي بث الرعب في قلوب الكثيرين من الناس فأصبحوا أكثر ورعاً وأكثر خشية .

لقد وضح جلياً أن سكان هذه البلاد يفتقرون بشكل كامل لمعرفة هذا السر المقدس ، بسبب عاداتهم السيئة في عدم الاعتراف لعدة سنوات ، وبسبب سخريتهم من الذين يلجؤون للاعتراف والمشاركة ، وأغلب الظن أن هذا الطريق يقودهم نحو البروتستانتية .

لقد عملت على تجنب ذلك من خلال استنكاري في الخطب والمواعظ التى ألقيتها عليهم وأقنعتهم على الاعتراف والمشاركة كل أسبوع ، وفي أيام الأعياد وأيام الأحد ، وهذا ما أيده الرب تعالى بكثير من المعجزات حتى تولد في نفسي الانطباع عندما كنت في "كويمبيرا" بأن هناك الحماس الدافق نحو الاعتراف في أيام السبت(ت) .

(أ) الزبور ٢ ، ٤١ .

(ب) التكوين ٣ ، ١٥ .

(ت) كان "رودريغيز" قد ترك توجيهات خاصة لأعضاء "كويميرا" فيما يختص بعملية تقديم السر المقدس بالطرق الفاعلة بخصوص الكفارات في كل يوم سبت .
(ed . In Epp . Broeti … Rodericii 843-47).

وتلقيت المشاركات في أيام الأحد وهكذا ففي هذه الأرض القاحلة يتواجد الناس بأعداد ضخمة يتشاركون ويتواصلون بشكل ودي في أيام الأحد ، ويؤدون الاعترافات في أيام السبت ، وتقريباً أدي الجميع اعترافاً عاماً .

غالباً ما كانوا يذرفون الدموع أثناء اعترافاتهم ، ويحرصون على الحضور للاستماع للمواعظ ، إنهم لا يملون السماع لكلمة الرب ، وكثيراً ما يطالبونني بالمزيد من التبشير .

كانوا يتركونني دائماً متعطشاً راغباً في تقديم المزيد ، والآن كل من يعتبر غير طاهر وغير راغب في الاعتراف من وقت لآخر فإنه لا يجد أي احترام .

٤٣- أدى القائد اعترافاً عاماً واتبع التعاليم المقدسة في أول أسبوع ، فقد جاهد كثيراً كي يؤدي اعترافه مرة واحدة في الأسبوع ، وكان قد صرح بأنه سيقوم بطرد كل من يعيث فساداً في هذه البلاد ، وقد أضحى هذا الرجل ورعاً وقدم الكثير من الصدقات ، وبينما كان في الماضي من أشرس الطغاة أصبح الآن عفيفاً طاهراً كالحمل الوديع ، وقام بتحويل كل الذين ثبتت معاصيهم إليّ .

أخيراً فهو الآن بمثابة قائد (الناو) الأسطول عندما قدم للمرة الأولى من البرتغال[أ] ، وكان قد أهدى لي طقماً من الثياب كما أهدى لي أيضاً ثوباً آخر مطرزاً بجميع أنواع الزخارف لمذبح الكنيسة ، هذا بالإضافة إلى

(أ) انظر خطاب بارزيو الوثيقة ٧ ، ٥٦ .

كأس القربان المحلى بالفضة وحق القربان المقدس للضيوف ، وعلى كل قدم لي كل شيء أحتاج إليه في القداس وبالمثل للذين سوف يرافقوني في زيارتي للصين أو أي مكان آخر لأجل استخدامه مع الوثنيين .

عموماً كنت قد قبلت على مضض رداء (روب) باهظ الثمن من قماش أنيق وبعض الأشياء الأخرى التي لا أريد ذكرها ، لقد كان الرجل محباً جداً لرهبنتنا ولديه رغبة أكيدة في دعمها ، وكان يتمنى أن يصبح حاكماً للهند ، فأرجو أن تخلصوا له الدعاء[أ] .

المجد للرب ... ، لم أتمكن من الذهاب إلى أي مكان آخر ، وأحسب أن نتائج عظيمة سوف تتحقق ، فالأعمال هنا مباركة وهي تتقدم بشكل جيد .

صلاة تتبعها صلاة ، كل القلوب إنشاد وأعمال جديدة[ب] ، فلننشد للرب أنشودة جديدة ، فتمجيده يتجسد في تجمع الأتقياء[ت] ، وتوحد القلوب وأتباع التعاليم الدينية والأخلاقية .

آه ، أحبائي من بوسعه أن يفسر التعبد الذي استشعرته في المعاناة لأجل المسيح ، عندما أخبروني بشأن الشهيد الأب الكاهن "أنطونيو"؟[ث] ، كانت كل أمالي أن يحل دوري غداً ، والمجد للرب ... ،

(أ) لم يتول هذا المنصب .

(ب) من خلال أناشيد الترانيم المقدسة : (الصلوات المقدسة) .

(ت) الزبور ١ ، ١٤٩ .

(ث) هو "أنطونيو كريمنالز" الذي اغتيل في مايو أو يونيو في مناطق الصيد في اقليم "راس كومورين"– انظر الوثيقة ٧٢ ، ٧١ .

الذي بفضله تمكنا من إنشاء رهبنتنا التي أصبحت موضع الإعجاب والحسد ، حتى لا تكونوا واهمين أحبائي الكهنة في مسألة تفهمكم للكهنة الموجودين هناك عندما تناولنا الطعام في دير الرهبان في "كويمبرا" ، والآن لم يعودوا كما يخيل لكم فجميعهم يقولون برأى القديس "بول" ، لست أنا من يعيش وإنما حقيقة يعيش المسيح في جسدي[أ] .

إن كان لكم أن تتصوروا تكامل الفضل فهو مجسد هنا في كهنة الهند ، فهم من يرتدون جلباب المسيح عيسى[ب] ، أيها الكهنة ماذا تريدون من أوروبا وأي بلد يمكنكم أن تحصلوا فيه على نخلةالشهادة؟

يجب عليكم أن تنتبهوا كي تؤكدوا رسالتكم من خلال العمل الطيب ، ومن هذه الأكاذيب يجب أن تتوخوا الصدق[ت] وتلتزموا بالطاعة ، ولكن لابد من الاجتهاد للظفر بالجائزة[ث] إذ إننا نحتاج للفضيلة والمعرفة .

في بداية الأمر كان الرجال يخجلون من البكاء هنا خلال استماعهم للمواعظ ، إذ يطغى عليهم الحياء ، لكنهم يفعلون الشيء نفسه عندما يتحدثون للمسلمين عن حب المسيح ، أسأل الرب ألا يكون تفاخري إلا في سبيل الصليب شعار المسيح عيسى[ج] .

(أ) قارن بالغاليين – تابعين لمنطقة في اواسط آسيا ٢٠ ، ٢ .

(ب) الرومان ١٤ ، ١٣ .

(ت) بيتر ١٠ ، ١ سفر في العهد الجديد ١ ، ٤ .

(ث) سفر في العهد الجديد .

(ج) تابع لمنطقة في أواسط آسيا الصغرى ١٤ ، ٦ .

كان القادة قد بسطوا نفوذهم على الكنيسة ، وكانوا يسيئون معاملة الكهنة ولا يولون أي احترام لرؤساء مساكن الرهبان ، فجميع رايات المسيح قد دمرت وتعرضت المقدسات للتدنيس ووضعت تحت الأقدام ، وقد فعلوا كل ذلك دون أن يعبأوا بالحرمان الكنسي أو يقيموا أي اعتبار أو احترام للمطران .

في الوقت الراهن أصبحوا يظهرون احتراماً كبيراً لرؤساء المساكن الخاصة بالرهبان والكهنة ، كما أصبحوا يخافون كثيراً ، وأضحوا بمثابة حماة هذه المقدسات يدافعون عنها .... ، والمجد للرب ، أما الذين كانوا لا يبالون بالحضور للكنيسة ولا يكترثون لهذا الأمر فقد كفوا الآن عن تلك الممارسات ، وكنت غالباً ما اتجه لاستخدام الحرمان الكنسي للسيطرة على الأمور خاصة بالنسبة للفئة التي لا تظهر الاحترام .

٤٦- هنا يجد الكهنة الكثير من الحب وبالمثل تجد الوظائف الاحترام والتقديس ، ففي أيام السبت أصطحب الكهنة وهم حفاة لزيارة ضريح سيدتنا المقدسة الذي يبعد من هنا حوالي نصف ميل ونحن ننشد ونرتل الابتهالات على الناس [١٨ آر]

٤٧- كان برنامج حياتي في هذا البلد يسير على النحو التالي : ففي أيام الأحد أقوم بالتبشير صباحاً ، أما في المساء فإنني بعد تناول العشاء أقوم بالتجول في المدينة لتقديم الوعظ للذكور والإناث من الخدم وكذلك للمسيحيين الجدد الذين تم تحريرهم إلى جانب الأطفال حيث يتلقون التبشير في الكنيسة ، فأقدم لهم النصح والتوجيهات الدينية وكذلك الدروس التي تتعلق بمبادئ الإيمان شارحاً لهم كل ما يختص

بالكتابات المقدسة منذ بداية خلق الكون إلى يوم الحساب(أ) وأتمنى باسم المسيح أن أتمكن من شرح كل المبادئ خلال سنة واحدة(ب) .

هذه التوجيهات كان يحضرها العديد من الناس في ذلك الوقت ممن يصعب عليهم الحضور إلى الكنيسة ، وبعد إلقاء الدروس الشفهية أقوم بتدريسهم أصول العقيدة عن كهنتنا ، السلام المريمي ، المذهب المسيحي ، الوصايا والأمور الأخلاقية التي أمرنا الرب باتباعها والكنيسة ، وسلام الملكة المقدسة .

مرحى لصلوات وصلوات لأجل المجاهرة بالعقيدة(ت) المسيحية .

النتائج التي أصبحت في متناول أيدي المسيحيين والأطفال تبدو مذهلة ، فكل فرد قد علم صلاته وكثيراً ما شوهد الأطفال يجوبون المنطقة ويتباحثون مع المسلمين ويخبرونهم أنهم لن ينجوا قط ما لم يتم تعميدهم .

في النهار يجوبون الطرقات وهم ينشدون التعاليم المسيحية بلهجتهم العامية ، وفي الليل يرتقون سطوح المنازل حيث يُسمعون المارين إنشادهم وترتيلهم ، ليس منهم من يقدم على اختلاق

(أ) أنظر كلمات الإعلان الجهري ("Symboli Fidel") الذي أعده شافير في عام ١٥٤٦م وفي إبريل عام ١٥٤٩م الذي أوكل إلى "غوا" بواسطة المذكور بارزيو . قارن الإعلان- بخصوص أصول العقيدة - الخروج ٢٦ ، ٩٣ ، ٢ انظر النص في الخروج ١-٣٥٥-٦٧) .

(ب) شافير ، يمكن أن تتم معالجة هذا الإعلان في مدة عام واحد بحيث يمكن تدريس ٢٠ كلمة في اليوم .. الخروج ٣٨٩ ، ١ .

(ت) هذا الجزء الأصغر من تعاليم شافير الشفهية (انظر التمرين ١-١٠٦) قارن أيضاً رقم ٤٦أ- النص أ .

المشاكل أو السرقة أو ارتكاب الجرائم لأنني حقيقة أوعزت لبعض المخبرين أن يبلغوني بأمر تلك الممارسات وذلك كي يخضع المعتدون إلى عقوبة الجلد .

في أيام الأحد كنت أدعو النافذين من رجال ونساء البلاد للمصالحة ، يسامح بعضهم بعضاً وهم جاثين على ركبهم ، فالأطفال يقومون بتدريس ذويهم من الآباء والأمهات كي ينقلوا لهم معارفهم ، وبالمثل تفعل إناث العبيد لأسيادها ولمعتنقي المسيحية الجُدد والمجد للرب ... ، عموماً كان هذا الأمر قد أثار دهشة كل ما شاهده بشكل أكثر مما علمه من خلال هذا الخطاب ، فمن أفواه الأطفال والقُصر يمكنك أن تلتمس التسبيح والتمجيد للرب الخالق .

غالباً ماكنت أقدم هذه التوجيهات الدينية يومياً بعد العشاء عندما أجوب الطرقات داعياً الأطفال للتجمع وأنا أستخدم جرساً صغيراً ، وفي كل ليلة أتجول هنا وهناك مناشداً كل فرد الحضور بذلك الجرس الصغير ، فالمسيحيون المخلصون يتذكرون كل الأرواح في أفران تطهير النفوس وكاهن لنا آخر سيؤول عن الأرواح الآثمة[أ] ، أما في المساء فإنني أحرص دائماً على زيارة المرضى وفي الصباح[ب] أحرص على قراءة الإنجيل على مسامع العاجزين[ت]

(أ) تم الإيعاز من قبل شافير إلى "بارزيو" كي يفعل ذلك (قارن الخروج ٢٣ ، ٩٣٢) .

(ب) كان شافير قد وجه كي يقوم بزيارة المرضى (قارن من ٢ ٨٦–٨٧) .

(ت) بالمثل كان شافير قد ذهب إلى منطقة صيد الأسماك (في اقليم "راس كومورين") في عام ١٥٤٦م– قارن الخروج ١–١٦٥ .

في منزلي لدي مستوصف طبي يحتوي على كميات من الحلويات والفواكه المسكرة وغيرها من الثمار اعتاد أبنائي المقدسين وبناتي إرسالها لي ، ولقد دعوتهم كي يأتوا إليّ متى استدعت الظروف كي أقتسمها معهم ، وبالفعل أعددت الأمر كي يصار إلى تلبية حاجتهم في أي وقت شاؤوا ، وكنت أدفع لهم أجورهم وبعض الصدقات عندما يرحلون ، وهكذا فإن كل ما أتلقاه كان عبارة عن مساعدات حقيقية ... ، والمجد للرب .

٤٨- يعتبر يوم الإثنين بمثابة يوم الأحد(أ) بالنسبة للوثنيين الذين أعمل على هدايتهم للمسيحية ، هذا وكنت أنتظر قدوم واحد منهم يعتبر أكثر الناس أهمية بين اليوغانيين(ب) وكانوا يعتبرونه ناسكاً مقدساً ، يدينون له بالولاء والطاعة ، وذلك كي أقنعه بالخول في المسيحية ، هذا الرجل كما علمت فيلسوف كبير وأتمنى باسم المسيح أن يكتسب هذا الرجل شعار المسيح .

يعيش هؤلاء اليوغانيين في مغارات مظلمة في حالة تقشف يعشقون حياة الفقر والبساطة إذ يزعمون أنه بدون ذلك يستحيل عليهم رؤية الرب .

أيضاً لديهم خرافات عديدة ، وهم عموماً متواضعون ، وعندما تمت هدايتهم رغبت في العيش مع هؤلاء الوثنيين أسير معهم عارياً ملطخاً بالرماد لأنني حققت معهم الكثير من الانجازات والنتائج شريطة أن لا

(أ) على سبيل المثال ، نجد أن الهنود يعملون مزارعين وهؤلاء يعملون في أيام الاثنين ("قارن براكانزا بيريرا") .

Ethnograply of Protuguese in Porluguese India 1 . 449.

(ب) كان قد عرف فيما بعد في هرمز بالاسم المسيحي- بول المذهب المقدس .

يغتالوني ، على كل لا أعلم ما إذا كان الزعيم الكاهن "فرانسيسكو" سوف يوافق على تجولي معهم عارياً ، بالرغم من أنه أصبح الآن في عداد الموتى ، أعتقد أن الكاهن "أنطونيو جوميز" سوف يوافق إذ إنه ما من وسيلة أخرى لهدايتهم غير هذه .

هؤلاء اليوغانيين أنفسهم يقولون إن الوثنيين يكنون لي أحتراماً كثيراً كوني من الجنس الأبيض ... ، فلتدعو لهم .

في أيام الإثنين والأربعاء والخميس أعترف أنني قمت بزيارة السجن حيث التقيت بالذين يعيشون مع المحظيات ، وشهدت بعض القضايا من شكاوى والتماسات وغيرها من احتياجاتي وبقدر ما أستطيع .

٤٩- أما يوم الجمعة فهو بالنسبة للمسلمين يوم عيدهم(أ) وبالتالي لم يكن بمقدوري أن آخذ قسطاً من الراحة لمناقشتهم خاصة وقد صرحوا لي بأنهم ليسوا ذوي علم كما هو الحال بالنسبة لأعضاء رهبتنا .

كانوا قد أخذوني في منتصف الليالي إلى قبة إحدى المآذن مع مجموعة من الأشخاص المرموقين الذين كانوا يقبلون أياديّ وملابسي

(أ) بالنسبة ليوم الجمعة عند المسلمين ، يكتب "اتش لامينس" : تعتبر صلاة الجمعة إجبارية بالنسبة للبالغين من الرجال وغير ملزمة بالنسبة للنساء . وتقام الصلاة في منتصف يوم الجمعة بالمسجد بحيث يحضرها ٤٠ شخصاً على الأقل من المسلمين يؤمهم قائد أو ما يعرف بالإمام - الجمعة لا يعتبر يوم عطلة (راحة) أسبوعية ، فذلك عرف لا يقره الإسلام (انظر : الاسلام معتقد ومؤسسات / بيروت ١٩٢٦) .

وأيـام الجمـع عند المسلمين لا تشابه أيام السبت (يوم راحـة اليهود) بأي شكل من الأشكال . (نفس المصدر ١١٥) وبالتالي فمن خلال نص "بارزيو" في هرمز يبدو أنهم يقومون بقراءة الصلاة في العشية وربما كان ذلك يعزى لشدة الحرارة خلال اليوم .

وقدموا ليّ فروض الاحترام والتبجيل مؤكدين لي إيمانهم بضرورة وجوب واعتبار كل الأديان كدين واحد .

قد تملكني الخوف حيث اعتقدت أنهم سوف يقذفون بي من أعلى قمة تلك المئذنة ، وذلك بسبب الرعب الذي سببه وصولي لهذه البلاد ، عموماً أحسب أن الاحترام الذي أحاطوني به إنما كان بفضل الرب ، وكما قلت سوف أوضح هذا الأمر لاحقاً .

لقد كانت لي مناقشة مع واحد منهم ، وهو عالم كبير ، وسوف أتطرق لهذا الأمر فيما بعد ، وعندما هزمته اعترف بعيد الثالوت الأقدس ، ومن ثم فر هارباً تاركاً زوجته وابنته(أ) ١٩٤ (١٨ آر) .

٥٠- كما سبق أن بينت ، فقد كنت أقدم التوجيهات في أيام الأحد خاصة ذات الصلة بالذنوب التي تنتج عن ممارسة الجشع والطمع ، وسوف أستمر في هذا العمل .

أيضاً كانت لي مناقشات مع مجموعات اليهود في معبد اليهود (الكنيس) لأنهم كانوا يحتفلون فيه بيومهم المقدس ، وهؤلاء كانوا على وشك أن يهتدوا خاصة "رابي سالمون" و"رابى جوزيف"(ب) .

٥١- لقد أخبرني "رابى سالمون" بذلك عندما دعاني لحضور أحد لقاءات الرابيين ، وكانوا يقيمون مأدبة كبيرة ، وبالرغم من أن قس هذه المدينة أجبرني على الموافقة كي أصطحب معي أحدهم ، إلا إنني

(أ) أيضاً كان "بارزيو" قد نسب بعض الكلمات المكتوبة لهؤلاء الناس في هذا الخطاب المؤرخ في ٢٤ نوفمبر عام ١٥٥٠م شوير هامر كيو ٤٥٣٨) .

(ب) بالنسبة لهؤلاء الرابيين أنظر الوثيقة ١ ، ٨٨ .

ذهبت وحدي غير راغب أن يرافقني أي شخص ، إذ إن اليهود عندما يكونون معي وحدهم فإنهم يقدمون إجابات مفصلة دون ارتباك على نحو مغاير عما يحدث في حالة وجود الغير .

لقد وجدت نفسي وحيداً وسط اليهود الأتراك في تلك المأدبة ، إذ كانوا هم أصحاب المأدبة ، وطلب مني الكابتن "مانويل دى ليما" وبعض الناس ألا أشاركهم الأكل ؛ لأنهم اعتقدوا أن أولئك القوم سوف يدسون ليّ السم في الأكل ، لكن شاء الرب أن يحفظنى من جميع شرورهم(أ) .

بعد تلك الوليمة كان لنا نقاش آخر وكان هذا بخلاف النقاش الذي وصفته مؤخراً في هذا الخطاب ، وعموماً لم أعتزم إرساله لأن كتابته تحتاج إلى وقت طويل ، وهذا ما لا يسمح المجال به ، وفي العام القادم إذا شاءت إرادة الرب ، وكان في العمر بقية ، سوف أكتب كل شيء ، وأسرد كل ما حدث لهم(ب) وحينها سوف أتوجه بدعائي للرب أن يصبحوا مسيحيين .

لقد ثبت أنه لا علم لهم بتفسير الأرقام أو رموز القانون القديم ؛ لماذا يستخدمون الدم في جميع مناسباتهم ، والدم(ت) يعتبر مطهراً للذنوب ،

(أ) قارن الزبور ٢٠ ، ٣٣ .

(ب) لقد أمرنى "بارزيو" بما وعد به ، وكان ذلك نقاش عن المسيح عيسى بن مريم . وملخص في كتاب "ترقولت" : حياة "غاسبار" ، الكتاب الثاني- الفصل رقم ١٣) .

(ت) قارن : أحد أسفار العهد القديم- الفصول من ٤-٧) .

لقد كان وعده عبارة عن ميثاق[أ] مكتوب بالدم ، وبالتالي كان هناك تطهير[ب] روحي وتحرير من العبودية في مصر بتقديم دم خروف[ت] صغير كما كانت هناك علامة الصليب † بالدم وضعت على باب الحجرة[ث] وكذلك النهر الذي تحول إلى دم[ج] .

إنهم لم يعرفوا معنى الصليب بالشكل † ولا حتى حزمة الحطب الخاصة بإسحاق عندما رغب إبراهيم في التضحية بنفسه[ح] أو عصا يونس التي وضعت في سفينة نوح وحقق بواسطتها عدة معجزات[خ] أي عندما أصبحت المياه المالحة عذبة بفضل الخشب في المراح[د] أو الأفعى النحاسية المقامة على السارية والتي يعبدونها ويتقربون لها في الصحراء[ذ] لقد كانوا عاجزين في التفسير والتوضيح ليّ عما ورد في الفصل **٥٣** بشأن "إسحاق" أحد الأنبياء اليهود أو كما في الزبور ، لقد خاطب الرب إلهي[ر] .

(أ) قارن سفر التكوين ٩ ، ١٥ ، ١٠ .

(ب) قارن سفر التكوين ١٠ ، ١٧ .

(ت) قارن سفر الخروج ١٣ ، ١٢ ، ٢٣ .

(ث) قارن سفر الخروج ٧ ، ١٢ .

(ج) قارن سفر الخروج ٢٠ ، ٧ .

(ح) قارن سفر التكوين ٦ ، ٢٢ .

(خ) قارن سفر الخروج ٢٠ ، ٧ هنا وهناك .

(د) قارن سفر الخروج ٢٥ ، ١٥ .

(ذ) قارن الأعداد ٨ ، ٢١ .

(ر) الزبور . ١ ، ١٠٩ .

لماذا تتآمر الشعوب؟[أ] ، أو الزبور ، ياربي ياربي لماذا هجرتني[ب] يارب ، وأخيراً فإن ما كتبه علماؤهم عن هذا الأمر يبدو سخيفاً وتافهاً .

لقد أرادوا تفسير الفصل ٥٣ الخاص بإسحاق حيث فهموا أنه ورد عن الشعب اليهودي[ت] ، أما السبب الذي عللوا به ذلك في الفصل السابق فقد ورد في النص التالي : أنه قال إن إسرائيل عبدي[ث] .

أما بالنسبة للفصل التالي ٥٤ فقد فسروه في ضوء صلته بالكنيس معبد اليهود ، وأنكروا أنه قد ورد بشأن القائمين على الكنيسة[ج] وقد زعموا أن ما جاء في الفقرة (بقول الرب) هو قول سيدنا إبراهيم[ح] .

في النهاية ، لم يتمكنوا من الرد عليّ بصورة صحيحة ، وقد أخبرني "رابي سولمون" إنه دعا الرب كي يتلطف به لأنه يرغب بشدة في أن يصبح مسيحياً كما يرغب في تقديم ابنه كي يرافقني (يتبعني) .

(أ) الزبور ١ ، ٢ .

(ب) الزبور ٢ ، ٢١ .

(ت) بالنسبة إلى بقية الفئات اليهودية الأخرى ، هناك ذكر في الفصل ٥٣ بشأن إسحاق فيما يتعلق بخادم الرب وهو بالنسبة لليهود القدامى وعادات المسيحيين هو المسيح عيسى ، قارن "نابنبور" تعليق على النبي إسحاق- الطبعة الثانية المحفوظة لدى "اف زوريل" - باريس ١٩٢٣-٣٥٣ إذ ظهرت مراجع عدة في الفصل المذكور ٥٣ بشأن اسحاق .

(ث) قارن إسحاق ٣ ، ٤٩.

(ج) الحقيقة أن ذلك لم يتم تفسيره قط بواسطة الشعب اليهودي في إسحاق ٣ ، ٣٩ (كخادم للرب) وإسحاق ٥٤ . (باعتباره مجداً جديداً للشعب اليهودي قارن كنابنباور – أو سي ٣٧٣ ، ٢٥٢ -٧٧٤- لكن بالنسبة للتقاليد الكاثوليكية فإنهم يفهمون أن لتلك العبارات صلتها بالمسيح عيسى وكنيسته . (قارن نابنبور- أو- سي ٢٥٢-٥٤ ٣٧٧) .

(ح) ذلك التفسير سواء ورد في جملة كاملة أو شبه جملة من العهد القديم فهو مكتوب باللغة الأرامية- قارن كنابنباور- تعليق على الزبور [باريس]١٩١٢ ٣٩٢ .

لقد واصلنا هذا النقاش الذي استمر حتى منتصف الليل ، ومن ثم أتى الناس يبحثون عني ، كما قدموا أيضاً للانضمام إلينا .

ومن خلال العهد القديم اضطررت أن أعرض عليه كل ما يتعلق بالمسيح بن مريم منذ البداية وحتى النهاية ، وذلك كي يهتدي للمسيحية ، أيضاً ترتب عليّ أن أفسر ما عرضته عليه من الكتابات وفق أدلة وبراهين أخرى من نفس الكتابات ... ، فلتصلوا وتذكرونا في دعائكم .

اليهود الموجودون هنا ينعمون بالثراء ، يملك أحدهم مبلغ عشرة آلاف "بارداوس" وآخرون خمسة عشر ألفاً وآخرون عشرين ألفاً[!] ، وأسأل الرب تعالى أن يعينني على معاملتهم بكل اللطف والإحسان إذا ما تمكنت من هدايتهم بترك الرب الذي يسطر على تصرفاتهم .

٥٢- هناك مثل شائع بين العامة من الناس يقول إن رهبنتنا ملهمة من عند الرب ، أن مثل هذا الأمر لم يسبق قط أن حدث في أي جزء من العالم بإستثناء الكنيسة البدائية ، أيضاً إنهم قادمون في طريقهم لتجديد كل تعاليمنا وعقيدتنا تماماً كالقديسين وإننا نستمد التنوير بواسطة الروح المقدسة ، وإنهم يكنون لنا احتراماً كبيراً وكأننا قديسين ونسأل الرب تعالى أن يجعلنا من القديسين ، وأن يوفقنا في كل عمل لنكون عند حسن ظنهم بنا ، دعنا نعمل بكل الاخلاص والحب كى يتحقق لنا ذلك آملين أن تكون أعمالنا مضرب الأمثال .

ليس هناك من المسلمين من يعمل على تبني عاداتنا ، وفي الوقت الراهن يقومون بالصلاة للموتى من أعلى المآذن بصوت عالٍ تماماً كما أفعل في الليل عندما أنادي المهتدين المسيحيين مستخدماً الجرس ،

والآن عند دخولهم للمئذنة يقومون باستخدام الماء المقدس تماماً مثلنا ، وهذا ما لم يكن يحدث عندهم في الماضي .

إنني أنتظر قدوم بعض الكهنة من المدرسة ، وذلك كي أجد متسعاً من الوقت لأجل هداية أولئك الملحدين ، وسوف أكون أكثر سعادة إذا ما كان مبشراً بحيث يمكنه أن يحل محلي في إلقاء المواعظ .

الآن فإنني أرسل طيه النقاش الأول الذي دار بيني وبين اليهود(أ) وبالرغم من أنني أحس أيضاً ضرورة إرسال البقية [١٩ آر] ، وما بعده ، معهم في إطار الزمن المحدد جميعه(ب) ، فلتدعوا لنا . (٢٥ آر) .

٥٣- عندما انتهت المداولة كان اليهود مرتبكين لحدٍ كبير بحيث صعب عليهم الرد بينما كانت فرحة المسيحيين بالانتصار لا حدود لها ، وقد نسبوا كل ما حدث في هذا الأمر للروح المقدسة .

في المناظرة التالية لم يتجرأ اليهود على تقديم إجاباتهم لي ، وعموماً فإن المحاولة لإعطاء الاعتبار لها هنا تبدو ضرباً من العبث تماماً كمن يحاول استخدام حلقة مغلقة لاثبات ألوهية الوحدة ، وأخذاً بالنصيحة فقد قرروا ألا يجيبوا عليّ ، وحبذوا توجيه الأسئلة ليّ كل الوقت ، آخذين كافة الحذر والحيطة فيما يقولون ومعتذرين عن جهلهم في نفس الوقت .

كان "رابى جوزيف" قد أتى إليّ ملتمساً حب الرب ومناشداً أيانا

(أ) لقد تم نشره بشكل منفصل في هذا المجلد- الوثيقة ٨٨ .

(ب) كانت ورقة المخطوطة قد أصابها التلف ، وبالتالي لم تعد هناك سوى بعض آثار قليلة من تلك الرسائل .

ألا نسبب المزيد من الارتباك خاصة بالنسبة له ، وبالرغم من أنه يعتبر واحداً من خبرائهم وعلمائهم بالإنجيل إلا أنه لا ليس ملماً بالكثير من العلم بحيث يمكنه الرد عليّ .

بالإضافة إلى هذا صرح أنه ومن معه من اليهود سوف يعتنقون المسيحية ، لكن هناك مسألة ومشكلة الترحاب الذي سيظهره المسيحيون لليهود بعد أن يصبحوا مسيحيين مثلهم ، إذ سوف تكون رديئة جداً بحيث إنهم سيحبذون الموت وهم في غيهم وضلالهم المستفحل .

بصفتهم يهوداً فقد أظهر المسيحيون لهم احتراماً كبيراً بعيداً عن حب المال ، وعندما اعتنقوا الديانة المسيحية اضطروا لإرجاع الأموال إلى أصحابها لأنهم أكتسبوها عن طريق المعاملات الربوية .

لو كان قد أصبح وضعه مماثلاً لوضعي وسط المسيحيين لأصبح مسيحياً بالفعل حتى في ظل فقره ، هذا ما ذكره لجميع المسيحيين الذين تحدثوا معه حسبما أبلغت به ويقول بقية اليهود الآخرين الشيء نفسه .

كان قد توسل إليّ كي أقبل دعوته للعشاء في مقر سكنه ، فأجبته أن تلك المواد الغذائية يجب أن تقدم لك فرد ولا تكون حكراً على فئة خاصة(أ) ، وبالفعل كان سعيداً بتناول ما آكله طالما وافقت على المجيء إليه .

٥٤- كانوا حقيقة يحبونني بشكل كبير ويظهرون الإلفة ليّ وقد أخذتهم الدهشة بسبب حالة الفقر في الرهبنة وكثيراً ما كانوا يتحدثون معي .

(أ) "أدفينا" ، أسلوب قديم من "ادفينا" وهي كلمة عربية بمعنى نوع من الطعام يستخدمه اليهود حسب فهم عموم المؤلفين لهذه الكلمة . قارن أيضاً اجولاز ٤٢ ، ٤٠ .

بداية جاؤوا إلى منزلى حيث ذودوني ببعض المراجع (٢٥ في) من القانون القديم في محاولة لاختباري .

عموماً كانت الإجابتان الأوليان عبارة فقط عن نقاش لأنني شرحت الفصل بكامله من القانون لأجعلهم يفهمون الاقتباس الذي جاؤوا به إليّ .

كان للسيد "رابى سولومون" وهو من أبرز المتعلمين بينهم والذي يقوم بإلقاء محاضراته في مجمع كنسي آخر من مراكزهم عدة مداولات مع الكاهن "فرانسيسكو" في "ملقا"[أ] ، ولقد تعرض ومن معه من اليهود الآخرين في كثير من المرات للمقاطعة من قبله بحيث إنه لم يسمح لى بفعل مثل هذا الشيء ، وقد أثار عدة خلافات دون أن يقدم أية إجابة لأي شيء .

عموماً فهو قد فضل الاستماع والموافقة والتأكيد على كل ما قلته .

هكذا استمر يحيطني بالكثير من الحب ، وما كان يأتي لأي سبب سوى أخذ الدروس والاستماع للحديث عن الموضوعات العقائدية .

(أ) شافير ، الذي عاش في "ملقا" خلال الثلاثة شهور الأخيرة من عام ١٥٤٥م ومن يونيو إلى ديسمبر عام ١٥٤٧م . لا تناقض على ما ورد في رسائل "رابى سولومون" .

أيضاً تطرق "د . كوسماس مارفيا" الذي عالج شافير من مرضه في "موزمبيق" في عام ١٥٤٦م ، في إحدى سجلات أعماله في "غوا" من عام ١٥٥٦م تطرق بالذكر إلى هذا الدكتور اليهودي في "ملقا" وأورد أن هذا اليهودي قد جاء كي يتحدث للكاهن "شافير" ومن ثم ذهب لتناول الطعام معه . واستمر الأمر حتى أصبح عادة لهم . أخيراً تم تمسيح ذلك اليهودي . وبعد ذلك أصبح الناس جميعهم ينظرون إليه كمسيحي فاضل حتى وفاته .

أعتبر جميع أهالى "ملقا" أن هذه الحادثة أمراً يكتنفه الغموض في ضوء ما يتمتع به اليهودي من قوة وباعتباره أيضاً رجلاً عنيداً واسع الاطلاع كما ورد ذكره (أم أكس ١١ ١٨٩) . وبالنسبة لمحادثة "سارافيا" فقد منع هذا اليهودي بقية اليهود الآخرين من اعتناق المذهب المسيحي (المصدر نفسه) . ما هو شأن "سولومون" بهذا الاجتماع ؟!

في أحد الأيام أتاني كي أرافقه إلى بيته لأشاركه الطعام مع زوجته وأطفاله ، وأخبرني أنه لولا مبلغ العشرين أو الثلاثين ألف "برداوس" التي يقتنيها لما تركني .

كان لدى الكثير من العمل لإنجازه في أوساط المسيحيين ، وهذا الأمر أقلقني كثيراً بحيث لم أكن أجد الوقت الكافي لتناول الطعام أو لأخذ قسط من الراحة ، وبسبب رغبتي في مساعدة الفئة التي تم استقبالها لم أستطع التحدث مع اليهود قط باستثناء حديثي مع شخص واحد تبين لي أنه يعاني من المرض فأخذته من قارعة الطريق إلى المنزل وذلك عندما أفصح لي عن رغبته في اعتناق المسيحية .

٥٥- عموماً كان حب اليهود الذي أحاطوني به عظيماً بشكل عام ، وهذا ما دفعني للذهاب إلى معبدهم كي أقرأ عليهم شيئاً من الانجيل وأشرح لهم أخطاءهم وذلك بعدما اكتشفت مدى استعدادهم ورغبتهم في الاستماع والتعلم ، كانوا حقيقة يولون احتراماً عظيماً لرهبنتنا ، وقد لاحظت أن الخرافات الموجودة في ديانتهم قد بدأت تتلاشى وتضعف شيئاً فشيئاً ... ، والمجد للرب .

كنت دائماً أُحظى بتحية معتبرة وسلام كبير عندما يلتقون بي والعديد منهم يخوض في حديث معي حول الأخطاء التي يرتكبها المسيحيون بحقهم ، وكثيراً ما كان الوجوم والذهول يتملكهم عندما يشاهدونني أتجول حاملاً جرسي في يدي ، غير أن المسلمين والوثنيين عادة ما يحسون بهذا الأمر ، ومن ثم يتساءلون كيف تمكنت هذه

الرهبنة من اكتساب كل هذا الاحترام في هذه البلاد والسماح لهذا الرجل بالتجول هنا وهناك بكل ذلك التواضع؟

في أحد الأيام أتى أحد اليهود إلى منزلي ليخبرني عما يقرأه أحبار اليهود في معبدهم ، وقال لي أن المستمعين سألوا أولئك العلماء عما كانت عليه حصيلة المباحثات والنقاشات التي جرت بيني وبينهم في منزلي ، وكان قد حدث ذلك قبل تعرفي على اليهود ، أي عندما كنت حديث عهد في تلك البلاد ، كانت الشهرة التي كسبتها بصفتي القسيس الأكبر-حسبما كانوا يطلقون علي-قد بدت في الانتشار وسط تلك الشعوب البدائية .

٥٦- لقد رتبت الأمور الخاصة بالتبشير في يوم عيد الثالوث الأقدس[أ] باستخدام العديد من الأدلة والبراهين من الكتابات المقدسة قديمها وحديثها ، وعندما تمكنت من تأنيب وتوبيخ الذين لم يهتدوا تبين لِّي أن الكثيرين منهم وتحديداً اليهود والمسلمين والأتراك والوثنيين والهمج لا يعبأون بقدسية عيد الثالوث الأقدس .

يبدو أن بعض اليهود قد حضر تلك الموعظة أو ربما أُخبروا عنها ، وعليه فقد قرروا التحدث معي فيما يتعلق بتبشيري حول تلك المرجعيات الثلاثة منها "إلوهيم"[ب] دعنا نصنع رجلاً[ت] وسوف تصبح كالإله[ث] ،

(أ) ١٦ يونيو عام ١٥٤٩م .

(ب) الويم . صيغة جمع للاسم ال ١- الرب .

(ت) قارن . سفر التكوين ٢٦ ، ١ .

(ث) قارن . سفر التكوين ٥ ، ٣ .

مقدس ... مقدس ... مقدس[أ] ، وعندما أجبت على النقاط التي طرحوها كانوا في حالة ضياع كامل حيث إنه صعب عليهم الرد دون الرجوع إلى كتبهم بالرغم من إنهم يحفظون ما ورد في الإنجيل عن ظهر قلب .

عندما تمت مساءلتهم عن ذلك أجاب "الحاخام سولومون" إنه من الصعوبة بمكان أن يوجد رجال خبراء مثلنا في أية رهبنة أخرى ، وإنه حتى إذا ما جاء بالعديد من ذوي العلم والمعرفة فإنهم لن يكونوا شيئاً مقارنة بنا ، لأن كل ما نتحدث به هو فضل وإلهام من الرب ، وهذا سر نجاحنا في كل مناظرة ومجادلة .

إزاء ذلك أجاب المستمعون بماذا تعتقد أنهم سوف يهزموننا غير أولئك العلماء والبارعين؟ لم يكن يرغب في قول المزيد إليّ وإنما ناشدني ألا أذكر هذا الأمر لأي فرد آخر وذلك حتى لا أكشف للغير ما ذكره ليّ .

كانت ابنة اليهودي قد اعتنقت الدين المسيحي (٢٦ آر) وبالتالي لم يكن والدها راغباً في تسليمها الممتلكات الخاصة بها ، ولكن في اللحظة التي وصلت فيها إلى منزله رمى ذلك الرجل بنفسه تحت قدمي مستسلماً ووضع أمامي كل حاجياتها وممتلكاتها من ذهب وفضة وأموال ، تلك الأعمال ستكون منتهية أو ربما أرسلوا لي أحد الكهنة لمساعدتي فيها وسوف أعود إليهم .

٥٧- لقد أصبح المسلمون يكنون لي كل الاحترام والتقدير وهكذا

(أ) اسحاق ٣ ، ٦- من أنبياء اليهود في القرن الثامن .

تبين لي أن الرب تعالى دائم الحضور معنا في رهبنتنا ، لم أدر ما سأفعل ، فهم يلقون بالتحية عليّ ويسلمون عليّ باحترام ووقار .

كم كانت دهشتهم كبيرة عندما علموا بالتعويض الذي أمرت بتخصيصه لهم ، وقد ذهلت عندما أحسست أنهم لا يكرهونني لأنني أتجول بشكل آمن في منتصف الليل وسط حشود قبلية من الهمج وعادة ما أختلط بهم وكانوا يفسحون لي الطريق كي أمر دون أن يتعرضوا لي أو يلحقوا بي أي أذى ، أيضاً كانوا في حيرة من أمرهم لأن الفترة التى يفترض أن يعطيهم محمد قانوناً آخر[أ] قد انقضت وأن أبرز الناس منهم وأكثرهم أهمية في مناقشتي حول الفقر .

عندما يرتكبون معصية ضد أحد الناس فإنهم يذعنون ويخضون لكل التوجيهات المكتوبة التى أبعث بها إليهم .

٥٨- في كل عام كنت أعمل على تحرير العديد من الوثنيين الذين يعبدون الأبقار ، بحيث يتمكن هؤلاء الناس من التجول في المدينة أحراراً حاملين شهادات تحريرهم على ظهورهم .

توجد هناك مباني حكومية بعينها ، وتدفع مبالغ باهظة لإيجارها كي

(أ) كما ذكرنا من قبل فإن الفرس هم من الشيعة المسلمين فهم موالون لسلالة علي البالغ عددهم اثني عشر خليفة مثل الإمام محمد المهدي ، وقد تسلم الخلافة بشكل جيد في سامراء الواقعة بالقرب من نهر دجلة في عام ٧٩ ، ٨٧٨هـ . ومنذ ذلك الوقت سادت التفرقة بينهم .. ويقال إنه جيء بالمهدي للأرض لكي يملأها عدلاً وسلاماً- قارن الموسوعة الايطالية ٣١ ، ٩٤٣ ، ٢١ ١٥٨-١٥٩- "بارزيو" تماماً مثل شافير قد سمع أن هذا المهدي الذي ينتظره تقريباً كل المسلمين قد شوهد في إحدى المدن الإفريقية التى تسمى "مالیندی" في عام ١٥٤٢م . قارن- الفصل ١-١٢٣ (تنطق الكلمة بالانجليزية- مهدي) .

يتم تخصيصها لسقاية تلك الأبقار ؛ حباً في الرب(أ) ، خاصة في ضوء عدم توفر مياه الشرب في هذه الجزيرة ، وبالتالي فهؤلاء الوثنيون لا يأكلون أي لحوم حية أو ميتة وإنما يعتمدون في غذائهم على الخضروات والبقول .

تتضمن معتقداتهم القليل من آثار الثالوث المقدس الذي اعتقد إنهم أخذوه من الفلاسفة ، ومن سلطة الكاهن ، ومعرفة الابن وتسامح الروح المقدسة(ب) ، وينسبون عدة أسماء للرب تشمل كل شيء(ت) ، وفي النهاية فهم متواضعون بالكامل أصدق التواضع ، وإذا ما أراد أي أحد أن يقتل حيواناً أو طائراً في وجودهم فإنهم يحولون بينه وبين الضحية ولا يدعونه يفعل ذلك ، وغالباً ما يعرضون عليه بعض المال كي يغير من رأيه حتى ولو تعلق الأمر بقتل برغوث أو حشرة القُمل وهي حشرات لا تعيش في تلك البلاد ، أو تعلق الأمر بقتل عظاءة أو أي مخلوق آخر ؛ لأنهم يعتبرون ذلك من واجبات دينهم(ث) ، وإلى جانب ذلك لديهم الكثير من الخرافات المماثلة .

(أ) يتحدث "بارزيو" عن ديانة الهند" الهندوسية" وجميعهم يمارسون عبادة الأبقار .. وتعتبر حماية الأبقار بالنسبة لهم محمدة يقرها ويجلها جميع الملوك ويفتخرون بذلك ، حتى أصبح السائد أن يُطلق على أحدهم لقب "حامي الأبقار" بكل التشريف – قارن قلاسيناب– الهندوسية ٦٧) .

(ب) "براهاما" ، هو الخالق ، فيشنو هو الصلاح ، (ساثفقونا) و"شيفا" الشرط المهلك (قارن دوسون ٣٦٠ ٣٢٠) وعموماً فالاسم "شيفا" بالمعنى الأدبي يعنى التسامح ، وعليه يكون تفسير "بارزيو" غير دقيق .

(ت) من المحتمل جداً أن "بارزيو" قد تحدث عن المقطع اللفظي "دم" أي ترخيم ل "أوم" وهذا أمر مبهم بين بعض الأمور الأخرى ويقول دوسون عنها– أنه في العصور الأخيرة أن الكلمة ذات المقطع الواحد تمثل ثالوث الهندوس أي اتحاد الآلهة الثلاثة وكون الشخصى فشنو "يو" شيفا وميم "براهاما" .

(ث) فمن المعروف أن الهندوس يسعون دائماً للمساعدة في جميع ضروب الحياة .

٥٩- بالتالي فقد وجدت نساكاً يعيشون بينهم في مغارات وكهوف(أ) خارج هذه المدينة ، وهؤلاء يذعنون لزعيم واحد ، ودائماً ما يتجولون هنا وهناك ينثرون الرماد على أجسادهم ، ولديهم عشق جارف للتقشف والفقر والبساطة ، ويزعمون أن هذه الأمور الثلاثة تمكن العبد من رؤية الرب وهؤلاء القوم يُسمون باليوغانيين(ب) ، وهم فلاسفة عظام ، وتقريباً اعتنق جلبهم المسيحية .

لقد تمت هدايتهم جميعاً ، وأخذوا أفكارهم بشكل أساسي من أفكار زعيمهم الذي اعتزم زيارة صوامعهم الموجودة في الجزيرة العربية ، وكانوا يتبعونه(ت) في كل أفعاله وأقواله .

كانوا يطيلون المناقشة معي ، ويكنون لي احتراماً فائقاً وحباً عميقاً ،

(أ) بخصوص تلك الكهوف أنظر بولانكو (شرون ١١١-٤٨١).

(ب) هذا تقرير بشأن المتعصبين الدينيين من اليهود الذين يطلق عليهم اسم اليوغانيين والمتنسكين . وقد قيل عنهم أنهم يمارسون رياضة اليوغا . وقد وجدت هذه الرياضة بواسطة "بتانجالى" ، ويعتقد أن تاريخها يعود للقرن الأول أو الثاني قبل ميلاد المسيح . وكانت تعاليم تلك المدرسة قد تضمنها كتاب حفل بالابتهال والتوسل عن حكم اليوغا . وهنا يعترف الاتباع بتقديس إله شخصي وهو "إشفارا" ، وينتقلون من مرحلة إلى مرحلة حتى يحصلوا على الخلاص من الخطايا ، وذلك من خلال حرصهم على حياة البساطة ، فإنهم يعيشون باسلوب مدبر مقتصدين رافضين كل الهدايا التي تقدم لهم . وأيضاً هم حريصون كل الحرص على العيش منعزلين عن بقية الرجال الأخرين .... إلخ . قارن في "قلاسيناب" (الهندوسية) الصفحات ٢٩٨ "دوسون" ٢٣٣-٣٤- موسوعة الدين وعلوم الأخلاق- الفصل ١٢ الصفحات ٨٣١-٣٣ .

(ت) لقد قبل بديانتهم ثم عرف في هرمز باسم "بول" الديانة المقدسة . وفي عام ١٥٥٤م غادر عن طريق الهند متجهًا للبرتغال وروما . وفي إبريل عام ١٥٥٤م عاد مجدداً للهند وفي عام ١٥٥٥م كان مترجمه في هرمز هو الأب "أنطونيو دى هيرديا" ، وكان حرصه على الثروة قد دفعه للزواج قارن (M1 Epp . V . 32-33) بولانكو- الوقت.
652-668-69 Litt . Quadr 11 679 . SCHURHAMMER Q 6071.

ويعتبرون حياتي مماثلة تماماً لحياة اليوغانيين ، وأثناء الليل يقومون بعزف السلام المريمي بواسطة الجرس .

تلك كانت الفئة الوثنية التي وددت أن أعيش في وسطها بجلباب اليوغاني بعد أن يتم تنصيرها باعتبار أولئك الرجال هم المبشرون في أوساط الشعوب البدائية التي تعتبرهم قساوسة ، وكم كان بودي أن أعيش بينهم لولا كثرة أعبائي المسيحية ، ولو كان بوسعي الحصول على إذن من الكاهن الزعيم "فرانسيسكو" لتتبع الوثنيين أو من الأب "أنطونيو جوميز" أخي المحبوب الذي أحببت فيه حماسه لأنني لا أنكر إنني لو حصلت على بعض منه هنا في الهند لكنت قد حققت ذلك تحت حمايته .

أسأل الرب تعالى أن يمن عليّ بلقائه في هذه الحياة كي أشكره على ذلك لأن صلواتي لا أحسبها كافية ، وفي حالة ما إذا ثبت أن زعيمنا الكاهن "فرانسيسكو" قد حُظي بالاستشهاد في سبيل الله ، آمل أن أستلم منه ذلك ، إذا ما كان يرضى الرب .

إنني أعرف الكثير عن الأديان مثل الرهبان والراهبات ، وأيضاً مثل الرهبان ورجال الدين وسط الوثنيين[أ] ، وربما منّ الرب علينا بالشهادة التي ننشدها ، وأرجو أن تخلصوا لي الدعاء .

كان المسلمون يجوبون الشوارع ينشدون ابتهالات وتوسلات

(أ) يبدو أن "بارزيو" يتحدث عن رهبان وراهبات البوذيين الذين يعيشون في مساكن الرهبان في اليابان والصين (قارن الوثيقة ٦ ، ١٦) وبورما . وفي الهند هناك أيضاً رهبان وراهبات وسط اليانيين ، لكن لا يبدو أن تلك الفكرة قد وصلت إليهم .

الأطفال باسم الكاهن ، والابن والروح المقدسة ، وكأنهم مسيحيين ، وعندما اهتدى أحدهم أصبحت البقية تكن عداءً شديداً لديننا بحيث زرعت الرعب في نفوس المسيحيين .

٦٠- كان المسلمون يتحلون بالكثير من الصبر لأنهم ينسبون كل شيء للقدر(أ) وللباعث في كل شيء ، وإذا كان تصرف المسيحيين على هذا النحو فسوف ينتشر العنف والفساد والشجار والموت كما هو الحال في هرمز .

٦١- في أيام السبت كنت أقدم التوجيه والإرشاد الديني فيما يختص بمعصية الربا وعادة البخل ، وكانت نتيجة ذلك حدوث تقدم كبير في عمليات التسليف والمعاملات المادية في هذه البلاد .

هناك مهتدون بشكل يومي والمجد للرب ، مثل الأرمن الذين كانوا في الماضي مرتدين والأتراك والإنكشارية والجورجيين(ب) والأحباش والمسلمين والوثنيين واليهود وبعض المرتدين الايطاليين من أهالي جنوه واليونان(ت) ... إلخ . لقد استقبلتهم بكل الترحاب ومن ثم أرسلتهم للهند .

(أ) هذا ما ورد في القرآن الكريم . ومثال ذلك تقرأ إن رزقك كله على الرب الفصل ٢٧- في ٤٨ حسبما ورد في نص "كازميرسكي" ٢٨ ، ١١ .

(ب) إن كلمة "غيرغي" أصلها فارسي وتنسب إلى جورجستان غيرغيستان وهي إقليم نهر "كورا" الذي يصب في بحر قزوين . وهناك من شعوب الغرب من يطلقون عليه اسم إقليم جورجيا . وعليه فإن شعوب الإقليم يعرفون بالجورجيين (الموسوعة الايطالية ٦٤٠ ، ١٦) .

(ت) ربما يكون من جنوب ايطاليا أو من اليونان نفسها ، حيث كانت في ذلك الوقت تخضع لإدارة الايطاليين .

٦٢- كنت أقوم بشكل يومي- دون استثناء بعد العشاء- بدعوة الأطفال بواسطة جرسي اليدوي كي يأتوا للاستماع للإرشاد والتوجيه الديني ، وبالمثل أفعل ذلك في كل ليلة بدون انقطاع .

كنت أيضاً أقوم بالتجول ليلاً منادياً أيها المسيحيون المخلصون ، تذكروا تلك الأنفس القابعة في النار موطن تطهير النفوس ... كاهننا وكاهن آخر لنا ... لذنوب[أ] وأخطاء البشر أيضاً ناشدني الأرمن لأجل حضور الاعتراف وإعطاء المواعظ ، ولقد استقبلت اعترافاتهم بواسطة أحد المترجمين .

٦٣- كان بعض الكهنة قد راقبوا ولاحظوا أن ما يحدث هنا في أقاليم فارس والجزيرة العربية يعتبر قضية كلية ، فهناك أناس كثيرون في هذه البلاد يرغبون في إعطائي أبنائهم وفلذات أكبادهم ، كما إن العديد منهم يرغبون في الدخول في رهبنتنا ، الأمر الذي يجعلنا نحمد ونمجد الرب كثيراً .

عليه قمت بإرسال أحد الرجال النبلاء إلى المدرسة هناك ، كان قد قضى ثلاث سنوات للإلمام بقواعد اللغة ، وناشدتهم كي يقبلوا به[ب] ، ونبيل آخر من ذوي النفوذ كان قد ألزم نفسه وتعهد بأداء الواجب نحو رهبنتنا[ت] قبل أن يتوفى هنا .

عموماً لم أعمد على إرسال أناس آخرين نظراً لأنهم يفتقرون للعلم

(أ) قارن . توجيهات شافير المرسلة إلى "بارزيو" في الفصل ٢ ٢٣ ، ٩٣ .

(ب) ربما كان هذا "بلشيور دى ميلو" .

(ت) لا نعلم أي شيء عنه .

والمعرفة ، فالعديد منهم كانوا يرغبون في مرافقتي للصين أو إلى أي مكان ، عندما أرسل لي الزعيم الكاهن "فرانسيسكو" الإشارة ، وكانوا جميعاً متحمسين لذلك .

٦٤- إذا لم يتسن لك تلقي المزيد من رسائلي أرجو أن تذكرني دائماً في صلواتك لأنه لولاها لا أعلم ما سيحدث ليّ ؟

لا أحد يمكنه أن ينكر أن هذين الأمرين هما ما يحفظ الكهنة في أسفارهم عبر تلك البلاد الأجنبية وسط الكثير من الأهوال والصعوبات ، فاتباع المسيح بكل الحب والعيش وسط الشعوب البربرية ووسط أناس مفسدين(أ) .

بمحض الصدفة ، تمكنوا من الوصول إلى حقيقة أن النساء يحاولن إغواءنا وهن يستخدمن مختلف أنواع الخدع ، لأنهن يعتبرن أن الأبناء سوف يكونون صالحين ، ولعمرى تلك هي أسلحة الشيطان .

ليسمع(ب) كل من له أذنين وليعِ كل ذي قلب(ت) لأنه ما من شخص يخدع نفسه بنفسه ، ولنعمل جميعاً لتحقيق المزيد .

قامت أسس الرهبنة ومبادؤها على نبذ الصلف والغرور ، وعلى الرغم من أن ذلك ربما لا ينطبق تماماً على رهبنتنا ، والمجد للمسيح ، فإنني أبلغكم أن تأخذوا هذه النصيحة من أخيكم الفقير للرب ، وذلك كي

(أ) الفلبنيون ، ٢ ، ١٥ .

(ب) "مارثيو" أحد حواريي المسيح (عليه السلام) ١٥ ، ١١ .

(ت) "مارثيو" أحد حواريي المسيح عليه السلام ١٥ ، ١٣ .

تكونوا مستعدين عندما تتلقون الأوامر ، فالرب وحده من ينور بصائرنا ، وهو وحده من نخافه ، فهو حامينا الذي نضع فيه كل ثقتنا .

٦٥- كنت أحرص دائماً على غرس هاتين السمتين في رهبنتنا في نفوس أولئك الناس وهم من تعوزهم الحماسة ويعتبرون فاترين غير ودودين ليس لهم وزن في المجتمع ، وذلك كي يتمكنوا من المرور عبر النيران العظمى دون أن يتعرضوا للانصهار ، وعندما عبرنا للأردن بفرقتنا كنا قد عدنا بمرافقين اثنين(أ) ، وهذا ما أبلغته إلى مدرسة القديس "بول" في الهند(ب) .

الأول لأجل المسيح عيسى لحماية مجتمعة ولحمايتنا لأعضاء لا فائدة منهم ، وعليه لم يضع اعتباراً لموضوع دعوتنا وإنما اهتم لنفسه بالفضل .

أما الثاني فقد أنصب اهتمامه على التعبد والصلوات لأحبائي من الكهنة من الهند ومن جميع مناطق اوروبا وآسيا وافريقيا الذين كانوا بمثابة أعضاء الجسد الواحد(ت) لكن الرأس يمثله المسيح(ث) .

تماماً كعبيد مختلفين يؤدون عملاً واحداً ، أحدهم يعمل بمثابة اليد كالعمال مثلاً الذين ينتشرون في الأراضي الصحراوية وتم إبعادهم عن إخوتهم ، وآخرون يخدمون كالألسن يقومون بالتدريس صباحاً

(أ) الزبور ١ ، ٢٦- إن ربي هو نوري وبصيرتي وخلاصي . فمن ذا الذي أخافه وأخشى عقابه؟ ، سفر التكوين ١٠ ، ٣٢ .

(ب) كان الخطاب قد آل إلى ضياع ، الوثيقة ٧٥ أ .

(ت) سفر التكوين ١٢ ، ١٢ .

(ث) سفر في العهد الجديد ١٥ ، ٤ .

ومساءً ، ويؤدون صلواتهم للرب ، وآخرون كالأقدام يدفعهم الحماس للموت فداء للمسيح ، وآخرون كالأعين يراقبون الجمهور كالراعي الأمين(أ) وآخرون كالآذان .

للوعي بصورة مستمرة ، وآخرون كالأنوف تشتم عبير الفضيلة التي تدفعنا(ب) للأمام لتحقيق الأهداف .

آخرون يعملون للإدراك والفهم ، وهم المراقبون من ذوي الحضور(ت) ، والآخرون مثل الذاكرة كالعلماء(ث) ، وآخرون كالأوصياء وهم المنفذون من الناس سواء كانوا طهاة في المطابخ أو في حجرات الطعام ، وفي نفس الوقت (٢٧ آر) جميع المساعدين من رجال الدين من العاملين في خدمة المسيح(ج) .

لا يمكن أن يستغني أحد الأعضاء عن العضو الآخر ، كما لا يمكن لعضو خدمة نفسه بمعزل عن الأخر فنحن ، جميعاً نعمل لإنجاز أمر واحد ، وهو خدمة الرب .

لكن ما هو العمل المهم عندي؟ هل هو العمل كحارس أم بواب أم طاهي أم أي عمل آخر؟ أم أكون مبشراً لهداية العالم بأكمله؟ فعمل اليد لا يقل أهمية عن عمل القدم ... ، فجميعنا نؤدي عملاً واحداً .

(أ) انظر القديس جون – رسول في الديانة المسيحية ١١ ، ١٠ .

(ب) نشيد الانشاد ٣ ، ١ .

(ت) الكورنثيون سفر في العهد الجديد ١٨ ، ٣ .

(ث) الكورنثيون سفر في العهد الجديد ٢٨ ، ١٢ .

(ج) اليهود ١٤ ، ١ .

٦٦- أيها الكهنة ، إذا أردتم أن تعلموا ما تفعلونه في هذه الرهبنة فلتنظروا إلى ما تم إنجازه في بلاد الهند هذه وفي فارس والجزيرة العربية ، ولتفكروا فيما أنجزه كل منكم ، فأنا بصفتي أكثر الناس ذنباً قد اضطررت لمناشدة عموم من في الرهبنة : إننا يجب أن نقوم يومياً بقراءة الابتهالات والدعاء مع بعضنا البعض حتى يشفع لنا الاتقياء والقديسيون أمام الرب .

هذا بالنسبة لجميع الكهنة العاملين في الحياة العملية في المناطق البعيدة الذين يحملون عبء المجتمع بأكمله ، بحيث أنهم يقاسون الصعاب دون كلل أو ملل لا سبيل للضعف أن يتسرب إلى نفوسهم ، لأن سمعة هذه المؤسسة عزيزة حساسة ، وما من شك في أن من يمضي في طريقه وحيداً سيكون معرضاً للسقوط ، فإذا ما سقط لابد إنه سوف يُسحق(أ) .

آه كم سيصبح الأمر رائعاً ومثيراً عندما يعيش الأخوة مع بعضهم البعض في تآذر ووحدة(ب) ، لأن من يسقطون منهم سيجدون المساعدة والعون ، وإنني أذكر جميع الكهنة أن يفعلوا هذا الأمر كما نفعل نحن مع الجمهور وسيبقى هذا تخليداً لذكرانا .

٦٧- إنني أؤمن بأن هناك ثلاثة عوامل لحفظ المجتمع وهي

أولاً : معرفة النفس وهذه تتضمن التواضع والفقر ،

ثانياً : معرفة الآخرين مثل معرفة الرب ومعرفة الجار وتشمل هذه التصوف والحب

(أ) سفر التبشير في الكتاب المقدس ١٠ ، ٤ .

(ب) الأمثال ١ ، ١٣٢ .

ثالثاً : حرية التصرف والتمييز والمعرفة حتى يتمكن المرء من المحافظة على جوهر الاثنين وهو التعلم ، وهذا ضروري للمسلمين والوثنيين والأتراك أي بمعنى آخر الفلسفة وعلم الميتافيزيقا وعلم اللاهوت اليهودي .

تلك كانت المراحل الثلاثة التي نتقدم بموجبها في رهبنتنا ، لأننا من خلال الوعي يمكننا الارتقاء لمعرفة الرب والجار ، ومن هناك للعلم الذي يجب أن يكون قائماً على الفضيلة لكن هذا لا يُدرس-أحبائي الكهنة ، وإنما يتحقق بفضل الحب المتبادل والانسجام المشترك .

٦٨- إن الفتن والقلاقل التي أحدثها الناس في هرمز ، مثل الوثنيين والمسلمين واليهود ، إثر وصولي إلى هناك كانت مثار دهشة الجميع بحيث إنهم ومن معهم من المسيحيين والبرتغاليين لم يعرفوا ماذا يفعلون بشأنها ، لأن يد الرب كانت قد مستنا(أ) .

كانت الاعترافات تؤدى بشكل منتظم في كل يوم أحد نتوجه بالصلاة والدعاء للرب كما كان هناك حماس دافق بالنسبة لأعمال البر التي يجدر ذكرها والكتابة عنها ، لأنني أشعر أن الناس هنا أكثر انجذاباً لكل ما هو ورع وصالح عن اولئك الموجودين في البرتغال .

٦٩- لقد أبلغني زعيمنا الكاهن "فرانسيسكو" إنه يخشى كثيراً تعرض هذه البلاد للفساد نظراً للممارسات الخاطئة التي تحدث فيها ، وبسبب ذلك فقد أرسلني بشكل عاجل ، ولقد تولد في نفسي ذات

(أ) جوب ٢١ ، ١٩ .

الإحساس منذ بداية قدومي لهذه الدولة لأنني شاهدت حدوث عدة هزات أرضية ونُذر نحس أرسلها الرب لتنبيه أولئك المذنبين ، بحيث ظل كل فرد مرعوباً لشهرين أو ثلاثة شهور .

عموماً ، وبالنسبة لما يمكنني رؤيته أن لطف الرب قد حل من بعد غضب ، وإن رحمته قد سادت ، ولعل من أساسيات واجبي ، وبعون الله ، أن أتمكن من هداية جميع أولئك البرابرة قبل رحيلي .

٧٠- كانوا قد أخذوني في واحدة من المناسبات في منتصف الليل كي أشاهد مسجدهم ، ومن ثم أخذوني إلى قمة المئذنة التي بنيت في أوسع وأروع مسجد في جميع مناطق المسلمين وكان حولي العديد من الرجال المشهورين وعموماً من الموجودين في رهبنتنا .

كانت مبالغ التعويضات والصدقات في هذا البلد كبيرة جداً ومدهشة الأمر الذي دفعني للإنفاق منها وتوزيعها على الفقراء وعقد عدة زيجات وتسخيرها لهداية الوثنيين .

أما بقية المبالغ التي ما زالت قيد التوزيع فتبلغ حوالي سبعة أو ثمانية آلاف "بردواس" عملت على إنفاقها لأجل مساعدة بيت الرحمة ، إذا ما كانت هذه الدولة مناسبة لذلك لكن لا فائدة من ذلك لأنها بلاد مشغولة بالحروب التي تحدث من وقت لآخر .

هنا يتم إنجاز أعمال جد عظيمة ... ، والمجد للمسيح عليه السلام وهذه الأعمال خاصة بالمسيحيين وأيضاً بالنسبة للمهتدين الجدد (٢٧ أر) .

٧١- كانت لدي مناظرة متميزة مع ذلك الفيلسوف الشهير الذي

سبق أن ذكرته أعلاه[أ] ، وهو مسلم قام باستجوابي ، وفي تلك المناظرة كان لديّ أحد المترجمين المؤهلين جداً يتحدث الفارسية بطلاقة .

كان قد أتى خلال ذلك النقاش للاعتراف بالثالوث الأقدس للكاهن ، ولم يكن ليفعل شيئاً آخراً بسبب ما كان قد سلم به سابقاً إليّ منذ أن أثبتُ له أن الضرورة تقتضي أن يكون الرب ثالوثي ووحداني .

بعد أن تبين له الأمر على ذلك النحو أخبرته أنه قد شارف على أن يصبح مسيحياً ، بعد ذلك أخبرني أنه يرغب في الذهاب للبحث عن بعض الكتب حتى يتمكن من الرد على بعض المشاكل فيما يتعلق بتجسيد المسيح ، الرب والرجل ، وقد أنكر هذا الرجل أن يكون المسيح هو الرب[ب] بل حتى أن يكون رجلاً مبتدعاً بروح الرب ولكنه مقتنع بعذرية مريم[ت] .

(أ) جوب ، ٤٩ .

(ب) هذا ما ورد في القرآن الكريم ٧٣ ، ٣ .

(ت) المفيد أن يتمكن من الاطلاع على ما يختص بشافير في مسألة التعليل اللاهوتي في القرآن . وهذا التعليل اللاهوتي في القرآن قد أشير له بشكل لافت للنظر وتأثر بشكل قوي بمطبوعات يُشك في صحتها بصفتها موضوعات مختلفة . المسيح عيسى يسمى ابن مريم .. والأمر مختلط بالنسبة للأخيرة ماري- اخت موسى وهارون [٣١ ، ٣-١٩ ، ٢٩] ولعل مولده العذري هو أمر موثوق فيه وتم تأكيده ضد أقوال اليهود المفتراة وتشنيعهم [١٥٥ ، ٤] ، ... لكلمة المسيح .... وروح الله ... ويبدو أن القرآن [٤٨ ، ٣ ، ٤ ، ١٦٩] يحتفظ هنا بصدى شعار القديس جون ، فالمعنى الذي أضافه للفظ الكلمة هو محير (إسلام ٥٨ ، ٥٧ حيث يشرح المؤلف المزيد عن معنى الكلمة) وبالتالي فإن النص الوارد عن عذرية مريم يأتي صريحاً ومباشراً للعقل . فهم أي اليهود لم يؤمنوا بالمسيح عيسى ، وقد صاغوا أكاذيب شنيعة ضد مريم" وهذا حسب نص "كازميرسكيط ٨٢ ، ١ المشار له بوضوح في الفصل ٢١ الجزء ٩١) أيضاً يذكر أنها من حفظت عذريتها ... لقد وهبنا لها ابناً كرمز للعالم ... الفصل ٣ الجزء ٤٢ .. وقد ورد في القرآن الكريم

أما المسلمون فقد أقروا أن المسيح سيأتي للحكم وأنهم يبجلون العديد من قديسينا .

عموماً فقد رفضوا الصور ومعاناة المسيح .

كان ذلك الفيلسوف المسلم مبهوراً بحيث إنه اتجه لأخذ النصيحة من أعظم حكام الفرس ، وعندما رآه الأخير هذا في محنته تلك عمل على إرساله بعيداً على جمل إلى فارس ، حتى لا يتمكن من العودة مرة أخرى للخوض في أي نقاش .

٧٢- لعل سبب نقاش هذا المسلم معى هو أنني أملك وسائل تمكنني حقيقة من هداية زوجته التي تعتبر أكثر استعداداً للدخول في المسيحية هذا إلى جانب إحدى بناتها وكنت قد أويتها وبنتها في أحد المنازل الذي يؤول إلى أحد الأبناء الدينيين بحيث تجدان معاملة حسنة في أحد المنازل وذلك حتى يأتي ذلك المسلم للهداية ، وقمت بتعليمها بالسؤال والإجابة لعدة أيام ، ولم أكن راغباً في تعميدها إلى أن أتبين من حقيقة إنها يمكن أن ترفض ذلك المسلم .

بعد ذلك أتى إليّ وأخبرته أنني بصدد ترتيب لقاء معه كي أشرح له الأخطاء التي يرتكبها المسلمون في حياتهم ، واشترطت عليه أنني إذا لم أتمكن من إثبات أن دينه زائف وديننا هو الحق فسوف أعيد له زوجته وبنته ، ولكن إذا ما حدث العكس فيجب أن يصبح أيضاً مسيحياً معها ، وقد رضي الرجل بذلك .

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فأجابها الملك- الآية في القرآن ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ .. في "كازميرسكي" ٢٦٣ ، ١ ، ٤٨) .

٧٣- في النهاية كان النقاش الأول ، وبعد أن أذعن لي واعترف بالثالوث الأقدس فر هارباً تاركاً زوجته وابنته اللتين قمت بتعميدهما في احتفال كبير لم يسبق له مثيل في تلك البلاد .

لقد رغبت في زفهما مع القائد وجميع سكان هذه المدينة ، وكان الاحتفال أشبه بعملية عسكرية مع آلات العزف من الطبول وآلات النفخ الموسيقية والفرق الموسيقية ، مررنا عبر بوابة الملك الذي بدا راغباً بصورة واضحة في أن يصبح مسيحياً أكثر من مسلم ، لولا خوفه من ثورة تندلع وسط شعبه ، ولقد أرسلت له رسالة استفسر فيها عن وجه نظره في هذا الأمر .

كنت قد أطلقت اسم "دونا كاثرينا" على الابنة ، وأطلقت اسم "دونا ماريا" على أمها ، لأنها من طبقة عريقة ، وتنتمي إلى أسرة سلطان بابل وعائلة سيدي محمد(أ) .

لقد تركوا ممتلكات عظيمة ومبلغ ثلاثة أو أربعة آلاف "بارداوس" .

بعدها أشرفت على زواج(ب) كل منهما ، وقدمت لهما كهدية لزواجهما حوالي ثمانمائة "بارداوس" أو أقل قليلاً ، والحمد للرب الذي مكنني من جمع ذلك المبلغ من التعويضات والصدقات وإنفاقه لذلك الغرض .

(أ) زيد بن حارثة هو ابن بالتبني للنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) .
لكن يبدو ذلك سراً .. وقد توفى في معركة بالقرب من مؤته .

(ب) بما أنه تم عقد لقران تلك الأم ، فقد استخدم بارزيو الامتياز البوليني - انظر : التكوين ١٢ ، ٧ . وكان اسم الزوج الجديد هو "جورج فييرا" ١- (الثيب . قارن اسكارهامير كيو ٤٥٣٩) .

شعر المسلمون بشرف كبير أغدقه عليهم المسيحيون ، وعليه فقد توافدوا بأعداد ضخمة لمشاهدة تلك المناسبة العظيمة التي لم يسبق أن رأوا مثيلاً لها ، وأيضاً كان من النادر جداً أن تحدث أي إساءة للمسلمين ، وقد أحدث هذا الأمر ارتباكاً شديداً في أوساطهم وهذا ما جعلهم يقبلون بشكل يومي لاعتناق هذا الدين .

كانت الابنة قد تزوجت السيد "جواو باتستا" ، وهو صاحب مكتبة لبيع الكتب في "كويمبرا" ... ، والمجد للمسيح ، وكان اعتناقها للمسيحية يمثل معجزة بحد ذاتها ، ولكن نظراً لضيق المجال فإنني لن أستمر في الكتابة عنها .

٧٤- كان الاحترام والتوقير الذي حظيت به رهبنتنا في هذه البلاد عظيماً جداً ، والمجد للرب ، لم يكن هناك من قائد أو مأمور تنفيذ أو قاضي مسؤول ممن يملك السلطة لفعل أي شيء ضد كل ما يقولونه ، ولعل كل ما يريده الهاربون في هذه البلاد أن يتم إبلاغ مساعد مأمور التنفيذ ألا يعمل على توقيفهم ، وذلك لأنهم تحت نفوذي ، ولذلك أقول يجب عدم اعتقالهم ، ويجب أن يذهبوا في سبيلهم آمنين أحراراً .

ذلك لأن ثقتهم فينا عظيمة لا حدود لها ، فإننا نبدو في نظرهم كقديسين ، وإن كل ما نفعله مستمد من الرب ، لكنني أرى أنهم مخطئون في ذلك حسب وجهة نظري ، لأنهم يرون في شخصي أحداً أنا لست هو ، والرب عالم بكل شيء لكنه يخفيه عن عبده كي يعمل عبده بالكفارة . [٢٨ آر] .

٧٥- هذا ما حدث في هذه البلاد التى أقيم فيها ، وعندما تلقيت

أخباراً عن شؤون رهبنتنا في هذا البلد قررت أن أبين بوضوح أن الناس يخدمون الرب بشكل جيد من خلال أعمالهم خاصة تلك الإنجازات العظيمة التي تمت بفضل الرب وبواسطة أعضائها .

٧٦- لقد علمت أن أحد الكهنة في رهبنتنا وهو شخص لم أرغب في الإشارة لاسمه(أ) ، قد أصبح محزوناً جداً إثر استقباله لاعتراف أحد الرجال الأثرياء من ذوي النفوذ وكان قد ارتكب معاصي وشروراً عظيمة حتى اشتهر بين الناس بأنه جبار طاغية(ب) ، هذا الرجل أصبح عدوانياً بشكل خاص تجاه هذا الكاهن لأنه سبق أن وبخه على معاصيه تلك(ت) ، وقد قرر هذا الكاهن أن يستودعه الرب كي ينور بصيرته .

في المساء وبعد مرور ثمانية أيام وفي الساعة الواحدة كان هذا الطاغية قد شاهد وهو في سريره ذلك الكاهن واقفاً أمامه ووجهه ويديه تشعان ضياءً وجمالاً - الأمر الذي جعله مبهوتاً واجماً .

كان الأريج الذي انبعث من وجه الكاهن ويديه رائعاً بحيث ملأ أرجاء الغرفة برائحة عطرة شذية ، وكان هناك رجل يقف إلى جانب الكاهن يخاطب الرجل قائلاً : أيها المذنب لماذا لا تقدم اعترافك لهذا الكاهن؟ وسماه باسمه ، ألا ترى جمال ذلك؟ ولكن عندما أراد الرجل أن يمسك بالكاهن ، اختفى على الفور ، بعدها قال الرجل :

(أ) كان يتحدث عن نفسه .

(ب) يبدو أن ذلك التقرير كان عن "مانويل دى ليما" . (كان مأموراً لهرمز) (انظر : ملحوظة ٤٣) .

(ت) كان السفراء قد تركوا توجيهات شافير مع "بارزيو" ومن ثم شرعوا في مناقشة الأسلوب الخاص بالعمل لمأمور هرمز . مثال ٢ . ٩٢ ١٧-١٨ .

إن الكاهن موجود في مركز العجزة مع المرضى يقرأ عليهم القداس ، وعندما نهض ذلك الرجل من نومه في الصباح كان الندم بادياً عليه بشكل واضح يعبر عن توبته وقد بدأ مفجوعاً ومنهاراً بشكل كبير .

بعد ذلك أرسل يطلب الكاهن متوسلاً إليه كي يسمع اعترافه ، وعند حضور الكاهن ألقى الرجل بنفسه تحت قدميه قائلاً : أيها الأب إنني أكثر الناس ذنوباً وأعظمهم إثماً في هذا العالم ، إنني أملك العديد من آلاف "البارداوس" نقداً ، والكثير من السفن والممتلكات والخدم ، والآن فإنني أقدم لك نفسي جسداً وروحاً وأتوسل إليك أن تخلصني وتنقذني مما أنا فيه .

فخذ من ممتلكاتي كل ما تراه حقاً عليّ حتى ردائي هذا يمكنك أن تأخذه مني لأجل إنقاذي ، إنني لا أمانع في عمل كل شيء تفرضه على حتى ولو أرسلتني لأعيش في كهف بقية عمري كي أكفر عن ذنوبي ، فأرجو أن تفعل ذلك لإنقاذ روحي ، وإذا ما امتنعت عن فعل ذلك فإنني سوف ألقى عليك كامل المسؤولية .

كان حجم الندم الذي أظهره هذا الرجل عند اعترافه كافياً لجعل العالم كله يجهش بالبكاء .

بالفعل قام هذا الرجل بتقديم صدقات عظيمة بلغت خمسة آلاف "بارداوس" ، كما قبل بأخذ التمارين الدينية في الأسبوع الأول ، واستمر مواظبًاً وحريصاًعلى أداء واجباته الدينية حتى النهاية ، وعلى كل ، تمكن هذا الرجل بعدما أضاع ساعات كثيرة من عمره في أعمال أدت إلى إشانة سمعته من استعادتها جميعها من خلال أخبار حسنة تم تداولها عن اعترافه .

٧٧- كان هذا الكاهن نفسه قد طُلب منه إقامة قداس لأجل ابن أحد الرجال المرموقين الذي كان يحتضر بسبب حمى أصابته ، كما كان مصاباً أيضاً برمد جعل إحدى عينيه متقرحة .

في نفس اليوم الذي أقام فيه القداس شفي ذلك الصبي بارتباك شديد إثر حدوث هذه المعجزة ، وعليه فقد سارع يطلب حضور الكاهن كي يطلعه على أمر ابنه .

كل شيء قد نسب إلى سيدتنا التي يقام لها القداس وهي من شهدت بذلك لأجله .

كان قد طُلب من ذلك الكاهن أداء قداس آخر لأجل واحد من أبناء الأبرشية كان على أعتاب الموت ، لكن ما إن انتهى الكاهن من القداس حتى استعاد ذلك المريض صحته وعافيته .

٧٨- كثيراً ما كانوا يرسلون في طلب هذا الكاهن حتى أصبح غير قادر على تقديم النصح ، وقد حدث بينما كان مشغولاً في أحد الأيام أن تقدم منه أحد الرجال طالباً منه أن يأتي معه للصلاة والدعاء لإحدى النساء ، وكانت تصرفات هذه المرأة أشبه بتصرفات من يملي عليه الجن ، فقد كانت تتخيل صوراً مرعبة وتكاد تتمزق من الخوف .

عندما أدرك أنه لن يقدر على الذهاب أرسل مذكرة صغيرة للرجل كتب فيها رسالة دينية من تعاليم القديس جون ، مفادها المسيح الغالب على الأمر-المسيح المسيطر ، المسيح يعصمنا من الشيطان الرب المقدس ،

القديـس القـوي ، القـــديس الخالد ، فلترأف وتلطف بنا[أ] ، المخلص عيسى ... مريم" .

أخبره أنه لن يقدر على الذهاب إلى هناك ، ولكن إذا ما وضع هذه الورقة حول رقبتها فسوف يكون ذلك كافياً لشفائها .

أخذ الزوج الورقة من الكاهن وفقاً لتأكيده ، ومن ثم وضعها على عنقها ، وبذلك تخلصت المريضة فوراً من الأرواح الشريرة وشفيت تماماً ، فالمسيح قادر على فعل كل شيء نقف نحن عاجزين عن القيام به .

أيضاً حدث أن رجلاً كان يحتضر لكنه عوفي وشفي من مرضه بموجب دعاء وشفاعه هذا الكاهن .

٧٩- عندما ذهب ذلك الكاهن نفسه لزيارة أحد الأشخاص للاعتراف وتخليصه من ذنوبه العديدة [٢٨ في] شرع الرجل بعد وصول الكاهن في التصريح بأنه ينكر وجود الرب والقديسين ، وقد أقسم بأنه لن يموت قبل أن يأخذ ثأره ، وبخلاف ذلك فهو لا يرغب في الموت بصفته مسيحياً ، أجابه الكاهن على ذلك بقوله يجب عليك أن تنتبه جيداً وتتفكر فيما تقول لأنك غداً وقبل منتصف النهار سوف تتوسل ولأكثر من خمس مرات لمن تريده أن يستمع إلى اعترافك ولكنك لن تجد من يستمع لك .

هكذا كان المصير بالنسبة لذلك الرجل حيث إنه مات بسبب حادثة دون أن يجد بالفعل أي أحد بقربه كي يستمع إلى اعترافه .

(أ) مستمد من الطقس الديني ليوم الجمعة من الأسبوع المقدس .

٨٠- حدث أيضاً في وقت ما أن اتجه هذا الكاهن لمعالجة أحد الرجال وهو رجل حفلت حياته بالكثير من الشرور والآثام ، وكان هذا الكاهن قد بذل جهداً كبيراً كي يجعل الرجل يتصالح مع نفسه ، لكن دون فائدة ترجى ، ودون أن يستفيد الرجل من تلك الفرصة التي سنحت له .

عندما رجع ذلك الرجل من الخارج وهو في أتم صحة ، خاطبه الكاهن قائلاً آه ، كم أنا آسف للقاء بك وأنت على هذه الحال من كمال الصحة ، وقال : "لابد لي أن أدعو الرب كي يبتليه بمرض الحمى حتى يقدم على الاعتراف" ، وبالرغم من أنه لم يدع عليه إلا أن الرجل كان مريضاً جداً بالحمى عندما جاء للكاهن للاعتراف .

كان ذلك الرجل يقدم اعترافه للكاهن الذي أخذه كي يطوف به على جميع الأنحاء في المدينة طالباً العفو من الجميع ، لأنه في جزء في المدينة كان الناس ينتظرونه ببنادقهم كي ينالوا منه ويقتلونه ، وفي جزء آخر كانت فئة في انتظاره لرجمه بالحجارة ، وفي نهاية الأمر يبدو أن الجميع يريدون التعاون للقضاء عليه ، وبالتالي نجح هذا الرجل الذي كان فيما ما مضى غير قادر على الدفاع عن نفسه إلا بقوة السلاح .

نجح الآن في الذود عن نفسه وحمايتها كحمل وديع من غير أن يضطر إلى استعمال السيف أو استخدام السلاح ، وإنما حماها فقط بمناشدة الناس كي يتم العفو ويسامحوه ، وقد كان له ما طلب ، هذا الرجل هو قائد وأحد النبلاء[أ] النافذين .

(أ) "بانتاليون دى سا"؟

٨١- لقد كتبت كل هذا أملاً في أن يمجد كل .... ، في الرهبنة الرب سبحانه وأيضاً كي تعلم مدى الرحمة والعطف الذي يسبقه الرب على عبده لأنه مخلوق مكرم من عند الرب يحيطه بكل العطف .

عموماً هنالك فرق كبير بين ما يسمع ويرى عن مسيرة الأوضاع في الهند ، وقد بدوا لي كمثل أولئك الموجودين في الكنيسة البدائية ، والمجد للمسيح الذي يكتب ما أراه وأسمعه ، وكم هو حجم الصدق فيه ومدى الإيمان الذي يمكن أن يترسخ في أذهان إخوتي الكهنة ، ومن الآن فصاعداً سوف ترى وجهاً لوجه والآن سترى ، في ضبابية كما يكون الحال لمن ينظر في المرآة(أ) .

أيها الأخوة ، فليظهر كل فرد منكم حبه لأخيه ويجب أن يحسن كل أخ معاملة أخيه ولتكن المساواة في الحب لأن الرب يضع أسراره في الضعاف من خلقه وفي مقدوره قهر كل مغرور ذي نفس متعالية(ب) ، فيختار ضعفاء هذا العالم كي يخضع به الجبابرة(ت) ، والآن فلتدع كل فرد يعتبر نفسه الأضعف والأكثر جهلاً ثم انظر كيف سيكون الرب رحيماً بالذين صفت نفوسهم وطهرت قلوبهم(ث) .

(أ) الكورنثيون - في العهد الجديد ١٢ ، ١٣ .

(ب) الأمثال ٢٨ ، ١٧ .

(ت) الكورنثيون - في سفر في العهد الجديد ٢٧ ، ١ حيث تقرأ انفيرما بدلاً من "انفيما" لقد نقلها المؤلف بشكل خاطئ .

(ث) الأمثال ١ ، ٧٧٢ .

٨٢- إنني لا أزيد على هذا القول : فلا تتذكروا جهلي[أ]! وآمل أن تحملوا لي من الحب ما أحمله لكم ، إذ إنني على يقين من ذلك ، وأرجو أن يكون المسيح حكماً بيننا ، فالامتثال يدفعني كي أكتب ... ، أفعل ولا يمكنني أن أجني الكثير ، ليس مهمًا كم يكلفني ذلك ، وليس لنا وإنما نجد اسمك[ب] .

المسيح وحدنا من خلال عدة مناسبات في هذه الرهبنة المقدسة ، فلنكن شاكرين لأن ذلك تنصير آخر ، ولقد فرقنا بعدة وسائل مختلفة في أماكن بحيث يصعب على كل فرد منا رؤية الآخر في هذه الحياة ، ويجمع شملنا بالمسيح في مجده ، عندما نرى جهاراً ووجهاً لوجه[ت] الأعمال العظيمة التي خص بها أروحنا[ث] ... آمين .

٨٣- الكهنة من الهند ، "أنطونيو جوميز" ، "ميسر باولو" "Maysar Paolo" ، "بالتازار غاغو" ، وجميع الرهبان ، "كارفالهو" "Carvalho"[ج] "ريماو"[ح] .

كهنة من "كورماندل" "Coromandel" : "سيريانو" ، "نيكولاو"[خ] ،

(أ) الأمثال ٧ ، ٢٤ .

(ب) الأمثال ١ ، ١١٣ (الباب الثاني) .

(ت) الكورنثيون سفر في العهد الجديد ١٢ ، ١٣ .

(ث) الأمثال ١٦ ، ٦٥ .

(ج) "اندريه دى كارفالهو" .

(ح) "رايمندو بيريرا" .

(خ) "نيكولاو لانسيلوت" وهو من "كويلون" .

"أنطـــونيو الهـــــيد" "Antonio Alheide"[أ] "فرانسيسكو هنريكس" "Francisco Henrique" ، بالإضافة إلى كهنة آخرين "فرانسيسكو بيريز" .

كهنة من البرتغال : السيد "سيماو" ، "ميسر جواو" "Maysar Joao"[ب] ، السيد "غونسالو"[ت] "لويس دي غراو" ، "لويس غونسالفس"[ث] ، "كارنيدو" "Carnedo"[ج] ، "جواو"[ح] "بلشيور نونيز"[خ] ، "جواو نونيس"[د] ، "نوبريقا" "Nobriga"[ذ] .

"موريس"[ر] ، "ميلو"[ز] والرهبان : "تيلس" "Teles"[س] ، "فرانسيسكو هنريكس"[ش] ، "سواريس"[ص] ، "فيسنت" النجار[ض] ، "فروتوسو"[ط] ،

(أ) "أنطونيو كريمنال" .

(ب) "دوم جواو دى اراقون" .

(ت) "قنديسالفو رودريغيز" .

(ث) "لوديفيكو غونساليفس دا كامارا" .

(ج) "ملشيور كارنيرو" .

(ح) "جواو دى ساو ميجيل" .

(خ) "ملشيور نونيس باريتو" .

(د) "جواو نونيس باريتو" .

(ذ) "مانويل دى نوبريقا" .

(ر) "مانويل دى موريس سنيور" .

(ز) "بالثذار دى ميلو" .

(س) "أفونصو توليس" .

(ش) "فرانسيسكو هنريكس" ، بخلاف ذلك الموجود في الهند .

(ص) "أنطونيو سواريس" .

(ض) "فيسنت رودريغيز" .

(ط) "فركتوسو تورويتا" .

"منديس"(أ) ، "بوتلهو"(ب) ، "جواو"(ت) الطباخ ، بالإضافة إلى جميع كهنة "قشتالا" ، "سلامانكا" ، "ساراقوسا" "فالنسيا" .

كهنة من إيطاليا ، السيد "اغناتيوس"(ث) ، "بوبا دلها"(ج) "سانتا كروز"(ح) ، "ماسكارينهاس"(خ) بالإضافة إلى جميع رهبان إيطاليا كهنة "كولوجين" "Cologne" ومقاطعات ألمانيا .

كهنـــة "مانكونغـــو" : "جـــــورج فاز" ، "كريســـــتوفاو روبيــــرو" "Christofao Robeiro" . (د) كهنة من اليابان ، السيد "فرانسيسكو"(ذ) ، "كوسمي دي توريس" ورهبان آخرين جميع الكهنة والرهبان في إخوانية المسيح عيسى فليصلوا ويتقدموا بالدعاء للرب كي يغفر لي ذنوبي .

٨٤- لقد أرسلت ميثاقاً جديداً مع سيرة المسيح كاملة موصوفة في نص "جورجي"/ غيرغيزي؟ مكتوب(ر) وهو أسلوب للمسيحية وُجد

(أ) "بدرو منديس" .

(ب) "ميجيل بوتلهو" .

(ت) "جواو" (الزنجي) أو "جواو دى ساو فنس" .

(ث) "اغناتيوس دى لويولا" .

(ج) "نيكولاو بوباديلها" .

(ح) "مارتيم دى سانتا كروز" .

(خ) "فرناندو دى ماسكرينهاس" ، مناشد روما غير أنه فصل بواسطة "اقناتيوس" .
(Epp . Broeti ... Rodericii 800 MI Epp 1 626).

(د) بالنسبة للفئة الفاسدة في "مانيكونقو" أنظر بولانكو شرون ٢٣٥-٣٣١ .

(ذ) "فرانسيسكو زافير" .

(ر) كان "لجورجيان" نوعان من الرسائل أو الحروف الأبجدية . إذ كانت "كوكورى" هي الشكل الكنسي ، والأخرى "مخدرولى" العسكرية . وكلتاهما تحتوى على ٣٨ حرفاً غير أن الأولى كتبت

في أقصى منطقة في فارس ، وهم الذين يدفعون الجزية للشاه العظيم طهماسب ، فأمروني كي أقول خمسون قداساً لأن حاجتي عظيمة لمن أعطاني هذا الكتاب ، وأكثر من ذلك حاجتي لنفسي .

من هرمز في هذا اليوم العاشر من ديسمبر عام ١٥٤٩م .

غير جدير بصحبتك .... "غاسبار"

عندما نلتقي في المرة القادمة يمكنكم أن تسألوني عن تلك الأشياء التي لم تقتنعوا بها ، لكن لا تتوقّعوا أخذي بعيداً من الكتب المقدّسة ، ولا تقتبسوا من علمائكم ، كما أنّني لم أقتبس من علمائنا لكم .

لعلّ الربّ يفتح قلوبكم حتّى ترغبوا في الفهم ، لأنّني أعلم أن عليكم فقط أن تدركوا حتّى النهاية الكفّارة التي حملتوها حتّى الآن ، والتي تركتكم بلا قانون ، ولا ملك ، ولا معبد يهوديّ ، ولا أسقفّ ، وقد اضطهدها الجميع ، آمين .

بالحروف الصغير والكبيرة "Small and Capital Letters" بينما كانت حروف الثانية يُمثلها شكل منفرد في الكتابة فإن الموسوعة الايطالية ١٦-٦٤٣-٤٤ وأيضاً هناك نموذج للكتابة . ومن خلال النص يتبين أن الكتاب الذي أرسل إلى "بارزيو" يحتوي على كتابات كنسية .

وفي العام نفسه (١٥٤٩م)

بعث "كوسمي يانيس" "Cosmi Ianis" رسالة إلى "دوم جواو الثالث" "D . Joao III" ، "كوتشين" "Cochin" ، في الثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٥٤٩م ، ويذكر فيها عدن ومكة ، ومعاهدات مع شاه طهماسب : (١١)

سيّدي ،

أقسم لسموّك بالإيمان والإخلاص الذي أدين به للربّ بأنّي سأستخدم كلّ سلطاتي وقوّتي في خدمتك ، علاوة على ذلك أعتقد أنّني أقدّم بموجب ذلك خدمة جليلة للربّ ؛ لأنّه من المعروف أنّ كلّ ما تأمر به سموّك ، وتطلبه هو لتلك النهاية .

بما أنّ هذه البلاد قادرة على هدي عظيم ، وتميل للأعمال الصالحة ، إلاّ أنّها أيضاً قادرة على شرّ مستطير قد يملأ أرواحنا ، قد قرّرت أن أكتب

---

(١١) رقم الوثيقة والهامش.

بتفصيل كبير في هذه الرسالة ممّا اعتدت عليه ، ولألفت انتباه سموّك لأمور عديدة على وجه الخصوص .

عند قراءتك لهذه الرسالة قم بتمزيقها حتّى إنّ ما أكتبه لك في وعيي الكامل ، وبأنّه يصب في مصالح الربّ ، ومصالح سموّك قد لا يبدو مضرّاً لي .

سيّدي ،

ليس الأمر خوفي لوجودي في هذا البلد ، لا أستطيع القول إن كان ذلك بسبب أعبائي ، ومسؤولياتي الكثيرة ، أو بسبب بلوغي هذه السنّ ؛ لكنّني أريد فقط بعضاً من الراحة ، لأنّه ، وممّا أراه فإن الوضع يزداد سوءاً كل مرة .

إنّ الأتراك يتولّون أمر هذه البلاد حتّى النخاع ؛ لأنّهم هنا لهزيمة "آسيا" التي هي الطريق إلى الهند ، ولذلك قاموا بالاستيلاء على البصرة وعدن .

أصابت الصدمة كلّ سكّان هذه البلاد ، وكانت المسألة لا تخلو من استعداء لنا ، وقد جعل الحكّام الأمور أكثر سوءاً ، يبدو أنّ البعض يميلون دائماً للتدمير ، والخراب ، وأن يقفوا ضدّ كل شيء ، وكلّ شخص آخر حتّى يموت جوعاً .

على أيّة حال ، سيّدي ، إنّ مغامرة بهذه الأهمّية ، وهذا الشكل ، يجب ألا تكون في مصلحة رجال لم يولدوا ليحكموا مثل هذه الأقاليم الشاسعة ، أو ممّن ليسوا مؤهّلين لهذا الالتزام العظيم ، إن كنت سموّك

من تؤول له ملكيّة هذه البلاد ، سوف لن تتولّى أمر هذا الموضوع شخصيّاً فأرجو أن تبعث بشقيقك سموّ الأمير ، مادام الأمر هو الحفاظ على الملكيّة .

قام الناس ، يدفعهم مزاج ثأريّ ، وشقّوا عصا الطاعة والاحترام ، فانتشروا في أماكن مختلفة ما كانوا يرغبون في العودة منها ، لذلك قلّة هي من بقي مع الحاكم ، الذي لم يكن يجرؤ على المغادرة بالرغم من حالة الفقر والعوز التي ضربت المكان ، لم يكن يملك الوسيلة التي تسعد الناس ، ولم يبذل الجهد في محاولة أن يوفّر ذلك .

عليه ، فالقلّة القليلة التي بقيت لم تكن منها فائدة ، لهذا يقع الأمر عليك ، سيّدي ، بأن تبعث بشخص يعيد الحياة لهذه البلاد ، ويبعث الروح في الناس ، وينعش أرواح الرجال حتّى يدركوا أنّ لهم ملكاً ، أو ابن ملك ، والذي من واجبه أن يتعامل ، ويدير الأمور بأسلوب مختلف عن ذاك الذي كان يمارسه الحكّام ، بهذه الطريقة سيعيد الناس النظر في حياتهم ، ويقوموا بإصلاحات أساسيّة لما كان في الماضي .

يمكن لأخبار من هذا النوع أن تذاع ، وتنتشر عبر البلاد ، والبرتغاليّون الذين تبعثروا ، وانتشروا عبر الأقاليم المختلفة سيعودون ، لن يزعجهم أو يثيرهم حضور أحد النبلاء كحاكم ، لأنهم يعرفون لماذا يأتي أمثاله ، فهم يتعاملون في شؤون تتعلّق بمصالحهم بأساليب مختلفة ، وآخرون قد لا يفعلون ما يقوم به آخرون .

عند وصول أمير ، فإنّ البلاد وعقول الرجال ستتفتّح ، وستنتشر المسيحيّة التي هي اهتمام سيّدنا وتستمرّ ، وما كان غير أكيد سيصبح

يقيناً ، وسيتمّ تحصيل الكثير من المكاسب والثروات ، ستتوالى الاتّفاقيّات وستنشأ الكثير من الممالك ومقاطعات خاضعة لنا وستعود عدن لسيطرتنا ، وستتم حراسة وتأمين مضايق هرمز ومكة وستوقّع معاهدات واتفاقيات مع "شاه طهماسب"(أ) .

وسيتمّ إصلاح حال الأحباش ، وسيعتبر ملوك الهند والمناطق الأخرى أنفسهم محظوظين ؛ لأنّ أميراً يحكمهم ويتعامل في شؤونهم ، ستبحر الأساطيل لأماكن عديدة ، ويتزود الناس بكلّ شيء ويصبحون قانعين ، وراضين .

سيكون ممكناً كلّ هذا بل وأكثر أن يتم ، أقسم لسموّك ، وللربّ أنّ هذا ما يودّ رجالنا أن يحدث ، وكأنّ الأمير قد وصل فعلاً ، الأساطيل والحكّام الذين يأتون إلى هنا ، والأسلوب الذي يديرون به البلاد يوفّر حافزاً كافياً للأتراك ليأخذوا سفننا منا ، لا تتخيّل سموّك أنّ تلك الملاحظات تشير لقادة القلاع أكثر ممّا هي إلى ضبّاط سموّك ، لأنّه في نهاية الأمر سنحارب جميعاً عندما يقتضي الواجب .

بناء عليه ، إن كان سموّك يرغب في الاستفادة منّي هنا فعليك إعفائي من الأعمال الماليّة التي أنا مرتبط بها حاليّاً ، بينما كان المفروض أن أكون قائماً بأعمال تتعلّق بالحرب ، إنّه أمر غاية في الخطورة أن نكون دائماً في انتظار أن يمنّ علينا الربّ بالمعجزات ، لا نعتقد أنّ هذا الأمر يخص فقط قلّة قليلة ، الجميع متورّطون فيه ، لذلك لا يوجد رجل واحد لا يرغب في مغادرة الهند .

(أ) "شاه طهماسب" ملك "فارس" .

الحاكم مشغول بجمع كلّ شيء ، ونسخ المراسيم والشهادات حتّى يكتب لسموّك .

لقرابة الأربعة أشهر الآن ، منعت السفن ذات المجاذيف من الإبحار إلى "باسين" ، لأنّها تكلف كثيراً من المال حتى تعدّ ، وتذهب لتدمير أسطول تركيّ ضخم ، على سموّك معرفة أنّ هذه المغامرة غير مرغوب فيها ، وواضحة لكل من يوجد هنا ، وأنّ الأموال من الأفضل أن تصرف في أشياء أخرى .

بما أنّني التزمت بالتحدّث صراحة في هذه الرسالة فقد أعددت الأمر كما يلي :

ملخص للصفحات ٤٧١ - ٤٧٦ :

مادّة : سيّدي ، على سموّك الالتفات إلى إدارة الكنيسة : الأسقفّ كبير السنّ ، سريع الغضب ، وغير قادر على زيارة الأبرشيّة ، أو القيام بواجبات منصبه ، وهو مناسب ليتواجد في "البرتغال" بدلاً عن بقائه هنا ، وعليه فمن المستحسن أن تبعث في طلب أسقفّ عامّ كفء ليحلّ محلّه بأسرع فرصة ممكنة .

الأب "بيدرو" "Pedro"[أ] ، المتواجد والملتزم حالياً في طريقه للعودة إلى "البرتغال" ، رغماً عن كونه رجلاً فاضلاً إلاّ أنّه لا فائدة منه في الهند .

(أ) "بيدرو فيرناناديز ساردينها" كبير القساوسة ، كان عائداً إلى "البرتغال" ، وكان عليه إبداء بعض التفاصيل المثيرة عن الحالة الروحية والدنيوية في الهند للملك . وكان سيعيّن لاحقاً الأسقفّ الأول لـ"البرازيل" .

مادة : تحتاج إلى وعّاظ في كلّ قلعة ليقوموا بخدمة الربّ ، وسموّك ، أكبر عدد ممكن من أولئك الحواريّين الكهنة(أ) يجب إحضارهم إلى هنا ، يقدّمون مساعدات جمّة ، الرهبان مفيدون في أديرتهم ، لكن ليس في الخارج ، عشرة ، أو أحد عشر من "الفرانسيسكان" في طريق العودة للوطن ، لكن لا أحد يأتي إلى هنا .

مادة : منصب "السكرتير" يحتاج إلى شخص أمين ، وقادر ، وله خبرة واسعة بشؤون "البرتغال" ، وترتيب ، وأسلوب شؤون جلالتك ، حالياً يسير كل شيء بطريقة خاطئة ، وذلك لأنّ الحاكم شخص غير منظّم .

من المهم جدّاً أيضاً أن يوفر سموّك شخصاً على درجة من الكفاءة ، والخبرة في الحسابات ، والأعمال الأخرى ، حتّى يؤدّي عمل "كاتب التسجيلات" ، وعليه أوّلاً وقبل أيّ شيء أن يكون كاتباً جيّداً ، بالرغم من ضرورة أن يكون معه بعض مساعدين ، فإنّ هذا لا يعفيه من مسؤوليّاته المنوطة به .

مادة : أقسم لسموّك أنّ "روي غونزالفيس دي كامينها" "Rui Goncalves de Caminha"(ب) قد تسبّب في أضرار جسيمة لهذه البلاد ، ويجب أن يكتب الكثير عمّا قام به ، لكنّني لا أقوم بذلك حتّى لا أحرص على عزله ومعه "أنطونيو بيساو" "Antonio Bissao"(ت) من

(أ) هو الاسم الذي كان يعرف به اليسوعيون .

(ب) كان "روي غونزالفيس" كبير الموظفين الماليّين .

(ت) "أنطونيو بيسوسا" الذي يشكو منه "كوزمي ايانس" في هذه الرسالة ، كان صديقاً حميماً لـ "دوم جواو دي كاسترو" . (cf . Lendas da India, IV, 618, 688) .

منصب الحاكم ، بينما كان من المفترض استبدالهما ، حتى الشيطان قد يصعب عليه إيجاد وسائل أكثر لمحاربة المسيح كما فعل "روي غونزالفيس" ، لقد استخدم وسائل لتجويع بعض الناس والبخل ضد آخرين ، أقسم "دوم جواو دي كاسترو" أنه ما كان يقدر على دخول بيته ويسلم رسالة تأمره بالعودة إلى البرتغال .

مادة : منصب أمين الخزينة في "كوتشين" يمثّل منصرفات غير ضروريّة ، وضياعاً أكثر لأموال سموّك ، المبلغ الذي يرصد لتلك الوظائف يجب أن يوجّه لأعمال أكثر أهمّيّة .

مادة : أذكّرك مرّة أخرى أن خواجا "شمس الدين" يخشى جانبه أكثر من تدمير حصن "سانت تومي" في "ديو" ، لم أشأ أن أطلب منه أيّ شيء لهذا الوضع الطارئ ، كما لم يكن هو راغباً في إقراضي أيّ شيء ، بجانب ذلك فإنّني لا أعتقد أنه من الصحيح من ناحية أن أكتب منتقداً له ، ومن ناحية أخرى أن أطلب منه بعض الأشياء .

مادة : يمكن لإحدى تلك السفن أن تحمل حمولة بين ألف ومائتي قنطار إلى ألف وخمسمائة قنطار من الأدوية ، الفائدة من تحميلها دون تعبئة هي إمكانية نقلها لألفين ، أو أكثر ، ممّا يوفّر مائة ألف "كروزادو" وأجرة الشحن ما بين خمسة إلى ستة "كروزادو" ، تقبل حمولات الأدوية في أجولة أو قلت ، في حالة القلت يمكن نشرها على السطح من الصاري ، وحتى مؤخّرة السفينة ، التكلفة التي تنجم عن أي أضرار يمكن تعويضها بنقل كميّات أكبر ، وهذا ما أعتقد وجوب القيام به ما لم يأمر سموّك بخلاف ذلك .

مادة : الأموال التي تأمر سموّك بتسليمها للنبلاء في شكل حوالة يجب أن لا تكون بمبالغ كبيرة ؛ لأنّها نادراً ما تحصّل ، يؤكّد النبلاء أنّ سموك تطلب منهم الحضور ليمنحوا على هذا الأساس ، لكن فقط "أنطونيو دي ازامبوجا" "Antonio de Azamboja" و"فرانسيسكو باريتو" "Francisco Barreto" هما من دفع لهما .

مادة : إضافة لمتطلبات هذا العام ، كنت حريصاً على شراء ماسة لسموّك ، كان الشرط أن يؤدي النصف أولاً ، والنصف الآخر فيما بعد ، كان الأمر مفيداً وقمت باقتراض بعض المال لهذه الحمولة مستخدماً الماسة كضمانة ، عند بيع الماسات فإن الأرباح ستكون عظيمة ، وتكون الحصيلة متوفرة لشراء بضائع أكثر .

على الهامش : تذكير لـ "دون أفونسو" ليبعث بماسة ، أو اثنتين مع كل رحلة .

مادة : كل القضايا الهامّة هنا ، مثل الإيجارات ، العقود ، الدفاع ، الأوزان ، وأمور أخرى ، جميعها بين يدي المستشار القانوني لسموّك ، وتدار في مصلحة دولتك .

بما أنّ كلّ الأمور الأخرى تؤول إليه ، فقد يؤدّي الأمر لخراب شديد ، ما لم يكن رجلاً ذا ضمير واستقامة .

"جيرونيمو رويز" "Jeronimo Ruis" ، الذي يشغل هذا المنصب ، عليه أن يقوم بأعمال أخرى ، وطبقاً لشهود فإنّه ليس بالرجل المناسب لهذا العمل ، لا أدري أي منصب يمكن أن يمنح له حتّى لا يغضب كثيراً .

مادة : هذه البلاد ، سيّدي ، بعيدة جداً ، حتّى تتمكّن سموّك من توفير الموادّ لها ، ومساعدتها عند الحاجة ، إنّها قادرة على الردّ في معظم الأحيان ، وقد قام العديد من ضبّاط سموّك بالدفاع عنها ، لكن عندما يتجاهلون ذلك الأمر فإنّه يؤدّي إلى تسبّب في المزيد من الضرر في مكان آخر .

على سموّك الالتفات للمسائل التي ذكرتها في هذه الرسالة ، وسلوك هذا الضابط ، لأنّ الناس أصبحت قليلة الثقة ولا يؤمن جانبها .

وصلت تقارير تفيد بأنّ حمولات جيّدة حالياً في البحر إلاّ أنّها تدار بطريقة غير منظّمة .

لقد غسلت يدي من كلّ شيء ، مثل رجل على شفا الموت ، إنّ هذا الأسطول يدمّر بلادنا هذه بطرق عدّة ، بسبب الحرب ، ليس فقط لم يصل الفحم إلى "غوا" من البرّ الرئيسي هذا الشتاء ، لكن المسابك لم تعمل لتعد عملات "bazaruco" التي تدفع منها تكاليف أحواض السفن ، وكما ترى ، فإنّ وسيلة حياتنا قد انقطعت .

هذا يا سيّدي بسبب وجود قلّة هنا ، وتعاني من المجاعة ، ونحن نسمح لأنفسنا بالموت لعدم وجود بلاد لنا ، وأصول ندعم بها أنفسنا .

وصل اثنان من المسلمين العبيد إلى حكم تلك البلاد ، وهم يمارسون الحكم بقسوة شديدة ، ومعهم بعض الجنسيات الأجنبية الذين لا يدينون لهم بأيّ ولاء .

نسأل الربّ أن يمنحك العمر المديد ، حتى ، بعون الربّ ، تتمكّن من علاج كلّ هذه الأمور الشائكة ، فليتمجّد اسم الربّ ، ويمدّ في دولة سموّك الملكيّة .

من "كوتشين" في الثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٥٤٩م

"كوسمي ايانيس"

أحداث عام ١٥٥٠م

بعث "ريّس نور الدين" رسالة إلـى الملك ، "كوتشين" "Cochin" ، الثاني من شهر يناير عام ١٥٥٠م ، يعرض فيها بيان إجراءات القبطان "مانويل دي ليما" "D . Manuel de Lima" في قلعة هرمز ، ويشرح الأوضاع في هرمز : [١٢]

لقد وضع وخلع "مانويل دي ليما" وكلاء كثيرين من وكالات جلالته التجارية ، وهذا أمر كثيراً بالخزانة الملكيّة ، وتفاصيل أخرى تتعلق بحكومة "مانويل" .

كتبت في الثاني من شهر يناير عام ١٥٥٠م .

مولاي ،

بعد ابتلاءات البحر ، وصلت إلى اليابسة حيث أتمتّع الآن بصحّة جيدة ، وصلت بعون الربّ إلى هرمز وقابلت هنا رجلاً كان والدي قد

---

(١٢) رقم الوثيقة والهامش.

أرسله إلى "البرتغال" طلباً من جلالتكم رخصة حبّذا لو وفّرتم عليه العناء فجلالتكم سبق أن منحنا ذلك الفضل .

علمت من رسائل من والدي أنّه يتمتّع بصحّة جيدة ، ويخدم جلالتكم على الرغم من خلافاته مع "دوم مانويل دي ليما" قبطان هرمز بسبب أفعاله الكثيرة السيّئة ، والتي لا تتّسق ومصالح جلالتكم ، لا أعرف من بين "القباطنة" السابقين من قام بهذا ، سمعت أنه يقوم بأفعال كثيرة في وكالات جلالتكم ، والتي خاطبتكم الحكومة بشأنها ، ما أعرفه أنّه في خلال شهرين عزل خمسة إلى ستّة وكلاء .

وأنّه قام بأعمال ضارّة للمداخيل العائدة إلى الملك في هرمز ، وأنّه كذلك قام باعتقالات كثيرة في أوساط المواطنين الرئيسيّين من تجّار وغيرهم في هرمز ، وسبّب خسائر وفق ما سوف يراه جلالتكم من رسالة من والدي ، والتي يتمّ إرسالها مع أحدهم لجلالتكم .

لابدّ أنّ جلالتكم قد سمع بواسطة سفن العام الماضي أنّ خواجا "قاسم" قد مات ، وأنّه على أثر موته قام الحاكم "غارثيا دي سا" "Garcia de Ca" بتعيّين صهره في وظيفة "شهبندر هرمز" ، وهو منصب لم يقم جلالتكم أبداً بتعيين أحد فيه ، فهو من اختصاص وصلاحية ملك هرمز ، وكان خدمه المسلمون يقيمون بالعمل هذا ، ويمكن لجلالتكم معرفة المزيد عن هذا من خلال النبلاء الذين كانوا "قباطنة" في هرمز في السابق .

هذا الأمر دفع إلى الحزن بالملك في هرمز ، وكذلك الأهالي ، والتجّار ، ولهذا السبب فإنّ أحد إخوة خواجا "قاسم" قد جاء من هرمز للذهاب لـ "البرتغال" ليرجو جلالتكم لمنحه أفضلية وهبة مركز "الشهبندر" هناك .

عندما رأيت ما كتبه ملك هرمز والدي إلى جلالتكم ، تحدّثت إلى الحاكم ، وطلبت منه إزاحة صهر "غارثيا دا سا" من المنصب ، ومنحه إلى شقيق خواجا "قاسم" والذي يدعى "بيري علي" .

بالنسبة للحاكم ، والذي أعتبر أنّه يعمل في خدمة جلالتكم ، فإنّ ما طلبه ملك هرمز بدا له معقولاً ، وعادلاً ، قام من ثمّة بتعيين هذا "البيري علي" شقيق خواجا "قاسم" والذي هو بصدد العودة معه إلى هرمز ليخدم في وظيفة "الشهبندر" .

إنّني سوف أقبّل أيادي جلالتكم

إذا ما منحتموني فضل التوجيه الذي تحدّدون فيه جلالتكم إنّها رغبتكم أن يكون "بيري علي" على ذلك المنصب (الشهبندر) وأنّه لا وظائف تقع تحت طائلة ملك هرمز يمكن للحاكم أن يتصرّف فيها أو يصدر أيّة أوامر متعلّقة بها ضدّ صلاحيّة ملك هرمز والذي يحقّ له دائماً فعل ذلك .

بالمثل فإنّني أتمنّى على جلالتكم منحي أحقيّة أمر آخر بالتعليمات بأن يخدم خواجا "شهاب" في وظيفة سمسار الخيول ، إنّه رجل شريف ، وخادم مخلص لملك هرمز ، وهو يقوم بالعمل في المنصب حالياً ، وذلك لأنّ الرجل الذي خدم فيه قد توفّي وقام الحاكم بمنح المنصب لأحد خدّامه .

لقد تحدّثت إليه ، وأخبرته بأن هذا المنصب من حقّ ملك هرمز فوافق ، وقام بإصدار الأمر ؛ لأنه إذا ما عمل على هذه الشاكلة ، فإنّه كلما مات أحدهم ، وتمّ تعيين برتغاليّ مكانه ، فإنّه من خلال عشر سنوات لن يكون في هرمز من وظيفة يقدمها ملك هرمز لخدمه ، وأعوانه .

لهذا السبب فإنّني أرحّب جدّاً بتعليمات جلالتكم ، تصدرون فيها أوامركم ، بأن لا يحقّ للحكّام التوظيف في مناصب ، أو مكاتب تخصّ ملك هرمز ، أو تعيين أيّ شخص إلاّ الذين يوافق عليهم ملك هرمز ، وبهذا النحو يكون جلالتكم قد تمّت خدمته على الشكل الأمثل من طرف ملك هرمز و"اللوردات" الحكّام .

الأخبار من البصرة حاليّاً هي أنّ الأتراك هناك مثلما كانوا ، ولا أحد يذهب من هرمز إلى هناك ، وأن ملك "الجزائر" والذي هو جارهم علاقته سيّئة معهم ، ويقوم بقتل رجالهم يومياً ، ويجتهد في إلحاق كلّ ضرر بهم .

بعون الربّ ، وبمجرّد وصولي إلى هرمز ، فإنّني عاقد العزم على مصالحته مع ملك هرمز وأنّ ابني سوف يفعل الشيء نفسه ، سوف أحاول أن أكون صديقاً مخلصاً له ما أمكننا ذلك ، حتّى تتم خدمة جلالتكم بشكل أفضل من هنا .

الأخبار من فارس و"شاه طهماسب" ، إنّه قد وسّع سلطانه لما بعد "تبريز" وحتى الأراضي التركيّة ، وقيل إنّه وصل إلى حدود حلب ، المخاطرة لا يمكن أن تترك الأمور على هذا النحو خوفاً من أن يظلّ "شاه طهماسب" محتلاً لتلك البلاد ، لقد أرسل الحاكم سفيره ، وكان هذا إجراءً صحيحاً .

ليساعدنا الربّ أن تكون النتائج هي زيادة أراضي جلالتكم .

لقد قابلت الحاكم هنا في مدينة "كوتشين" ، وهو عليم بما قدّمتم جلالتكم لي من أفضال ، وتشريفات في "البرتغال" ، وكان سعيداً لأن يساعدني بكلّ السبل ، ويسهّل سفري إلى هرمز في شهر يناير تقريباً .

لقد توسّلت إلى جلالتكم في العام المنصرم لمنحي حقّ شراء عشرة خيول بدون رسوم ، وهو فضل يشابه ما قدّمتم لأبي بمنحكم له التصريح ، وكما هو من طرف والدي ، أرجو أن تقوم جلالتك بمنحي تعليمات أقبّل أياديك من أجلها ، بأنّها رغبة جلالتكم منحي هذا الفضل لعشرة خيول بنفس الأسلوب الذي تمّت عليه الرخصة مع أبي .

إنّ نسخة الأمر بهذا الفضل قد منحت لوالدي وسجّلت في بيت الهند ، والفضل هو أن تعفى من الرسوم في "غوا" والتي منحت إعفاءً أكبر ، وهو أنّه بالإمكان إرسالها مجّاناً بدون دفع ، لا أتوقّع الكثير في هذا الخصوص غير أنّي أقول لجلالتكم أنّ الزمن سوف يكون شاهدي على مدى خدمتي لجلالتكم .

تأكّد جلالتكم أن ترسلوا لي خلال هذا الوقت المنحة الكبيرة التي طلبتها لأجل والدي ، وسنّه الكبير ، وصحّته المعتلة ، وبهذه الطريقة الضروريّة يمكن المساعدة له في خدمته لجلالتكم .

لنأمل من الربّ أن يمنحكم طول العمر ، ودوام الملكيّة لعديد السنين المقبلة .

كتبت في "كوتشين" في الثاني من شهر يناير عام ١٥٥٠م .

ريّس نور الدين

معنونة إلى : مولانا الملك

من : ريس نور الدين / وساطة ثانية

إلى الملك "جواو الثالث"

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

بعث الأب "نيكولاو لانسيلوتو" "Nicolao Lanceloto" رسالة إلى الأب "إغناسيو دي لويولا" "Inacio de Loyola" ، "كويلون" "Quilon" ، في السابع والعشرين من شهر يناير عام ١٥٥٠م ، وبها يخبر عن نشاط التبشير : (١٣)

(بهذا الشعار سوف تنتصر)

ندعو الربّ المسيح أن يجعلنا من زمرة محبّيه

أن يكون لنا معيناً ونصيرا ، آمين

تبدو أوضاع هذا البلد كثيرة ومتباينة ، يصعب عليّ أن أتوقّف عن الكتابة عنها ، وعليه فسوف أتناول فقط تلك التي تسهم في تبجيل ، وتوقير ربّنا المسيح ، الذي أنعم ، وما يزال ينعم علينا كلّ يوم بالكثير من نعمه ، وأفضاله ، ويفتح لنا أبواباً جديدة ، ومتباينة لخدمته :

---

(١٣) رقم الوثيقة والهامش.

كما سبق أن أخبرت سيادتكم ، فإنّ هذه البلاد بلاد شاسعة جداً يصعب وصفها ، وعلى طول حدودها ، حيث يتم التحدّث باللغة البرتغاليّة ، يوجد الكثيرون جداً من المسيحيّين ، ويتوقّع الكثير من الإهمال بسبب القصور في العمّال .

أما في هرمز ، تلك المدينة التي تقع في مضائق فارس أرض الصفوي الكبير ، يوجد أحد كهنتنا ، وهو رجل تقيّ ورع وعالم متوهّج ذو طبع جميل ، وكثيراً ما يروي القادمون من هناك مدى التقدّم الذي أحدثه هذا الرجل في حياة البرتغاليّين ، والسكّان المحليين ، وقد حقّق نجاحات عظيمة حتّى أصبح الناس يقولون عنه إنّه النبيّ المقدّس ، وهذا ما جعلنا نعرفه به .

هذا الكاهن ذو شخصيّة دينيّة تتّسم بالورع والإيمان ، ويتمتّع بنشاط جمّ في مجال التبشير ، ويقال إنّه دائماً يجري مداولات ، ومناقشات مع المسلمين ، واليهود .

تقع بلاد فارس بالقرب من البلاد العربيّة ، وهي بلاد فاحشة الثراء ، وفيها يتمّ التخاطب بعدّة لغات ، ولو كان لنا مائة من الأعضاء من جمعيتنا هناك فلن يكون ذلك كافياً لتلك البلاد .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

بعث حاكم الهند "جورج كابرال" "George Cabral" رسالة إلى "د . جواو الثالث" "D . Joao III" ، "كوتشين" "Cochin" ، في الحادي والعشرين من شهر فبراير عام ١٥٥٠م ، يخبر عن غزو عدن : (١٤)

مقتطف من خطاب طويل :

حسبما ورد في التقارير ، وما أُخبرت به ، فقد غادر "غونسالو فاز دي تافورا" "Goncalo Vas de Tavora" مدينة "غوا" بحماس عظيم ، مستقلّاً أربعاً من السفن لأجل غزو عدن .

إذا ما صحّت هذه الأخبار ، عندما أرسلت "جيل فيرناندس دى كارفالهو" في مارس إلى هرمز فسوف أرسله في بعض السفن إلى سوقطة للتأكّد من حقيقة ، وصحّة تلك الأخبار ، وإذا ما تبيّنت له صحّتها ، فسيترتّب عليه الإبحار إلى عدن .

---

(١٤) رقم الوثيقة والهامش.

عندما أتيقّن من كلّ ذلك فسوف اتّخذ الإجراء الذي يتوافق مع مصلحتكم ، حرصاً ألاّ تضيع مثل هذه الفرص العظيمة بسبب أيّ تغافل ، أو إهمال كما حدث في السنوات الماضيّة .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

بعث حاكم الهند "جورج كابرال" "George Cabral" رسالة إلـى الأب "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" ، "غوا" "Goa" ، في الرابع والعشرين من شهر مارس عام ١٥٥٠م ، يخبره بأنه يطالب ملك هرمز الدخول في الدين المسيحي : (١٥)

سعادة الأب الموقر ،

لقد استلمت اثنتين من رسائلك ، وقرأتهما بكثير من التروّي والإمعان ، وكأنّهما وصلتا إليّ من القدّيس "بول" .

حقيقة كانت سعادتي غامرة عندما علمت من خلالهما أنّنا نحرز تقدّماً ملموساً في نشاط التبشير ، وهداية الكثيرين إلى دين الربّ في هذه المنطقة ، وبالمثل ما تقوم به من تجهيزات ، وترتيبات من أجل بناء مجمع للآباء الكهنة في هذه المدينة ، ولعمري فعملك هذا عمل عظيم أحسدك عليه .

(١٥) رقم الوثيقة والهامش.

أرسل لك المراجع التي طلبتها منّي ، وذلك حتّى يتمكّن الأشخاص الذين ينضمّون إلى رابطتك من استلام معاشاتهم .

أرسل أيضاً لك المزيد كي يتمكّن الوكيل من توفير اعتماد بواقع خمسمائة "بارداو" باسم مولانا جلالة الملك كمساعدة في هذا العمل ، وآمرك حبّاً في الربّ أن تتوقّف عن المناشدة بخصوص هذه الأنشطة الخيريّة ، لأنّني آمل أن ألقى الثواب من عند الربّ من خلال هذه الأعمال .

بالنسبة إلى موضوع وصول "ريّس ركن الدين" فإنّني سوف أعمل بنصيحتك ، إذ لا شيء أفضل من ذلك ، وإنّما أسعى فقط لأبلغك أنّني قد أخاطب ملك هرمز طالباً منه الدخول في الدين المسيحيّ ، وموضّحاً له ألا يخشى ، ويتهيّب هذا الأمر ، وألاّ يضع في اعتباره أنّه إذا ما دخل في الدين المسيحيّ فسوف يفقد مملكته .

إنّني أرفق رسالتي إليك كي تسلّمها له ، وأتمنّى أن يكون في مسعاك الكريم هذا وجهدك الخيّر ما يشجّعه على الدخول في الدين المسيحيّ .

أناشدك أيّها الأب أن تحرص على إبلاغي بكلّ أخبارك ، وأخبار عملك ، وأن تبلغني بكلّ شيء ترى أنّه ضروريّ لي كي أزوّدك به من هنا ، هذا وسوف أكون سعيداً جدّاً إذا ما طلبت منّي أن أرسل لك ما تريد ، وكلّ ما تراه ضروريّاً وهامّاً .

أرجو أن تحرص على أن تذكرني في صلواتك ، وصالح دعائك .

من "غوا" ، في الرابع والعشرين من شهر مارس عام ١٥٥٠م .

من حوار لي حضرتكم

"جورج كابرال" ، حاكم الهند .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

بعث حاكم الهند "جورج كابرال" "George Cabral" رسالة إلـى ملك هرمز ، "غوا" "Goa" ، في الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٥٥٠م ، ويطلب منه اعتناقه للمسيحية : (١٦)

سيدي ،

بصفتي الخادم المخلص لجلالتكم ، فإنّني لا أرغب في شيء سوى أن أرى نموّ وازدهار مقدّراتكم ، وممتلكاتكم ، ونجاة نفسكم ، وخلاصها من الخطايا .

بما أنّ هذا يعني الإيمان بسيّدنا المسيح "عيسى" -عليه السلام- فإنّني أدعو لك بمحبّته كأب يمتلئ قلبه بحبّك ، ويحبّ أن يخلّصك من الضلال الذي أوردك موارد الإثم لكي تقبل بخلاصه الحقيقيّ .

سوف أكون أكثر امتناناً بفضلك في هذا الأمر إذا ما تكرّمت

(١٦) رقم الوثيقة والهامش.

بإسداء معروف لي باستشارة الكاهن الأعظم "غاسبار" ، وهو شخص فاضل نبيل يعيش حياة طاهرة ملؤها الورع ، وسوف يتحدّث إليك بكلّ الصدق .

إذا ما كانت لدى سموّكم أيّة شكوك بسبب ما تراه من أنّ اعتناقك الدين المسيحيّ لن يزيد من ممتلكاتك ، فإنّني أعدك باسم صاحب الجلالة الملك أن عائداتك ، ونفوذك سيصبحان أكثر قوّة .

بالمثل أؤكّد لك أنّك سوف تكسب أكثر فأكثر من خلال تعاونك مع الربّ ملك الملوك ، وسيّد الأسياد ، وسوف يمنحك المراتب العليا في هذا العالم ، وأعظم الدرجات في العالم الآخر .

في ظلّ علمي بحسن تدبير سموّكم ، وتميّزكم ، فإنّني أؤكّد لكم في هذا الأمر أنّكم سوف تتصرّفون حسبما أطلبه منكم .

أسأل الربّ -جلّ وعلا- أن يوفّقكم فيما يحبّ ويرضى ، وأسأله تعالى أن يطيل في عمر سموّكم ، وأتمنّى لمملكتكم المزيد من السموّ ، والرفعة .

من "غوا" ، بتاريخ الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٥٥٠م .

"جورج كابرال"

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

بعث "هنريك دي ماسيدو" "Henrique de Macedo" رسالة إلـى الأب العالم "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" ، "تبريز" ، في الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ١٥٥٠م ، ويذكر فيها تنصير زوجته المسلمة ، وتدخل الشاه طهماسب واحتجاز "هنريك" ومن معه رهينة حتى وصول زوجة "زيدي" : (١٧)

إلى الأب الموقّر ،

بعد مغادرتي مدينة هرمز متّجها لهذه البلاد "شيراز" ، كتبت كي أبلّغ شخصكم الموقّر ما حدث لي حتّى تلك اللحظة ، وقد أمرني "إبراهيم خان" حاكم "شيراز" والقائد الأعلى للقوات الفارسية أن أكتب لحضرتكم هذه الرسالة ، وأيضاً رسالة أخرى إلى "الكابتن" بخصوص زوجة "زيدي" من "شول" "Chaul" والتي اعتنقت الديانة المسيحيّة هناك .

---

(١٧) رقم الوثيقة والهامش.

إنّني حتّى الآن لا أدري ما حدث ، وأنا أنتظر في هذا البلاط وصول الردّ فيما يتعلّق بالمهمّة التي أتيت من أجلها ، وقد وصل "زيدي" زوج المرأة المذكورة كي يقدم شكوى لـ "الشاه طهماسب" مفادها أن البرتغاليّين قد استولوا منه على مبلغ أربعة ، أو خمسة آلاف "بارداو" في "شول" .

وأنّهم قبضوا على زوجته لأجل تنصيرها ، وهذا ما حدث بالفعل ، وأنّهم قد عملوا على مضاجعتها أمام ناظريه في منزل تباع فيه الخمر ، وأخبره البرتغاليّون أنّهم يفعلون ذلك بسبب انتمائها لأمّة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، ولقد طرح هذه الشكوى بكاملها هنا .

على الفور ظهر الغضب على وجه "طهماسب" ، فأصدر أمره بإرسال رجال مجلسه لكي يبلغوني أن أكتب فوراً لـ هرمز ، والهند ، كي تُعاد له زوجته ، وتمّ منعي ومن معي من العودة إلى حين وصول المرأة .

قد أوعز إلى "إبراهيم خان" ، وملك "لار" ، وزعيم "كرمان" ، أنّه في حال عدم عودة زوجته أن يقوموا جميعاً بشنّ هجوم بهدف الاستيلاء على إقليم هرمز ، وأن يحاصروا مدينة هرمز نفسها .

هذا ما أمر "الشاه طهماسب" بتنفيذه ، وبما أنّ هذا الموضوع له صلته بديانتنا المقدّسة ، فإنّني حقيقة لا أدري ما أقوله لجناب حضرتكم ، أو حتى ما أطلب منكم تنفيذه .

ليساعدنا الربّ ، إنّني أكثر قلقاً على الناس الموجودين معي هنا ، وليس بوسعي فعل شيء يضمن حرّيّتهم ، وكما يعلم حضرتكم أنّني

قد تعوّدت على مثل هذه المجازفات ، لكن تظلّ ثقتي كبيرة في رحمة الربّ تعالى ، وسوف يفعل ما فيه الخير .[أ]

سكّان هذه البلاد يعتدّون كثيراً بأنفسهم ، فهم يقدّسون الملك كالإله ، وعندما كتب "إبراهيم خان" مخاطباً "الشاه" أخبره إنه صائن السماء والأرض ، وهكذا فعل جميع نبلائه ، ولحضرتكم أن تتصوّر أيّ رشد ، وأيّة عقول يفكّر بها أولئك الناس .

يوجد معي هنا حوالي تسعة عشر مسيحيّاً من البرتغاليّين ، والعبيد ، ولا أدري ما يمكنني أن أقدّمه لهم ؛ لأنّني بالفعل أنفقت كلّ ما معي في الهدايا ، والرشاوى ، وإلاّ لأصبح من المستحيل أن أعيش بينهم ، لأنّ هؤلاء الناس بخلاء ممسكون ، وإذا ما أردت أن أسيّر أموري فلابد من إجزال العطاء لهم ، لقد خذلني الحظّ ، وتخلّى عنّي لكن ما في وسعي فعله فقد فعلته .

تلك المشاكل التي جرتها عليّ ذنوبي ، جعلتني أقلّ قلقاً بشأن مخاطبتكم لأخبر حضرتكم بتفاصيل تفاهات هذا البلد ، فالسيّد "أنطونيو منديس دي أوليفيرا" في طريقه إليكم ، وسوف يطلع حضرتكم عن كلّ شيء ، وهو شخص ذكيّ ، حذر ، سريع الملاحظة ، وقد شهد كلّ ما حدث لي ، ويمكن أن يسأله حضرتكم عن كلّ أمر ، إذ إنّني أثق فيه كثيرا .

إنّني لا أقول أكثر من هذا باستثناء دعائي الذي أرفعه للربّ أن

(أ) كان "هنريك دي ماسيدو" قد رأس الوفد البرتغاليّ الذي أرسل إلى "فارس" .

يحفظك ، ويطيل في عمرك ، وأن يقرّبني منه ، ويخلّصني من الخطايا ، والآثام ، ويقبل صلواتي ، وصلواتك .

من جبال "تبريز" ، في الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ١٥٥٠م .

آمل أن تحتفظ لنفسك بالأخبار التي بيّنتها لحضرتكم في هذه الرسالة ، لأنّ مدينة هرمز تضيق بالكثيرين من المسلمين الذين يتحدّثون اللغة البرتغاليّة ، وإذا ما علموا بما كتبته لك سيرسلون رسالة إلى هنا تفيد بأنّني قد كتبت لك شكاوى عدّة ، وسوف يجرّ عليّ ذلك ضرراً بليغاً .

لقد أمرني "شاه طهماسب" أن أكتب كما أمر بذلك المجلس كي أقول إنّه يجب أن ترسل المرأة ، ولا أحبّ أن أتصرّف على نحو يتسبّب في إفساد ، وضياع علاقة الصداقة التي دامت عدّة سنوات ، ولابدّ من أنّ حضرتكم على علم تامّ بحقيقة ما يجري .

إنّني أكتب لسعادة اللورد الحاكم ، وأكتب أيضاً لقائد القلعة ، والمسؤول الأوّل في الخزينة ، إن الحاكم طالما أرسلني إلى هنا فبوسعي أن أعيل نفسي ومن معي من البرتغاليّين هنا ، وأستحلفك بالله أن تذكر هذا الأمر هناك ، وأن تكتب للحاكم .

على كلّ حال فإنّ أكثر الأضرار التي لحقت بي هي الصعوبات التي وضعت في طريقي حتّى لا أتمكّن من الرحيل ، إنّهم لم يأخذوا منّي شيئا ، لم يسجنوني ، لكنّهم لم يبقوا على شيء سيّئ إلاّ وقد أصابوني به ، وأعتقد أنّ كلّ شيء سيصبح على ما يرام إذا ما منع الناس من الحضور إلى هنا حتى يحين موعد رحيلي ، لكن لن يحدث

هذا ما لم يتمّ إرسال المرأة ، إنّني لن أستطيع قول شيءٍ عن هذا الأمر لأنّني لاهوتيّ سيّئ ، وما سيحدث لي سيكون معلوماً في الحين .

الثالث والعشرون من شهر أغسطس عام ١٥٥٠م .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

وردت نسخة من رسالة الأب "غاسبار" "Gaspar Barzio" التي كتبها بتاريخ الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٥٥٠م ، ردّاً على رسالة "هنريك دي ماسيدو" "Henrique de Macedo" ، الذي غادر للعمل سفيراً في بلاط "الشاه طهماسب" ، ويذكر فيها موقف شاه طهماسب ، وأن شكوى "زيدي" باطلة : (١٨)

لتغشاك رحمة الربّ المسيح ، وسلامه على الدوام ، آمين ، ولتكن شجاعاً (أ) .

لقد تلقّيت اثنتين من رسائل سعادتك ، كتبت واحدة في "شيراز" والثانية في "تبريز" (ب) ، إنّه من المدهش حقّاً أن يتمكّن المرء من خلال

(أ) انظر ١- الملوك ١٨ ، ١٧ و ٢- الملوك ١٠ ، ١٢ - فلتكن رجلاً شجاعاً .

(ب) رسالة ارسلت من تبريز/ انظر اعلاه الوثيقة ٢١ ، وقد ضاعت البقية/ انظر الوثيقة ١٣ أ .

(١٨) رقم الوثيقة والهامش.

المراسلات أن يصف ما لا يمكّن للقلب أن يخفيه من الشعور فيما يتعلّق بالسرور الذي غمر نفسي عندما علمت بنجاحك في الأمر الذي ذهبت للتفاوض بشأنه(أ) .

في الحقيقة ، إنّ نجاحك في كلّ الأمور بالرغم من أنّ كلّ شيء كان يشير للعكس(ب) ، حسبما توقّع الحكّام ، لم يكن بالأمر الغريب لي ، كما أنّه أيضاً لن يكون أقلّ غرابة لو أنّه حدث كما كان متخيّلاً هنا ، لأنّني أؤمن أن الفرصة والحظّ يمكن أن يكونا في جميع الأشياء .

لم يمض الكثير من الوقت حتّى تمّ تشغيل تلك الماكينة فظلّت تعمل بشكل متواصل ، ولم تتوقّف قطّ ، لكن يظلّ البقاء والخلود(ت) للربّ وحده ، وهو القادر على جعل أسباب القصور تتمخّض عن نتائج ضروريّة ، وهو مدبّر كلّ شيء(ث) ، والمسيّر لأمورنا كلّها ، وعليه نعقد الآمال في تثبيت إيماننا العميق .

وأن يمنحنا السلام والأمن لنشر المسيحيّة ، وهو القاهر فوق عباده ، والذي لا تقوم الممالك إلاّ بأمره ، ولا تقوّض إلاّ بمشيئته ، وقد قلّل من شأنها حتّى أضحت بحجم ربع حجم الملكيّة بسبب غطرسة الرجال ، كما يفعل الآن ، وفق ما أخبرتني به في رسالتك(ج) .

(أ) انظر الوثيقة رقم : (٢٦) ، ٢٢ .

(ب) انظر الوثيقة رقم (٢١) ، ٢ .

(ت) انظر اسايا ٥٧ ، ١٥ .

(ث) انظر الحكمة ٨ ، ١ .

(ج) لم نقرأ شيئاً قطّ عن هذا الأمر في هذه الرسالة (الوثيقة ٢١) لقد تمّ حذفها في ذلك المكان أو ربما يمكن أن تقرأ في رسالة فقدت . (انظر الوثيقة ١٣ أ) .

لقد أخبرت أنّ حكومة ملكيّة الفرس[أ] قد غُيّرت ، ولكن غداً لن يبق منها شيء طالما عمل "الشاه" على تحويل الطبيعة البشريّة إلى إلهيّة[ب] ، وهذا في استحالته سوف يعود بلا وجود ، لأنّنا ما خلقنا إلاّ للعمل ، ولعبادة الربّ تعالى ، ومن دونه ماذا سنكون أكثر ممّا كنّا من قبل .

يجب على سيادتك أن تتشجّع كي تكسب حبّ القويّ الجبّار على كلّ العباد ، لأنّك بدون مشيئته يستحيل عليك أن تحرّك قشّة واحدة في هذا العالم ، وكما يقول "إسحق"[ت] : "حيناً يؤتى ملكه من يشاء ، وحيناً ينزعه عمّن يشاء ، فكلّ شيء عنده بقدر ، وكلّ شيء مسجّل عنده" ، ماذا تبقي كي يقال؟ ماذا يمكن أن يحدث؟ وإذا كان الربّ معك فمن يمكنه أن يقف ضدّك؟ إنّك باق في هذه الحياة بفضل الربّ وبإرادته ، وليس بفضل "الشاه" ، فأنت في كنف الربّ في يد أمينة .

لا تغفل عن تمجيد المسيح ، ولتطلب منه شيئاً واحداً مع "داؤود" حين يقول : "لقد طلبت أمراً واحداً من الربّ ، وهو أن أقيم في بيت الربّ طيلة حياتي"[ث] لأنّه هو المكان الذي يحميني من مصائب الحياة في هذه الدنيا ، كما يقول بنفسه في الأمثال ، من يصبح في حمى ربّ

(أ) فيما يتعلّق بالشؤون الفارسية في هذه السنوات- انظر أحسن التواريخ- حسن روملو ٢ (بارودا ١٩٣٤) ١٥٦- ٦٠ .

(ب) انظر الوثيقة رقم : (٢١) ، ٢ .

(ت) ربما كان يشير إلى إسحاق ٤٧ ، ١١ سوف تصيبك الكارثة .

(ث) انظر الأمثال ٢٦ ، ٤ .

العزّة جلّ جلاله(أ) ، إذ يمكن أن ينضمّ إليك آلاف ، وعشرة آلاف في يمينك لكن لن يقترب منك(ب) ولن يصيبك مكروه ، ولن تقترب من خيمتك(ت) أيّة كارثة ، تلك هي كنيستنا الفاضلة التي يقيم فيها الربّ ، ونقيم معه بفضله ولطفه .

آمل أن يقبل الربّ دعائي أن أصبح رفيقاً لك في العمل في سبيل المسيح ، وأن يتلطّف "الشاه" ، ويتّخذ الوسيلة التي طرحتها للقائد ، وهي أن يأخذني شخصياً مع بقيّة الجماعة ، كما فعل سعادتك هناك ، كي أفديك وأفدي أسرتك(ث) ، حينها سوف أشعر براحة وسعادة دينيّة ، بالرغم ممّا يمكن أن يحدث للجسد من مصاعب كي أبقى بالقرب من المسيح الذي طالما رغبت في المعاناة من أجله .

بناء عليه ، يجب أن تتمسّك بقوّة بالمسيح ، وإذا ما كان الربّ معنا(ج) فمن نخشى(ح) ؟ فهو القادر على حمايتنا ، ولا يوجد من يقاومه ، وهو العالم باحتياجاتنا ، وعلى سبيل المثال فهو يبسط يديه كي يحتوي شجرة الحقّ كي يرى بنفسه كم نحن ضعفاء ، وبقول من ذكرني أمام الناس سوف أذكره أمام أبي الذي في السماء(خ) .

(أ) الأمثال ٩٠ ، ١ .

(ب) انظر الأمثال ٩٠ ، ٧ .

(ت) انظر الأمثال ٩٠ ، ١٠ .

(ث) انظر الوثيقة رقم : (٢١) ، ٤ .

(ج) انظر الأمثال ٤٢ ، ٢ .

(ح) انظر الأمثال ٢٦ ، ١ .

(خ) انظر أحد اسفار متى ١٠ ، ٣٢ .

لن أعمل على ذكر أكثر من هذا في الوقت الراهن فخير الكلام ما قلّ ودلّ ، وبالرغم من ذلك فإنّني مازلت متأثّراً بعمل سيادتك في ظلّ احترامي الكبير الذي أكنّه لسيادتك .

(٢) وهنا سوف أستمرّ في مراعاة مصالحك مع المسيح في إطار تنظيم العديد من المسيرات ، والخطب ، والابتهالات ، والجلد ، والصوم ، [مع الدعاء والدموع] إذ إنّها بواسطة الرجال ، والحكّام لا يمكن تسييرها بشكل جيّد .

التماس "زيدي"[(أ)] غير قانونيّ ، وشكواه باطلة ، وبالمثل استئناف "طهماسب" غير مبرّر[(ب)] وما طلب يبدو مستحيلاً[(ت)] ؛ لأنّ الزوجة مسيحيّة ، من غير الربّ يمكنه أن يحكم في هذا طالما الرجال لا يريدون أن يفهموا؟ وإذا ما كانت إرادة الربّ أن تكون إهانات المسيحيّة على هذا النحو ، فإنّنا لن نعاني العديد من الإهانات من قبل الذين لا دين لهم طالما أنّهم لا يقبلون بالدين الحقّ ، وسوف يأتي الوقت الذي يعترف الرجال أنّهم ليسوا سوى رجال[(ث)] ، وحينها سوف يكون هناك راع واحد ، وقطيع[(ج)] واحد ، الربّ المسيح .

لقد فعلت ما بوسعي في هذا الأمر ، حيث نصحت القائد بما أراه

(أ) ربما يكون هذا خطأ من المؤلف - لزيد أو زيدي- كما اشار له البرتغاليون/ (انظر الوثيقة ٢١-١).

(ب) انظر الوثيقة ٢١ ، ١ .

(ت) حاول اعادة تلك السيدة التى تم تنصيرها إلى زوجها المسلم/ أنظر الوثيقة رقم : (٢١) ، ١ .

(ث) انظر الزبور ٩ ، ٢١ .

(ج) انظر يوحنا ١٠ ، ١٦ نص الكتاب المقدس و أولسيب- ، كتب اونيل : حظيرة الشياه .

ضروريّاً لسيادتكم ، وسوف يكتبون لك بشكل مطوّل بما تمّ التقرير فيه ، وسوف تسمع بالكثير وبشكل تفصيلي من خلال "أنطونيو منديز دي اوليفيرا" "Antonio Mendes de Oliveira" ، إنّه في طريقه إلى هناك(أ) .

(٣) لا شيء يمكن عمله في الوقت الراهن ، لأنّ المشرف على الخزينة قد سلب هذه البلاد أموالها ، وأدعو الربّ المسيح أن نلتقي قريباً في هذه المدينة (مدينة هرمز) كي أتحدّث معك طويلاً عن الجهود الجبّارة التي أعرف أنّها قد حدثت في هذا الطريق الوعر ، وسوف أقدّم لك تقريراً مطوّلاً عن الأعمال العظيمة التي أنجزها مولانا جلالة الملك في سبيل خلاص الكثيرين .

سوف أخبرك أيضاً بخصوص إغلاق مسجد(ب) المسلمين بحيث لم يعد هناك رفع للآذان ، وذلك إلى حين نتلقّى رسالة من الملك(ت) .

ليس من الجزيرة(ث) لأنّها جزيرتنا ، وذلك بسبب الإهانات الكثيرة التي ارتكبوها بحقّ المسيحيّين الجدد ، الذين تمّ تنصيرهم ، واكتشاف العديد من أعمال الكيد والخيانة قام بها قادة هذه البلاد ، لتسليم

(أ) لقد جاء بنفسه بخطاب من "هنريك دى ماسيدو" إلى الأب "بارزيو" . انظر الوثيقة رقم : (٢١) ، ٣ .

(ب) هذه هي المئذنة التى تبنى فوق المساجد عند المسلمين ، والتى يرفع فيها الآذان ، كي يجتمع الناس للصلاة في المساجد .

(ت) كتب والي هرمز إلى "جون الثالث" فيما يختص بهذا الموضوع ، وما زال ينتظر وصول الردّ . انظر الوثيقة رقم : (٣٠) ، ١ .

(ث) تلك هي الجزيرة التي توجد فيها هرمز .

البلاد إلى الأتراك[أ] ، الأمر الذي سوف يفرح "الشاه" بحكم أنّهم ينتمون إلى طائفة السنّيّين[ب] .

فهم حتى الآن يساندون المسلمين ، وعندما تبيّن لهم أنّ أمرهم قد كشف منذ وفاة عليّ[ت] عادوا إلى طائفة "الشاه" الشيعيّة ، وإذا ما كان قد قيل في "البرتغال" أنّ أخطاء ارتكبت هنا ضد الزيديّين[ث] وبالمثل ضدّ المساجد[ج] فإنّ من شيمنا إلاّ نفعل ذلك كما أنّ ديننا لا يجيز

(أ) في تلك السنة كان الأتراك في البصرة ، أي : في الجزء الأدنى من بلاد ما بين النهرين ، وقد استولوا على "القطيف" ، وهي مدينة في الخليج الفارسي ، وانتزعوها من قبضة البرتغاليّين ، ثمّ حاولوا احتلال جزيرة البحرين (التى تقع في نفس المنطقة) ، بمساعدة من بعض السكّان الخونة المارقين ، حسبما وصفه "ألفارو دى نورونها" للمدعوّ "جواو الثالث" في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر من عام ١٥٥٠م .
وفي تلك اللحظة كان الأتراك قد استولوا بالفعل على "القطيف" ، ونظراً للمحاولة البائسة والجهود الخائبة التى بذلها "القاضي" الحاكم في سبيل حماية السكّان ، فقد عمل للبعض منهم على الافتراء عليه ، والتشهير به ، حيث إنه اتّفق مع الأتراك للقدوم إلى هناك ، وكان سعيداً بتسليم المدينة لهم . وإننى أكثر ما أخشى أن يكون مصير البصرة هذا المصير نفسه . ثانياً : هناك بعض السجلاّت الجديدة في هذه المدينة ، تضمّ بعض مراسلاته مع أتراك البصرة ، وذلك بخصوص استلامه هدايا منهم والأخذ والردّ معهم .
وهكذا ، وبكل البساطة أشار "ثوماس سيراو" في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م في هرمز في رسالة له إلى "جواو الثالث" أن مجموعات المسلمين في مناطق "ريشيل" و"البحرين" و"القطيف" قد تمّ حرمانهم بواسطة حكّام المنطقة "كاسترو" و"كابرال" من نقل التجارة وتبادلها مع سكان مدينة البصرة/ انظر شورهامير ، ٤٥٣٩/ انظر أيضاً كوتو ، الحقبة السادسة ، ملف (٩) فصل (٤) .

(ب) هناك مجموعات من الأتراك ، والعديد من الفئات المسلمة التي تنتمى إلى الطائفة السنّيّة المستقيمة .

(ت) يناصر الفرس طائفة المنشقّة الشيعة أو ما يعرفون بأنصار الإمام عليّ - كرم الله وجه- زوج فاطمة بنت النبيّ (صلى الله عليه وسلم) .

(ث) انظر الوثيقة رقم : (٢١) ، ١ حيث كتب "بارزيو" الكثير عن زوجة الفارسي .

(ج) لا شيء كتب عن أؤلئك الملوك في رسالة "بارزيو" التي بعث بها إلى "ماسيدو"/ الوثيقة رقم (٢١). ولكن ربما كان قد أشار إلى ما سمعه المبعوث "منديس اوليفيرا"/ انظر الوثيقة رقم : (٢١) ، ٣ .

لنا فعل ذلك الشيء ، بل نحن نظهر الحبّ بقدر الإمكان كما يعلم سموّكم بذلك .

عموماً ، ما حدث هنا شيء مقدّر من الربّ ، وذلك حتّى يصار إلى تمجيد المسيح .

ندعو الربّ أن يجمع شملنا بمن فارقنا في عليائه ، آمين .

من هذا المجمع ، مجمع الأخيار اليسوعيّين في هرمز ، بتاريخ الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٥٥٠م .

٤- إنّني لم أستغرب على الإطلاق أن يكشف سيادتك خطأ الكتّاب القدامى فيما رووه عن بلاد فارس ، لأنّ الأشياء عند رؤيتها من البعد تبدو أفضل من رؤيتها قريب ، ففي هذه البلاد أمّنوا مصادر معيشتهم ، ونالوا الشرف بتجميل الأشياء ، وكانوا أكثر عقلانية في فهمهم للأمور .

إنّني أدرك تماماً أنّ مدينة "تبريز" سوف تبدو لسموّكم مختلفة تماماً كما بدت في نظر "الإسكندر" عندما فقد فيها نفسه بسبب غيّ الشباب ، عندما أمر بحرق المدينة بكاملها حسب ما ورد في كتابات "كوينتو كورتيو" "Quintos Curts"(أ) ، وهكذا فكلّ شيء يتغيّر عندما يصل إلى نهايته .

(أ) لم يكتمل العمل في معظم أجزاء المجمع .

"كوينتس كريتيس" De rebus gestis Alexandri .

فيما يتعلق بإنجازات "الإسكندر" . الكتاب ٥ ، الفصل ٢٢ ، حيث يروى قصة إضرام النار في القصر الفارسي .

الفتاة الصغيرة العذراء تكون أفضل حالاً عمّا هي عليه بعدما يتمّ إغواؤها ، والرجل الشابّ أفضل من العجوز ، ولك أن تأخذ من هذا المثال أحوال هذا العالم ، لأنّ تلك هي طبيعة الأشياء ، وحتّى لا تنخدع فالمظهر جميل ، لكنّها في مجملها زائفة ، والدائم هو الربّ وحده .

من خادم سموّكم غير الجدير بكم ،

الأب "غاسبار" .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

بعث المستشار "توماس سيراو" "Thomas Sirao"[أ] رسالة إلـى "دوم جواو الثالث" "D . Joao III" ، ملك "إسبانيا" ، يشرح ادعاء زيد الفارسي المسلم ، من هرمز في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م : [١٩]

(أ) في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م لاحظ "الدوم ألفارو دي نورونها" حاكم هرمز في مذكّرة للملك "جواو الثالث" حول الرجل ما يلي :

باعتباره من واجبي ، وأثناء خدمتي لسموّكم هنا في وظيفتي ، فإنّه واجبي أن أكتب لسموّكم عن أيّ شخص يخدمكم بشكل مناسب في هذه البلاد ، ولنا أفعل ذلك .

المستشـار "توماس سيراو" والذي هو قاضي سموّكم هنـا في الوقت الراهن يخدمكم بجدارة في ذلك المنصب . وإلى جانب ما يسديه من خدمات كبيرة لسموّكم بعمله وإدارته الكاملة للعدالة في الجانبـين ، وهـذا ليس بالأمر اليسير ، فإنّ سموّكم ينتفع كثيراً من خدمته لكم ، ممّا يحفّز على طلب منحه ، وتكريم ومكرمة له . انظر :

توري دي تومبو ، ١- ٨٥ ، ١٠٥ ، ص ٧ في .

لا يوجد بخلاف هذا أيّ شيء عن "سيراو" لا في الوثائق ولا في الكتب .

---

(١٩) رقم الوثيقة والهامش.

مولاي ،

١- أنا المستشار "توماس سيراو" ، قاضي مدينة هرمز (وظيفة تفضّل سموّكم بمنحي إيّاها كفضل عليّ .

في ضوء الأمور التي تحدث هنا ، فإنّني تحقيقاً لمهامي أكتب لكم عن بعضها :

أولى هذه الأمور عن كيف أنّه في العام المنصرم ، وفي شهر مارس جاء من "شول" إلى هذه المدينة المدعو "زيد مدني"/ مسلم(أ) من أبناء فارس ، بين المسلمين اعتبر الرجل سليل محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) لأنّه ، فيما يشاع ، فإنّ الزيدية هم من أقربائه (النبيّ صلى الله عليه وسلّم) (ب) .

كان يحضر امرأة من نفس الطائفة هربت منه من هنا ، وتنصّرت بمحض إرادتها ورغبتها(ت) ، وتزوجت من برتغاليّ أرمل يدعى "جورجي فييرا" والذي يغادر الآن للعيش في الهند .

هذا المسلم غادر هذه المدينة إلى بلاط "الشاه" في الوقت الذي كان فيه "هنريك دي ماسيدو" هناك ، وقد أرسله حاكم الهند إلى البلاط كسفير مبعوث لدى "الشاه" والذي قابله بحرارة وترحاب .

(أ) حوله انظر : الوثائق الهندية ، المجلد ١ ص ٦٢٥ ، ٦٧٧ ، ٦٩١ -٦٩٢ . والمرجع عاليه ، وثائق ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦.

(ب) زيد : هو ابن أخ للأمير حسين ، والذي هو ابن أخ للنبي (صلى الله عليه وسلم) - انظر : لامينز : الإسلام ، ص ١٧٠ . - المترجم العربي : هذا غير صحيح / زيد هو ربيب للمصطفى صلى الله عليه وسلم .

(ت) المرجع نفسه ، وثيقة ٢٦ ، ٢٢ .

بمجرد وصول ذلك المسلم احتجّ بشدّة لدى "الشاه" كيف أنّ البرتغاليّين قد أجبروا زوجته على أن تتحول إلى الديانة المسيحية في هرمز ، وخطفوها ، وسرقوها ، وفعلوا بها فواحش أخرى ضدّ رغبتها ، ممّا دفع به إلى غضب عظيم(أ) .

أعيان المملكة قالوا للسفير على سبيل النصح إنّ عليه أن يكتب فوراً إلى قبطان القيادة في هرمز لإرسال تلك المرأة ، وإلاّ فإنّ "الشاه" سوف لن يسمح له بالقدوم .

أبلغ "هنريك دي ماسيدو" كلّ هذا إلى "دوم الفارو دي نورونها" قائد هرمز بواسطة برتغاليّ يدعى "أنطونيو منديز دي اوليفيرا"(ب) والذي أتى من أجل ذلك الموضوع .

هكذا ، كتب "الشاه" له عبر أحد خدمه أنّه يتوجّب عليه إرسال المرأة مباشرة ، سواء أكانت مسيحية أم مسلمة ، وإذا لم تكن هناك فعليهم البحث عنها وجلبها ، وهو سوف لن يعلن الحرب مباشرة ؛ لأن السفير كان هناك ، وفي أثناء عدم يقينه أأرسلت المرأة أم لا؟

لقد أمر "ابرايمساو" "Abraimsao"(ت) ملك "شيراز" وملك "لار" وأقاليم أخرى مجاورة بشنّ الحرب على هرمز والاستيلاء على

(أ) المرجع السابق ، وثيقة ٢١/ ١.

(ب) المرجع السابق ، وثيقة ٢١/ ١ ، ٣.

(ت) "إبراهيم خان"/ المرجع السابق ، وثيقة رقم : (٢١) ، ١.

أراضيها(أ) وقطع المأكل والمشرب عنها(ب) في حال لم يرسل قبطانها تلك المرأة فوراً .

نفس هؤلاء الملوك لـ "شيراز" و"لار" أبلغوا بكلّ ذلك هذا القبطان في هرمز عبر سفرائهم ، كتبوا أن "الشاه" أمرهم بفعل هذا ، ولكنّهم (الملوك) يأسفون لذلك ؛ لأنّهم يريدون السلام والصداقة .

بعد استقبالهم جميعاً بما يليق مع الموافقة ، والنوايا السيئة ، قدّم القبطان إجابته بأن أرسل مجدداً لـ "الشاه"(ت) نفس المدعوّ "أنطونيو منديز" مع رسائل ومقترحات ، وعربون صداقة ، كاشفاً لـ "الشاه" عدم حقيقة ادّعاءات ذلك الرجل (زيد المدني) فيما قاله لـ "الشاه" ، وكيف ينبغي أن يمارس "قباطنة" سموّكم أيّ سلوك مع الأهالي أو المسلمين من مملكته ، وعليهم لهم واجب أن يعاملوا بقدر كبير من العطف .

المسلمون المحترمون من هذه المدينة سوف يكتبون له عن هذا ، وبروح تسامح عالية سوف ينقلون نفس الإجابة إلى ملوك "لار" و"شيراز" عبر السفراء بأنّهم أيضاً يرغبون في التجارة معنا . لقد غادروا هذه المدينة قبل حوالي عشرين يوماً ، وهذا هو ما وقع بشأن ذلك الموضوع .

(أ) المرجع السابق ، وثيقة رقم : (٢١) ، ١.

(ب) هرمز مستودع ، وجزيرة من الملح ، مياهها لابدّ أن تجلب من المناطق المجاورة/ انظر : المرجع السابق ، ملف٢/ ١٠٠ ، وكذلك : كوريا ، ١ ، ض ٨١٥ ، ٨٤٨ ، ٨٥٧ .

(ت) المرجع السابق ، وثيقة رقم : (٣٠) ، ٢.

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

بعث "توماس سيراو" "Thomas Sirao" قاضي هرمز ، رسالة إلـى جلالة الملك "دوم جواو الثالث" "D . Joao III" ، فيما يتعلق بأخبار تلك المنطقة وأخبار زواج المرأة المسلمة التي تمّ تنصيرها ، هرمز ، في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م ، ويشرح تنصر المرأة المسلمة وزواجها من رجل مسيحي برتغالـي وهي على ذمة رجل مسلم : [٢٠]

سيدي ،

أنا "توم سيراو" قاضي مدينة هرمز ، أكتب إلى سموّكم من واقع المسؤوليّات التي عهدتم بها ، لكي أُبقي سموّكم على علم بما يجري هنا في المدينة .

في شهر مارس من العام المنصرم وصل أحد المسلمين الفرس

(٢٠) رقم الوثيقة والهامش.

قادماً من "شول" ويدعى "سعيد مدني" ينتمي إلى إحدى الأسر التي يعتقد المسلمون أنّها ذات صلة بأسرة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، وكان برفقته امرأة من نفس العائلة ، كانت قد هجرته واعتنقت الديانة المسيحيّة بمحض رغبتها وإرادتها ، وتزوّجت من أرمل برتغاليّ اسمه "جورج فييرا" "George Viera" وانتقلت لتقيم في الهند .

أُرسل هناك أحد المبعوثين إلى "شاه فارس" يحتجّ عن المسلمين بشدّة من أنّ البرتغاليّين في هرمز قد اختطفوا زوجته ، وأجبروها على الدخول في المسيحيّة بعدما تعرّضت لعدة انتهاكات خطيرة أثارت سخط واستياء "الشاه" .

لقد نصحت الشخصيّات القائدة في المملكة هذا المبعوث بضرورة الشروع فوراً في مخاطبة كابتن هرمز لأجل إرجاع زوجته ، وفي حال عدم الاستجابة فسوف يصار إلى احتجاز المبعوث بواسطة "الشاه" .

عمل "هنريك دى ماسيدو" على كتابة كلّ ذلك إلى "د . ألفارو دى نورونها" "كابتن هرمز" ، وأرسل الخطاب بواسطة البرتغاليّ "أنطونيو منديس دى اوليفيرا" .

خاطب أيضاً "الشاه" كابتن هرمز بواسطة رسالة أرسلها مع أحد خدمه ، أخبره فيها بضرورة إرجاع المرأة فوراً مسيحيّة كانت أم مسلمة ، وفي حال عدم وجودها هنا فيجب البحث عنها .

أشار أيضاً بأنّه لم يتّخذ قرار الحرب بعد ، نظراً لوجود السفير معه ، وسوف ينتظر إلى حين إرجاع المرأة .

لقد طلب "الشاه" من "إبراهيم خان" ملك "شيراز" ، وكذلك من ملك "لار" التعاون مع بقية حكّام المنطقة الآخرين إيذاناً بشنّ الحرب ضدّ هرمز وغزو المنطقة ، ووقف الإمدادات في حال رفض "الكابتن" إرسال المرأة فوراً .

أرسل ملكا "شيراز" ، و"لار" خطابات مع سفيريهما إلى "كابتن" مدينة هرمز يخبرانه أنّ "الشاه" قد أمرهما بفعل ذلك ، وأعربا عن أسفهما عن تداعيات الموقف خاصّة في ضوء الرغبة في أن تستمرّ علاقات الصداقة ، ويسود الأمن والسلام .

بعدما استقبل جميع المبعوثين بما يليق بهم من حفاوة وتكريم ، أجاب "الكابتن" مشيراً إلى إنّه سوف يرسل "أنطونيو منديس" مجدّداً إلى "الشاه" يحمل رسائل يؤكّد له فيها استعداده للخدمة ، وتمسّكه بعلاقة الودّ والصداقة نافياً في نفس الوقت الرواية التي أشاعها "سعيد مدني" .

أشار أيضاً أنّ القادة العاملين في خدمة سموّكم والمنفّذين أوامركم لا يجيزون استخدام القوّة ضد الجمهور ، والمسلمين في مملكة "الشاه" .

أُبلغ بنفس الشيء ملكا "لار" و"شيراز" بواسطة السفراء أنفسهم ، الذين أعربوا عن رغبات مشتركة في تبادل الصداقة .

لقد غادر جميع المبعوثين هرمز منذ مضي عشرين يوماً ، وهذا كلّ ما حدث فيما يتعلّق بهذا الموضوع .

منذ مضيّ عام ونصف كان هناك مبشّر يدعى "غاسبار" ، وقد وصل إلى هنا قادمًا من "غوا" ، وفق توجيهات مشرفه كي يقف بنفسه

على التقارير التي أرسلها البرتغاليّون مثل عدم موافقتهم على عادات المسلمين ، ومثل رفع الأذان للصلاة صباحاً ومساءً ، من أعلى مئذنة في أكبر المساجد الموجودة وسط مساكن البرتغاليّين ، هذا بالإضافة إلى أنّ المسيحيين ليسوا راضين عن هذه الطريقة التي تتّبع في التبشير للدين الإسلاميّ .

قد أخبر المبشّر المذكور "غاسبار" جلالة ملك هرمز إنّه سوف يقوم بهدم المئذنة ، واحتلال المسجد ، وتحويله إلى كنيسة مسيحيّة . كما يجب أن يُصار إلى إغلاق المئذنة بحيث لا يتمّ النداء للصلاة من أيّ مسجد إلاّ من الداخل فقط .

لقد حدث ذلك إبّان فترة قبطانية "د . مانويل دي ليما" ، ولقد أتوا إليّ بالتماس رسميّ (؟) للكفّ عن مثل هذا العمل إلى أن تصبح القبطانية في يد "الفارو دي نورونها" .

استجابة لهذا قدم ملك هرمز والشخصيات القيادية في المملكة طلباً بشأن فتح المآذن كما جرت العادة في الماضي ، وتوضيح أسباب ومبرّرات الإهانة التي تحدثها .

ردّاً على هذا ، أجاب "الكابتن" كتابة مبيناً أنّه في ضوء أهمّية الأمر تقتضي الحاجة أن يتمّ إبلاغ سموّكم بحيث يكون القرار النهائيّ متوافقاً مع خدمة الربّ وخدمتكم .

لقد لاحظنا أنّه بمرور الوقت ، ومع أخبار العديد من الأحداث ، لم يعد هناك من يتحدّث عن هذا الأمر فيما بعد .

نسأل الربّ جلّ وعلا أن يبقى الحال على ما هو عليه دون تغيير ، وأن يتمّ نسيان هذا الموضوع .

أما بالنسبة للقلعة ، فقد اكتمل البناء تقريباً فيها من جهة اليابسة ، وأضحى المبنى من أقوى وأجمل المباني التي يمكن أن تتصوّرها .

كمفهوم عامّ بالنسبة للتحصينات التي سوف تبنى في الجهة الشماليّة باسم "سانتياغو" "Santiago" أن يكون موقعها على جانب البحر ، وبالمثل تلك التي تسمّى "سانتو أندريه" "Santo Andre" لاسيما وأنّه يوجد في أسفل حيطان الأخيرة هذه امتداد أو حيّز أرضيّ يمكن لأيّ شخص أن يقترب من خلاله ، وليس هنالك من وسيلة للدفاع عنه سوى تخصيص مجموعة من المحاربين للدفاع من أعلى أسوار الحصن ، ويقتضي هذا جهداً كبيراً ، والآن أصبح من الضروريّ تحصينه من جانب البحر حتّى يصبح محصّناً بشكل كامل .

نحن نأمل أن تكون هناك بعض الحقيقة في الشائعات التي تدور حول اعتزام سموّه إصدار أمر بوضع الغنائم فيها .

ربما يوجد حاكم الهند و"الكابتن" هناك في ذلك الوقت كي تبذل الجهود لأجل إكمال التحصينات ؛ لأنّها تمثّل حقيقة عظمة الهند ومجدها .

كان نائب الملك الراحل "د . جواو دى كاسترو" قد منع أيّ شخص مهما كانت جنسيّته من الذهاب إلى البصرة وإلاّ لتعرّض لعقوبة صارمة بالسجن ، والآن أصبح هذا الأمر مؤكّداً ومصدّقاً عليه بواسطة الحاكم "جورج كابرال" ، بل وقد فرض أمراً آخر ، بحيث يحظر على

كلّ شخص الدخول أو الخروج من هناك ، أو يقوم بإخراج أو إدخال أيّة سلع ، أو بضائع تجاريّة .

هذا الأمر قد تمّ وضعه في مسالك التنفيذ لكن حقيقة ليس في الإمكان أن يصار إلى منع المسلمين الراغبين في الذهاب من "ريشيل" و"باريم" (البحرين) و"كاتيفا" (القطيف) وبوسعهم التوجّه إلى البصرة من تلك المناطق في الوقت الذي لا يكون أسطولنا يقوم بجولته في المنطقة .

الأخبار التي وصلت هنا تفيد بوجود قوّة قادمة في طريقها من البصرة كي تستولى على القطيف ، ولهذا فقد أرسل "الكابتن" أربعا من السفن إلى "د . فرانسيسكو دي ألميدا" "Francisco de Almeida" .

قد علم الآن أنّ مائتين من الأتراك قد وصلوا على متن ستّة من المراكب ، وإنّهم ذكروا أنّ خمسمائة رجل قادمون برّاً على ظهور خيولهم .

على كلّ حال لا يبدو أنّ السكّان المحليّين قد صدّقوا هذه الأخبار ، وأنّهم ينتظرون يوميّاً وصول أخبار من "د . فرانسيسكو" كي يقفوا على حقيقة ما حدث .

هذا كلّ ما أردت إخبارك عنه ، ولم يتبقّ من شيء سوى أن أعرب لك عن رغبتي الأكيدة في ممارسة مهامي بكل جدّ واجتهاد ، وهذه حقيقة يمكنك التأكّد منها من أيّ شخص قادم من هرمز .

لقد عملت وما زلت أعمل في خدمة سموّكم ،

(... نص غير كامل)

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

بعث الكاهن "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" رسالة إلى الأعضاء اليسوعيين المقيمين في "كويمبرا" "Coimbra" وبقية أفراد المجتمع، هرمز، في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر، عام ١٥٥٠م، ويدّعون عن ادعاء المرأة بعجز زوجها عن الدفاع عن دينه: [٢١]

نسأل الربّ أن ينعم علينا بسلام وأمن سيّدنا المسيح، ويبعث الطمأنينة في نفوسنا، آمين.

تنفيذاً لتوجيهات الكاهن الأعلى "فرانسيسكو" فقد اقتضت الحاجة كي أبقى هنا في هرمز في الخليج الفارسي، وتوجد هذه المملكة بين بلاد العرب وبلاد فارس حسبما ذكرت في تفاصيل تقريري في العام الماضي.

---

(٢١) رقم الوثيقة والهامش.

إنّني أقيم في هذه البلاد ، وأتحدّث مع المسلمين ، والأتراك ، والعرب ، والفرس ، والأحباش ، والملحدين ، ومجموعات كبيرة من اليهود ، ويبدو أن تلك المجموعات هي ما تبقّى منهم بعد الاستيلاء على بابل التي أضحت تعرف هنا باسم بغداد ، والتي تتقاسم معنا الحدود ، ومع الكثير من الشعوب الأخرى .

في هذه المنطقة التقيت بالكثيرين من اللاجئين اليهود من "البرتغال" والإسبانيين الذين اعتنقوا الديانة اليهودية فاهتدى بعضهم ، واستمر البعض الآخر في غيّه وضلاله ، وظللت أحاورهم بشكل يوميّ ، وأفعل الشيء نفسه مع المجموعات المسلمة .

تدور هنا شائعة تقول بأنّ أعداداً لا حصر لها ظلّت مدّة ثلاث سنوات ترتاد "جبل صهيون" بالقرب من القدس ، بحيث يتجمّعون ويترقّبون ظهور المسيح "عيسى بن مريم (عليها السلام)" ، وفي كلّ يوم يؤدّون الاعتراف بأخطائهم وذنوبهم ، لكن ما يزال الأمر صعباً ومستحيلاً لإنقاذهم من ضلالهم وغيّهم ، وهناك مجموعات ضخمة من المتمسّكين بالتلمود تأتي من مختلف المناطق للتحاور ، ولشرح أكاذيبهم ، لكن من خلالي تأتيهم إجابات سيّدنا المسيح .

ذلك لأنّ الغيّ والضلال استشرى في نفوسهم فأعمى قلوبهم ، وأصبح مقيتاً ، فيبدو أنّ معالجة هذا الأمر تحتاج إلى وقت طويل لاستئصاله ، وآمل أن يتمكّن البعض منهم في القريب العاجل من القبول باعتناق مذهبنا المقدّس .

كان أيضاً لي تعامل مع العديد من الأرمن من المسيحيّين المحليّين

الذين يقيمون وسط أماكن تجمّع المسلمين ، وبالرغم من ذلك فإنّهم يؤدّون كفّارات عظيمة تماماً كرجال الدين الهمج ، لقد بذلت جهداً كبيراً كي أعطيهم التوجيهات الدينيّة لإعادتهم للكنيسة تماماً .

مثلهم مثل الروس ، والبولنديّين ، واليونانيّين ، و"البانسيرو" [الإنكشارية؟] وآخرين ممّن ينكرون ديانة المسيح .

نرفع أيدينا بالدعاء للربّ أن نرى هنا قلوباً عامرة بالطاعة ، والتقوى ، والإخلاص كما هو حال إخوتنا في "كويمبرا" حتّى كنيسة المسيح المقدّسة التمجيد الأعظم .

إنّني لا أكفّ عن البكاء يومياً بسبب غيابكم عن هذه الديار ، أحبّتي الكرام ، أرجو أن تسارعوا بالمجيء لأنّهم جميعاً من المسيحيّين ، فماذا تفعلون هناك؟ فهنا توجد الرغبة ، لكن في ظلّ غياب العاملين ضاعت صلاة القدّاس .

بعدما شيّعت رسائلي التي بعثت بها لـ "البرتغال" قام الحاكم بمنح العديد من المكافآت لمجمعنا هنا ، وعندما شرع المسلمون في التداول في موضوع أيّ الديانات أتمّ وأكمل؟ طلبوا منّي أن أذهب مع أحد فلاسفتهم ، وهو خبير في مجال الطبّ وعلم التنجيم إلى أحد الجبال ، وهو جبل قاحل مالح لا ماء فيه ولا زرع ، شريطة ألا يرانا أحد ، ومن يثبت صموده أمام الجوع والعطش تكون ديانته هي الأعظم .

هنا أجبت أن ذلك يبدو كمن يروم في معجزة دون مبرّر ، وخداع للربّ دون ضرورة ، وإنّ هذه المسألة يمكن أن تحلّ بواسطة المعرفة .

عموماً ، فإذا ما تبيّن لنا أنّنا لسنا قادرين على حلّ المسألة بعد المناظرة ، فإنّنا سوف ننفّذ ما طلبوه ، لكنّهم لم يتجرّؤوا على ذلك بسبب غياب الحقيقة في ديانة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، إنّ ربّنا المسيح ظلّ دائماً يرعى أموره ، وقد حكم بأنّهم يلجؤون للقوّة لتحقيق ما يرغبون فيه دون لجوئهم لعمل الخير ، وبما أنّ تلك الزوجة والابنة تعتبران من عشيرة النبيّ[أ](صلّى الله عليه وسلّم) .

قد اعترفت بعجز ذلك الرجل ، وعدم قبول التحدّي للدفاع عن ديانته ، فقد قرّرت قبول ديانتنا المقدّسة ، ومن ثمّ جاءتا إليّ ليلا تقودهما الروح القدس لتطلبا منّي ماء التعميد .

بالتالي أمرت بتجهيز مأوى لهاتين السيّدتين حتّى أجنّبهما خطر الاختطاف من قبل المسلمين الذين أزعجهم تنصير السيّدتين .

لقد جاءني الزوج طالباً مني أن أسمح له بمقابلتهما ، لكنّي تحدّيته بالدخول معه في مناظرة حول الدّين ، أي الموضوع نفسه الذي سبق أن تحدّاني به المسلمون على أن تكون تلك المناظرة أمام زوجته وابنته ، وإذا ما أثبتُّ له أين الحقّ فيجب أن يقبل بالتعميد معهما .

بالتالي فقد قرّر القبول بإجراء المناظرة أمام كاهن هذه المدينة ، والكاتب العدل الذي سوف يقوم بتدوين ما يحدث ، حتّى لا يجد الفرصة لإنكار ما قبل به ، ولقد تولّى "غارسيا دي لا بينا" "Garcia de la Bena" مترجم جلالة ملك هرمز القيام بترجمة المناظرة ، وحقيقة أثبت أنّه خبير في

(أ) لم تكن محادثة السيّدتين المذكورتين هي نفسها التي أشار إليها "هنريك دى ماسيدو" . ويشير الأب "بارزيو" أيضاً للأخيرة في هذه الرسالة.

هذا الأمر ، إذ إنّه سبق أن قام بترجمة الكثير من مناظراتي ، وهو شخص خبير في اللغة اللاتينية .

في هذه المناظرة اعترف لي المسلم بزيف ديانته ، وإنّه من الخطأ التمسّك بها وتأييدها (أ) ، فقد كان هذا الرجل فيلسوفاً فاضلاً ، لأنّ المسلمين يقبلون بفلسفة "أرسطو" ويؤيّدون الكثير من وجهات نظر أنصاره ، وبالمثل وجهات نظر الفلاسفة الآخرين .

بعدما انتهت المناظرة ، قلت له : "إنّك طالما سلّمت بالهزيمة ، فقد أصبحت الآن في طريقك كي تصبح مسيحيّاً ، وعندما سمع ذلك كان ما يزال منشغلاً بأمر المناظرة ، ولكن عندما عاد له صوابه ، وفكّر فيما اعترف به أصابه نوع من الارتباك والحيرة فأشار لي أنّه ما يزال في حاجة للرجوع إلى بعض الكتب والمراجع .

على كلّ حال عمل على هجر زوجته وابنته ، ولم يظهر بعد ، ولقد أُخبرت أنّه قد تشاور مع جلالة الملك الذي كان في مكان ما في الريف ، وهناك وبّخه الملك على إقدامه على التحاور معي ؛ لأنني ساحر مشعوذ ، ويقال إنّه استقبله استقبالاً حسناً في مملكة "لارك" حيث منحه مرتبة عظيمة في المملكة .

عندما رأى المسلمون ذلك أصابهم ذعر شديد ، فتدافعت جموعهم نحوي ، وحينها كان المسيحيّون قد أحسّوا بسعادة غامرة ، فقمنا بتعميد السيّدتين وسط أجواء من الفرح والموسيقى ، وهنا تجمّع أكثر من مائة

(أ) "بيمنتل" : لقد اعترف بزيف ديانته وأقرّ أنّه من العبث التمسّك بها ومناصرتها ، وبالتالي يكون قد اعترف بالثالوث الأقدس الأب والابن والروح القدس ، ثلاثة أشخاص وربّ حقّ واحد .

مسيحيّ برغم وجود الكثيرين ومن ثمّ انضمّ إليهم آخرون من سكّان المدينة كي يشهدوا تزويج اثنين من البرتغاليّين من أشرف الرجال ، والمجد للمسيح . (أ)

إثر الانتهاء من هذا الأمر ، وبسبب ما رآه المسلمون من الهزيمة الساحقة التي ألحقت بحكيمهم ذلك الرجل الموقر ، شرع الكثيرون منهم في الارتداد عن دينهم والحضور بشكل يوميّ للتحوّل للديانة المسيحيّة ، وما كان في الماضي يعتبرونه شخصاً حقيراً مخزياً بسبب تنصّره ، أصبحوا الآن يُعِزّونه ويفتخرون به .

آخرون كانوا يتّخذون أقصى درجات الحذر كي يتجنّبوني ، وعندما كنت أتجوّل في الطرقات حاملاً جرساً داعياً الناس لحضور الدروس ، كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يتحوّلوا من مجرد سماع رنين الجرس ، وقد زعموا أنّني لا أكتفي فقط بحمل السحر في ملابسي وحديثي ، وإنما أيضاً في ذلك الجرس .

بدأ الآن الحبّ المسيحيّ في الانتشار والازدياد بشكل ملحوظ يوماً بعد يوم ، والآن أصبح المسلمون يجوبون الطرقات ينشدون كل ما فيه التمجيد للديانة المسيحيّة ، وكان المنظر مذهلاً ، وهكذا تمثّلت غيرة المسيحيّين وتوجّههم في التجوّل في طرقات المسلمين بمجموعات كبيرة ، وهم يجلدون

(أ) "بيمنيل" لقد قمنا بتعميدها ومنحناهما اللقب التشريفي (دونا) لعراقة أصلهما ونسبهما ، وبعدها قمت بجمع ثمانمائة "بارداو" ذهباً لأجل تزويجهما من اثنين من البرتغاليّين ممّن شهد لهم بالاستقامة والمجد للمسيح ، ليس من السهل فهم نسخة (بال) على حدة دون رجعية أخرى .

أنفسهم بالسياط ، فكانت هناك مسيرات حاشدة ، تقوم بالابتهالات ، والضرب بالسياط في الطرقات ، كما يقوم الأطفال بالترتيل والإنشاد .

عندما رأى المسلمون كلّ هذا يحدث أمام أعينهم ، خافوا من تحوّل المزيد من جموع المسلمين وتنصيرهم ، وتمجيداً لديانتهم أيضاً شرعوا في تسيير حشود يقومون بأداء الابتهالات ، وكانوا يهتفون بوحدانية الله (الله أكبر ولا إله إلا الله) .

عموماً ، إنّه لمشهد عظيم أن يصار إلى إظهار ذلك الورع والتقوى إلى أن أتى ذلك اليوم ، إذ قاموا بالهجوم على أحد مواكبنا أثناء المسيرة . [أ]

عموماً ، لم يفتر الحماس ، كما لم تتوقّف المناظرات مع المسلمين ، وكذلك الأمر مع الوثنيّين ، واليهود ، وبتلك الطريقة هدى الربّ أحد اليوغائيّين من الأرمن ، وهو رجل اتّسمت شخصيته بالكثير من نكران الذات ، وكان يعيش حياة بسيطة فقيرة ، وكان كلّ ما يبشّر به هو عن الموت ، وتمكّن من بناء صومعة فوق أحد التلال بالقرب من المدينة ، حيث يقيم فيها مع بعض اليوغائيّين .

قد ذهب واحد من مجموعتهم إلى جبال البلاد العربية حيث اتّخذ أحد الكهوف ملجأً له يكفّر فيه عن ذنوبه ، ولم يظهر قطّ بعد ذلك ، وقد عرف أنّه كان رجلاً خيّراً بين جماعته ، وكان دائم التجوّل ينثر الرماد على نفسه .

في نهاية المناظرة الأخيرة عن البساطة أخبرني أنّه أصبح مأسوراً

(أ) "بيمنيل" : إلى أن حلّ ذلك اليوم الذي أمطرونا بالحجارة ، لكنّنا بقينا في أرض المعركة حتّى انتصرنا بفضل المسيح تماماً ، كما حدث في أيّام القدّيس "جون كريسنتوم" مع الآريين .

بحبّي ؛ لأنّ قلبه أصبح معلّقاً بشخصي ، وطلب منّي أن أمنحه مهلة ثلاثين يوما للتفكير ، فأجبته أنّ عليه أن يضرب نفسه خمس جلدات حبّاً في المسيح ، وأن يستجدي الهداية والتنوير ، حتّى يختار الدين الذي يجب أن يعتنقه .

في غمرة انشغاله في التفكّر في كمال الربّ ، إذ كانت تلك عادة البعض من هؤلاء اليوغائيّين ، بينما يستغرق البعض في التأمّل في حقائق الموت ، سمع صوتاً يناديه : ماذا تفعل؟ خذ بالطريق الذي عرض عليك ، لأنّ ذلك الدين هو الدين الحقّ للمسيحيّين .

بعد ذلك كان قد اتّجه لمشاهدة الزخارف في الكثير من الكنائس كتلك التي توجد في الأعياد الأسقفيّة ، وفي اليوم التالي ، وعندما رأى أن ملك هرمز يجدّ في البحث عنه ، لم يعد يظهر نفسه مجدّداً .

ما أن غادر جلالة الملك حتّى جاءني مسرعاً يطلب التعميد ، بعدما أخبرني بما قالوه ، وهكذا أصبح مسيحيّاً في مناسبة فخمة أقمناها له وسط ذهول الوثنيّين ، وهؤلاء يشربون المياه التي يغسل فيها رجليه ، ويقومون بتقبيل أقدامه .

بعدها عدنا عبر مركز المدينة رافعين الصليب عالياً لتثبيته فوق صومعته ، وهنا ازداد خوف وارتباك المسلمين نسبة للاحترام والإجلال الذي يكنّونه لهذا الرجل ، وعلى الفور قمنا بهدم صنمه كي نبني الكنيسة .

عموما ، أقمت في نفس الصومعة ، واستجابة لطلب الناس أمرت بأن تحوّل مدرسة لجمعيتنا ، نظراً لضروريّتها ، وأهمّيّتها هنا ، لتلبية احتياجات

المسلمين ، واليهود ، والوثنيّين ، أكثر من بقيّة مناطق الهند ، ولقد تمّ بناء هذا المبنى بحيث يمكنه استيعاب أربعين شخصا ، ويقع بالقرب من المدينة ، وفي أفضل موقع في الجزيرة والمجد للربّ .

حظي هذا العمل بتبرّع سخيّ جدّاً ، حيث كان بعض الناس قد تبرّع بمبلغ تسعمائة "بارداو" وآخرون بمبلغ خمسمائة "بارداو" .

كان أحدهم قد أرسل لي مبلغ ثلاثة آلاف وستمائة "بارداو" ، بينما قدم آخرون كلّ ما يملكونه من مال للمدرسة ، وسوف يتبيّن ذلك من خلال هذه الرسالة التي أرسل لك نسخة معها مع هذا الكاهن الورع [أ] .

عموماً ، كان قائد هذه القلعة "دوم مانويل دي ليما" لا يريدنا أن نقبل أيّ شيء من الأموال باستثناء جزء من ماله ، إذ إنّه كان يريد أن يتكفّل ببناء هذه المدرسة على حسابه الخاصّ .

باعتبار ما يمكن أن يتحقّق من فوائد من النهوض بهذا المكان ، وهو موقع يأتيه الناس من حين لآخر من فارس ، و"تركيا" والبلدان العربية و"الحبشة" ، فكما ذكرت أعلاه ، هناك الكثير من المسيحيّين من "آسيا الصغرى" ، والبلاد العربية ، وبعض أجزاء "أوروبا" ، فقد قرّرت الشروع فوراً في عمليّة البناء ، وإبلاغ الهند بذلك .

(أ) بيمنيل ... استجابة لرغبة الناس أمرت ببناء مدرسة جمعيتنا بحيث تستوعب عشرين طالباً بشكل دائم باستثناء المديرين والكهنة ، إذ هناك الحاجة إليها أكثر من بقية مناطق الأخرى ، وفي النهاية سوف يتم توسيعها بحيث يمكن لأربعين من الأخوة الإقامة فيها . وقع الاختيار على بناء هذه المدرسة في موقع بالقرب من المدينة ، بل في أفضل مكان في الجزيرة ، والمجد للرب .
أمـا التبرعات التي تلقيناها فقد كانت سخية ، إذ إنّ بعض الناس تبرع بمبلغ ألف بارداو وبعضهم تـبرع بمبلغ خمسمائة ، بل إن أحـد الأشخاص أرسل لي مبلغ أربعة آلاف بارداو . كما أرسل لي آخرون كل ما يملكونه لأجل بناء هذه المدرسة .

لقد أرسل لي الكاهن الأب "أنطونيو" ومطران "غوا" ، وكان قد عهد لهما الأب الآمر "فرانسيسكو" بإدارة مجموعتنا ، أرسلا لي الردّ ، وترتّب على أن أعمل على تأجيل العمل إلى حين وصول الكهنة من "البرتغال" ، بينما كنت في طريقي إلى "الصين" وليس هناك من يمكنه أن يحلّ محلّي من القسّيسين ، المجد لمولاي المسيح ، فبينما يوجد فائض من الناس في "البرتغال" نظلّ هنا في أمسّ الحاجة إليهم ، وبالتالي فلا عجب أن يتوقّف العمل في منتصفه إلى حين يأمر الحاكم بشيء آخر . (أ)

(أ) "بيمنيل" : لقد قرّرت أن أبدأ العمل فوراً لأنّ إلهام الروح القدسيّ لا يحتمل التأجيل ، وإن مفهوم الفرد وتصميمه يغيره وسواس الإنسان . لقد تصرّفت وفق التوجيهات والأوامر التي تركها لي الأب الآمر "فرانسيسكو" . ولقد أتاحت لي هذه فرصة أخذ بعض الرجال إلى جمعيّتنا ، وإرسال البعض إلى هناك ، على كلٍّ ، يجب أن يؤخذ في الاعتبار إنّه إذا ما كان هناك أيّ عمل لم يجد موافقة الأب الآمر "فرانسيسكو" أو الكاهن "أنطونيو" أو الكاهن في "غوا" أو أي شخص يعمل في إدارة مجموعتنا أو باسمه ، فحينها سيكون من الأفضل أن يتم إيواء الكهنة الذين سيحلّون محلّي عندما أسافر إلى "الصين" في المدرسة . وبما أنّني سوف أكون بعيداً هناك لفترة طويلة فمن الطبيعيّ أن أعمل بشكل سريع على إنهاء فترة عملي هناك .

بعد ذلك ، أرسلت رسالة إلى الأب "أنطونيو" ، الكاهن في الهند كي أطلعه على طبيعة عملي فيما يتعلق بالكنيسة والمدرسة ونتيجة نشاطي في الروح القدسي في تلك المناطق . أيضاً أخبرته عن الأمور الأخرى في بقية أنحاء الإقليم ذات الصلة بالمسلمين ، وحاجتنا الملحة للبعض من قدامى الكهنة ، للاهتمام بأمور العديد من المسلمين في هذه المنطقة . ونظراً لاستحالة الحضور من الهند للمساعدة ، بسبب ظروف "المونسون" التي تستمر كل ثمانية شهور ، فقد عانت الكنيسة من جرّاء ذلك الكثير من التلف .

ولقد وجهني الأب الآمر بأنّني يجب ألّا أغادر هذا المكان ما لم أرتّب عمليّة قدوم الآخرين كي يحلّوا محلّي . أجاب الأب "أنطونيو" أن مطران "غوا" الذي كلّفه الأب "فرانسيسكو" بالعناية بمدرستنا قد أمر بوقف العمل إلى حين حضور الكهنة من "البرتغال" ، طالما اثني في طريقي إلى "الصين" ولا يجد أيّاً من الكهنة القدامى مثلي كي يعمل في مكاني .

أيّها الإخوة ، فلتأتوا لمساعدتنا ، فهنا يتوفّر رحيق التأسية المقدّسة ، التي لا يمكنكم أن تحصلوا عليها في صوامع "البرتغال" المغلقة ، فلتتسابوا عبر الميادين ، فإذا فاتكم قطار العلم ، فإنّ ذلك العالم العظيم ، الروح القدسيّ ، جدير بأن يوفّر كلّ الاحتياجات في هذا المكان ، ويغرس تعاليمه بعمق في الأذهان وفي أقلّ وقت ، عن الوقت الذي يستغرقه الأساتذة في "كويمبرا" في المساعدة ، وعليه فيمكنكم تصوّر مدى حاجتنا لكم هنا .

فقط تصوّر أنّه لا يوجد سوى ستّة أفراد هنا حتّى تعملوا على مساعدتي ، فعندما انتهيت من خطبتي في الميدان ، حدث أن قام أحدهم بخلع ملابسه كلّها ليقدّمها إلى أحد الفقراء ، بعدها جاء إليّ متوسّلاً كي أرسله إلى فارس ، وكانت تحدوه الرغبة في الموت في سبيل المسيح ، امتثالاً لأوامري ، وذلك كي يتبع المسيح ، هذا الرجل يمكن أن يعتبر مجنوناً في أنظار العالم ، لكنّي أراه عاقلا بشكل استثنائي وكامل(أ) ، وشخص آخر ، قام أيضاً ، بعدما أنهيت خطبتي التي تناولت فيها التبشير عن الصليب ، قام بإلقاء نفسه تحت قدميّ ، وهو ينتحب .

(أ) "بيمنيل" : لقد أهدانا الحاكم هذه المدرسة هنا ، وبالمثل بعض الربع لأجلها ، إذ إنّ الحاكم قد أمر بتسليمي كل الأجور التي كان الكهنة يتلقونها في الماضي . أضف إلى هذا أنّه قدّم لي مساهمة ، وقدرها خمسمائة "برادواساً" نقداً لأجل أغراض المسكن والملبس وكلّ احتياجات المدرسة ، وبالمثل جميع أنواع الزينة لأجل الكنيسة ، وتحديداً لباس مذبح الكنيسة ، وقماش خاصّ لغطاء الجزء الأماميّ من المذبح ، وكأس القربان من الذهب ، وثلاثة أثواب أخرى وأوعية فخارية . بلغت تكلفة زينة الكنيسة قرابة الستمائة لؤلؤة بخلاف تلك؟" التي قدموها لي . لقد تركت مكتبة ضخمة وأناساً جد ورعين في هذا الدير . هناك الكثيرون الذي يرغبون في دخول مدرستنا هذه ، ممّا جعلني أعجب لهذه الخطوة العظيمة التي نالتها في هذه البلاد ، والمجد للمسيح عيسى . إنّني لم أقبل أكثر من ستّة مرشّحين : خمسة منهم فقهاء لغة يقومون بتدريس النحو ، أما السادس فهو مدرّس من خارج المدينة ، لم يتخصّص ، وإنّما نال بعض الدروس .

وجدت أيضاً شخصاً في الميدان يجدف على الربّ بشكل لم أر له مثيلاً قطّ ، وقد كان ذلك بخصوص لعبة ما ، وعندما أخذته للعمل ناشدني ألاّ أتركه ، ومن ثمّ تعهّد بأن يرافقني حتّى الموت ، البقية منهم تمّ استقبالهم في نفس النهج .

كان شخص آخر قد كتب لي من مسقط على الساحل العربي ، يخبرني بأنّه يرغب في الموت معي ، ولو مشويّاً على السيخ والجمر ، ويملك ثمانمائة "بارداو" نقداً[أ] بخلاف ممتلكاته الأخرى التي قام بتسليمها لي كما سترى بتفاصيل أكثر في الرسالة التي أرسلها لي ، والتي أرفق لك منها نسخة مع نسخة من رسالة الردّ التي أرسلتها له .

عندما استشعرت الضغط من كلّ جانب ، قرّرت ألاّ أقبل أكثر من اثني عشر شخصاً من ذوي الكفاءة العالية من بين مجموعة كبيرة إلى حين انتهاء العمل في المدرسة ، مضطرّاً ، ولكثرة الأعمال لم أتمكّن من الاهتمام بكلّ شيء .

لقد افترضت أنّهم جميعاً سوف يأتون معي إلى "الصين" ، إذا ما رأى الأب الكاهن أنّ ذلك ممكن ، ولم يبد أنّه يميل لتشجيع أيّ واحد يملك هذا الإحساس المقدّس .

كانت حياتنا تسير على هذا النحو ، قبل ساعة من طلوع الفجر يقوم أحدنا بقرع الجرس كي ننهض من النوم على ضوء الشموع ، وبعدما تنتهي هذه الساعة يقوم بالتجهيز للقدّاس الذي كنت أتلوه كلّ صباح ،

(أ) "بيمنيل" : لقد رغب في الموت معي ولو كان مشوياً على السيخ ، كان كل ما يملكه هو ألف "بارادواس" نقداً ، هذا بغضّ النظر عن ممتلكاته الأخرى ، التي رغب في وضعها بين يديّ .

بعدها يقرع الجرس لحضور الدرس كي يبقى المرشّحون حتّى الساعة الحادية عشرة ، وعندها يحلّ وقت تناول طعام الغداء ، وبعده يقومون بعمل امتحان الذمّة والضمير .

بعدها يستعدّون للمدرسة ، حيث يظلّون هناك حتّى الرابعة عصراً يقرع الجرس لأداء القدّاس(أ) ، وبعده الابتهال والدعاء المخصوص الذي نقوم به كلّ ليلة ، بعد ذلك يقرع الجرس للاجتماع للتأمّل الذي يستمرّ مدّة ساعة كاملة ، وبعده امتحان الضمير ، وبعد ذلك الاستعداد للنوم .

إنّنا نقوم بجلد أنفسنا بالإنابة عن الكنيسة (ب) لأنّ الابتهالات كسعي لخير المجتمع وفاعلي الخير ، ولقد اعتدنا في أيّام الأحد ، وفي أيام الأعياد أن نجتمع لأخذ قسط من الراحة ، وبعدها نقضي ساعة من الزمن في تدارس الأمور العقائديّة .

لقد لمست الكثير من الحماس في نفوسهم جميعاً ، والمجد للمسيح ، فوجدت أنّهم أكثر قرباً من الصليب ، وأكثر إقبالاً على إماتة أجسادهم وشهواتهم ، وهكذا لم أعد أعلم أيّ شيء يمكننا من المحافظة على نفوسنا سوى الرغبة للمعاناة من أجل المسيح ، والمواساة الكبرى التي نستشعرها يوميّاً ، ونحن نرى الموت أمام أعيننا ، هذا ما يحدث بشأن

(أ) تلك الحلقات التي يقرع لها الجرس كانت تعقد للقدّاس لم يشر لها في محلّها ، لكنّها توجد في نسخ "بال" و"بيمنيل" .

(ب) "بيمنيل" : كنّا نقوم بجلد أنفسنا بالإنابة عن الكنيسة ، وإدارتها في كل خميس .

هذا الموضوع ، فلتدعو لنا ، ويتراءى لي أنّنا عندما تغادر هذا البلد في اللحظة المناسبة سوف نكون رفقاء وأكثر قرباً من الصليب .

عندما كنت أسير من هذه الرهبنة ، وأنا في حالة من الجَذَل أرى التأثّر بادياً على وجوه المسلمين ، وعندما أقوم بالتبشير في الكنيسة أرى الشيء نفسه .

كذلك استدعاني ملك هرمز وكشف لي عن رغبة صادقة في اعتناق المسيحيّة ، لكنّه لم يفعل ذلك نظراً لخوفه من تكدّر وانزعاج النبلاء في المملكة لهذا الأمر .

على كلٍّ ، كانت المحصّلة أن قمنا بعقد حوار في حضوره ، وأبلغته بضرورة اتّخاذ الحيطة والسرية في استدعاء أطراف الحوار ؛ لأنّني توقّعت أنّ الربّ سوف يقدّر الأمر ، بحيث لا يرى المسلمون أيّ خطأ في اختيار الملك ديانته المقدّسة الخاصّة به .

حينها كان هناك حوالي ألفين من المسلمين الذين قدموا للتعميد ، في نفس اليوم الذي يفترض أن يعمّد فيه الملك ، وكان معظمهم من علية القوم وقد اختاروا بالفعل أسماء عرّابيهم وآبائهم في المعمودية ، غير أنّ أعين العدوّ التي لا تنام درجت على الترويج الشائعات تقول بأنّ الملك قد أصبح مسيحيّاً بالفعل ، وكانت النتيجة أن ما أراده الملك لم يحدث .

في ظلّ فشل محاولاتهم لإثناء الملك عن تغيير قراره برغم الهدايا ، وأساليب المداراة والتملّق أمروا بعض فقهاء المسلمين أن يأتوا إليه ، ويبشروه بديانة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، وبهذه الطريقة يمكن

أن يكفّ عن نواياه ، وفيما بعد أمر الحاكم برجمهم ، ونفيهم بعيداً عن مملكته ، ومن المؤكّد أنهم غير راسخين في معاناتهم من أجل محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) كثبات قدّيسينا في معاناتهم من أجل المسيح .

في النهاية ، ولتعاستي وبؤسي ، انبرى له خمسة[أ] من علية القوم كي يمطروه بوابل في التهديد ، والوعيد ، مشيرين له أنّه سوف يفقد مملكته ، وأنّهم سوف ينفضّون من حوله ، وهذه جاءت كمحاولة منهم لإثنائه عن عزمه ، وحينها تملّكه الخوف من أن يهمل واجبه ، وبالتالي ظلّت أغلبيّة من عملوا على الضغط عليه في خطئها وضلالها .

إخوتي الأعزاء ، لكم أن تتصوّروا حجم الأسف العميق الذي غمرني إزاء هذه الخسارة الجسيمة ، لقد ذرفت الدموع أسفاً وتحسراً على خطاياي ، وبعد ذلك أصدروا الأمر بمنعي الدخول على الملك أو التحدّث معه زاعمين أنّني مشعوذ ، وساحر جبّار فتنته بسحري ، هذا بالإضافة إلى أنهم خاطبوا ملوك فارس وناشدوا الفرس وحرّضوهم كي يهاجموننا في محاولة للتكفير عن هذه الآثام والشرور .

في الحال قمت بتنظيم مجموعات كبيرة في مظاهرات اخترقت أماكن تواجد المسلمين ، وهناك حوالي خمسين أو ستّين رجلاً يقومون بجلد أنفسهم بالسياط ، ودعوت الربّ جلّ وعلا أن يلهمنا الرشد والصواب للمضيّ قدماً في عباداتنا حتّى لا يصبح إيماننا عرضة للقيل والقال .

(أ) ستّة كما ورد في نسخة "بيمتيل" .

لقد صمّم المسلمون على استخدام القوّة لمنع أيّ فرد من مجموعاتهم كي يصبح مسيحيّاً ، وشرعوا في التهكّم علينا من فوق مآذن مساجدهم التي تطلّ على المدرسة التي قمت ببنائها .

بسبب ذلك فقد فهمت من سيّدنا أنّه من الأفضل أن نسحق قوّتهم كما فعل "داؤود" مع "غولياث" ، وعليه ففي المساء أكملت درسي التبشيري عن العاطفة ، ومن ثَمَّ حملنا على أكتافنا صليباً ضخماً ، وتحرّكنا في مسيرة ، بحيث اتّجهنا من وسط المدينة إلى الجبال ، حيث كان المسلمون يرشقوننا بألفاظ نابية ، ويتهكّمون علينا ، ويسخرون من صليب المسيح ، تمكّنّا بواسطة استخدام الحجارة والكلس من تثبيته على نحو أفضل في أعلى قمّة ممكنة .

عندما اكتشف المسلمون في صبيحة اليوم التالي أنّ المسجد قد تمّ الاستيلاء عليه ، تجمّع الملايين منهم ، وفي ظلّ خوفهم من الصليب بدأوا يهتفون ضدّ محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ؛ لأنّه لم ينتقم ، ويأخذ بثأره من الفرنجة "Franks" وهو اللفظ الذي يُطلقونه علينا .

بعد ذلك عملوا على إخلاء جميع المساجد في كلّ أنحاء تلك البلاد سيما أكبرها الذي يعرف باسم "قلبانا" حيث يتجمّعون هناك سنويّاً في أعداد كبيرة لممارسة طقوسهم الخرافيّة ، بينما يقومون بتمزيق أجسادهم بالخناجر والمديّ حبّاً في محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، نسأل الربّ أن يهدي هذه الأرواح المغرورة ، وعلى كلّ حال فقد تمّ تحويل هذا المسجد إلى دير للعبادة .

ذلك لكي يبرهن المسلمون أنّ ديانتهم هي الأسمى والأرفع مقاماً ،

قاموا بتنظيم وإعداد خطب دينية مؤثّرة في المدينة ، كما أنّهم دأبوا على تلاوة القرآن(أ) من مساجدهم في عدّة مناسبات ، وكانوا يجهرون بالقراءة بأعلى الأصوات .

في إطار إلحاح الناس ومطالبتهم لي بإيجاد حلّ لهذا الأمر ، وترديدهم كلمات المسيح (أجبروهم على الدخول(ب) عملت على إرسال خطاب للملك ، خاصّة بعدما نكث عن وعده والتزامه) كي يصدر أمره بوقف قراءة القرآن في الوقت الراهن إلى حين مخاطبتنا لسيّدنا جلالة الملك ، وما يأمر به سوف ينفّذ .

لقد حرصت بشكل جادّ على تشجيع الفئات التي تعتنق المسيحيّة يومياً لأجل محو ذكرى ديانة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) حتّى يتسنّى للبقيّة القدوم لاعتناق المسيحيّة .

لقد سمعوا بهذه الرسالة لكنّهم لم يعيروها أيّ اهتمام ، لذا فقد أرسلت لهم رسالة أخرى محذّراً إيّاهم بأنهم إذا لم يتوقّفوا عن هذا الصياح والتهكم على المسيحيّين الجدد فسوف أقوم بالاستيلاء على المسجد وأرفع فوقه صليب المسيح .

على الفور أمرت بصنع خمسة صلبان(ت) في اليوم التالي ، وذلك كي أزرع الخوف في نفوس المسلمين ، ولقد أمرنا بحمل الخمسة صلبان

(أ) يجب أن يفهم لفظ "القرآن" بمعنى "المئذنة" . وهي موجودة في جميع المدن حيث تمارس العقيدة الإسلاميّة بشكل علنيّ .

(ب) انظر "لوقا" ١٤-٢٣.

(ت) بالنسبة إلى نسخة "بيمنيل" ستّ صلبان .

في مظاهرة حتّى وصلنا إلى باب الملك وسط ابتهالات وصيحات الدعاء تقرّباً من الربّ .

كانت نتيجة هذه المظاهرة أن شعر المسلمون بالإحباط والارتباك ، خاصّة عند رؤيتهم الصلبان المرفوعة ، ممّا جعلهم يلوذون بالفرار ، لكن سرعان ما عادوا أدراجهم حيث استدعوني باسم جلالة الملك .

بعد ذلك اتّجهت لمقابلة الملك ، الذي وقف على الدرج ينتظر قدومي ، وعندما وصلت صحبني إلى الداخل برفقة المترجم "غارسيا دي لا بينا" ، ومن ثَمَّ أمرني بالجلوس فوق الكرسيّ الملكيّ ثمّ جثا على ركبتيه كي يقبّل يديّ طالباً العفو مؤكّداً لي أنّه سوف يفي بوعده في القريب العاجل ، ومن ثَمَّ أصدر أمراً عاجلاً بوقف الصياح الصادر من أعلى المآذن في جميع أنحاء الجزيرة ، وبالإضافة لهذا أمر أيضاً أن يتمّ تسوير المآذن هذه بالحجارة والإسمنت ، ثمّ أعطاني بعض الموادّ لأجل المدرسة .

عندما رأى الوجهاء هذا ولّوا هاربين ، وتوعّدوا بخلق اضطراب في البلاد التي أعتبرها أروع بلاد زرتها ، هذا إلى جانب مبنى الجمارك الذي يقدّر عائده كما ورد في التقرير بنحو أربعين ألف "بارداو" أي ما يعادل الآن مائة ألف(أ) وتقوم السفن المبحرة إلى مكة بدخول هذا الميناء لدفع الرسوم .

يطلق لقب "شاه طهماسب" على الإمبراطور "طهماسب" ملك

(أ) مائة وعشرين ألف " بارداو" حسب ما ورد في نسخة "بيمنيل" .

فارس الذي يحرص على شنّ الحروب ، ولقد سعد كثيراً بأنّ هذا الدين يذود عن نفسه ؛ لأنّ هؤلاء المسلمين سنّيّون ، وإنّ هذه الطائفة المسلمة قد تبنّاها الأتراك ، وفي الوقت نفسه يعارضها الفرس .

قيل إنّ هذا الشيخ شخص مؤلّه بواسطة الربّ ، وأنّ الماء الذي ينساب بعدما يغسل رجليه حريّ بمعالجة جميع أنواع الأمراض ، ولكن في نهاية الأمر فإنّ الوحوش والسباع الضارية تخرّ ميّتة في أوساخها ، وعليه فبعدما هدأ كلّ شيء أضحى الانتقام الذي لم ينجح المسلمون في تحقيقه بواسطة الحكّام المسلمين يمثّل هاجساً لهم ، ففكّروا مجدداً في تنفيذه والقيام به من خلال ضمّ البعض من المسيحيّين الأشرار في هذه البلاد وبواسطة مساندتهم لهم سوف يردّون تلك الإهانة البليغة التي طالت نبيهم محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) .

لكنّهم لم يشيروا إلى موضوع حرمانهم من القرآن والصياح الذي يشكّل جلّ نشاط تلك الفئة ، وبما أنّ ذلك البناء كان أضخم وأجمل مبنى وجد في وسط بلاد المسلمين ، فقد اعتبروه بمثابة أكبر إهانة توجّه إلى محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، إذ يتمّ هنا تبجيله بشكل يفوق ما يحدث في كل الأماكن الأخرى .

كان هناك أحد الأشخاص من المسيحيّين النافذين قد عهد له بهديّة بقيمة عشرين ألف "كراون" كي يرتّب أمر فتح المسجد ، وقد انضمّت إليه مجموعة من المسيحيّين لإنجاز هذا الأمر ، وكان في رأيهم أنّ قيامهم بهذا الأمر يعتبر منقبة ، لكن كان هناك المسيح الذي تمّ إغلاق هذا المسجد لأجله قد هبّ لمساعدة أتباعه ، وبثّ الرعب في قلب الشخص

الذي لم يعرف كيف يتعامل مع المهمّة دون أن يبلّغني بها ، فقد خشي من اندلاع ثورة الجمهور بسبب حبّهم العظيم لشخصي ، وقد دعاني لتناول الطعام ، وبعدها أي عندما شرع في إبانة الأسباب بدأ يعاني فجأة من آلام مميتة ، ومنذ ذلك الحين لم يبد أيّة رغبة في الاهتمام فيما يتعلّق بأمر المسجد .

كان المسيحيّون الذين عملوا على إثارة هذا الأمر بالإنابة عن المسلمين قد هلك معظمهم ، واختفى الآخرون بحيث لم يسمع أحد عنهم شيئاً مرة أخرى .

أسأل الربّ أن يسامحهم ؛ لأنّهم بفعلتهم تلك عملوا على خدمة المخلوق ، وليس الخالق ، صلّوا من أجلهم[أ] .

الآن نحن ننعم بسلام عظيم ، وقد بدأت كنيسة المسيح تنمو بشكل سريع ، فانتشرت ظاهرة الورع بين الناس ، وأصبحوا يقدّمون الكثير من الكفّارات ، ويحرصون في أيّام الجمع على الانضمام للجمهور في مسيرته للإنشاد ، وترتيل الابتهالات .

بعدما انتهى ذلك أقبلت على التبشير في الريف عن السرّ الخفيّ في حبّ المسيح ، وكان الناس يأتون في مجموعات ضخمة لحضور هذه الدروس الدينيّة ، أيضاً كنت أقوم بتعليم الأطفال شفهيّاً ، كما أقوم بالتبشير للكبار بمعدل ثلاث مرّات في أيّام الأحد ، والأعياد في الفترات الصباحية ، وفي الأمسيات في الكنيسة الرئيسية كنت أقوم بتدريس

(أ) نسبة إلى نسخة "ببمنيل" لم يكن ذلك المسيحيّ الشهير سوى قائد هرمز نفسه الذي تلقّى رشوة بلغت قيمتها عشرين ألف "بارداو" .

الإناث والذكور من الخدم والعبيد ، وكذلك كان الحال بالنسبة للفقراء والمرضى في المستشفيات ، وكان الكهنة متّقدي الحماس ، وساعتها بدا لي أنّ هذا يُماثل حال الكنيسة قديماً .

لقد أصبح الكثيرون يعتنقون الدين المسيحيّ كلّ يوم ، ومن بين هؤلاء المسيحيّين الجدد قمت بتعميد ابنة أخ "شريف مكّة" ملك بلاد العرب وأحد أقرباء محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، وكان قد تزوّج من ابنة أحد نبلاء فارس سفير "طهماسب" ، ولقد احتجّ هذا النبيل لإمبراطور فارس مدّعيا أنّنا قد اختطفنا زوجته عنوة لإجبارها على الدخول في المسيحيّة ، سوف تجد في نسخة الرسالة المرفقة بهذا الخطاب تفصيلاً أوفر ، كان "هنريك دي ماسيدو" المبعوث إلى بلاط "الشاه" باسم مولانا الملك قد كتبه لي .

عندما اطّلع على الشكوى التي قدّمها زوج المرأة استشاط غضباً ، ومن ثَمَّ عمل على اعتقال "هنريك دى ماسيدو" وأمر الأخير أن يكتب إلى القائد "دون الفارو" كي يعيد إليه المرأة التي اعتنقت المسيحيّة كي تصبح مسلمة مجدّداً ، وفي حالة عدم قيامنا بذلك فسوف يقوم بإعلان الحرب علينا من خلال قادته ، ولهذا التقينا جميعاً في المجلس ، ولقد تأكدت من مقولة : [أ] "لا ترمي للكلاب ما هو مقدّس ، أو تتنازل للأشرار من الأرواح المؤمنة بالربّ" .

بالتالي فقد تقرّر عدم تسليمها له بغض النظر عمّا يمكن أن يحدث ،

(أ) انظر "ماثيو" ٦٢٧ والزبور ٧٣ ، ١٩ .

لكن اقتضت مشيئة الربّ ملك الملوك أن يخبو غضب ذلك الشرير فأطلق سراح "هنريك دى ماسيدو" ، وأصبح كلّ شيء آمناً ، وبعدها تزوّجت المرأة من رجل يعتبر من أكثر الناس ورعا واستقامة ، بل من أفضل المسيحيّين الذين التقيتهم .

كان معظم المتنصّرين قد جيء بهم بشكل إعجازي ، وقد رأى بعضهم سيّدتنا ، ورأى آخرون المسيح ، بل كان هناك من الرجال والنساء من رأوا خيالات ورؤى وسمعوا أصواتاً أثناء الليل ، ويبدو أنّ الربّ قد سعى لاختبار أناس من وسط مجموعة شرسة من أتباع محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) .

في هذا الوقت كنت أفكّر في التطوّر العظيم الذي يمكن إحداثه في "عُمان" وبلاد العرب التي تؤمّها أعداد كبيرة وهائلة من السكّان ، وفي سكان المدن العريقة والقديمة بين أوائل المدن التي أخطأت باتّباع عقيدة مزيّفة هي عقيدة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، فسكّانها من أبسط الناس يخضعون لحاكم نبيل محترم ، ولديهم معبد المشترى الذي يعود تاريخه إلى وقت كانوا وثنيّين .

عندما كنت أفكّر في هذا الأمر تلقّيت رسالة من ذلك النبيل ، أرسلت نسخة منها مع وكيل مسقط[أ] ، وهكذا قدم أيضاً اثنان من المسلمين للمنطقة قادمين من "عُمان" ، بعد قضاء رحلة استمرّت شهرين حيث طلبا منّي التعميد ، والآن تمّ تنصيرهما في هذه المدرسة ، لقد زوّدني هذان

(أ) انظر رسالة "بدرو دى لوباتو" ، وكيل "مسقط " تم النشر سابقاً – انظر الوثيقة رقم ٩٢ .

بمعلومات وفيرة عمّا يحدث هناك ، وينتظران منّي أن أذهب إلى هناك ... ، وكم أسفت لعدم تمكّني من (... نص غير كامل) ... ، الاستجابة لهذا المطلب الدينيّ ، إذ حقيقة أمرني الأب الآمر "فرانسيسكو" ألاّ أغادر مدينة هرمز هذه لمدّة ثلاث سنوات .

عليه فإنّني معنيّ بالبقاء ، وعدم التحرّك حتى أتبيّن ما له من صلاحيّات إذا ما أرسلت لي ، والآن يجب على أن أذهب إلى "عُمان" ، ولكن في حالة عدم وصول الإذن ، فسوف أجدّ في إرسال الإخوة الذين معي إلى هناك ، فهم متحمّسون لهذه المحاولات ، ولا يقيمون وزناً للصعوبات التي سوف يواجهونها هناك ، بسبب الحرارة المفرطة في تلك البلاد ، واقتصار الطعام على البلح ، والأسماك ، وعدم وجود الخبز .

عموماً ، لا أعتقد أنّ انتظاري سوف يطول ، سيما وقد شاءت إرادة الربّ أن يكون هذا المكان عرضة لتفشّي العديد من الأمراض الخطيرة في هذه السنة ، مثل أمراض النوم نظراً لحرارة الجوّ الشديدة في هذه المنطقة ، وأشير إلى أنّ جميع رجال الدين في هذه الكنيسة قد أصابهم المرض ، وقد توفّي أحدهم ، وأصبح بقيتهم على شفا الموت مع كاهنهم .

نتيجة لذلك أصبحت مسؤولية الاعترافات ودفن الموتى تقع على عاتقي وحدي ، فالكنيسة قد هجرت تماماً ، وأصبحت أعمل كاهناً في أيام الأحد ، والأعياد ، وأؤدّي موسيقى القدّاس للناس ، وكذلك أقوم بإلقاء المواعظ لهم .

المجد لسيّدنا المسيح ، إذ أصبحت الآن جديرا بالقيام بالترتيل والإنشاد الذي تعلّمته في الكنيسة كي أخدم المسيح ، وبالتالي

فإنني صرت أستفيد من الجيّد والرديء على السواء ، وأعتقد أنّني قد استفدت من ذلك إذ إنّني عندما أتذكّر ما يحدث من مشقّة وصعوبات في هذا العالم ، أخجل من المشقّات التي أواجهها في سبيل خدمة المسيح .

بالإضافة لهذا ، فإنّني عندما أتذكّر الخطايا والآثام العديدة التي ارتكبتها ، أستشعر فرصة الصمود لأجل الاجتهاد في خدمة المسيح حتّى أسترضيه وأسكّن غضبه المستحقّ عليّ ، ويبدو أنّني لا أفعل شيئاً إزاء ما أدين له به ، لأنّني لست سوى خادم عديم الفائدة ، ولهذا السبب فإنّني أناشد جميع إخواني الكهنة أن يذكروني دائماً في قرابينهم المقدّسة ودعائهم ، كي أجد نفسي جديراً بالمشاركة في وعود المسيح .

في العام القادم وبإذن الربّ سوف أتناول بالكتابة ما يحدث في مجمع أخيار اليسوع في هرمز .

من هرمز ، في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م .

لقد رحل "باولو" اليوغائيّ ، والذي سبق أن أخبرتكم عن هدايته هنا ، تدفعه رغبة قوية لرؤية "البرتغال" ، وفي ظلّ إلحاح "دون مانويل دي ليما" الذي يرغب في أخذه إلى هناك ، فقد أعطيته موافقتي .

لدينا حروب ومعارك حامية هنا ضدّ الأتراك في "خليج فارس" ، وبالتالي فإنّني في حاجة ماسّة إلى البعض من كهنة الاعتراف من جمعيّتنا لكي يبحروا مع تلك الأساطيل لمواجهتهم .

أرجو ألا تنسى إرسال الكهنة إلى هنا كلّ عام ، وأناشدك ضرورة إرسالهم .

الأب عديم الجدوى "غاسبار" .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

بعث "د . ألفارو دي نورونها" "D . Alvaro de Noronha" ، حاكم هرمز رسالة إلـى جلالة ملك "البرتغال"(أ) "دوم جواو الثالث" "D . Joao III" ، هرمز ، في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م ، بشأن الرحلة من "غوا" "Goa" إلـى هرمز ، الأتراك ، والشؤون الحربيّة ، ويذكر موقف الشاه طهماسب من قضية زيد : (٢٢)

سيدي ،

(أ) "د . الفارو دي نورونها" هو ابن "د . غارسيا دى نورونها" نائب الملك في الهند ، الذي رافقه في رحلته إلى الشرق ، في عام ١٥٣٨م . وبعد إبراء ذمّته من مهام قائد عام القوّات البحريّة عاد إلى "البرتغال" .

وفي عام ١٥٤٩م حكم الهند مجدّداً ، وبعدها حكم هرمز من عام ١٥٥٠م إلى عام ١٥٥٣م .

وعندمـا كان في رحلـة العودة إلى بلاده عـام ١٥٥٤م توفّي في حادث غـرق سفينته بالقرب من "كافاريا" (في شرق افريقيا) .

---

(٢٢) رقم الوثيقة والهامش.

بند : عندما وصلت هذه المدينة وجدت مسجد المسلمين قد تمّ إغلاقه بواسطة الأب الآمر "غاسبار" و"د . مانويل" .

نتيجة لهذا التصرّف فقد ثارت ثائرة المسلمين ، واستفحل غضبهم واستياؤهم ، إذ بدا لهم أنّنا لم نفعل ذلك إلاّ لكي نحرمهم من ممارسة طقوسهم الدينيّة .

في إطار ما أُخبرت به فقد هجرت مجموعات كبيرة من السكّان هذه المدينة ، كنتيجة لهذا الإجراء وبدا جميع الناس ناقمين ، وعمّ الاستياء والسخط جميع أنحاء البلاد ، وبدأ التمرّد .

بعدما تمّت ترقيتي في وظيفة القائد(أ) ، أرسل لي جلالة الملك(ب) طلباً ، أرفق لسموّكم نسخة منه ، عملاً بنصيحة البعض من السادة المرموقين والنبلاء ممّن كانوا(ت) هناك ، كما أرسل أيضاً نسخة من الردّ الذي أعطيته ، وكما سيتبيّن من ردّي ، يبدو أنّه من الأفضل والصائب لهم ولي أن نحيل هذا الأمر إلى سموّكم ، ولقد رأيت أنّه لا يجوز أن أعطي موافقتي على هذا الأمر دون علم سموّكم ، وإصدار أمر ربما لا يتناسب مع مصلحة سموّكم .

بالرغم من قناعتي أنّه ليس من المناسب أن يتمّ الإغلاق بسبب هذه المعارضة العنيفة من جانب المسلمين ، إلاّ أنّني لا أرى أنّ هذا

(أ) في العشرين من شهر يونيو من عام ١٥٥٠م تمّ تسليمهم القلعة في "ليما" ، وهذا ما أشار إليه "ألفارو" في رسالته .

(ب) ملك هرمز .

(ت) يبدو أنّ النسختين الأصليّة ، وصورة منها ، قد تلفتا تماماً .

يعدّ مبرّراً كافياً لإعادة فتحة ، أو القيام بأيّة خطوة في هذا الموضوع من دون توجيهات سموّكم من ["البرتغال"] ، فهذه مهمّة مولانا الملك ، ولا تبدو فكرة إغلاق المسجد فكرة سيّئة ، في هذه المدينة ، سيما وأنّها تؤول لسموّكم .

هكذا ، وعندما يتمّ التفكّر في هذين الأمرين ، يبدو من الأفضل أن يظلّا على حالتهما ، وبالإضافة لهذا يجب على سموّكم الاتجاه لمنح الجوائز والمكافآت والوظائف للمسلمين الذين يقيمون في هذه المدينة ، فقضيّة المسجد هذه هي فضيحة لا شكّ وعمل مخزٍ ، ويجب أن تصدر أوامرك إلى قادتك وحكّامك كي يقوموا بتوزيع تلك المكافآت عليهم .

عموماً ، هذا ما يحدث في هذه البلاد ، وتلك هي مسيرة الأوضاع الآن فيها .

لقد قصدت في ردّي عليهم أن أُهدّئ ثورتهم ، وأجبر بخاطرهم [٤ آر] بعبارات مختارة حتّى لا يتسرّب اليأس إلى نفوسهم ، وأن أخبرهم بأنّني سوف أخاطب سموّكم ، وأنّك سوف تتوخّى العدالة في هذا الأمر ، لأنّه في الوقت الذي تكون هذه المشكلة في طريقها ليد سموّكم ومن ثَمَّ إليهم ، أعتقد أنّ الوقت سوف يكون كفيلاً بمعالجتها ، فقد كتبوا لسموّكم وأخبروني أيضاً أنّه يترتّب عليهم فعل ذلك .

الآن ، لابد لسموّكم أن يتناول الأمر بتروٍّ ، لاتّخاذ القرار الذي يتناسب مع مصلحة الربّ ، ومصلحة سموّكم ، وسوف يتمّ ذلك مع ملك هرمز ومع بعض كبار رجال المملكة والمرموقين منهم .

عموماً ، ربّما يفعل هذا الأمر ويتم تجاوزه ، غير أنّني أخشى أن تطال

الإهانة "الشاه طهماسب"(أ) ونبلاء المناطق المجاورة ، فيستشعرون الخزي والهوان ، وحينها أعتقد أنّ علاقة الودّ والصداقة التي بينك وبين "الشاه طهماسب" وبينهم سوف تؤول إلى انقطاع ، لأنّ بعضهم قد كتب لي بالفعل بخصوص هذا الأمر ، لكن لم يصلني أيّ شيء من جانب "الشاه طهماسب" .

لقد أخبرتهم في الرسالة التي وجّهتها إليهم أن سموّكم سوف تردّ عليهم ، وإنّ قرارك سوف يكون عادلاً(ب) في هذا الموضوع ، وبعدها لم يكتبوا لي قطّ ، وبوسع سموّكم أن تطّلع على الفقرة التي كتبتها في هذه الرسالة عن "الشاه طهماسب" ، وسوف تقف على ما فعله وكتبه لي عن موضوع آخر يماثل هذا الموضوع ، وبالتالي يمكن لسموّكم أن تقرّر الإجراء الذي تراه مناسباً .

على كلّ حال ، فإذا ما كتبوا لك بخصوص هذا الموضوع ، ومن ثَمَّ استحسنت إرسال التوجيهات بخصوص إعادة فتح المسجد ، يجب عليك ألاّ ترسل لهم مباشرة ، وإنّما تترك الأمر لي ، أو للقائد هنا ، لأنّ الأمور هنا ربّما تكون أفضل لأجل مصلحتك من إرسالها ، كما أنّه من الأفضل لهم ألاّ يعرفوا أنّ سموّكم يقدم على هذا الأمر (يتنازل) .

بند : من المؤكّد أنّ سموّكم قد علمت ، من خلال الرسائل التي تلقّيتها في العام المنصرم من الحاكم "جورج كابرال" ، أنّه أرسل "هنريك دي ماسيدو" كسفير إلى "الشاه طهماسب" .

(أ) "الشاه طهماسب" هو إمبراطور "فارس" .

(ب) يبدو أن هذه الرسالة قد فقدت .

إنّني لم ألتقِه في هذه المدينة عندما وصلت ، لأنّه كان حينها قد غادرها ، وإنّه عندما وصل إلى مقرّ "الشاه طهماسب" ، وقدّم له أوراق اعتماده ، أرسل لي [٤ في٢] رسالة[أ] سُلّمت لي في هذه المدينة بواسطة "أنطونيو منديز دي أوليفيرا" ، وهو واحد من أتباع سموّكم ، كان برفقته ، وقد أرسله وحده بتلك الرسالة .

حسبما ذكرت أعلاه كان قد أبلغني في الرسالة أنّه بعد وصوله وتحدثه مع "الشاه طهماسب" وصل أحد المسلمين من أهالي هرمز ، وكان قد غادر من هنا ، ويعتقد أنّ له صلة قربى بـ "النبيّ محمّد"[ب] (صلّى الله عليه وسلّم) ، وهو رجل يجد كلّ التقدير والاحترام ، وهذا ما جعل "الشاه طهماسب" يحسن استقباله ، ويقابله بكلّ معاني الاحترام ، وكان قد وصل إلى بلاطه قبل عدّة أيام ، هذا المسلم غيَّر وجهته من "شول" حيث أتى بخادمة مسلمة لأحدى الزوجات من نفس العشيرة التي ينتمي إليها .

هذه السيدة المسلمة أصبحت مسيحيّة بمحض رغبتها وإرادتها هنا دون أن تُمارس عليها أيّة ضغوط في هذا الأمر ، وهذا حسب ما قيل لي ، إذ حدث ذلك في غير عهدي ، وقد عمل الأب الآمر "غاسبار" على تزويجها بأحد البرتغاليّين[ت] وهو شخص مشهور ، وقد عرف أنّ ذلك الرجل المسلم قد رفع احتجاجات عنيفة إلى "الشاه طهماسب" ، وكان

(أ) يعتقد أن هذه الرسالة قد ضاعت أيضاً .

(ب) هو "زيد مدني" .

(ت) من "جورج فييرا"/ الوثيقة ٢٧ – ١).

ذلك في الوقت الذي أخبرت سموّكم بوصول "هنريك دي ماسيدو" ، حيث أخبره أنّ تلك السيّدة قد أجبرت على اعتناق المسيحيّة هنا ، وأنّهم قد أخذوا منها أموالاً كثيرة .

حسبما ذكره "هنريك دي ماسيدو" في رسالته فقد استاء "الشاه طهماسب" كثيراً لهذا الأمر ، ويقول إنّه أرسل له بشكل عاجل بواسطة مبعوثيه يقول إنّه سوف يرسل لي رسالة في الحال بواسطة أحد الرجال الذين يرافقونه يأمر بإبلاغي بضرورة إرسال هذه السيّدة له في الحال سواء كانت مسيحية أم لا . كما أنّه أمر أيضاً بأن يعلن أنّه لا مجال لحضوره من هناك ما لم يتمّ إرسال هذه السيّدة من هنا .

على كلّ حال ، كان قد أمر بضرورة كتابة رسالة لي في الحال ، وقد سلّمت لي في هذه المدينة بواسطة أحد الخدم ، وكان برفقة "أنطونيو منديس دي اوليفيرا" ، وبموجب هذه الرسالة كان قد وجّههم أن يخبروني نفس الرواية التي أخبروا "هنريك دي ماسيدو" بها ، والضرر الكبير الذي ألحق بهذه السيّدة بإدخالها في الديانة المسيحيّة ، ولقد أشار بوجوب إرسالها في الحال [٥ آر] وإلاّ فإنّه سوف يأمر قادته الموجودين في الجزر المجاورة لـ هرمز بشنّ حرب عنيفة ضدّي .

عموماً ، إنّه لن يأمرهم بذلك في هذا الوقت دون أن يعلم السفير الموجود هناك ، لكن في حالة عدم إرسال هذه السيّدة له ، فإنّه سوف يأمرهم بتنفيذ ما عنّ له بخصوص شنّ الحرب عليّ ، وحقيقة هذا ما فعله ، ويخبرني "هنريك دى ماسيدو" في رسالته أنّه قد اعتمد أوامره في هذا الموضوع ، وأكدّها لقادته الذين ذكرتهم هنا .

بعد استطلاع وجهة نظر السكّان هنا ، الذين تبّينت أنّه يجب عليَّ حلّ هذه المشكلة ، فقد رأيت من الأفضل ولأجل السفير الموجود هناك حتّى لا يتفاقم هذا الأمر الذي سيحدث خسائر فادحة في هذه البلاد ، رأيت أن أردّ عليه ، وأخبره أن هذه السيّدة ليست موجودة هنا ، لأنّني حقيقة قد أمرتها بمغادرة هذه المدينة[أ] فوراً ، خاصّة وهي قد أصبحت مسيحيّة بمحض رغبتها وإرادتها ، ولم تجبر على ذلك حسبما يزعم زوجها .

لقد عملت على تذكيره بحميميّة العلاقات بين سموّكم وبين سعادته ، وكذلك السفراء الذين أرسلتهم إلى بلاطه ، وبالتالي فلهذا السبب وغيره من الأسباب الأخرى رأيت من المناسب أن أطلب منه أن يخلي سبيل سفير سموّكم الموجود هناك في بلاطه .

بهذا الردّ وبغيره من تلك التي أرسلتها للقادة الذين أمرهم بشنّ الحرب ضدّي ، والذين كتبوا لي جميعاً في هذا الموضوع ، عملت مرّة أخرى على إرسال المدعوّ "أنطونيو منديس" ومعه هديّة إلى "الشاه طهماسب" ، إذ بدون مثل تلك الهدايا لا تستقبل الرسائل بصورة حسنة في هذه البلاد ، كما لا يتمّ أيضاً الاهتمام بحركة التجارة .

عموماً ، أبدى "أنطونيو منديز" رغبة صادقة في العودة ، إذ يعتقد أنّه بذلك يؤدّي خدمة جليلة لسموّكم ، وذلك حسبما أخبرته إنّه بالفعل يقوم بذلك ، ولقد أنجز هذا الأمر بشكل ودّي ، بحيث شعرت إنّه واجب عليَّ أن أخبر به سموّكم تماماً كالخدمات التي أقوم بإنجازها .

(أ) تمّ إرسال السيدة لـ الهند .

هذا ، ولقد قمت بتنظيم البعض هنا لأجل ملك هرمز ، وكذلك لمسلمي هذه البلاد بحيث يعملون من جانبهم على مخاطبة "الشاه طهماسب" ، وقد سرّهم أن يقوموا بذلك ، لأنّهم سيكونون من أكثر المتضرّرين إذا ما شنّ "الشاه طهماسب" الحرب ضدّنا .

لقد أوجدت هذا العمل وغيره من المهام الأخرى كي يصار إلى تنفيذها في هذه البلاد ، والتي سوف أصفها لسموّكم ، وأعدكم بمواصلة تقديمها حتّى يراني الربّ من خلال هذه الأعمال ، وأنا أفي بعهدي في خدمته ، وخدمة سموّكم ، وآمل أن يتمّ إنجاز مهمّة "هنريك دي ماسيدو" على أفضل وجه لأنّني أؤمن بأنّني أفهمها جيّداً ، وفي مقدوري إكمالها .

(فيما يتعلق بقيام الأتراك الذين قاموا باحتلال مدينة البصرة ومهاجمتهم مدينة قلهات)

بند : لديّ الكثير ممّا أريد أن أخبر به سموّكم عن الأب الآمر "غاسبار" وسوف أخصّص الجزء الأخير من هذه الرسالة للتحدّث عنه [٨ آر] ، إذ يبدو أن العناية الربانية هي التي أرسلته ، لأنّه قد رغب في ذلك ، رغب في أن يكون الأخير في مجموعتنا تلك ، ليجد أسوأ المعاملة ، ويلبس الرثّ من الثياب إلاّ أنّه كان أيضاً الأول والأفضل منّا جميعاً .

لقد بدا لنا جميعاً أنّ الربّ قد قدّر له المجيء إلى هنا لأنّه هو وحده العالم بحاجتنا له ، وأؤكّد لسموّكم أنّه قد بذل جهوداً مضنية ، وقام بأعمال رائعة ، لا شكّ إنّ المدينة سوف تجني ثمارها في وقت قريب .

حسب اعتقادي ، أرى أنّ حياته متميّزة جدّاً عن حياة البقيّة من رفاقه ، ويؤدّي أعمالاً جليلة تجسّد تلك الخصائص ، والسمات الكريمة ، التي

يتحلّى بها في هذه البلاد ، بفطرة سليمة ، وحصافة ملحوظة ، وعلى الرغم من أنّه يمرّ علينا ، ويقوم بتوبيخنا في كلّ أمر يرى فيه خللاً من جانبنا إلاّ أنّنا نرى فيه الصديق الصدوق ، ونتمنّى له كلّ خير .

حقيقة هذا شيء يصعب عليَّ فهمه ، إلاّ أنّ الربّ قد منحه قدراً كبيراً من الظرف والكياسة ، إنّه يعمل هنا في بناء بيت للعبادة أو بالأصح كنيسة سمّاها كنيسة القدّيس "بول"[(أ)] وهو يشغل وقته بهذا العمل وغيره من الأعمال الصالحة الأخرى التي يؤدّيها كلّ يوم .

يجب على سموّكم إصدار الأمر بضرورة تشجيعه ، والثناء عليه هناك ، فبالرغم من عدم حاجته إلى ذلك إلاّ أنّ هذا يلزمنا بالفعل حتّى يتبيّن لنا وللجميع أنّ سموّكم يولي عنايته واهتمامه لكلّ الأعمال الرائعة ، وبالمثل للقائمين بها ، وقد أخبرني أنّه قد شرح لسموّكم ما حدث في هذه البلاد[(ب)] ، فالأمر يتعلّق بوظيفته ، وبالتالي لم أكتب لسموّكم بشأنه .

(عملية اقتحام قلعة القطيف التي نفذت بواسطة الأتراك ، والمصير المبهم بالنسبة لجزر البحرين)

من هرمز ، في الثاني والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م .

بخطّ يده : (أقبّل يدي سموّكم الملكيّتين) .

"دوم ألفارو نورونها" .

(أ) يكتب "سوسا" عن "بارزيو" قائلاً : "لقد خصّص إحدى الكنائس الصغيرة لملكة الملائكة ، وأطلق على المجمع الباقي من جمعية اليسوعيّين الأخيار أحد الأسماء التي عمل مؤخّراً على تغييرها كي تصبح مع الاسم الجديد مقروناً باسم القديس "بول" (١ ، ٥ ، ١ ، ٦).

(ب) هذه الرسالة ، التي من المحتمل أن يكون قد خطها "بارزيو" ، قد تلفت .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)
بعث "كابتن" قلعة هرمز "د . الفارو دى نورونها" "D . Alvaro de Noronha" رسالة إلى "د . جواو الثالث" "D . Joao III" ، هرمز ، في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م ، ويذكر سخط الناس على إغلاق المسجد في هرمز : (٢٣)

في بند : إثر وصولي في هذه المدينة وجدت المسجد قد تمّ تسويره ، ويبدو أنّ من قام بذلك هو الزعيم "غاسبار"(أ) و"دوم مانويل"(ب) ، الأمر الذي تسبّب في جرح مشاعر المسلمين ، إذ بدا لهم أنّ ذلك قد حدث دون إرادتهم ورغبتهم . لقد رغبنا في حرمانهم من ممارسة عقيدتهم ، وحسبما أُبلغت فإنّ مجموعة كبيرة منهم عملت على مغادرة المدينة بسبب هذا التصرّف .

(أ) هذه إشارة إلى الأب "غاسبار بارزيو" في إخوانية المسيح وهو مبشر غيور في هرمز .
(ب) "د . مانويل دى ليما" الذي خلفه "د الفارو دي نورونها" .

(٢٣) رقم الوثيقة والهامش.

هذا بالإضافة إلى ازدياد سخط السكّان ، بحيث انتشرت الثورة في البلاد بأكملها ، بعدما تمّت ترقيتي في منصب "الكابتن" أرسل لي الملك استدعاء رسميّاً مرسلاً لسموّكم نسخته منه في "البرتغال" ، وأرسل أيضاً نسخة من الردّ الذي أرسلته له ، ويحتوي هذا على وجهة نظر النبلاء ، وسادة القوم الموجودين هنا ، بحيث إنّهم رأوا أنّه من الأفضل لهم ولي أن نحيل هذا الأمر لسموّكم كما سترى ذلك في ردّي .

لقد رأيت من غير اللائق أن أبتّ في هذا الأمر بإصدار أمر يتناسب مع مصالح سموّكم دون أن يعلم سموّكم بذلك ، بالرغم من أنّني رأيت أنّه من غير الصواب أن أغلقه في ضوء المعارضة من جانب المسلمين ، كما أنّه من غير المناسب إعطاء الأمر بفتحه ، أو عمل أيّ شيء بخصوصه قبل الحصول على توجيهات من سموّكم .

عموماً ، هذه الأمور لها صلتها الوثيقة بالربّ ، وإنّ حقيقة إغلاقه ليست بالأمر السيّئ في تلك المدينة طالما إنّه يؤول لسموّكم[أ] .

عليه ففي ضوء هذين السببين يبدو من الأفضل إبقاء الأمر على الحالة التي عليها الآن ، يترتّب على سموكم تقديم المكرمات ، وتخصيص بعض الامتيازات ، لمجموعات المسلمين الذين يعيشون في هذه المدينة ، كما يجب عليك أيضاً أن تصدر أوامرك للقادة ، والحكام ، كي يحسّنوا معاملتهم ، خاصّة بعدما تبيّن أنّ مسألة القرآن قد سبّبت لهم إهانة عظمى .

عموماً ، هذا ما يجري الآن وتلك هي حقيقة الأوضاع السائدة في

(أ) هذه أولى القضايا التي أثيرت وهي بخصوص مدينة تؤول إلى ملك البرتغال ، وتخضع الدستور الديانة الرسمية .

الوقت الراهن ، لقد كان هدفي من الردّ هو تهدئة ، وجبر خواطر المسلمين ، واسترضاءهم من خلال الرسائل التي أرسلتها لهم ، إذ أخبرتهم أنّي سوف أرسل تقريراً بكلّ ما حدث إلى سموّكم ، وعليه يترتّب عليك أن تعمل على إنصافهم ، حتّى لا يتسرّب اليأس إلى نفوسهم .

أعتقد أنّ الوقت الذي تستغرقه الرسالة في الوصول إليكم والعودة سيكون الوقت كفيلاً بمعالجة الأمر ، لقد أخبروني بأنهم جدّ مصمّمين على مخاطبة سموّكم ، وعليه يترتّب عليكم أن تعملوا على مراعاة مصلحة سيّدنا الملك ومصلحة سموّكم ، وسوف يتمّ ذلك بواسطة ملك هرمز ونبلاء هذه المملكة .

يمكن أن يحدث هذا ، غير أنّني أخشى أنّ "شاه طهماسب"(أ) ربّما يعتقد بالإضافة إلى هؤلاء النبلاء في الجوار أنّ تلك إهانة ما بعدها إهانة ، وربما أدّى ذلك إلى فساد وانهيار علاقات الودّ ، والصداقة القائمة بين سموّكم ، وبين "الشاه طهماسب" وهؤلاء النبلاء .

لقد تلقّيت بالفعل رسائل بعض تلك الفئات المسلمة عن هذا الأمر ، لكنّني لم أتلقّ شيئاً من "الشاه طهماسب" .

لقد أجبتهم قائلاً : إنّ الردّ سوف يصل من قبل سموّكم ، وإنّكم سوف تتوخّون العدالة في هذا الأمر ، بعد ذلك لم يكتبوا لي قطّ ، من الممكن أن يطّلع سموّكم على الجزء الذي أرسلته لكم عن "الشاه طهماسب" في هذه الرسالة ، وسوف تدرك ما فعله وما كتبه لي عن

(أ) إشارة إلى "الشاه" أو الزعيم في "فارس" "شاه طهماسب" .

قضية أخرى مماثلة لهذه القضية ، وبعدها يترتّب على سموّكم إصدار الأمر وفق ما تراه مناسباً ، وحسب تقديرك .

على كلٍّ ، إذا رأوا أن يخاطبوك في هذا الأمر ، ورأيت من الأفضل توجيههم لفتح مسجدهم يجب عليك ألاّ تكتب إليهم بشكل مباشر ، وإنّما تكتب لي أو لـ "الكابتن" الموجود هنا ، وذلك بسبب إمكانيّة تداعي الأحداث ، وتدهور الأوضاع ، وربّما يكون في مصلحتك ألاّ يقدموا على فعل ذلك ، وعليه فإذا كان سموّكم قد أمر بذلك فمن الأفضل لهم ألاّ يعلموا عن ذلك شيئاً .

في بند : لديّ الكثير لأقوله لسموّكم عن الأب الأعلى "غاسبار" ، إذ إنّ الجزء الأخير من هذه الرسالة عبارة عن تقرير عن شخصه (٨) ، إذ بدا لي إنّه ما جاء إلى هنا إلاّ بمشيئة الرّب ، وبالتالي فهو يرغب في أن يكون آخر شخص بيننا يلقى المعاملة السيّئة ، بالرغم من إنّه الأفضل وسط الجميع ، حقيقة يبدو أنّ الربّ قد دفع به إلى هذا المكان لأنّه يدري كم هي الحاجة إليه .

وأؤكّد لسموّكم أنّ ما كان يفعله هنا في هذه المدينة لا يمكن أن يُعلى عليه ، ولا يمكنك أن تتصوّر ثمار ونتائج أعماله تلك ، وحسب ظنّي فإن حياته تتجاوز كلّ أعماله لأنه آلى على نفسه أن يكون قدوة للخير والفضل في هذه البلاد ، بكلّ معاني السموّ والتميّز .

عليه فإنّه عندما يلجأ إلى توبيخنا بعنف في أيّ أمر يعتبره نقصاً ، نظلّ نتمنّى له الخير والسعادة ؛ لأنّه صدّيق صدوق للجميع ، هذا إحساس

أجد نفسي غير قادر على توضيحه ، وأسأل الربّ أن يجزيه عنّا خير الجزاء على ذلك العمل .

معروف عن سموّكم أنّكم تحرصون حتّى من البعد ، وبرغم المسافات الطويلة على تمجيد تلك المناقب والمآثر .

لقد أخبرني أنّه قد كتب يخاطب سموّكم فيما يحدث في تلك البلاد ، وسوف يتناول في رسالة الأمور ذات الصلة بوظيفته ، ونتيجة لهذا فإنّني سوف لن أكتب لسموّكم بخصوص هذا الأمر .

في الهامش : (وصية (؟) "دوم ألفارو" بهذا الشأن : دعه يكتب مثنياً عليه ، وكذلك في رسالة الأب الآمر "غاسبار" أيضاً .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

أمر عظيم الترك الباشا "بير بيك" أن يفرض الحصار على قلعة هرمز بخمس وعشرين سفينة ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" : [٢٤]

حالما تلقّى عظيم الترك الأخبار بأنّ أسطولنا الذي كان يبحر عليه "دوم إنتاو" "D . Antao" قد دخل إلى مضيق البصرة ، وأنّه بلا شكّ لكان استولى على تلك المدينة منه لو لم تنفع تلك الحيلة والخدعة التي قام بها الباشا ، وانطلت على القائد (وهي التي تحدّثنا عنها مطوّلاً اعلاه) ، الأمر الذي لطّخ شرفه ، وأضعف من موقفه ، وقرّر أن يبعث بمؤن للقلعة حتّى يضمن سلامتها تماماً .

بما أنّه منع من الإبحار على طول نهر "الفرات" ، الأمر الذي سيجعل أساطيله تشقّ طريقها إن كان سيكون السيّد على كلّ المضيق الفارسي ،

(٢٤) رقم الوثيقة والهامش.

الشيء الذي أراده كثيراً وكان يعتزم تحقيقه ، لذلك قام بإصدار أوامره لتجهيز خمس وعشرين سفينة شراعيّة صغيرة كانت في السويس بأسرع وقت .

عيّن قرصاناً سابقاً يدعى "بير بيك" "Piri Reis" ، وهو رجل كفء ومخلص ، قبطاناً لها ، وأصدر تعليماته لألف ومائتين من الرجال ليصعدوا على ظهر السفن التي كانت في السويس ، والإسكندرية ، وموانئ أخرى ، بأسرع ما يمكن ، ويبحروا إلى البصرة حيث سيجدون أوامر عمّا سيقومون به ، ومهما كانت الأوضاع والظروف فليس عليهم دخول مسقط ، أو هرمز ، أو أيّ مكان يخصّ البرتغاليّين ، بل عليه بذل أقصى جهد الإسراع نحو البصرة دون أن يروهم .

حالما بعث "بيري ريس" ، أرسل رسالة لباشا البصرة ليستعدّ بعدد خمسة عشر ألف رجل ، والكثير من المراكب ، وأيّ زوارق أخرى .

عندما وصل "بيري ريس" إلى هناك مع السفن ، كان عليه فرض الحصار على قلعة هرمز وعدم رفعه حتّى يستولي عليها تماماً . أبحر "بيري ريس" في الحال إلى السويس وقضى كلّ فصل الشتاء حتى شهر يوليو وهو يعد في السفن للمغادرة .

بدأت الأخبار عن كلّ ذلك تُتداول عبر المضيق . لم يكن هناك أمر مؤكّد عنها أكثر ممّا كان أطلعهم عليه الأجانب في رواياتهم ، وقد وصل ذلك إلى هرمز في مايو حيث كان من المستحيل إبلاغ نائب الملك .

"دوم الفارو نورونها" قائد تلك القلعة التي أراد أن يعرف حقيقة هذا الأمر ، بعث "فيرناو دياز سيزار" "Fernao Dias Cisar" ، جنديّ

كبير السفن ، كثير الحركة والنشاط والأمانة ، على ظهر مركب خفيف إلى ساحل "الشحر" لينتظر السفن التي كانت في طريقها من مكة إلى قشن "Camfar" ، وكلّ الموانئ الأخرى ، وليستكشف بصورة مؤكّدة إن كانت هناك أيّ سفن ، وكم عددها؟ ومعرفة إلى أين؟ ولأي غرض تبحر؟

تمركز "فيرناو دياز" في ذلك الميناء ، وتلقّى بعض المعلومات من بعض المراكب التي أكّدت أنّ خمساً وعشرين سفينة قد أعدّت الآن في السويس ، وأفيد بأنّها في طريقها لتستقرّ في البصرة .

جاء بتلك الأخبار في يونيو إلى "دوم الفارو" الذي أمر في الحال بكلّ الطعام ، والمياه ، وحطب الوقود ، والأخشاب ، والسِقالات ، وكلّ الأشياء التي تعتبر ضروريّة بأن تجمع ، وتوضع داخل القلعة .

أرسل "سيماو دا كوستا" "Simao da Costa" و"ميجيل كولاسو" "Miguel Colaso" على ظهر سفينتين خفيفتين ومعهما أوامر بأن يتّخذا مواقع خارج "رأس الحدّ" حتّى نهاية أغسطس الذي كان فترة رياح مكة في ذلك المضيق .

عندما شاهدوا السفن الشراعية التجارية التي إن كانت أكثر من عشرين ، فإنّ على "سيماو دا كوستا" العودة إلى الهند لإطلاع نائب الملك بينما على "ميجيل كولاسو" العودة إلى هرمز وإخطار مدن قريات ، قلهات ، مسقط ، وكلّ المدن الأخرى حتّى يكونوا على أهبة الاستعداد .

مع تلك السفن وهي متمركزة حيث كانت ، الأوامر بذلك ، وعند بداية شهر أغسطس شاهدوا خمس سفن والتي بعث بها "بيري ريس"

في المقدّمة ، وبها ابنه ، لتستكشف إن كانت هناك أيّ سفن برتغاليّة عند مدخل المضيق .

عند رؤية الأشرعة والتأكّد من أنّها السفن الشراعية ذات المجاديف ، أبحر "سيماو دا كوستا" ليرى ويتأكّد إن كانت هناك ، ما هي أكثر من ذلك العدد ، وعندما رأى عددها ، ووجود أكثر منها ، عاد إلى الميناء لأنّ الرياح الغربيّة كانت قويّة جدّاً ، ولم يكن هناك أيّ طريق يمكن أن يبحر فيه .

"ميجيل كولاسو" الذي شاهد السفن أيضاً عاد على طول الساحل ، ووزّع الأخبار لكلّ المدن .

كان القائد في مسقط في ذلك الوقت هو "جواو دي لسبوا" "Joao de Lisboa" ، الذي بعث به نائب الملك "دوم أفونسو" إلى هناك لبناء قلعة لحماية البرتغاليّين الذين تواجدوا دائماً في تلك المدينة ، وذلك حسب أوامر سموّه قبل أن يغادر "البرتغال" .

كان "جواو دي لسبوا" يشيّد تلك القلعة على قمّة جبال "الباكالا" "Bacala" المطلّة على الحاجز . لم تكن قد اكتملت بعد لأنّه قضى هناك ثلاثة أشهر فقط .

عند تلقّيه رسالة عن السفن قام في الحال بإرسال زوجته وزوجات العديد من البرتغاليّين الذين كانوا هناك على ظهر مركب إلى هرمز ، يرافقهم "بارتولوميو دياز دي موريس" "Bartholomew Dias de Moris" و"أبولينا ريو مينديز" "Apolina Rio Mendes" ، وهم رجال كبار السنّ

وموثوق بهم ، وانسحب هو إلى قمة القلعة التي كانت بحالة تمكّنها من الدفاع عن نفسها ، ومعه ستّون من البرتغاليّين الذين كانوا هناك .

وضع في داخل القلعة كلّ المؤن ، المياه وحطب الحريق الذي استطاع جمعه ، وبهذه الطريقة أعدّها بأحسن طريقة ممكنة . ابن "بيري ريس" الذي شاهد "سيماو دا كوستا" في الوقت الذي كان عائداً فيه إلى الشاطئ رفع شراعه وانطلق خلفه يطارده ، بما أنّ الرياح كانت قويّة ، والقارب صغيراً ، والأمواج عالية .

حتّى إنّه كاد أن يغرق ، تمكّنت السفينة من اللحاق به ، لكن لأنّ الربّان أراد أن يأخذ رجالنا أحياء ، فقد قرّر عدم إغراقه ، لكنه استدار بطريقة جعلت القارب يبقى تحت مجاديف السفينة ، قاذف قناديل وجندي كانا يقفان عند مقدمة المركب معتقدين أنّهما فقدا ، قبضا على المجاديف لإنقاذ نفسيهما مفضّلين أن يؤخذا كأسيرين بدلاً من الغرق .

عندما رأى "سيماو دا كوستا" ، وكان رجلاً عنيفاً وخبيراً ، أنّ السفينة تنحرف باتّجاه الريح ، شجّع بحّارته ، ونشر الشراع ، وترك السفينة تتحرّك بمساعدة الرياح . في ذلك الوقت رُفع قاذف القناديل والجندي اللذان كانا معلّقين في المجاديف لظهر السفينة بواسطة الأتراك .

عندما تمكّن القارب من الهرب من بين المجاديف عبر خطئه ، استمرّ ابن "بيري ريس" في إطلاق مدافعه بقدر المستطاع ، إلاّ أنّها كلّها لم تصب شيئاً ، لأنّ "سيماو دا كوستا" كان يلقي بالنقود للمجدّفين على طول المعبر الخشبيّ ، حتّى يقوّي من عزيمتهم .

أجبر المركب على استخدام الأشرعة بطريقة جعلته يتقدّم دائماً

باتّجاه الرياح حيث كان يعلم أين تكون السفينة ، لم يترك لها مجالاً لتتبعه ، وعند هبوط الليل كانت قد فقدته ولم تعد تراه ، وعندما وجد نفسه قد تحرّر من الضغط عبر "سيماو دا كوستا" إلى ساحل فارس ، وأبحر عبره ليصل إلى هرمز .

تسبّبت الأخبار التي قدّمها هناك بخصوص السفن الخمسة في كثير من الاضطراب والرعب للجميع ، حتّى إنّهم بدأوا بترك المدينة ، الناس العاديون اتخذوا طريقهم نحو شاطئ "موغستان" ، أمّا القادة والأغنياء فقد ذهبوا إلى جزيرة قشن القريبة من هرمز .

انسحب الملك وكبير الوزراء إلى القلعة مع زوجاتهم وكلّ ثرواتهم ، حيث قام الضابط "دوم ألفارو" بإيوائهم وكلّ البرتغاليّين الذين كانوا في الخارج .

بدأ ببناء تحصينات كأفضل ما يستطيع ، وعندما انتهى من عدّ كلّ أولئك الأشخاص وجد أنّ عددهم تقريباً تسعمائة رجل ؛ لأنّ هناك أكثر من ثلاثمائة رجل من السفينة الملكيّة التي كان ربّانها "إيريس مونيس" "Aires Mones" ، ولأنّه كان يحتاج إلى الوقت فقد اتّجه نحو هرمز ليواصل من هناك إلى الهند ، كما ذكر في السابق . من بين تلك القوات كان مع "دوم ألفارو" ألف بندقيّة والعديد من الأسلحة والذخيرة .

حالما فقد مركبنا عاد ابن "بيري ريس" مرّة أخرى ، وعند انبلاج الفجر وجد نفسه على مرأى من الساحل الآخر للجزيرة العربية بعيداً عن مسقط . استمر من هناك في بحثه عن والده ، وبما أنّه تقدم لمسافة بعيدة إلى مكان يدعى "خورفكان" . مرّ من أمام مركب والذي كانت

فيه زوجة "جواو دي ليسبوا" مع الآخرين . طلب وضعهم على ظهر سفينته وأمر "بارتولوميو دياز" و"أبولينا ريو مينديز" بأن يجلسا على مقاعد التجديف .

ذهب بغنيمته إلى مسقط حيث وجد والده ينتظره . بما أنّ الأخير قد أبحر في مؤخّرة أسطوله لكن لم تكن لديه أيّ أخبار عن ابنه عندما دخل إلى المضيق ، ولم يكن يعلم حتى بما حدث له مع مراكبنا ، لذلك معتقداً أنّه قد يجده حتّى في مسقط ، سافر على طول الساحل بحثاً عنه .

في ذلك الوقت كان "استيفاو جوميز" "Estifao Gomez" ، وهو رجل كثير النشاط والطاقة ، كان الوكيل التجاري في مدينة قلهات ، والذي سنذكر عنه الكثير فيما بعد ، عندما شاهد السفن تمرّ صعد على ظهر زورق صغير ليذهب ويخطر نائب الملك .

فرح "بيري ريس" كثيراً عندما وجد ابنه ، وأثاره أكثر الغنيمة التي وجدها معه ، فدخل إلى حاجز مسقط ، وبالرغم من علمه بأنّ رجالنا كانوا متمركزين هناك إلاّ أنّه وصل حتّى الشاطئ دون أي مقاومة .

اجتاح المدينة التي كانت مهجورة ، حيث وجد الكثير من البضائع التي كان صعباً على السكان جمعها وأخذها معهم . لم يكتف بذلك ، وفي داخله رغبة جامحة للقبض على البرتغاليّين عن طريق الحصار ، أمر ببعض قطع المدفعية بأن تنزل من السفينة . أراد أن يتسلّق التلّ ، لكنه لم يستطع أن ينقل أكثر من مدفع واحد ؛ لأنّ الانحدار كان شديداً حتّى إنّ الرجال تسلّقوه في صعوبة شديدة .

وضعت قطعة المدفعية على القمة ، وتمركز هو مع كلّ الرجال على

قمة جبل كان بمثابة معقل حصين للقلعة ، وأحاط كلّ ذلك بخندق ، ومن ثَمَّ بدأ بإطلاق القذائف والهجوم . بما أنّ القلعة كلّها كانت تحت مرمى متاريسه أطلق كلّ قذائفه داخلها ، وبهذه الطريقة تسبّب في الكثير من الدمار والضرر ، وتلقّى أيضاً ضربات من جنودنا .

بعد مرور ثمانية عشر يوماً من هذا الحصار الذي دافع فيه رجالنا عن أنفسهم في تصميم شديد ، تقلّصت عندهم الذخيرة كثيراً ، والمياه أيضاً ، حتّى إنّهم أجبروا على توزيعها بكميات قليلة حرصاً على نفاذها ؛ لأنّهم لم يعتقدوا أنّ الأتراك سيقومون بحصارهم ، أو البقاء لمدة طويلة ، لم تكن معهم المؤن الكافية التي يحتاجونها .

من الناحية الأخرى كان "بيري ريس" يشكّ في إمكانية اقتحام قوّاتنا بسبب المقاومة الشديدة التي كان يواجهها من جنودنا ، وعندما رأى أنّه يضيع الوقت قرّر إغراءهم بعرض شروط جيدة ومغرية ، وأرسل لذلك الغرض أحد البرتغاليّين الهاربين ، والذي جاء به معه ، ويدعى "جواو دا باركا" ، والذي ذهب للتحدّث مع أولئك الموجودين بالداخل .

وأخبرهم أنّ "بيري ريس" أراد الإذن بأن يرسل رجلاً ليتحدّث مع القائد عن أمور في غاية الأهمية . طلب "جواو دي ليسبوا" وجهة نظر الجميع ، واتّفق على إعطاء الإذن له ، وأن يتمّ الاستماع لما يقوله .

بعد تسلّم هذه الرسالة عاد "جواو دا باركا" ، وأخطر القائد بأنّ الباشا قد أمره بأن يقول لهم إنّه يعلم بمدى المحنة التي هم فيها ، وبما أنّ القائد لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فإنّه لن يقتلهم ، وسيزوّدهم بالقوارب التي ستأخذهم إلى الهند .

زيّن البرتغاليّ الهارب الكلمات البرّاقة التي قالها "بيري ريس" ، وأصرّوا على عهدهم بعدم التراجع عن وعده ، وأيضاً أخبره بأن يقول لهم إذا لم يوافقوا على شروطه فإنه لن يرفع عنهم الحصار قبل أن يستولي على القلعة ، وعندها لن يترك أحداً منهم حياً .

عندما عرضت هذه الرسالة على المجلس من قبل الضباط ، وتم إيضاح كلّ الصعوبات والنقص الحادّ في كل شيء ، اتّفقوا جميعاً بعد نقاش طويل بأن يذهب الضابط "جواو دي ليسبوا" مع راهب من "الجزويت" كان يعيش هناك لمقابلة "بيري ريس" وأن يقبل الجميع ما يتّفق عليه .

من ثَمَّ ذهب الاثنان مع "باركا" إلى "الباشا" ، الذي استقبلهم بالكثير من الحفاوة . أجلسهم بالقرب منه ، وأخبرهم بأنّه لا يريد أيّ شيء سوى شرف عظيم الترك ، الذي سيعلم أنّه استولى على قلعة من البرتغاليّين ، ووعدهم بتأمين حياة وحرية كلّ البرتغاليين الذين بداخل القلعة ، ولهم مطلق الحرية في الذهاب أينما يشاؤون .

عبّر عن ذلك بكلمات رقيقة ورنّانة ، الأمر الذي جعل "جواو دي ليسبوا" يقبل تلك الشروط ، وبعدها أصدر الباشا له تصريحاً بالمرور الآمن باسم عظيم الترك ، بعد هذا بعث "جواو دي لسبوا" برسالة إلى كلّ الذين بداخل القلعة بأن يأتوا إليه ، وقد جاءوا فعلاً .

عندما وجدهم "الباشا" جميعاً حوله عاملهم بالأسلوب المعهود من الأتراك ، وأرسل كلّ واحد منهم ليجدّف على ظهر السفينة ، وبعد أن أمر المدفعية التي بالقلعة وكمية كبيرة من البضائع التي جمعت من

هناك أن توضع على ظهر السفينة ، صعد على ظهرها مرّة أخرى بعد أفرغ القلعة من كلّ شيء .

الرجال المهمّون الذين ألقى القبض عليهم هنا مع "جواو دي لسبوا" هم : "أندريه فيو" "Andre View" وشقيقه "دييجو" ، كانا مواطنين من جزيرة "ماديرا" "Madera" واللذين تزوّجا فيما بعد في "غوا" وأصبحا مواطنين فيها ، "باستياو كريدو دي أبريو" "Bastiao Credao de Abrio" ، الذي أصبح فيما بعد قائداً في "ترابور" .

و"ماهيم" ، "مانويل كاستيلو" "Manuel Castello" ، "أنطونيو لوبيز دي أوليفيرا" "Antonio Lopez de Oliveira" ، "ديوجـــو لـــويس" "Diogo Luis" ، "مانويل دياز" "Manuel Dias" ، "أنطـــونيو بنـــتو" "Antonio Bento" ومواطنون آخرون جميعهم نبلاء وأصحاب مكانة رفيعة .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

فرض الباشا "بيري" حصاراً على قلعة هرمز ، وقصفها بالقذائف لعدّة أيّام . حدّد الضابط "دوم ألفارو دي نورونها" المواقع للدفاع عنها ، وردت التفاصيل في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" : [٢٥]

سعيداً نوعاً ما بغنيمة تلك القلعة ، غادر الباشا "بيري ريس" مسقط ، وظهر بعد عدّة أيام في هرمز مع كلّ أسطوله . كان يوماً كثيف الضباب ، فذهب يبحث عن الشاطئ الآخر عن "جيرون" "Jarun" حيث أنزل في الحال كلّ رجاله .

بالرغم من كونه مصاباً بحمّى رافقته لأربعة أيّام ، قام قائد القلعة "دوم ألفارو دي نورونها" ، وأبحر برفقة ستّمائة رجل . عندما وصل

(٢٥) رقم الوثيقة والهامش.

مفترق الطرق خارج المدينة أصدر أوامره بالتجسّس على العدوّ . بعد أن علم أنّهم جميعاً على الشاطئ عاد إلى القلعة بناءً على نصيحة كل رجاله حتّى يتأكّد ممّا يعتزم العدوّ القيام به .

أبقى على حراسة جيّدة عليهم نهاراً وليلاً ، وأعدّ الأربعين سفينة التي كانت في ذلك الميناء بطريقة تجعل من المستحيل الاستيلاء عليها ، وخاصّة السفينة الملكيّة الرئيسية التي كانت هناك ، وهي سفينة ضخمة ، وقام قبطانها "إيريس مونيس" بإصدار الأمر بأن يوضع عريف الملّاحين ، وهو رجل ذو خبرة واسعة في مجال عمله ، وكان يعرف باللقب "هاريليب" بين كلّ البحّارة والغلمان الذين يعملون على السفن ، وأيضاً "كرئيس مطلقي القذائف" لأنّه كان يضع المدافع دائماً في حالة استعداد .

بعد اتّخاذ تلك الاحتياطات قام القائد مباشرة بإجراءات الدفاع عن القلعة ، وعيّن "دوم فرانسيسكو دي ألميدا" ، ابن "بيدرو دي ألميدا" "Pedro de Almeida" القادم من "إيفورا" "Ivora" ، كقائد لحصن "سانتو اندريه" مع مائتين وأربعين رجلاً ، ووضع "غونسالو جويديس دي روبريدو" "Goncalo Guedes de Roberido" ، وهو سيد نشط ، على حصن "سانتياجو" مع مائة وثلاثين جنديّاً .

اختار القائد الحصن الأمامي بالمدينة لنفسه مع مائة رجل تحت إمرته . عند السور الذي يطوّق القلعة ، والذي يبدأ من هذا الحصن وحتّى حصن "سانتو أندريه" ، وضع "ايريس مونيس" مع خمسين رجلاً . عند الجدار الآخر الذي يمرّ بحصن "سانتياغو" وضع "مانويل دي سوزا" "Manuel de Susa" ، شقيق "فيرناو دي سوزا دي كاستيلو برانكو"

"Fernao de Susa de Castelo Branco" مع ثلاثين رجلاً . في الجانب الذي باتّجاه البحر وضع "أنطونيو كوريا" ، وهو فارس نبيل ، مع ستين رجلاً .

أمّا في الحصن الذي بالوسط فكان يتمركز العمدة ، لم يذكر اسمه ، مع أربعين رجلاً . في وسط المنطقة عند سطح غرف المستودعات كان هناك الملك مع زوجته وأطفاله ، وكبير الوزراء (الجوازيل) ومير إبراهيم كبير قضاة المملكة مع عائلاتهم . بقية الجنود الذين لم يكونوا ملائمين في بعض التحصينات القوية ظلّوا كاحتياط مع بعض الضبّاط . أمرهم القائد بتقديم المساعدة عندما تقتضي الحاجة لذلك .

في اليوم التالي قام "بيري ريس" برفع معدّات المدفعيّة ، وزحف عصر ذلك اليوم على مرأى من القلعة ، وأقام معسكراً على موقع مبنى الجمارك القديم ، وبدأ في الحال بتحصينه بالحجارة ، والتراب ، والكثير من الأخشاب التي وجدها في المدينة .

في الأماكن التي وجدها مناسبة للمدفعيّة قام ببناء حصون وأسيجة ، حيث وضع خمساً وعشرين قطعة من المدفعية الثقيلة ، التي يطلق بعضها قذائف حديديّة يصل وزنها إلى أربعين رطلاً ، وبعضها يطلق قذائف من الحجارة ، ومن ثَمَّ بدأوا بقذف القلعة في كلّ موقع بعنف شديد .

بما أنّ الجدران كانت من الطين ، فإنّ قذائف الحجارة من المدفعية الثقيلة انغرست عليها ، وكأنّها وضعت هناك باليد ، وقد بقيت كتذكار على تلك الجدران .

في اليوم الرابع للحصار قرّر القائد أنّه من الضروريّ إطلاع نائب الملك عن كلّ ذلك . أعدّ زورقاً كان على الشاطئ راسياً تحت القلعة ، وبعث

"بيرو فيرنانديز دي كارفالهو" عليه مع هذه الرسالة . أبحر في منتصف مستخدماً المجاديف قاصداً شواطئ "موغستان" ، ومن هناك تبع الساحل حتّى "رأس جاسك" من حيث أخذ الطريق العاديّ .

ذلك لأنّ الزورق قد يواجه بعض الصعوبات أثناء الرحلة ، فقد قام القائد بإرسال زورق آخر بعد يومين ، ووضع فيه مقيماً في هرمز يسمى "كوزمو ألفاريز" "Cosmo Alvarez" غادر واتّبع نفس الطريق .

استمر الأتراك في القصف دون أن يحدثوا أي أضرار على القلعة ، وكانوا يتلقّون قذائف مثل التي أطلقوها ، لأنّ رئيس المدفعيّين الذي كان "نافاريزي" "Navarrese" الجنسيّة ، كان ماهراً في ذلك العمل ، والذي كان يضع ويعدّ القذائف ويطلقها على فوهات مدافعهم التي انفجرت ، وقتلت العديد منهم ، كما قام أيضاً بهدم تحصيناتهم ، والتي كانوا يبدأون بإعادة بنائها بصعوبة بالغة .

ضاق الجنود البرتغاليّون من البقاء محبوسين ، وبدأوا بالتذمّر علناً ، ويرغبون في فتح البوّابات والخروج ، وأخذ مواقع العدوّ ، والاستيلاء على مدافعهم . قام "الكابتن" ، وبصبر شديد ، فهدّأهم ، ووعدهم بأنّه عندما يحين الوقت المناسب سيلبّي لهم طلبهم ، لكن لم تكن تلك هي اللحظة المناسبة للقيام بذلك ؛ لأنّه لا يملك حالياً معلومات موثوقة عن عدد العدوّ ، وقد حاول جاهداً معرفة ذلك ، كما لم يكن معه أيّ مترجم يستطيع بواسطته معرفة ذلك ، لكن كلّ ذلك لم يكن كافياً لتهدئة الجنود .

عندما علم "غونسالو جويدس دي روبيريدو" ، قائد حصن سانتياغو برغبة القائد ، وأنّه في حاجة لإلقاء القبض على مترجم من العدو ،

تطوّع بالذهاب والتقاط أحدهم . قبِل القائد ذلك ، وشكره عليه ، وطلب منه الاستعداد بالذهاب ليلاً مع مائة من الرجال . كلّ النبلاء والشرفاء من الفرسان الحاضرين بالقلعة تطوّعوا بالذهاب إلى تلك الغارة ، لكنّ القائد رفض ذلك .

في أثناء حراسة منتصف الليل فتح الباب الخلفي ليتسلّل منه "غونسالو جويديس" ويغادر هو ومجموعته ، لكنّ القائد إمّا أنّه خشي حدوث كارثة ، أو اشتبه أنّهم شوهدوا ، فأمرهم بالعودة والانسحاب ، الأمر الذي أحبطهم جميعاً .

عندما رأى "بيري ريس" الدمار القليل الذي أحدثه للقلعة جرّاء قصفه المستمرّ بالمدافع ، قرّر رفع الحصار ، لكن قبل القيام بذلك حوّل مدفعيته باتّجاه السفن الشراعية الضخمة ، وليوم كامل أطلق عليها وابلاً من النيران ، ومن قذائف المدفعيّة بكلّ أنواعها .

معظم تلك القذائف كان موجّهاً للسفينة الملكيّة ، والتي كانت في مدى النيران ممّا تسبّب في بعض الأضرار بها ، والتي وعلى وجه السرعة تمّ إصلاحها من قبل الذين كانوا على ظهرها ؛ لكن تلك المدفعية تلقّت أيضاً ردّاً منها ، ممّا كلّفهم أرواح الكثيرين من رجالهم .

في اليوم التالي أمر "بيري ريس" في الحال بالإنزال ، وفي الليلة التي كان على وشك الانسحاب فيها ، جاء "جواو باليرو" ، قاذف مدافع من مسقط ، والذي كان سجيناً في ذلك الوقت ، للتحدّث إلى الرجال الذين كانوا في القلعة ، قال إنه يجب عليه أن يخبر القائد بأنّه يستطيع بسهولة دفع فدية جميع أسرى مسقط ؛ لأنّ "بيري ريس" قد رغب

في منحه تلك الخدمة ، والتي أضاف إليها الكثير من الكلمات المليئة بالمدح ، والتي كان مجبراً على النطق بها .

عندها علم القائد بما حدث في مسقط ، الأمر الذي أحبطه كثيراً ، لكن بما أنّه لم يكن يعلم بالطريقة التي أسر بها أولئك الرجال ، فقد امتنع عن الردّ على ما جاء به "جواو باليرو" ، الذي عاد دون أيّ إجابة .

بعد حصار دام عشرين يوماً ، أمر "الباشا" رجاله بالنزول ، وعند انسحابهم انتشروا داخل المدينة ، وبعد نهبها وسلبها تركوها مدمّرة تماماً ، ثمّ صعدوا على مراكبهم وتمركزوا بعيداً عن الشاطئ ، من حيث بعث "بيري ريس" رئيس بحّارة إيطاليّاً ، والذي عندما وصل قريباً من القلعة ، رافعاً علماً أبيض ، دخل مع رجالنا في حديث ، وقال إنّه يحمل رسالة من "الباشا" للقائد الذي أعطى أوامره بأن يدعوه يمرّ .

نزل رئيس بحّارة السفينة مع "بارتولوميو رودريجز دي موريس" "Bartholomew Roderigues de Moris" ، و"أبولينا ريو ميnديز" ، زوجة "جواو دي ليسبوا" ، الجنديّ والمدفعيّ من مركب "سيماو دا كوستا" ، الذي ترك معلّقاً على المجاديف في سفينة ابن "الباشا" ، يقدّم له هديّة بأولئك الرجال ، وتلك المرأة ، وقوساً جميلاً مع حقيبة السهام الخاصّة به ، والتي كان يحملها في يده ، وقدّمها له ، وإنّه إن أراد فدية كلّ الرجال الذين في مسقط فإنّه سيبقى هناك حتّى يقوم بذلك .

الإجابة الوحيدة التي قدّمها القائد لرئيس بحّارة السفينة ، هي أن يوضع هو وكلّ من معه في غرف المستودعات ، حتّى بحّارة المركب الذي جاءوا فيه .

أمر بأن يطلق سراحهم في اليوم الثالث ، وجيء بهم أمامه . بعد أن ألبسوهم جيّداً أخبر رئيس البحّارة أن يأخذ معه زوجة "جواو دي لسبوا" و"بارتولوميو رودريجز دي موريس" و"أبولينا ريو مينديز" وأن يخبر "الباشا" بأنّه لم يكن يرغب في فدية البرتغاليّين ، الذين كانوا من الجبن بحيث استسلموا قبل أن تمزّق أجسادهم ، وأنّ المرأة يجب أن تعاد لزوجها ، كانت جريمته أكبر ؛ لأنّه كان القائد ، وكان يجب أن يعاقب عبر زوجته ، حتّى يكون عقابه أشدّ وأقسى .

قبِل بالجنديّ الذي كان معه ، والبحّار الذي كان على مركب "سيماو دا كوستا" ؛ لأنّهما لم يكونا طرفاً في تلك الجريمة ، وكانت فديتهم على أساس الأشياء التالية : بعث في الحال بطبقٍ فضّيّ ، وجرّة مزيّنة بالذهب ، وبندقيّة رائعة ، وسيفٍ جميلٍ مع درعٍ يدوي ، تُسلّم لرئيس البحّارة .

كان عليه إطلاع "الباشا" بأنّ تلك كانت الأشياء التي تلقّاها ضبّاط ملك "البرتغال" من رعايا عظيم الترك ، وأمرهم جميعاً بالصعود ، غير مكترث للنحيب ، والتوسّلات ، والدموع المثيرة للشفقة التي غطّت وجه الزوجة الحزينة ، والرجال كبار السنّ المتعبين .

عندما وصلت هذه الرسالة إلى "الباشا" ، وكان الوقت ليلاً ، أمر في الحال أن تؤخذ المرأة والرجلان كبيرا السن إلى الجزيرة بواسطة نفس رئيس البحّارة ، واتّخذوا ملجأ لهم في القلعة . أبحر هو إلى جزيرة قشن وأخذ معه سفينة لأحد البرتغاليّين تُركت مهجورة على الشاطئ ، ولأنّه

سمع بأنّ كلّ ثروات مدينة هرمز قد نقلت إلى تلك الجزيرة ، وهناك نزل على اليابسة دون أن يواجه أيّ مقاومة .

ظلّ هناك لعدّة أيّام مسافراً عليها بالطول والعرض ، ناهباً ومستولياً على كلّ ما فيها ، وجمع الكثير من الغنائم من أملاك أكثر من ثلاثين تاجراً ثريّاً من الذين انسحبوا إلى هناك . كان من بينهم يهوديّ إسبانيّ يدعى "سولومن" (سليمان) أكثر ثراءً من كلّ الآخرين .

والذي استولى منه الأتراك على كلّ ما كان يملكه ، وأخذ سجيناً مع كل عائلته ، وقرابة العشرين ألفاً من الناس الذين كانوا في الجزيرة ، أخذوا منهم من يريدونه ، وعاملوا الجميع بقسوة شديدة ، وعندما تعبوا تماماً من السلب والنهب ، صعدوا على ظهر سفنهم واتّجهوا نحو البصرة .

تقع جزيرة قشن على مسافة فرسخين بطول الساحل العربي في هرمز (بالرغم من أنّها تبعد مسافة خمس فراسخ في تقرير آخر عثرت عليه) ويبلغ طولها ثلاثين فرسخاً ، وعرضها فرسخين ، وفي بعض الأماكن يبلغ ثلاثة فراسخ . تبدأ في مكان يدعى "لافتا" وتنتهي في مكان آخر يسمى "كريمياو" ، وهي آخر مكان إلى الداخل .

القائد الذي لم يكن متأكّداً عن العدوّ ، أرسل بعض المراكب الخفيفة بغرض التجسّس عليهم . بعد أن تلقّى أخباراً عنهم ، وأنّهم قد انسحبوا الآن إلى البصرة ، عاد الملك و"الجوازيل" (رئيس الوزراء) إلى المدينة التي وجدوها مدمّرة ومهدمة تماماً . من بعدهم بدأ أيضاً الناس الذين في الشاطئ الآخر بالانسحاب إليها ، لذلك بعد وقت قصير كانت مأهولة مرّة أخرى بالسكّان ، وأعيد بناؤها من جديد .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

يتلقّى نائب الملك أنباء حصار هرمز ، ويعدّ نفسه للذهاب وإنقاذها ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" : (٢٦)

"ايستيفاو جوميز" الوكيل التجاري لـ قلهات الذي كان في طريقه إلى "غوا" على ظهر زورقه عبر الخليج الكبير ، حتّى وصل إلى "باسين" ، ومن هناك واصل رحلته البحريّة بعد أن قدّم الأخبار التي كان يحملها .

تلك الأخبار كانت عن الأتراك ، وقد سبّبت الكثير من الدهشة والصدمة في "باسين" ، حتى إنّ بعض الناس بدأوا في الحال بالاستعداد للذهاب وتحرير هرمز . كان أوّلهم "أنطونيو دي سا" الذي كان يلقب بـ "التركيّ" ، والذي وبسرعة حثيثة أفرد أشرعته في اليوم التالي على ظهر مركب خفيف مع عشرين من الجنود .

(٢٦) رقم الوثيقة والهامش.

عندما كانوا في البحر قام بتقييد كلّ البحارة بالسلاسل ، والتي جاء بها سرّاً لهذا الغرض ؛ لأنّه كان مصمّماً على المرور وسط سفن الأتراك ، ولا يريد أن يقفز البحّارة من على ظهر السفن إلى المياه خوفاً ورعباً من المواجهة . سافر بسرعة معقولة حتّى إنّه وصل إلى هرمز في عشرين يوماً ، حيث تمّ استقباله بحماسة شديدة من قبل قائد المدينة ، بينما كان الأتراك لا يزالون يتسكّعون على جزيرة قشن .

وصل "ايستيفاو جوميز" إلى "غوا" في نهاية أغسطس ، ممّا أثار دهشة الجميع ؛ لأنّه عبر ذلك الخليج الرهيب والكبير على ظهر قارب صغير وسط طقس شنيع . أعطى الأخبار عن السفن وعددها إلى نائب الملك ؛ لأنّه كان قد عدّها بعناية .

بعد أن قدّم له نائب الملك الشكر والعرفان ؛ لتحقيقه هذا الإنجاز والعمل الهامّ ، قرّر نائب الملك أن يهتمّ شخصياً بالأمر ، فأخطر النبلاء وضباط المجلس بذلك . طلب منهم جميعاً الاستعداد لمرافقته ، وقد وافق الجميع على ذلك . تحدّثوا بكثير من الإطراء عنه ، وفرحوا كثيراً لمرافقته .

في اليوم التالي ودون انتظار وصول نائب الملك قام "دوم دييجو دي نورونها" "D . Diego de Noronha" و"دوم أنطونيو دي نورونها" "D . Antonio de Noronha" شقيق "دوم ألفارو" قائد هرمز ، بالإبحار كلّ منهما على ظهر مركبه الذي يعمل بالمجاديف مع خمسين جنديٍّ في كلّ مركب ، وأيضاً معهم أقرباؤهم وأصدقاؤهم مرافقين لهم على نفس المركب .

اتّجه نائب الملك إلى حوض سفن الأسطول ، وأصدر أوامره بتجهيز

كلّ السفن ، التي تعمل بالمجاديف ، وتلك التي تعبر المحيطات ، والتي كانت موجودة هناك ، بأسرع ما يمكن ، وجمع المؤن ، والذخيرة ، وكلّ الأشياء الضروريّة لتلك الحملة .

أوّل ما قام به كان إرسال زورقين خفيفين ؛ في أحداهما بعث برسائل إلى مدن وقلاع الشمال ، وإلى بعض الشخصيات الخاصّة ، طالباً عونهم من الرجال والسفن لذلك الأمر الطارئ ، وعلى الزورق الآخر الذي كان ربّانه "فيرناو فارتو" ، أحد الفرسان الرائعين ، وذوي الخبرة في أمور البحار ، بعثه إلى هرمز مع رسائل لقائد المدينة ، أفاده فيها بأنّه حاليّاً في عرض البحر في طريقه لمساعدته .

لوجود نقص في الأموال في الدولة في ذلك الوقت ، فقد قرر اللجوء إلى المدينة مثلما كان يفعل الحكّام ونواب الملك السابق في مناسبات مشابهة ، لذلك ذهب إلى المجلس يرافقه الضبّاط ، والنبلاء القدامى .

كان كلّ أعضاء المجلس حاضرين ، وقام بتقديم التماسه لهم في حماس شديد ، وإنّه لمصلحة الدولة العامّة ، عليهم الموافقة على تقديم العون له بالأموال التي يستطيع كلّ منهم تقديمها ، طالما أنّ هذا الأمر ستكون فيه مصلحتهم على وجه الخصوص ، ولأنّه سيؤمن سلامة ممتلكاتهم ، ومنازلهم ، وأشخاصهم ، وزوجاتهم ، وأطفالهم ضدّ القوة العظيمة للأتراك ، وعليهم أن يتأكّدوا من التقدير والمنح التي ستوهب لهم في القريب كاملة دون نقصان .

عن هذا أجاب أقدم عضو مجلس باسم الجميع ، بأنّهم على استعداد لخدمة سموّه بأشخاصهم ، وبممتلكاتهم ، وسفنهم ، وأموالهم ، وكلّ

شيء آخر يستطيعون تقديمه ، كما فعلوا دائماً في مناسبات فرضت نفسها في السابق ، وسيعملون الآن بكلّ سرور ؛ لأنّهم يدركون أنّ هذا الأمر أكثر أهميّة من غيره ممّا حدث في السابق .

شكره نائب الملك كثيراً ، أصالة عن نفسه ، ونيابة عن الملك . بدأوا بعد ذلك بجمع الأموال من الناس العامّة ، وشاب ذلك بعض المنازعات ، وتمكّنوا من جمع عشرين ألف "بارداو" ، أخذوها إلى نائب الملك الذي بدأ بإعداد وتجهيز الأسطول .

بينما كان منشغلاً في هذا العمل ، فإنّ ثلاث سفن ضخمة من الستّ التي غادرت "البرتغال" في شهر إبريل من هذا العام ١٥٥٢م ، وصلت عند حاجز "غوا" في الثامن من شهر سبتمبر .

كان القائد العامّ هو "فيرناو سواريز دي البيرجاريا" "Fernao Soares de Albergaria" . كان أحد أولئك الذين وصلوا في ذلك الوقت مع "القباطنة" الآخرين الذين وصلوا معه ، وكانا "فرانسيسكو دا كونها" "Francisco da Cunha" و"براس دي سيلفا" "Bras da Silva" .

أمّا الربابنة الثلاثة الآخرون المفقودون فكانوا : "دوم جورجي دي مينسيس باروس" "D . Jorje de Meneses Barros" ، الذي جاء إلى هذه المملكة قبل سنتين ، "أنطونيو دياز دي فيجويريدو" "Antonio Dias de Viguerido" (ذهب كلاهما لقضاء الشتاء في "موزمبيق") .

و"أنطونيو مونيس باريتو" "Antonio Mones Baretto" الذي كان قد

أرسل إلى قلعة "باسين" ، وأثناء بحثه على ساحل الهند غرزت سفينته في رمال نهر "سيتابور" على بعد ثلاثين فرسخاً من "غوا" ، حيث تمّ إنقاذ كلّ رجاله والجزء الأكبر من ممتلكاتهم ، وأخذها إلى الشاطئ .

بوصول تلك السفن أسرع نائب الملك بالمغادرة ، وطلب سرعة إنجاز الكثير من الأشياء ؛ لأنّ المخاطر كانت كبيرة بالنسبة لهم إذا تأخروا طويلاً في عرض البحر .

(...)

عندما تمّ إعداد كلّ هذه الأشياء وغيرها ، صعد نائب الملك إلى السفينة دون أيّ تأخير ، وكان ذلك في نهاية أكتوبر ، وبالأسطول أكثر من ثمانين سفينة ، من بينها أكثر من ثلاثين سفينة ضخمة جداً .

(...)

أبحر هذا الأسطول مع رياح هادئة وجيّدة ، ووصل إلى "ديو" بعد أيّام قليلة ، حيث اعترض طريق سفينة كانت تحمل رسائل من "دوم ألفارو" قائد هرمز ، والتي أطلعه فيها على السفن التي انسحبت إلى البصرة ، وقدّم له بياناً مفصّلاً عن كلّ شيء حدث في هرمز ومسقط ، وشعر بالكثير من الأسى عن إحداها ، ممّا عكّر عليه الفرح الذي استشعره من أخبار الأخرى .

وضع الأمر برمّته أمام المجلس ، وتمّ الاتّفاق على إرسال أسطول ضخم ليجوب مضيق هرمز ، ويعود ليقضي الشتاء في تلك القلعة ، لمزيد من الأمن والسلامة ، وإنّ على نائب الملك العودة إلى "غوا" .

بعد اتّخاذ ذلك القرار قام نائب الملك في الحال بابتعاث "دوم

أنطونيو" ابن شقيقه مع اثنتي عشرة سفينة عالية الجوانب ، كانت خمس منها سفناً شراعيّة ، وسبع منها مراكب صغيرة ، بالإضافة إلى عشرين زورقاً يعمل بالمجاديف .

(...)

أصدر نائب الملك لـ "دوم أنطونيو" أوامر سارية بأن يطوف في المضيق حتّى شهر إبريل ، ومن ثَمَّ ينسحب إلى هرمز ويتولّى أمر القلعة ، لأنّ فترة رئاسة "دوم ألفارو" قد انتهت ، ويقوم بتسليم الأسطول لـ "دوم دييجو دي نورونها" ، الموجود هناك ، الذي عليه الإبحار بها حتّى شهر أكتوبر ، ثمّ يعود إلى "غوا" .

(...)

بقي نائب الملك هناك في انتظار الرسالة الثانية من هرمز ، وبعد انقضاء شهر تلقّى الأخبار بأن "بيرو لوبيز دا سوزا" "Pero Lopez de Susa" ، قائد "ديو" الذي كان حينها مريضاً عندما غادر ، قد توفّي .

لعدم تعيين أيّ قائد لتلك القلعة ، فقد أوكل المهمّة إلى "دوم دييجو دي ألميدا" "D . Diego de Almeida" الذي أبدى شعوراً طيّباً ، وقال إنّه قبل تلك الخدمة ؛ لأنّها كانت فرصة لخدمة سموّه أكثر منها لخدمة مصالحه الخاصّة .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

يصل "دوم أنطونيو دي نورونها" إلـى هرمز مع أسطول كبير ، ويصدر أوامره بالتجسّس على السفن التركية ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، للمؤرّخ "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" : (٢٧)

غادر "دوم أنطونيو دي نورونها" بأمر من عمّه نائب الملك "ديو" متجهاً إلى هرمز مع أسطول ضخم . أبحر في طقس رائع ، ووصل إلى تلك القلعة في نهاية شهر نوفمبر عام ١٥٥٢م ، حيث تواجد "دوم دييجو" و"دوم أنطونيو دي نورونها" هناك قبل أيّام قليلة . استقبل باحترام شديد من قبل القائد "دوم ألفارو" ، وبفرح عارم من كافّة السكّان الذين لم يتحرّروا تماماً من الخوف من السفن .

بعث "دوم أنطونيو" في الحال "جوميز دي سيجويرا" "Gomez de Segueira" و"لويس دي أجويار" "Luis de Aguiyar" ، وهما اثنان من أكفأ الضباط وأكثرهم

---

(٢٧) رقم الوثيقة والهامش.

خبرة ، وربابنـة متخصّصين في قيادة المراكب الشراعية الصغيرة ، إلى داخل البصرة ليتجسّسوا على السفن . كان على أحدهما أن يأتي له بالأخبار عمّا يكتشفه ، والآخر لينتظر هناك لحين وصول تعليماته . استمرّ في ذلك الوقت في إصلاح ، وإعادة تزويد أسطوله .

بعث الملك بوفد إلى "دوم أنطونيو" مع هديّة قيّمة ، ومميّزة عن كلّ ما كان يجري عادة ، بأن ترسل للقائد العامّ ، الذي وصل إلى هناك مع أسطولهم ؛ لأنّه عند قدوم القائد العامّ إلى تلك القلعة ، كان ملوك هرمز عادة ما يرتّبون هديّة تقدّم له من أقراط ، وأشياء أخرى قيّمة ، وتعتمد على الشخصيّة ، والأسطول الذي جاء به .

أعتبر أنّ هذا كان تفكيراً واستراتيجيّة من "دوم أنطونيو" الذي كان سعيد الحظّ لوجوده مع "دوم دييجو" ، و"دوم أنطونيو دي نورونها" ، ونبلاء آخرين مهمّين في أسطوله في يوم ما ، عندما أرسل له الملك علناً تلك الهديّة التي تتكوّن من عِقد غالٍ من اللؤلؤ ، وبعض القطع القيّمة من الذهب والفضّة ، وبعض قطع السجّاد الضخم الكبيرة والصغيرة ، والتي يقال إنّها كانت تساوي ما بين عشرة آلاف ، واثني عشر ألف "كروزادو" .

أعاد تلك الأشياء له في سريّة تامّة في نفس الليلة ، حتّى تتمّ مشاهدتها في القلعة ، ليرى الناس كيف أولاه الملك ذلك الاهتمام الكبير ، وكيف يكنّ له حماسة وإعجاباً عن غيره من الضبّاط الآخرين ، الذين ذهبوا إلى هناك حتّى ذلك الوقت ، وقد حكم عليه الناس في ذلك الوقت ، إنّه يملك حسّاً عالياً من الحكم على الأشياء ، والكثير من الاعتبارات ، الشيء الذي لا يمكن إنكاره ، وإنّه كان جديراً بكلّ تلك الهدايا .

حالما علم باشا البصرة أن "بيري ريس" قد نزل في مسقط وهرمز مخالفاً الأوامر التي أصدرها له عظيم الترك بعث في الحال بالأنباء إلى "القسطنطينية" .

عندما أُخطر "بيري ريس" ، الذي وصل حديثاً إلى البصرة من هرمز وجزيرة قشن بذلك ، ولأنّه كان رجلاً حكيماً وعاقلاً ، ويعرف تماماً شخصيّة عظيم الترك ، فكّر في نفسه ، إذا كانت رسالة الأخير تنتظره في البصرة ، فسيتمّ قطع رأسه مباشرة ؛ لذلك صعد مع كلّ الغنائم (التي يقال إنّها كانت تساوي أكثر من ميلون ذهباً) على ظهر سفن شراعيّة معدّة جيّداً ، ووضع كلّ البرتغاليّين الذين أسرهم في مسقط في الأصفاد ، وغادر البصرة في طريقه إلى "القسطنطينية" .

أقنع نفسه بأنّه يستطيع إرضاء عظيم الترك بهذه الغنيمة ، والعطاء الضخم الثمين ، ويحصل على عفوه .

واصل تقدّمه حتّى القطيف عندما اصطدمت إحدى سفنه بضفّة رمليّة بالليل ، حيث تحطّمت ، بما أنّ هذا حدث خلال الظلام ، وبما أنّ البرتغاليّين لا يعرفون طبيعة الأرض هناك ، وخشية الغرق وافقوا على أن يظلّوا مقيّدين داخل السفينة .

عندما رأى "بيري ريس" الذي كان يبحر في الأمام أنّ إحدى السفن مفقودة ، عاد أدراجه ، ووجدها حطاماً على الضفّة الرمليّة ، والجميع مازال على متنها ، أمر بالتقاطهم مع كلّ الأشياء الأخرى التي على السفينة ، ثمّ واصل طريقه .

الربّانان اللذان كانا يتجسّسان على سفن العدوّ شاهدا السفن

الثلاثة في الحال عند مغادرتها البصرة ، بقي "جوميز دي سيجويرا" لإكمال مراقبته لهم ، والاحتفاظ بهم تحت بصره . "لويس دي أجويار" ذهب بالرسالة إلى هرمز بأسرع ما يمكن ، وقام بأخطار "دوم أنطونيو" ، وظلّ حتى وقت كاف في انتظار "دوم دييجو" و"دوم أنطونيو" . في الوقت الذي كانا يغادران فيه هرمز وصل "جوميز دي سيجويرا" ، وأخبرهم بأنّ السفن تبحر بطول ساحل الجزيرة العربية ، وعاد عندها "دوم أنطونيو" لمطاردتها .

أبحرت السفن بعيداً بعض الشيء داخل البحر ، بينما كانت سفن التجديف التي مع الأسطول لا تزال عند الشاطئ ، حتّى لا تترك بعيداً في المؤخرة ذهب "جوميز دي سيجويرا" و"لويس دي أجويار" في مقدّمة الجميع حتّى يقوما بتحديد مواقع المداخل .

كان هذا شهر فبراير عام ١٥٥٣م الذي تهبّ فيه رياح بعيداً عن الشاطئ ، وهي رياح شماليّة غربيّة ، عاصفة جدّاً في ذلك المضيق ، في ذلك المكـان أصابت الأسطول عاصفة هوجاء وضخمة ، وبأشرعة قليلة ، ومخاطر جمّة استطاعت السفن أن تأخذ طريقها حتى مسقط .

أبحـر "فيرناو دياز سيزار" خارجاً من هناك على ظهر مركب شراعي ، وأطلـع "دوم أنطونيـو" أن سفينتين قد مرّتا في اليوم السابق على مرأى من اليابسة ، عند سماعه هذا ، أمر بفرد ونشر كلّ الأشرعة ، وذهب للمطاردة بكلّ السفن التي تعمل بالمجاديف في المقدمة ، حتى تشتبك معها ، واصطدموا بها .

شقّ طريقه حتّى "رأس الحدّ" دون أن يشاهدها ، بناءً على نصيحة

كلّ البحّارة قام "دوم أنطونيو" (الذي كان يريد متابعتهم حتّى مضيق مكة) بالعودة من هناك ، لأنّ الرياح كانت أمامه ، ولم يكن الأسطول معدّاً لتلك المواجهة ، اتّخذ طريقه بعد ذلك إلى ضفاف "طيوي" في انتظار السفن القادمة من الهند ، جمعها كلّها معاً هناك ، وظلّ كلّ شهر إبريل وعدة أيّام من شهر مايو هناك .

كان على وشك الإبحار من هناك عندما قابل "بيرو دي أتيدا" "Pero de Ataide" ، منفصلاً برفقة كلّ أسطوله الذي كان حتّى ذلك الوقت موجوداً عند مدخل المضيق ، ولم يحدث أيّ شيء يستحقّ الذكر بالنسبة له ، ولم يشاهد "بيري ريس" الذي لابدّ أنّه مرّ خلال الليل .

ذكر "دوم أنطونيو" بعض التعليقات عن راياته ، وقام في النهاية "بيرو دي أتيدا" بإبعادها ، وتبعه بدونها حتّى قريباً من هرمز .

عندها قام "دوم أنطونيو" بتسليم القلعة ، وسلّم الأسطول إلى "دوم دييجو دي نورونها" ، أيضاً "بيرو دي أتيدا" سلّم ما معه عبر أمر رسميّ وجده قد صدر هناك من نائب الملك ، والذي أمره القيام بذلك ، وعندها نزل "دوم أنطونيو" عن السفينة ، وكذلك فعل "بيرو دي اتيدا" كجنديّ له .

أصدر "دوم دييجو" أوامره بصيانة ، وإعداد الأسطول ، ودفع له "دوم أنطونيو" ليسدّد أجور الجنود ، وأوصى بأن تؤدّى له أنصبة متساوية في كلّ الأوقات التي يتواجدون فيها هناك .

هناك شيئان ساعدا دائماً في دعم والمحافظة على الهند ، لأنّ القوّات

دائماً سعيدة هناك ، ولن أندهش إذا كانت الصعوبات التي يتحمّلونها الآن ، قد نتجت أصلاً من حقيقة أنّ هناك حاجّة دائماً لشيء ما .

أرسل "دوم دييجو" بعض المراكب التي تعمل بالمجاديف ؛ لتذهب إلى موانئ مختلفة من هرمز إلى البصرة ، وذلك لكي تتجسّس على السفن ذات المجاديف ، وتبعث له بأخبار دائماً ، وبكثرة عن كما يستجدّ .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)
عظيم الترك يبعث "علي شلبي" لأخذ خمس عشرة سفينة ذات مجاديف من البصرة إلى السويس ، فأرسل "دوم فيرناندو دي مينسيس" و"بيرنارديم دي سوزا" "Bernardim de Susa" للتجسّس عليهم ، كلّ على طريقته الخاصّة ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" : [٢٨]

بعد المعركة الشرسة التي تمّت بينه وبين "غونسالو بيريرا مارامالك" "Goncalo Perriera Maramac" ، هرب "باربا روسا" "Barbarosa" من "دوم دييجو دي نورونها" ، وانسحب إلى البصرة مع السفن التي تحت إمرته ، تلقّى عظيم الترك في الحال أخباراً عمّا حدث في اليابسة ، الأمر الذي أحزنه كثيراً ، وجعله توّاقاً للانتقام ، حدث في ذلك الوقت أن كان هناك قرصان في البلاط يدعى "علي شلبي" وهو

(٢٨) رقم الوثيقة والهامش.

موظّف كبير سابق في البلاط بـ القاهرة ، رجل ثريّ جدّاً ومحبوب عند "الباشوات" .

كان هذا الرجل شغوفاً بأن يؤدّي تلك الخدمة لعظيم الترك ، الذي شعر نحوه بتعاطف شديد ، لذلك اقترح على "الباشوات" أن يذهب ويأخذ معه الخمسة عشر سفينة إلى السويس ، وكان عظيم الترك قد أمر "بارباروسا" أن يقوم بذلك ، مضيفاً أن تلك لم تكن عمليّة حكيمة أن يوكّل مثل هذه المهمّة الهامّة لرجل تنازل ، وسلّم قلعة القطيف للبرتغاليّين دون أن يسمع صليل سيف واحد .

بما أنّ "الباشوات" كانوا أصدقاءه ، ناقشوا الأمر مع عظيم الترك حتى يقبل بالعرض ، وغادر "علي شلبي" في الحال متّجهاً نحو البصرة ، وتولّى قيادة الأسطول ، وبدأ في إعداده وترتيب أموره ، حتى يغادر في بداية شهر أغسطس .

في أول شهر يوليو بعث "دوم فيرناندو دي مينسيس" "D . Fernando de Meneses" ابن نائب الملك الذي كان وقتها في هرمز ، ومعه أسطول قويّ ، بعث بثلاث سفن خفيفة كان ربابنتها هم :

"جوميز دي سيجويرا" ، "لويس دي أجويار" ، و"سباستياو دي ماسيدو" "Sebastiao de Macedo" ، ومعهم أوامر بأن يتمركزوا عند مدخل مضيق البصرة ؛ ليتجسّسوا على السفن . أحدهم كان عليه أن يأتيه بالأخبار عمّا يستجدّ ، والآخران أن يبقيا في مراقبة دائمة حتّى مغادرة تلك السفن .

عندما وصل أولئك الربابنة إلى الموقع الذي حدّد لهم ، علموا من

بعض المراكب التي استولوا عليها بأنّ "علي شلبي" قد وصل ، وإنّه كان مع تلك السفن في المياه يستعدّ للمغادرة ، عند تلقّي هذه المعلومات غادر "جوميز دي سيجويرا" في الحال .

"بيرنارديم دي سوزا" "Bernardim de Susa" ، قائد القلعة كانت له خطّته الخاصّة ، حيث قام بإرسال بعض الجواسيس متنكّرين في زيّ صيّادي الأسماك لبيعها للسفن التركيّة ، ولاحظوا عن قرب ما كان يحدث عندهم ، دون أن يشكّ فيهم أحد ، وكان "بيرنارديم دي سوزا" يتلقّى منهم أخباراً بصورة مستمرّة .

في أيام قليلة من بداية شهر أغسطس ظهر "علي شلبي" من المضيق مع سفنه ، وكان قد تمّت رؤيته من قبل سفننا التي كانت تجوب المياه هناك .

وصلت الأخبار في الحال إلى "دوم فيرناندو" الذي كان قد صعد في نفس اليوم على سفن المجاديف التي كانت جاهزة ، وغادر إلى مسقط ، حيث بقيّة الأسطول . رافقه "دوم أنتاو دي نورونها" "D . Antao de Noronha" على سفينة شراعية مع أربعين من الجنود ، والعديد من النبلاء ، وعند وصولهم إلى ذلك الميناء انتقلوا إلى السفن الأخرى ، وبرفقة كلّ الأسطول ذهبوا في أثر السفن .

حالما غادر "دوم فيرناندو" قام "بيرنارديم دي سوزا" بتسليح سفينة أخرى تعود ملكيّتها لـ "جوميز دي فارينها" "Gomez de Varinha" الذي كان هناك مع ثلاث ، أو أربع سفن تابعة للتجّار ، والتي وضع عليها مدفعيّة ، وذخيرة ، وقوّات من الرجال .

صعد على ظهر السفينة مع فكرة أن يتمركز عند مدخل مضيق البصرة

عندما تمرّ تلك السفن ؛ لأنّهم إن هربوا من أسطولنا يكون قد أغلق المنافذ التي قد يتراجعون عبرها ، وبذلك لن يستطيع أي منهم الفرار .

بعث برسالة في هذا الخصوص إلى "دوم فيرناندو" ، الأمر الذي كان مستحقّاً من ضابط وربّان عظيم مثله ، وأخطره إن تمكنت السفن من الهرب منه تجاه المناطق الداخليّة من المضيق ، فعليه اقتفاء أثرها حتّى البصرة حيث يكون هو في الانتظار ، وتكون نهايتها جميعاً .

حالما غادر "دوم فيرناندو" مسقط قام بالطواف في المناطق الداخلية من ساحل الجزيرة العربية ، وأرسل بعض القوارب الخفيفة أمامه لتتجسّس على السفن . عند وصولها إلى رأس "مسندم" وقع بصرهم عليها ، كانت خمس عشرة في مجموعها تبحر على خط مستقيم .

بعثت القوارب بسرعة تحذيراً عنها إلى "دوم فيرناندو" ، الذي أعدّ السفن ، وأصدر تعليماته عن الطريق التي ستهاجم بها سفن العدوّ ، كونه كان في المقدّمة واجههم أوّلاً ، لكنّه أرسل المراكب والزوارق أمامه لمهاجمتهم ؛ لأنها كانت مراكب خفيفة وسريعة . قامت سفننا بذلك في إلحاح وتفان عظيم ، وتبادلوا معهم إطلاق نيران جانبيّة . عندما رأى "علي شلبي" أسطولنا ، فرد كلّ أشرعته ، واتّجه نحو الشاطئ مستمرّاً في إطلاق مدافعه .

"دوم أنتاو دي نورونها" ، الذي كان مبحراً في ذلك الوقت على سفينته ، انتقل إلى سفينة شراعية مع العديد من النبلاء ، والجنود حتّى يتباحث مع القائد الأول ، لأنّ نائب الملك كتب له أن يقوم بذلك ، وإنّ على ابنه ألاّ يفعل أيّ شيء دون مشورته ، ونصيحته .

كانت الرياح في ذلك الوقت طيّبة ، والسفن تقترب من الشاطئ . كانت سفينة "جوميز دا سيلفا" "Gomez da Silva" ، الشراعية الضخمة قريبة جدّاً من مدافعهم ، وبما أنّ "دوم أنتاو" كان يعلم أن السفينة ينقصها الرجال ، فقد كان يخشى عليها من الدمار ؛ لأنّها كانت على مسافة من بقيّة الأسطول ، لذلك طلب من النبلاء الذين كانوا يبحرون معه إن كانوا يرغبون في الانضمام للسفينة الشراعية الضخمة .

بذلك يكون قد قدّم خدمة جليلة لسموّه ، بعد الموافقة على كلّ شيء ، اقترب منها مخاطراً بالهجوم عليه من كلّ سفن العدوّ ، بعد أن نقل إليها حوالي ثلاثين رجلاً عاد لسفينة القائد الأوّل ، وصعد عليها ، وكانت سفن العدوّ قد تحرّكت لمسافة أقرب إلى داخل الشاطئ ، وانسحبت إلى أبعد جزء للداخل ، حيث لا تستطيع السفينة الشراعية الضخمة الوصول إليه .

عندما رأى "دوم فيرناندو" سفن العدوّ وهي تلتصق بالشاطئ ، طلب المشورة والنصيحة فيما يجب عليه القيام به . كانت هناك العديد من الاقتراحات المتناقضة ، ولم يتمكّنوا في الوصول إلى قرار . كان مع الأسطول ربّان كبير السنّ ، وله خبرة ، جاء للأمام ، وأشار إليهم بما أنّ الرياح أماميّة فلا توجد أيّ فرصة لسفن العدوّ على الإبحار في ذلك الطريق ، أو الوصول إلى مسقط .

في رحلة أخرى وفي مناسبة أخرى كتلك ، وخلال رياح "المونسون" قام هو باتّباع نفس الطريق والمسار ، ووجد رياحاً مناسبة على الساحل الآخر ، والتي بسببها تمكّن من الإبحار كيفما شاء ، وعبر من "رأس

جاسك" ووصل بسهولة إلى مسقط . اتّفق الجميع على ما أشار به ، واتّبعوا نفس المسار في طريقهم إلى مسقط ، وبعث القائد المسؤول سفناً إضافية لتذهب وتتجسّس على سفن العدوّ .

في ذات يوم ، بينما كان الأسطول متوقّفاً هناك ليتزود ببعض المؤن الضرورية ، دخل وحش بحريّ إلى الخليج الذي كانوا يرسون فيه ، كان أكبر من حوت وله مظهر غريب لم يشاهده أحد من قبل . انطلق نحو سفينة القائد المسؤول الضخمة ودار حولها ببطء شديد .

عند سماع الخبر وضع بعض العرب المحليّين ، وبعض صيّادي الأسماك على مركب ضخم مع بعض الحبال المتينة التي صنعوا منها أنشوطة وضعوا عليها الطعم ، وفي سرعة اتّجه الوحش نحوها وعلق فيها . عندما تأكّد المسلمون من ذلك بدأوا في إرخاء كلّ الحبال حتّى لا يقوم بالغطس إلى الأعماق ، وبدأ يجرّهم إلى خارج الحاجز ، لأنّه كان على درجة كبيرة من القوّة ، وبدأ يتحرّك من جانب إلى آخر ساحباً معه المركب .

استغرق الوحش زمناً طويلاً وهو يقوم بذلك ، حتّى بلغ به الإعياء أشدّه ، بدأ بعدها المسلمون في جرّه نحو الداخل خلفهم حتّى خليج "المكلا" ، حيث أوثقوه بالمزيد من الحبال ، وسحبوه للشاطئ .

تجمّع حشد كبير من الناس ، وبدأوا جميعاً في سحب الوحش إلى حافّة المياه ، حيث قاموا بتقطيعه لعدم قدرتهم على سحبه كاملاً للشاطئ .

الزورق الذي ذهب للتجسّس على سفن العدوّ بعث برسالة للقائد المسؤول هنا ، إنّهم يغادرون جزر "صحار" الصغيرة التي تبعد اثني عشر فرسخاً عن مسقط ، من صباح الخامس والعشرين من شهر أغسطس ،

شوهدوا في خطّ مستقيم أمامهم ، وهم يجدّفون مبتعدين عن اليابسة مع رياح مع المقدّمة .

أبحروا لمقابلة أسطولنا وسط جزر صغيرة على بعد فرسخين من مسقط ، بعيداً عن أنظف وأصفى وأجمل شاطئ على كلّ ساحل الجزيرة العربية .

اتّجه القائد المسؤول لمهاجمة سفن العدوّ بالسفن ذات المجاديف التي في المقدّمة ، ومن خلفها مباشرة المراكب الشراعيّة . كانت السفن الضخمة مبعثرة على سطح المياه ، وبما أنّها كلّها ترفع أعلامها فقد كان منظرها رائعاً .

عندما رأى "علي شلبي" أنّهم استحوذوا على الساحل ، وإنّه من المستحيل الآن أن يعود أدراجه ، زاد من سرعة التجديف بكلّ قدرة العبيد الذين كانوا على تلك السفن ، حتّى يتمكّن من المرور من مقدّمة سفننا ويصل إلى الشاطئ ، ومن هناك بعد قمّة الجبل تمكّن من الهرب نحو البحر .

اقترب "دوم فيرناندو" بسفينته حتّى وصل إلى مياه بعمق ثماني قامات ، أمر بإلقاء المرساة ، وواصلت القوارب اقترابها من الشاطئ في اتّجاه سفن العدوّ .

"علي شلبي" الذي كان مبحراً في المقدّمة وصل إلى رأس البرّ مع تسع من أخف سفنه قبل أن تصل سفننا ، لكنّ الستّ التي بقيت في المؤخّرة لم تتمكّن من العبور ، لأنّ المراكب كانت أصغر ، وتحتاج إلى مياه أقلّ من السفن الضخمة ، فقد تمكّنت من الإبحار والوصول إلى الشاطئ .

عنـــدمـــا مـــرَّ "دوم جـــيرونيمـــو دي كـــاســـتـــيلو برانـــكـــو" "D . Jeronimo de Castelo Branco" ، الذي كان يبحر من أمام سفينة القائد المسؤول الضخمة ، تعرف عليه "دوم انطونيو دي كاستيلو برانكو" "D . Antonio de Castelo Branco" ، شقيقه الأكبر الذي كان على نفس السفينة .

عند رؤيته له ، وهو يتخطّاهم جميعاً ، صاح به من على عمود مقدّمة السفينة . "كيف أنت أيها الشاب" (لأنه كان مازال صغير السنّ) ، "أوقف ذلك المركب لي" ، وقد قام بتنفيذ ذلك حرفيّاً ؛ لأنه بتوجيهه للمقدّمة باتجاه الرياح بقدر المستطاع ، وصل إلى الشاطئ في مقدّمة سفن العدوّ .

في اللحظة التي انطلقت فيها قذيفة القائد الأول ، وأصابت إحدى سفن العدو التي كانت تبحر في المقدمة ، ممّا جعلها تنحرف ، واندفعت الأخرى نحو الشاطئ . تحرّك عندها "دوم جيرينمو" بين السفن ، مطلقاً من زورقه على إحداها ، وقتل كلّ الأتراك الذين عليها بحدّ السيف .

عندما وصل "دوم مانويل ماسكارينهاس" "D . Manuel Mascarinhas" الذي كان خلفه لمسافة قصيرة إلى سفن العدوّ التي انخرط بينها بسرعة ، أطلق العديد من القذائف السريعة على إحداها التي اشتعلت فيها النيران وتقدّم للأمام ، ضرب أخرى فاستسلمت أيضاً .

بدأت القـــوارب السريعة الأخرى في الوصول ، كلّ منها يدكّ بنيرانه إحـــدى سفن العدوّ . عندما اتّخذ "دوم فيرناندو دي مونروي" "D . Fernando de Monroe" و"أنـــطـــونيـــو دي فـــالارديـــز"

"Antonio de Valardes" طريقهما نحو السفن صعدوا في الحال على سطحها ، وجرى قتال عنيف بالسيوف مع الأتراك ، قتلوا فيه العديد ، وأجبروا آخرين على إلقاء أنفسهم في المياه . بعد أن استولى على سفينتين كان مع "دوم جيرونيمو" حبل قطر ألقاه في المياه ، وعن طريق السحب خلّص نفسه من الضفة الرمليّة ، وأخذ معه السفينتين .

لأنّ النفوس الكريمة والشجاعة لا تحتاج لبرهان أحقيّتها للآخرين ، فقد قام بالإعلان جهراً وعلناً أنّ "دوم مانويل ماسكارينهاس" قد استولى على إحداهما ودمرها .

الرجال الذين على السفن الستّة ، والذين هربوا من رجالنا ، قفزوا جميعاً إلى البحر ، لكنّهم حتّى هناك لم ينجوا من قبضة رجالنا الذين على الزوارق ، والذين وضعوا أنفسهم بين سفن العدوّ واليابسة ، ولم يسمحوا لكلّ الذين كانوا في المياه بالنجاة .

"علي شلبي" الذي عبر مع السفن التسعة تمركز بعيداً عن البحر يشاهد القتال مع أسطولنا ، وعندما رأى مصير السفن الستّة التي تمّ الاستيلاء عليها أسرع بالإبحار نحو الساحل الآخر معتزماً الوصول إلى "كامباي" "Campay" ؛ لأنّه كان يعتقد أنّه إذا قرّر العودة إلى "القسطنطينية" فإنه سيرتكب مخاطرة عظيمة ؛ لأنّ عظيم الترك سيقطع رأسه ، وعلى أيّة حال عندما رأت قواربنا الشراعية الصغيرة تلك السفن تغادر قاموا بمطاردتها بكلّ سرعة .

سعداء بذلك الانتصار حالياً ، رجع "دوم فيرناندو" إلى مسقط للعناية بالجرحى ، حيث أمر بإعادة إصلاح ستّ من سفن المجاذيف .

كما قام أيضاً بفدية عبيد السفن من أيدي الجنود ، وطلب من الكهنة مباركة تلك السفن ، مطلقاً على كلّ منها أسماء تعرف بها ، ومقسّماً رئاستها بين عدد من ضباط الزوارق .

سلم السفينة "سانتا إيلينا "Santa Elena" إلى "سباستياو دي ماسيدو" ، والسفينة "سانتا لوسيا" "Santa Lucia" إلى "مانويل دي سيجويرا" "Manuel de Segueira" و"كونسيساو" "Consisao" و "سانتياجو" "Santiago" إلى "جورجي بيريرا" "Jorje Perriera" و"سانت ميجيل" "Sant Miguel" إلى "غونسالو جويدس" "Goncalo Guedes" .

حمّلوا في تلك السفن سبعة وأربعين قطعة من المدفعية المصنوعة من "البرونز" ، والتي كان من بينها كانت ذخيرة ، كرات دائرية ، ومدافع معها قرابة أربعين قذيفة ، مع بعض الجمال والصقور .

بعث "دوم فيرناندو" في الحال برسالة عن هذا النصر لوالده ، وقام أثناء ذلك بتزويد الأسطول بما يحتاجه .

مراكبنا الشراعية الصغيرة التي كانت تبحر خلف السفن ظلّت وراءها حتّى ساحل الهند ، سبعة منها اتّخذت ملجأ لها في "سورات" حيث تمركز "دوم جيرونيمو دي كاستيلو برانكو" ، و"نونو دي كاسترو" "Nuno de Castro" ، و"دوم مانويل ماسكارينهاس" عند الحاجز وحاصرهم هناك .

ذهب "دوم فيرناندو دي مونروي" ، و"أنطونيو دي فالارديس" خلف السفينتين الأخريين ، ومنعوهما من التحرّك بطريقة أجبرتهما على

اللجوء إلى الشاطئ ، إحداها في "دامان" والأخرى في "دانو" حيث حطّمتا لقطع ، ومن ثَمَّ ذهبوا إلى "باسين" .

عـــندمـــا علـــم "فرانسيسكـــو دي ســـا دي مينسيس" "Francisco de Ca de Meneses" قائد تلك القلعة أنّ السفينتين الأخريين لجأتا إلى "سورات" ، رتّب عشراً ، أو اثنتي عشرة سفينة ، وذهب بها وتمركز عند ذلك الحاجز مع المراكب الأخرى .

عندما تلقّى "جورجي دي ميندوزا" "Jorje de Mendonca" قائد "شول" تلك الأخبار ، قام بسرعة بتسليح عشر ، أو ست من السفن الإضافية ، وذهب للانظمام إلى "فرانسيسكو دي سا" . تقريباً بعد مرور عشرين يوماً من شهر سبتمبر عام ١٥٥٤م ، بهذه الطريقة ، وفي الثالث والعشـــرين مـــن الشـــهر نفســـه ، ظهر "بيدرو ماسكارينهـــاس" "Pedro Mascarinhas" عند حاجز "غوا" كنائب للملك في دولة الهند .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

كيف تم قصف قلعة القطيف وانبراء الأتراك للدفاع عنها ، والمحنة التي ألمت برجالها هناك ، جاءت تلك الأحداث في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرخ البرتغالـي "ديوغو دو كوتو" "Diogo do Couto" : (٢٩)

عندما غادر "دوم أنتاو دى نورونها" مدينة "غوا" ، كانت وجهته السير إلى هرمز ، وهناك تمّ استقباله بواسطة "كابتن" القلعة ، وعندما وجدوا أنفسهم غير مختلّفين في شيء مع الملك فيما يختصّ بأمر القلعة ، قرّروا أن يطلبوا من الملك أن يزوّدهم بثلاثة آلاف رجل ؛ لأجل تعزيز الحملة ، ويرافقهم مع القاضي كلّ من "ريّس شرف" و"مير أحمد شاه" الذي أمره الملك أن يعمل فوراً على تأجير بعض الطرّادات والسفن لنقلهم .

في أثناء ترتيب تلك الأمور أرسل "دوم أنتاو دى نورونها" السيد "مانويل دى فاسكونسيلوس" كقائد أعلى على مجموعة الاثنتي عشرة

(٢٩) رقم الوثيقة والهامش.

سفينة من السفن الخفيفة ، مع الأمر بمهاجمة قلعة القطيف ، ومحاولة منع الأتراك حتّى لا يتلقّوا أيّة مساعدات من البصرة .

في غضون أيّام قليلة وصلت جميع السفن لـ القطيف ، حيث رست في ذلك الميناء ، ومن ثَمَّ تقرّر الانتظار إلى حين وصول "أنتاو دى نورونها" الذي استغرق مدّة شهرين كاملين ، وكانوا يذهبون إلى الشاطئ بشكل يومي بهدف قصف القلعة ، وبالفعل تمكّنوا من إحكام رقابتهم بتطويق المنطقة ، لوقف أيّة مساعدات يمكن أن تصل إلى هناك عن طريق البحر ، وقد نفّذوا هذه الخطة بشكل محكم ، حتّى شعر الأتراك أنّهم أصبحوا في مأزق رهيب .

أمّا "د . أنتاو دى نورونها" فقد بقي هناك في هرمز لأجل تلبية جميع المطالب ، ومعالجة الأمور ذات الصلة بإحكام وتشديد الحصار ، مثل توفير الأسلحة والذخائر ، وتوفير مستلزمات الحصار من بطاطين وسلالم وغيرها من المواد التموينية .

عندما تمّ تجهيز كلّ الأغراض ، شرع "دوم أنتاو" في الإبحار متجّها لـ القطيف على متن أسطول ضخم قوامه جميع القوات البرتغاليّة ، وذلك بعد تسريحهم من مهامّهم في القلعة .

كان ذلك عند نهاية شهر يوليو ، وفي غضون أيّام قليلة ، وبعدما استمتعوا برحلتهم التي تمّت بشكل آمن ، رست سفنه في الميناء حيث تبيّن وجود سفن "مانويل دى فاسكونسيلوس" في المنطقة ، وبعدما أخبره الأخير عن مستجدّات الوضع ، والمأزق الذي تعيشه القلعة ،

أعطى "دوم أنتاو دى نورونها" الأمر للسفن لإلقاء مراسيها ، وقد حدث ذلك في اليوم التالي .

عندما عمل على حصر الجنود الذين رافقوه تبيّن له أنّ الحملة تضمّ ألفاً ومائة جنديّ برتغاليّ ، وثلاثة آلاف جنديّ من فارس و هرمز تحت قيادة "الريّس شرف" (قاضي هرمز) و"مير أحمد شاه" (قاضي "موغستان") ، وضمن هذه المجموعة يوجد الكثيرون من "الأتابكة" و"القباطنة" من مملكة هرمز .

بعدما أوكلت قيادة الجيش إلى "مانويل دي فاسكونسيلوس" "Manuel de Vasconcilos" ، عمل على نقل جميع الرجال في الأسطول إلى مجموعة السفن الصغيرة ، والمراكب ، وقوارب السفن .

عندما أكمل إعداد كلّ ذلك ، نجحت سفن "مانويل دى فاسكونسيلوس" في الوصول إلى الشاطئ في منطقة الجزر العالي ، حيث ألقت مراسيها ، وهناك سارع رجالنا بالنزول فوراً في الشاطئ كي يشتبكوا ضدّ مجموعة من خيّالة الأتراك ، التي انطلقت قدماً محاولة اعتراضهم ، ومنعهم من النزول ، فاشتبكت معهم في صراع عنيف تمكّن البرتغاليّون من صدّهم ، وإجبارهم على التراجع إلى داخل القلعة .

قام أيضاً قائد القوات العسكرية بإنزال جميع رجاله في تكتيك محكم ، حيث كان البرتغاليّون يمثّلون كتيبة ، ويمثّل الفرس كتيبة أخرى ، وعند وصولهم إلى القلعة قاموا بإنشاء معسكرين متجاورين ، وبعدها شرعوا فوراً في تحصين المعسكرين من خلال حفر الخنادق ، ووضع المتاريس ، والحواجز .

قد كلّفتهم هذه التحصينات مجهود يوم كامل وليلة ، وذلك في إطار تنفيذ أوامر وخطط القائد الفرنسيّ (الذي قدمنا عنه نبذة بمناسبة هزيمة "د . جورج دي كاسترو" "D . George de Castro" في "سيلان") ، والذي أرسله الملك "د . جواو" إلى الهند ، ونظراً للخبرة العسكرية العريقة التي اكتسبها هذا الرجل ، فقد تولّى مهمّة ضابط الميدان ، ومنصب رقيب أوّل الحملة .

بعدما قام ببناء مربض المدفعيّة ، عمل على وضع خمس قطع مدفعيّة هناك ، بالإضافة إلى عربات حمل تلك المدافع ، كما أنشأ أيضاً حواجز وسواتر دفاعيّة منيعة .

بعدما اكتملت كلّ هذه التحصينات ، شرع في قصف القلعة بقوّة وضراوة ، بحيث انهار الجزء الأسفل منها ، وآل إلى حطام متناثر ، وبالمثل لم يسلم الجزء الأعلى أيضاً ، إذ ثبت أنّه قد أصيب بدمار هائل .

عندما أحسّت مجموعة الأتراك ، البالغ عددها أربعمائة جنديّ داخل القلعة ، بضراوة هذا القصف ، وشاهدوا تصدّع أسوار القلعة في الكثير من أجزائها ، أدركوا أنّهم سوف يخسرون هذه المعركة لا محالة ، لذا دعوا إلى اجتماع ، اتّفقوا بموجبه على الانسحاب ليلاً ، وإخلاء قلعة القطيف .

هذا ، وبعد مضيّ ثمانية أيّام من الهجوم الضاري شرعوا في إخلاء القلعة ، والتسلّل من خلال باب مؤقّت يفتح على الأراضي الخلفيّة ، وقد فعلوا ذلك بشكل سرّيّ ، بحيث لم تسمع أيّة حركة حتّى خرجوا جميعاً دون أن يحسّ بهم أحد .

لكنّ هذا الانسحاب كان قد اكتشفه ثلاثة من الجنود البرتغاليّين

في كتيبة "بدرو افونسو دي الفاريز" "D . Pedro Afonso de Alvarez" ، حيث كانوا يرابطون في موقع عسكريّ في المنطقة ، وهم "مارتيم كاسكو" "Martim Casco" من "إيفـورا" ، و"بالـتازار دي غويـس" "Balthasar de Guise" مـن مواطني "سينا" ، و"بيـرو ماكـادو" "Pero Macado" ، .

عندما كان هؤلاء يقومون بمهامّ الحراسة خارج المتاريس ، سمعوا ضجّة هناك ، ولاحظوا حركة خروج الأتراك ومغادرتهم ، وقد حدثت مقاومة بسيطة من قلّة منهم ، فتصدّوا لها ، وقتلوا واحداً منها ، وجرحوا آخرين تمكّنوا من الهروب خلف البقيّة التي ابتعدت عن المنطقة .

عندما أيقن رجالنا أنّ القلعة قد هُجرت ، بدأ رجالنا الثلاثة في الدخول ، حيث قاموا بتسلّق السطح العلوي حتّى وصلوا إلى مركز القائد ، ثمّ شرعوا يصيحون "البرتغال" ، وعندها نهض "د . أنتاو دى نورونها" حائراً ، وعندما استفسر عن الأمر تمّ إبلاغه بما حدث ، لأنّ الرجال الذين صعدوا فوق الحائط أبلغوا الجنود بوجود ذلك المركز ، هذا الأمر أحدث اضطراباً وسط قوّات الجيش .

على كلٍّ ، أمر "دوم أنتاو دى نورونها" الجميع بضرورة تسليح أنفسهم ، ومن ثَمَّ انتظر حتّى الصباح ، وعندما ظهرت خيوط الفجر اتّجه نحو القلعة فدخلها ، بعدما قام الجنود الثلاثة بفتح البوابات .

أمّا رجالنا فقد أسرعوا في دخول القلعة من خلال الفجوات الكبيرة التي أحدثها قصف مدفعيّتنا في أسوار القلعة الدفاعيّة ، وقد أخبرنا "لورينسو" "Lorenco" من جزيرة "ماديرا" قبل وفاته ، أنّه كان حينها من بينهم .

عموماً ، تمكّن "د . أنتاو دى نورونها" من دخول القلعة ، التي بدت خالية تماماً من كلّ شيء باستثناء بعض قطع المدفعيّة الصغيرة ، والقليل من الذخيرة ، وبعض الملابس التي لم يتمكّن الأتراك من أخذها معهم ، فاستدعى القاضي "ريّس شرف" قائلاً له إنّ هذه القلعة تؤول إلى ملك هرمز ، والآن فهو يسلّمها له محرّرة دون قيد أو شرط ، ويجب عليه أن يتسلّمها للعناية بها .

غير أنّ القاضي أجابه إنّه حقيقة لا يملك الشجاعة الكافية كي يذود عنها ؛ لأنّه بعد رحيل "د . أنتاو" سيعود الأتراك مجدداً للهجوم عليها واستردادها ، ولا شكّ أنّ ذلك سوف يخلق أزمة جديدة مع هرمز عندما تهبّ لنجدتها .

عندئذٍ تفهّم "دوم أنتاو" حقيقة المشكلة ، لذا اتّجه إلى القادة كي يشاورهم فيما يجب عمله بشأنها ، فأجمعوا على وجوب تدمير القلعة حتّى لا يعود العدوّ مجدّداً لبناء حصن بداخلها .

عندما فرغوا من ذلك . أمر "دوم أنتاو دى نورونها" بأن يتمّ تلغيم استحكامات القلعة لتفجيرها ونسفها ، فكلّف أحد المختصين في هذا المجال كان قد أتى به ، وبالفعل شرع هذا الرجل في فحص بعض الدهاليز لأجل وضع الألغام في الأمكنة المناسبة ، فعثر على بعض المراحيض المعزولة في منطقة الاستحكامات ، فعمل على تقويتها بشيء من الحجارة والإسمنت من الخارج ، ومن ثمّ وضع بعض البراميل داخلها تاركاً كوّات صغيرة كي يتمكن بواسطتها من إشعال فتائل التفجير .

بينما كان يقوم بتجهيز هذه الألغام ، حاول "دوم أنتاو" أن يجد لنفسه ولقادة الأسطول ملاذاً بين تلك الاستحكامات ، وعندما أتاه "مانويل دى فاسكونسيلوس" طالباً منه أن يأتي معه لأجل فحص ومشاهدة الألغام التي أصبحت جاهزة للتفجير ، لأنّ القائد قد عمد إلى تكليف مجموعة من الرجال بعمل التفجير تسريعاً للعملية .

استجاب "دوم أنتاو" ومن معه فرافقوه كي يلقوا نظرة على ما تمّ ، ويبدو أن الحظّ قد حالفه حينها ، ولم يحالف المجموعة التي بقيت هناك ، لأنه أثناء توجّهه نحو القلعة علم أنّ شرارة انطلقت من حطام المنازل المحترقة بجوار القلعة ، وسقطت فوق اللغم الذي تمّ زرعه في المرحاض المجاور للاستحكامات التي غادرها "دوم أنتاو" .

وكان سقوطها ذلك فوق كميّة من "البارود" الموجود بالقرب من البراميل ، فاشتعلت بشدّة بحيث إنّها نسفت المرحاض ، وكامل الاستحكامات التي هوت على رؤوس من كانوا هناك يحتمون بها ، فمات تحت الأنقاض حوالي أربعين جنديّاً من البرتغاليّين ، وأصيب عدد كبير بجروح .

ضمّت مجموعة القتلى ابن "بدرو أفونسو دي أفيلار" "Pedro Afonso de Avilar" ، "بيرو كويلهو دى كاسترو" "Pero Quelho de Castro" ، "بالتازار دو أمارال" "Balthasar do Amaral" ابن "فرانسيسكو دو أمارال" "Francisco do Amaral" قاضي المحكمة ، "غونسالو موريس دي سوسا" "Goncalo Moris de Susa" ، "فرانسيسكو

بوتلهــو" "Francisco Botelho" ابن أحد مسؤولي التحقيق القضائي في المملكة ، ومجموعة كبيرة من الجنود والفرسان المشهورين .

أسرع "دوم أنتاو" إلى موقع الانفجار ، وعندما شاهد حادث الانفجار الذي نجا منه ، تأثّر جدّاً حتّى سالت دموعه ، وعندما رآه "مير أحمد شاه" (قاضي "موغستان" "Mogustan") على هذه الحال ، اقترب منه قائلاً :

سيّدي ، هذه أمور تحدث دائماً أثناء الحرب ، لذا لا يجب أن يبلغ بك التأثّر مبلغاً عظيماً ، ولا تنس أنّ الأتراك موجودون بالقرب منا ، وإذا ما علموا بهذه الكارثة التي حلّت بنا ، ربّما عادوا إلينا مجدّداً مع العرب الذين يساندونهم بقيادة زعيمهم المسلم "ابن جبر" .

انتبه "دوم أنتاو" لنصيحة "مير أحمد شاه" ، فأعطى أوامره بإشعال فتائل الألغام في جميع الاستحكامات والحيطان ، وهكذا نسفت القلعة بكاملها في انفجار عظيم .

بعدها قفل "دوم أنتاو" راجعاً للمعسكر ، حيث قضى بقيّة اليوم والليل يرقب حركة العدوّ بكل حذر .

في اليوم التالي كان قد أُبلغ بانسحاب الأتراك ، وإنّ الشيخ "ابن جبر" يقف على مبعدة ميل ونصف على رأس مجموعة من الخيّالة يبلغ عددها ثمانمائة فارس يتحيّنون الفرصة المناسبة لشنّ الهجوم .

عندما أخبر "دوم أنتاو دى نورونها" أنّه لم تعد هناك أيّة قوّات ، وكانوا في الجهة التي يوجد فيها معسكر العرب ، أصدر أوامره بمهاجمتهم ، ولكن بشيء من السرّيّة ، حتّى لا يشعر بهم العرب ، فيعملوا على

تنبيههم ، ثمّ قام بعدها بإصدار توجيهاته للبعض من القادة كي يكونوا مستعدين بفرقهم العسكرية عند الفجر ، ومن ثَمَّ أرسل "بدرو افونسو دى أفيلار" على رأس مجموعة مؤلّفة من مائتين وخمسين جنديّاً معظمهم من المَسقَطِيّين لمهاجمة "ابن جبر" .

غادر رجالنا مقرّ قوات الجيش بتكتيك منظّم ، ترافقهم طليعة الاستكشاف بحثاً عن العرب .

لكن عموماً ، كان العرب قد انتبهوا لتحرّكات رجالنا ، إذ إنّهم كانوا يقظين ، فأبصروا تقدّم رجالنا نحوهم ، وبالتالي سارعوا بترك معسكرهم ولاذوا بالفرار .

عندما وصل رجالنا للمعسكر لم يجدوا سوى بقايا خيام بائسة متناثرة ، وبما أنّه لم تصدر لهم أوامر أخرى ، فقد عادوا للانضمام لبقية الجيش دون أن يصيبهم أيّ مكروه .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)
ذهاب "دوم أنتاو" إلـى البصرة ودخوله في نهر "الفرات" ، حيث استولـى على قلعة تابعة للأتراك ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرّخ البرتغالـيّ "ديوغو دو كوتو" "Diogo do Couto" : (٣٠)

طالما لم يعد هناك من شيء يمكن عمله بعدما تمّ نسف القلعة ، وتدميرها ، وتسويتها بالأرض ، فقد قرر "دوم أنتاو دى نورونها" ، بحكم اللوائح والقوانين التي يتبعها ، التحرّك لـ البصرة لمناصرة الملك الذي كان ينتظر قدومه كي يساعده في الهجوم على تلك القلعة .

أرسل إلى هرمز مجموعة من السفن عابرة البحار ، على متنها قاضي كلٍّ من هرمز و"موغستان" بكامل جنودهما ، بينما سار هو وجنوده في ثماني عشرة سفينة ، وبعدما أبحروا تمكّنوا من الوصول إلى الجزء النهائيّ من المضيق .

(٣٠) رقم الوثيقة والهامش.

في إحدى الليالي ، هبّت عاصفة هوجاء ، أطاحت بأشرعة تسع من السفن ، وفصلتها عن بقية سفنه ، أمّا السفن التسع الأخرى فقد استغلّها "دوم أنتاو دى نورونها" في مواصلة رحلته حتّى وصل إلى مدخل نهر "الفرات" ، حيث قرّر الانتظار حتّى تنضمّ إليه بقيّة السفن الأخرى .

هنا أرسل بعض العرب الذين كانوا برفقة سفير ملك البصرة (الذي غادر إلى "غوا") يحملون رسائل إلى كلٍّ من الملك وأهل الجزر ، أبلغهم فيها عن وصوله وأخبرهم أيضاً أنّه في انتظار استلام ردّ منهم حتّى يقف على الإجراء والأسلوب الذي يجب عليه تطبيقه في الهجوم على تلك القلعة .

بعدما أرسل الرسائل ، وبقي هناك مدّة سبعة أيام ، وصلت مجموعة السفن التسع ، فاستقلّ هذه السفن في الإبحار في نهر "الفرات" ، حتّى وصل إلى جزيرة "موزيك" التي تتّخذ موقعها في المدخل ، وهناك توجد قلعة صغيرة شيّدت فوق صخرة عالية يحرسها بعض الجنود الأتراك ، سرعان ما أخلوها عندما أبصروا سفن أسطولنا تقترب منهم .

هنا أمر قائد القوات العسكرية بنزول بعض الرجال على الشاطئ حيث اكتشفوا أنّ القلعة قد هجرت ، وفي هذا الوقت بقي ينتظر وصول الردّ من ملك البصرة وأهل الجزر .

عندما تلقّى ملك البصرة "عليّ باشا" أخبار وصول أسطول البرتغاليّين ، ظنّ أنّ القائد لابدّ أن يكون قد تفاهم مع أهل الجزر والعرب في الداخل ، وكان رجلاً فطناً ، عمل على إحكام رقابته على كلّ الطرق التي تستخدم في نقل البريد ، وبالفعل ساعده الحظّ في ذلك ، لأنّ الرسائل التي أرسلها "دوم أنتاو" لهم قد سقطت في يده .

لكن يبدو أن المسلم كان أكثر ذكاء ؛ لأنّه كتب بخط يده رسائل مزيّفة عديدة باسم ملك البصرة والجزر ، أشار فيها لهم أنّهم كمسلمين يتبعون إلى الأتراك فليس هناك من أسباب تدفعهم لمناصرة المسيحيّين ضدّ الآخرين من نفس الديانة .

يجب عليهم أن يكونوا راغبين في تقديم خدمة لعظيم الترك ، وذلك من خلال تسليمه أسطول البرتغاليّين بأكمله ، حسبما وعدوه في رسائلهم الأولى ، وفي إطار ذلك أرسل خطاب قائد الجيش البرتغاليّ ، وقائد الأسطول الذي كان قد أرسله له ، حتّى يتمكّنوا من تسليمه لجميع السفن .

كانت هذه الرسائل المزيّفة التي خطّها "الباشا" سرّاً ، قد قرأها عليهم علناً في حضور كثير من الناس من بينهم شابّان أحدهما من "البندقية" والآخر من "نابولي" ، كان قد أسرهما ، فأعطاهما رسالة "دوم أنتاو دى نورونها" كي يطلّعا عليها ، ومع أنّها كانت قد كتبت بالفارسية إلاّ أنّها حملت توقيعه المعروف . بعدها شرع في الاستماع للنصائح فيما يتعلّق بتدبير الأمر .

بعد مضيّ أيّام قليلة ، أصدر أوامره بفكّ الأغلال من أيدي الأسيرين ، مهيّئاً لهما الفرصة للهروب ، وبالرغم من قول البعض وقوله شخصياً إنّه أطلق سراحهما ، وبوسعهما الذهاب إلى أيّ مكان يرغبان في التوجّه إليه .

عموماً ، فقد حدث في ليلة ما عندما رسا أسطولنا في جزيرة "موزيك" أن سُمِعت أصوات آتية من البرّ الآخر قبالة الشاطئ ، وتُعرف هذه

بمنطقة فارس ، وبالرغم من أنّها منطقة الصفوي ، وإنّها تُعرف عند المسلمين باسم "صوفستان" ، وهي نفسها مقاطعة الصفوي ، يزعمان أنّهما مسيحيّان هاربان ، ويتوسّلان لهم أن ينقلوهما .

اعتقد "دوم أنتاو دي نورونها" أنّ الأمر ربّما ينطوي على خدعة ما ، فأمر رجاله أن يسمعوهما ، وينصحونهما بإلقاء أنفسهما في الماء ، حتّى يصبح الصبح ، وحتّى لا يعثر عليهما أحد .

أمّا "دوم جيرونيمو دي كاستيلو" ، الذي كان بالقرب من الشاطئ ، فقد عمل على الرسوّ حتّى بلغ البرّ ، ومن ثَمَّ قام بإنقاذ الشابّين دون علم "دوم أنتاو دى نورونها" ومن ثَمَّ أخذهما فجراً إلى سفينته .

قام قائد القوات العسكرية باستقبالهما بشكل جيّد وأخبراه بأنّهما من المسيحيّين . تمّ إطلاق سراحهما بواسطة "الباشا" ويعتقدان أنّه من الأفضل لهما الانضمام للأسطول بدلاً من السفر في البرّ . بعدها سألهما "الكابتن" عن أخبار البصرة فقال أحدهما : "يجب عليك أيها "الكابتن" أن تفكّر فيما تفعله ، ومن تقوم بمساعدته ، لأنّك قد خُدعت وكيد لك ، وسوف تكتشف أنّ أهل الجزر قد تبادلوا المراسلات مع "الباشا" ووافقوا على القيام بتسليمك لـ "لباشا" بكامل أسطولك ؛ لأنّهم أرسلوا له الخطاب الذي أرسلته لهم مع الرسائل ذات الصلة ، بالمؤامرة التي حاكوها ضدّك ، وفي سبيل تقديم خدمات للتركيّ فإنّهم على استعداد لأن يقتادوك إليه عنوة" .

عندما علم "دوم أنتاو دى نورونها" بهذه الأخبار تملّكه الفزع ، لكنّه اعتبر ذلك أمراً معقولاً ؛ لأنّ المسلمين يمكن أن يحاولوا فعل أيّ شيء

ضدّ المسحيّين ، لذا فقد سأل الهاربين ما إذا كانا قد شاهدا خطابه وتوقيعه؟ وعندما ردّا عليه بالإيجاب ، دعا جميع القادة للاجتماع في سفينته ، حيث أطلعهم على حقيقة الوضع ، وسألهم ما إذا كان يجب أن يصدّق أقوال هذين الهاربين أو إنّ الأمر لا يعدو خدعة بحريّة يحيكها "الباشا" لكي ينسحبوا من المنطقة .

عندمـــا كانوا يتفاوضون في هذا الأمر ، كان "لورينسو فاز بغادو" "Lorenco Vaz Pegado" الذي يبحر بصفته واحداً من جنود "دوم أناتاو دى نورونها" مارّاً تحت أسفل مقدّمة سفينة "دوم أنتاو" مقرّ اجتماع القادة ، وعندما سمع موضوع النقاش ، قال بصوت عالٍ إنّ كلّ ما نحتاجه هو إطلاع الشابّين على توقيع قائد القوات العسكريّة ، والتأكّد ما إذا كانا قد شاهدا هذا التوقيع على الخطاب الذي شاهداه؟!

هنا سمع حديثه هذا كلّ من كان على السطح الأعلى ، حيث يوجد المجتمعون ، ولقد استحسن الجميع هذه الفكرة ، ومن ثمّ شرع جميع القادة في وضع تواقيعهم على ورقة بيضاء بمن فيهم "د . أنتاو دى نورونها" أيضاً .

لما عرضت هذه التواقيع على الشابّين كي يحدّدا التوقيع الذي شاهداه ، عمل كلّ منهم على إلقاء نظرة على مجموعة التواقيع ، وسرعان ما حدّدا توقيع "دوم أنتاو" ، ومن ثَمَّ أشارا إلى أنّ هذا هو التوقيع الذي شاهداه على الخطاب ، لأنّه مكتوب بخطّ لاتينيّ جميل .

هكذا تبيّن جميع الحضور من حقيقة أنّ أهل الجزر قد تآمروا ضدّهم ، وبعدها كان الاتّفاق إجماعاً بالانسحاب إلى هرمز ، وهذا ما تمّ تنفيذه فوراً .

عندما وصلوا إلى هناك أمر "دوم أنتاو" السفن بإلقاء مراسيها ، وإخضاعها للصيانة ، وفوق ذلك أمر بأن تدفع مرتبات الجنود وطعامهم .

بعد مضيّ قليل من الوقت وصل إلى هناك أحد التجّار المسلمين ، الذي مرّ عبر البصرة ، حيث كشف له عن الخدعة التي حاكها "الباشا" ضدّنا ، والتي أمكنه من خلالها إجبارنا على الانسحاب ، وهي حيلة أصبح أكثر من فخور بها .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)
أرسل ملك الأتراك أسطولاً يضمّ خمساً وعشرين سفينة بقيادة الجنرال "بيري ريس" إلـى البصرة ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرخ البرتغالـي "ديوغو دو كوتو" "Diogo do Couto" : (٣١)

بعدما تلقّى ملك الأتراك الأخبار التي وردت بشأن أسطول البرتغاليّين الذي أبحر فيه "دوم أنتاو دى نورونها" ، دخل في مضيق البصرة بهدف مساعدة العرب وأهل الجزر ، وكان بوسعه انتزاع المدينة من قبضته ، لولا الخدعة التي حاكها "الباشا" ، وفي ظلّ توجّسه من فقدان القلعة ، واستيلاء البرتغاليّين عليها ، وهو أمر سيحطّ من قدره ، ويضرّ بمصالحه .

سيما وإنّ آماله تتّجه إلى أبعد من ذلك ، لأنّه بات يطمع في أن يصبح السيّد المطلق على المضيق الفارسي ، وطالما إنّهم سوف يعملون

(٣١) رقم الوثيقة والهامش.

على إغلاق مدخل نهر "الفرات" أمام سفنه التي تعتزم المغادرة ، فقد قرّر معالجة هذا الأمر من خلال تأمين القلعة ، وهكذا أعطى أوامره العاجلة بتجهيز حوالي خمسة وعشرين مركباً من عدد المراكب الموجودة في السويس .

واختار لقيادة هذه المراكب في هذه الحملة أحد القراصنة المشهورين وهو "بيري بيك" (بيري ريس) وأعطى توجيهات كي يتمّ تزويدها بحوالي ألف ومائتي محارب من الإسكندرية وبقيّة الموانئ الأخرى ، يتمّ نقلهم في هذه المراكب ، والتوجّه إلى البصرة حيث تنتظرهم الأوامر لتنفيذ المهامّ المناطة بهم .

بشكل عامّ كانت الأوامر قد حظرت عليهم الدخول في مسقط ، أو هرمز ، أو أن يكون لهم أيّ شأن تجاه البرتغاليّين ، وإنّما يجب عليهم بذل الجهد للوصول إلى البصرة بشكل سرّيّ حتّى لا تقع عليهم أنظار السكّان .

عندما تلقّى "بيري ريس" أمراً بالمغادرة ، شرع في الإبحار صوب السويس ، حيث قضى فترة الشتاء بأكملها في ترميم ، وإصلاح السفن ، وتجهيزها .

إثر مغادرته كان ملك الترك قد وجه "باشا البصرة" للقيام بجمع حوالي خمسة عشر ألف رجل ، وتجهيز مجموعة من السفن والمراكب ، ووضع خطّة يهدف من خلالها إلى إطباق الحصار على قلعة هرمز ، بعد وصول "بيري ريس" بسفنه والاستمرار في محاصرتها حتّى تخضع وتستسلم لسيطرته .

عندما انتهى "بيري ريس" من إعداد السفن ، وتجهيزها بكامل

العتاد ، اعتزم المغادرة في شهر يوليو ، ولقد انتشرت هذه الأخبار في جميع مناطق المضيق ، بل وصلت إلى مسامع الناس في هرمز ، خلال شهر مايو ، لمّا كان من المستحيل أن يتمّ إبلاغ نائب الملك ، أو بوسع أيّ أحد التأكّد من الحقائق أكثر ممّا يروّج من الإشاعات وسط الأجانب .

عليه أرسل "د . الفارو دى نورونها" قائد تلك القلعة ، والذي يرغب في تأكيد الحقيقة ، زورقاً سريعاً بقيادة "فيرناو دياز سيزار" ، وهو جنديّ عريق ، ونبيل رائع ، كان بالفعل في طريقه في زيّ تاجر ، ومعه عشرون ألف "كروزادو" من ماله الخاصّ ، وأعطاه وصفاً بالإبحار إلى ساحل "الشحر" كي ينتظر وصول السفن المبحرة في طريقها من مكة إلى قشن وجميع الموانئ الأخرى ، والتأكد من وجود أيّة سفن هناك ، وإذا ما وجدت كم عددها؟ وما وجهتها؟

على كلٍّ ، أبحر "فيرناو دياز" حيث ألقى مراسيه في ذلك الميناء ، وبقي في الانتظار ، وهناك تلقىّ أخباراً من بعض المراكب تؤكّد عمليّة تجهيز خمس وعشرين سفينة في السويس ، قيل بشكل عام إنّها سوف تَوجّه لـ البصرة .

بعد تلقّيه هذه الأخبار انسحب من موقعه في شهر يوليو كي يخبر "دوم ألفارو" ، وبعدما علم بحقيقة الأوضاع أمر بتوفير الأغذية ، والمياه ، وحطب الوقود ، والأخشاب ، وموادّ نصب السِقالات وغيرها كي يتمّ تخزينها داخل القلعة .

بعد ذلك أرسل "سيماو دا كوستا" و"ميجيل كولاسو" في اثنتين من السفن كي يأخذا موقعيهما عند "رأس الحدّ" ، والبقاء هناك حتّى

نهاية شهر أغسطس ، حيث تهبّ رياح "المونسون" من مكة نحو ذلك المضيق ، وإذا ما تبيّن لـ "سيماو دا كوستا" أنّ عدد السفن أكثر من خمس وعشرين سفينة يترتّب على "ميجيل كولاسو" العودة إلى هرمز وإبلاغ مناطق قريات وقلهات ومسقط وجميع المدن الأخرى كي تبقى على حذر لما يحدث .

عندما غادرت السفن ، وجدوا لأنفسهم موقعاً للمرابطة على مبعدة من "رأس الحدّ" ، لتشديد المراقبة هناك .

في بداية شهر أغسطس تمكّنوا من رصد خمسة سفن كان "بيري ريس" قد أرسلها أمامه ، وعلى متنها ابنه ، وذلك كي تستكشف ما إذا كانت هناك أيّة سفن برتغاليّة عند مدخل المضيق .

عندما أبصروا الأشرعة ، وتبيّنوا أنّها كانت سفناً شراعيّة ، شرع "سيماو دا كوستا" في الإبحار كي يتأكّدوا ما إذا كان هناك المزيد منها ، وعندما تأكّد عدم وجود المزيد قفل راجعاً للميناء ؛ لأنّه لم يقدر على مواجهة الرياح الغربيّة التي بدأت تهبّ بقوّة ، أمّا "ميجيل كولاسو" فقد قفل راجعاً على طول الخطّ الساحليّ عند رؤيته السفن ، كي يعطي الأخبار ويُحذّر جميع المدن .

في ذلك الوقت كان "جواو دى لسبوا" يتولّى قبطانية مسقط ، حيث كان نائب الملك "دوم أفونسو" قد أرسله إلى هناك لبناء القلعة تنفيذاً لأمر وتوجيهات جلالة الملك ، وذلك حرصاً على سلامة البرتغاليّين الذين يقيمون بصفة دائمة في تلك المدينة .

بالفعل شرع "جواو دى لسبوا" في بناء القلعة ، واختار لها موقعاً

فوق سطح جبال "باكالا" بحيث تشرف وتطل على الحاجز ، وبالرغم من أنّ أمر بنائها ظلّ مستمرّاً نحو ثلاثة شهور إلاّ أنّه لم يكتمل بعد .

إثر تلقّيه أخبار السفن ، حرص فوراً على تسفير زوجته ، ومجموعة كبيرة من زوجات وأسر البرتغاليّين ، هناك في إحدى السفن ، وأمر كلّاً من "بارتولوميو دياز دى موريس" و "أبولينا ريو منديس" بالإبحار بالسفينة إلى هرمز .

أمّا "جواو دى لسبوا" فقد انسحب ومعه ستّون من البرتغاليّين نحو القلعة ، وشرعوا في تخزين جميع المستلزمات من مؤن ، وأغذية ، وذخائر ، ووقود داخل القلعة التي أحكموا تحصينها .

كان ابن "بيري ريس" قد رأى "سيماو دا كوستا" في الوقت الذي عاد فيه للشاطئ ناشراً شراعه اللاتينيّ ، فانطلق يطارده ، وفي ظلّ هبوب الرياح بقوّة ، وارتفاع حركة الموج ، وصغر السفينة ، فقد بدأت السفينة تغرق وسط الموج شيئاً فشيئاً ، وهنا لحقت بها سفينة ابن "بيري ريس" ، ولكن في إطار رغبته في القبض على الجميع ، وهم أحياء قرّر عدم إغراقها .

عموماً ، أصبحت السفينة تحت مجاديف مركبه ، وهنا شعر الجميع بأنّهم لا محالة هالكون ، لكن كان هناك مدفعيّ وجنديّ عند مقدّم المركب تمكّن من الإمساك بالمجاديف في محاولة لإنقاذ نفسيهما من الغرق ، حيث حبّذا الأسر دون الموت غرقاً .

أمّا "سيماو دا كوستا" ، وهو رجل ذو خبرة طويلة ، فإنّه لم يتسرّب اليأس إلى نفسه ، وبالمثل لم يزكّ نفسه على سيّدتنا سيّدة الرحمة ، لأنّه عندما شعر بميلان المركب بعيداً عن السفينة ، وهي تتحرّك نحو

الجهة التي تهبّ فيها الريح ، شرع في تشجيع البحارة ، مستخدماً خبرته في التحكّم في تسيير المركب ، حتّى أمكنه وضعه في المسار الصحيح ، وفقاً لاتّجاه هبوب الرياح ، وفي هذا الوقت تمّ التقاط المدفعيّ والجنديّ اللذين ما زالا متعلّقين بالمجاديف إلى سطح السفينة بواسطة الأتراك .

عندما أبصر السفينة التي كانت تبحر بشكل أقرب للرياح ، وهي تحاول الفرار مستفيدة من خطئه ، شرع ابن "بيري ريس" في ملاحقتها ، وهو يطلق عليها النار من مدفعه .

لأجل تشجيع الطاقم على الصمود عمل "سيماو دي ميلو" "Simao de Milo" على نثر بعض الأموال في سلّم السفينة ، وتمكّن من معالجة شراعها قدر جهده ، كي تتّخذ السفينة اتّجاه هبوب الرياح ، وبالفعل كان له ما أراد ، وقد استمرّت المطاردة حتّى منتصف الليل ، حتّى اختفت السفينة عن أنظار الموجودين في المركب .

عندما شعر "سيماو" أنّه لم يعد تحت ضغط المطاردة ، قام بتغيير اتّجاه سيره ، وعند حلول الظلام اتّجه نحو شاطئ فارس ، وظلّ يبحر على طول الساحل حتّى وصل إلى هرمز .

أما الأخبار التي أفصح عنها بشأن تلك السفن الخمسة ، فقد تسبّبت في خلق حالة من الذعر في المدينة ، الأمر الذي جعل السكان يشرعون في مغادرتها ، وعليه توجّه عامة الناس إلى ساحل "موغستان" .

أمّا الأغنياء منهم وذوو النفوذ فقد لجأوا إلى جزيرة قشن المجاورة لـ هرمز ، وكذا انسحب الملك والوزراء إلى القلعة برفقة زوجاتهم وأسرهم ،

حاملين معهم أشياءهم الثمينة ، وكذلك الحال بالنسبة لـ "دوم ألفارو دى نورونها" الذي احتمى بالقلعة مع مجموعة من البرتغاليّين .

هناك وجّه اهتمامه لبناء التحصينات وعمل المتاريس ، وعندما قام بإحصاء الناس تبيّن له وجود تسعمائة فرد ، خاصّة وهناك حوالي ثلاثمائة كانوا على متن السفينة "كارانجو دو رينو" "Carango de Reno" بقيادة "القبطان" "ايريس مؤنس" ، الذي لجأ إلى هرمز بعدما تأكّد أنّه لم يعد من الممكن الإبحار لـ الهند .

على كلٍّ ، أصبح حول "دوم الفارو دى نورونها" أكثر من ألف محارب مَسْقَطِيّ ، ومجموعة كبيرة من الأسلحة والذخيرة ، تمّ توزيعها على جميع الرجال الموجودين داخل القلعة .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

ذكر كيف أبحر "بيري ريس" إلى مسقط ، وكيف غادر وكيل قلهات بالرسالة إلى "غوا" ، جاءت تلك الأحداث في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرّخ البرتغاليّ "ديوغو دو كوتو" "Diogo do Couto" : (٣٢)

عندما أحسّ "بيري ريس" بأنّه فقد أثر "سيماو دى كوستا" عمل مجدداً على تحويل وجهته ، وعند بزوغ الفجر اكتشف أنّه على مقربة من الساحل الآخر للجزيرة العربيّة على مبعدة من مسقط ، وبالتالي وجد نفسه مضطراً لمواصلة البحث عن أبيه ، وهذا ما فعله .

عندها ، أبحر مبتعداً حتّى وصل إلى "خورفكان" ، وشاء حظّه أن يعثر على السفينة التي تقلّ زوجة "جواو دي لسبوا" ومن معها ، وبالتالي قبض عليهم ، ومن ثمَّ أمر بأن يتم وضع "بارتولوميو دياز" و"أبولينا ريو" على مقعد تجديف المركب .

(٣٢) رقم الوثيقة والهامش.

هكذا اتّجه بهذه الغنيمة إلى مسقط ، حيث وجد أباه في انتظاره ، وبسبب إبحار "بيري ريس" مباشرة وراء الأسطول ، فإنّه عندما دخل المضيق لم يجد أيّة أخبار عن السفن التي أرسل على متنها ابنه ، ولم يعد يعرف أيّ شيء عنه .

عندما أحسّ بأنّه ربّما لا يعثر عليه في مسقط ، شرع في الإبحار على طول الساحل للبحث عنه ، وأثناء ذلك مر عبر قلهات حيث يوجد الوكيل "استيفاو جوميز" ، وعندما أبصر الأخير اقتراب هذه السفن أسرع في الإبحار مستقلّاً إحدى السفن الصغيرة كي يخبر نائب الملك ، وسوف نتطرّق بالحديث عن رحلته هذه فيما بعد .

عندما التقى "بيري ريس" بابنه فإنه سُرّ كثيراً بالغنيمة فعمل على دخول حاجز مسقط ، وعلى الرغم من علمه بما قام به البرتغاليّون من تحصينات ومتاريس إلاّ أنّه اتجه مباشرة إلى الشاطئ دون أن يجد أيّة مقاومة تذكر ، فعمل على نهب المدينة التي هجرت خاصّة ، وأنّ المدينة كانت تزخر بالسلع التجاريّة التي لم يتمكّن السكّان من أخذها معهم .

بما أنّه كان يرغب في أخذ البرتغاليّين إلى ملك الأتراك كهديّة له ، فقد حاول محاصرتهم والقبض عليهم ، وعليه أمر بإنزال بعض قطع المدفعيّة التي رغب في أخذها إلى أعلى الجبل ، لكنه لم يستطع حتّى نقل مدفع صغير بسبب شدّة الانحدار ، إذ تبيّن له استحالة وصعوبة تسلّق الجبل ، فهذا الانحدار الشديد كان بمثابة مِتراس بالنسبة للقلعة .

لذلك عمل على تقويتها من خلال بناء مناطق تحصين حولها ، وخنادق ، وحواجز دفاعية ، ومن هذه التحصينات شرع في توجيه

نيران أسلحته ، والاعتداء على رجالنا من خلال سلسلة من الهجمات ، ولمّا كانت القلعة معرّضة تماماً لنيرانه فقد صبّ عليها معظم ذخيرته ، وبذلك أصيب الكثيرون من رجالنا بجراح ، لكنّهم كانوا بالمثل يردّون على نيرانه بشغف .

هكذا استمرّ تبادل النيران مدّة ثمانية عشر يوماً دون انقطاع ، تمكّن البرتغاليّون من الدفاع عن أنفسهم ببسالة ، ولكن نظراً للنقص في المؤن خاصة وإنّهم لم يتخيّلوا أنّ الأتراك سوف يستمرّون في محاصرتهم كلّ هذه المدّة الطويلة ، فقد شرعوا في تقاسم ما بقي من مياه قليلة وأطعمة بينهم ، آملين أن تكفيهم هذه المؤن للأيام القليلة القادمة .

عندما أحسّ "بيري ريس" بتصميم البرتغاليّين على الصمود ، بدأ الشكّ يساوره حول إمكانيّة الاستيلاء على القلعة عنوة ، وبما أنّ الوقت يمرّ سريعاً فقد بدأ يفكّر في الشروط التي يمكن أن يوافقوا عليها ، وعليه أرسل "جواو دا باركا" "Joao da Barca" ، وهو من البرتغاليّين المرتدّين ، كان قد أتى به كي يقوم بالاتّصال بهم .

بعدما تقدّم حتّى أصبح على مسافة النداء بحيث يمكن أن يسمع صوته من بالداخل ، أبلغهم أن "بيري ريس" يريد ، إذا ما كان "الكابتن" يسمح بذلك ، أن يرسل لهم مبعوثاً للتفاوض معه في أمور هامّة .

هنا بدأ "جواو دى لسبوا" في التفاوض فيما يمكنه عمله ، واتّفق الجميع على ضرورة الاستماع لما سيقوله المبعوث ، وكان المبعوث هو "جواو دا باركا" نفسه الذي أتى لمخاطبة "الكابتن" ، فأشار قائلاً :

"إنّ الباشا لا يرغب في الاستمرار في المناقشة والأخذ والردّ ؛ لأنّه

يدرك تماماً حجم الأزمة التي يعانيها "الكابتن" ، ولكن إذا ما استسلم "الكابتن" فإنّه على استعداد للإبقاء على حياة الجميع ، وتوفير كافّة السبل ، والسفن ، لنقلهم إلى الهند" .

تحدّث أيضاً هذا المرتدّ "جواو دا باركا" معدّداً الكثير عن السمات العظيمة التي يتحلّى بها "بيري ريس" من تسامح ، وتحرّر ، ومرونة ، مؤكّداً أنّه "لا يمكن أن يرجع عن وعد قطعه على نفسه ، ولكن إذا رفض "الكابتن" شروطه هذه فليكن معلوماً لديه أنّ الباشا لن يأمر برفع الحصار عن القلعة قبل اجتياحها ، وحينها لن يبقي على حياة أي فرد فيها" .

بعدما استمع "الكابتن" لما قيل ، أعطى أوامره بتوقيفه ، ومن ثمّ عرض الأمر على المجلس حيث عدّد الصعوبات التي يواجهونها ، وبيّن لهم الشحّ والنقص في كلّ شيء .

بعدما تمّ تداول الأمر ، اتّفق الجميع على ضرورة ذهاب الكابتن "جواو دي لسبوا" مع أحد الكهنة اليسوعيّين ، وكان يقيم هناك ، لمقابلة "بيري ريس" ومناقشة الشروط معه ، وما يقرّره هؤلاء سوف يعتبر بمثابة حلّ للمسألة برمّتها .

هكذا ، توجّها برفقة المرتدّ "جواو دا باركا" لـ "الباشا" الذي أحسن استقبالهم ، وعندما جلس الجميع عاملهم "الباشا" بكلّ اللطف بحيث أشعرهم بأنه استأنس بقدومهم ومن ثم قال :

بشأن الموضوع ، إنّه لا يرغب في نيل شرف أكثر من علم ملك الأتراك أنّه قد تمكّن من انتزاع قلعة من قبضة البرتغاليّين ، ويؤكّد

أنه سوف يحرص على سلامة حياة وحرّيّة جميع من في القلعة بعد التسليم ، بحيث يمكنهم بعده الذهاب إلى أيّة جهة يشاؤون .

أطنب في الحديث عن هذا الأمر حتّى قبل "جواو دي لسبوا" بالشروط المطروحة وبعدها منحه "الباشا" أمر عبور آمن للجميع من في القلعة باسم التركي ، وعليه أمر "جواو دي لسبوا" كلّ من في القلعة بالمثول أمامهم فوراً وذلك ما نفّذه الجميع .

عندما تيّقن "الباشا" من وجودهم جميعاً معه ، حنث بوعده مثله مثل جميع الأتراك فأمرهم جميعاً بأن يعملوا في تجديف المراكب ، وبعدها أمر بشحن جميع قطع المدفعيّة ، وكميّة البضائع والسلع التي تمّ جمعها داخل القلعة ، وبعد ذلك استقلّ احدى السفن تاركاً الميناء خالياً .

كان من بين أهمّ الرجال من ذوي النفوذ الذين تمّ أسرهم مع "جواو دى لسبوا" ، الأخوان "أندريه" و"ديوغو فيو" ، وهما من مواطني جزيرة "ماديرا" ، تزوّجا مؤخّراً في "غوا" ، وأصبحا من مواطنيها ، "باستياو كريداو دي أبريو" الذي صار فيما بعد قبطاناً على "ترابور" و"ماهيم" ، "مانويل كاستيلو" ، "أنطونيو لوبيز دي اوليفيرا" ، "ديوغو لويس" ، "مانويل دياز" ، "أنطونيو بنتو" وغيرهم من النبلاء والفرسان المرموقين .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

ذكر وصول الأسطول التركي إلى هرمز ، والحصار الذي فرضوه على القلعة والأحداث التي تخلّلت ذلك ، كما جاء في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرّخ البرتغاليّ "ديوغو دو كوتو" "Diogo do Couto" : (٣٣)

بعد مضيّ أيّام قليلة من مغادرته مسقط ، وصل "الباشا بيري ريس" إلى هرمز ، إذ برز أسطوله في المنطقة في يوم كان الضباب فيه كثيفاً ، وبعد ذلك اتّجه للبحث عن شاطئ آخر في "جيرون" ، وهناك ألقى مراسيه ، وتمّ إنزال جميع الرجال .

أمّا الكابتن "دوم" ، فبالرغم من أنّه كان مصاباً بحمّى استمرّت أربعة أيّام ، فقد انطلق من القلعة على رأس أربعمائة محارب تاركا البقية كي تقوم بدور الحراسة ، وبواسطة هذه المجموعة التي تدرّبت جيّداً ، انطلق "دوم الفارو" كي ينتظر الأتراك في الميدان .

(٣٣) رقم الوثيقة والهامش.

بعدما وصل إلى منطقة تقاطع الطرق خارج المدينة ، أرسل فرقة استكشاف للتجسّس على أوضاع العدوّ ، ومن ثمَّ علم أنّهم جميعاً على الشاطئ .

بعدما تشاور مع قادته فيما يجب عمله ، اتّفق الجميع على الانسحاب نحو القلعة ، حتّى تتّضح لهم معالم خطة العدوّ ، وقد تمّ تنفيذ الانسحاب فوراً .

قضى "دوم الفارو دى نورونها" ذلك اليوم بكامله يرقب تحرّكات العدوّ التركي ، متّخذاً كلّ الاجراءات الوقائية من خلال استخدام أربعين سفينة في الميناء حتّى لا يتمّ الاستيلاء عليها ، إذ أصدر أوامره بإفراغها بأقصى سرعة وشدّها إلى بعضها البعض على طول جانب القلعة في أسفل الحصن ، أمّا البقية فقد عمل على نزع صواريها .

بالإضافة لذلك وجّه بتحريك السفينة "كارانجو دو رينو" ، وهي من أضخم السفن ، كي تكون قريبة قدر الإمكان ، ولقد تولّى الضباط إنجاز ذلك حيث قاموا بتوصيل حبال متينة تحت دفّات المراكب ، وشدّها إلى بعضها بالقرب من القلعة ، وذلك كيلا يتم خطف أيّ من المراكب .

أعطى أيضاً "دوم ألفارو" أوامره لقبطان المركب "ايرس مونيس باريتو" "Aires Mones Baretto" كي يُبقي عريف الملّاحين المدعو "هارلب" "Harlp" على متن المركب ، وكان ماهراً في عمله ، ومن ثمَّ تبعه أيضاً جميع غلمان السفينة ، وضابط الصفّ ، ورجال المدفعيّة ، كي يعملوا على إبقاء المدافع جاهزة .

بعدما اطمأنّ على أوضاع جميع السفن والمراكب ، استعدّ "د . ألفارو دى نورونها" للذود عن القلعة باتباع ما يلي :

أمر القبطان "دوم فرانسيسكو دي الميدا" ، ابن "بيدرو دي الميدا" من "إيفورا" ، بأن يبقى في الجانب العلويّ ، وزوّده بعدد أربعين محارباً ، كما أمر "غونسالو قوديس دى روبيردو" ، وهو من أنشط الرجال ، بأن يأخذ مكانه في السفينة "سانتياغو" ، ويراقب المكان الذي خصّص للمدافع ، وقد زوّده أيضاً بفرقة عسكريّة قوامها مائة وثلاثون جنديّاً ، واختار "الكابتن" استحكامات الحصن الأمامي لنفسه ومعه مائة محارب .

أمّا على طول الحائط الممتد من هذا الحصن وحتى حصن "سانتو اندريه" ، فقد كلّف به "ايرس مونيس" مع خمسين جندياً .

في الحاجز الآخر الممتدّ من "سانتياغو" وضع "مانوى دى سوسا" شقيق "فيرناو دى سوسا دى كاستيلو برانكو" الملقّب باسم "مارتنت" مع ثلاثين جنديّاً .

أمّا بخصوص الجانب البحريّ ، فقد خصّ به "أنطونيو كوريا" "Antonio Correia" ، وهو فارس نبيل (كان قد زوج ابنته لـ "د . أنطونيو دى نورونها" ، تولّى فيما بعد قبطانيّة "كوتشين" ، وقد ذكرناه مراراً في حديثنا الماضي) وقد أعطاه ستّين رجلاً .

أمّا منطقة الاستحكامات في الوسط فقد أوكل مهمتها للمدعوّ "جواو هوميم" الذي كان في خدمة "كوندي دي فيموسو" "Conde de Vimoso" ومعه أربعون جنديّاً .

أمّا مركــز الوســـط ، فعــدا غرف التخزين ، فقد خصّصت فوقها غرف للملك وزوجته وأطفــاله ، والقاضي ، وسعادة "ميراباروس "Mirabaros" قاضي قضاة المملكة ، وجميع أسرهم .

أما بقيّة الجنود الذين لم يجد لهم مكاناً في أماكن التحصين ، فقد أبقاهم في الخارج مع مجموعة من الحرّاس ، وأمرهم "الكابتن" بتقديم المساعدات إلى أيّ موقع في القلعة .

قضى "بيري ريس" تلك الليلة نائماً على الشاطئ ، وفي اليوم التالي أعطى أوامره بإنزال قطع المدفعيّة التي صمّم على استخدامها في قصف القلعة ، ومن ثمَّ بدأ الزحف نحو موقع يتيح له رؤيتها ، وبعدها أمر بإقامة معسكره فيه ، وكان ذلك في موقع المبنى القديم لمركز الجمارك ، وعلى الفور شرع في إقامة التحصينات ، والمتاريس ، مستخدماً في ذلك الطين ، والحجارة ، وكميّات من الأخشاب كان قد عثر عليها في المدينة .

في اليوم التالي كان قد أعدّ استحكاماته ، وخنادقه على النحو التالي :

في ركن مبنى مركز الجمارك القديم ، عمل على تثبيت ثلاث قطع من المدفعيّة الثقيلة ، التي تزن كريّاتها الناريّة حوالي أربعين رطلاً للكرة الواحدة ، ومن هذا أنشأ حاجزاً دفاعياً قويّاً يمتدّ عبر باحة القلعة .

قام جنوده ببناء تحصين بستّين آخر أمام منازل "الكابتن" ، ووضعوا هناك خمسة من المدافع بعضها يعمل على إطلاق الكريّات النارية ، والبعض الآخر الحجارة .

من هذا الموقع يمتدّ الحاجز الدفاعي نحو الجهة الأماميّة للقلعة ، وفي

سبيل تجنّب القصف قاموا بتشييد موقع حصين ، ومنه يمتدّ الحاجز الدفاعيّ نحو الجهة اليمنى وحتى البحر .

يضاف لذلك ثلاثة حصون أخرى تمّ تزويد كلٍّ منها بخمس قطع من المدفعيّة الثقيلة ، وهكذا تمّ تأمين واجهة القلعة من الساحل للساحل ، وتمّ نصب مدفعين كبيرين فوق سطح الجزء الخاصّ بالملك ، نظراً لأنّ معظم أجزاء القلعة تبدو مكشوفة من ذلك الجانب .

في إطار هذه المواقع التي تمّ بناؤها على النحو الذي وصفناه ، شرع الأتراك في قصف القلعة باستمرار ، موجّهين نيرانهم إلى كلّ جزء منها ، وكان القصف عنيفاً بحيث كانت القلعة تردّ عليهم بالمثل .

بما أنّ الأسوار كانت مبنيّة من الطين الليّن والحجارة ، فقد كانت قذائف الحجارة التي تطلق عليها تنغرس حتّى نصفها في الأسوار ، وبالتالي أصبح المنظر وكأنها قد رصّت بتصميم فنّان ماهر ، ومن المعلوم أن تلك الحجارة ظلّت مغروسة حتّى هذا اليوم .

كان "الكابتن" قد رغب في إبلاغ نائب الملك ، وكان قد أعدّ لهذا الغرض سفينة وضعها بالقرب من القلعة ، وبالتالي قام بإرسال "بيرو فيرناندس دى كارفالهو" على متنها ، وبعد مرور أربعة أيّام على حصار القلعة انطلق "بيرو فيرناندس" من القلعة ليلاً ، وصار يقوم بالتجديف حتّى وصل إلى الشاطئ الآخر من "موغستان" ، ومن هناك أبحر بمحاذاة الساحل حتّى وصل إلى رأس "جاسك" ، ومنها أبحر في المسار المعتاد .

نظراً لاعتقاده أن السفينة ربما تواجه أيّة صعوبات ، فقد عمل بعد

يومين على إرسال سفينة أخرى على متنها شخص في المقيمين في هرمز ويدعى "كوسمو ألفاريز" الذي سار في الطريق نفسه .

استمرّ الأتراك في قصفهم القلعة ، لكن لم يتسبّب قصفهم هذا في إلحاق أيّ دمار ، وبالمقابل تلقّوا أيضاً القصف من الجانب الآخر . كان ضابط الصفّ من مواطني "نافاري" وكان بارعاً في إطلاق نيران المدفعية بحيث إنّه نادراً ما كان يخطئ في إصابة الهدف ، ولهذا كان عمله قد اتّسم بالكثير من التوفيق بحيث أصاب الكثيرين منهم في مقتل ، وتمكّن أيضاً من تدمير تحصيناتهم التي تمكنوا من إعادة بنائها بالكثير من الصعوبة .

كان الجنود البرتغاليّون الذين اشتهروا باستقلاليّتهم ، وجرأتهم في الهند ، قد ضاق بهم الأمر وهم يرون أنفسهم محبوسين داخل أسوار القلعة ، فاجتمع رأيهم جميعاً ضرورة التحدّث مع القائد وإقناعه أن يفتح البوابات أمامهم ؛ لأنّهم يرغبون في الخروج للعدوّ لانتزاع مواقعه ، والاستيلاء على مدافعه ، فما كان من القائد إلاّ أن عمل على تهدئتهم مؤكّداً لهم أنّه سوف ينفّذ لهم طلبهم هذا في الوقت المناسب .

لكن لم يكن هذا الردّ مقنعاً بالنسبة لهم في تلك اللحظة خاصّة ، وإنّ القائد لا علم له بعدد جنود العدوّ ، ولكن بحكم عدد السفن فلابد أنّ عددهم يقارب الثلاثة آلاف جنديّ ، وهكذا كان لابدّ له من تهدئتهم ، إذ إنّه يحاول أن يقبض على أحد الجواسيس كي يتأكّد من عدد جنود العدوّ ، وإذا تبيّنت له الحقيقة سوف يسمح لجنوده بتنفيذ رغبتهم .

لم يكن أيضاً هذا بالردّ المقنع بالنسبة للجنود لذا بدأت تصرّفاتهم تتّسم

بالتمرّد ، بالإضافة إلى قيام الأتراك بإزعاجهم بالقصف واستفزازهم ، ففي كل مرّة يتوقّف القصف تتناهى إلى إسماع الجنود هتافات الأتراك وصيحاتهم ، من الذين رموهم بالجبن ، ووصفوهم "بالدجاج" .

لكن كان الجنود بالمقابل يهزؤون منهم قائلين لهم إنّهم لم يحصلوا حتّى هذا الوقت على إذن من قائدهم بالخروج لمواجهتهم ، وإنّه إذا ما فعل ذلك فلا شكّ إنّهم سوف يواجهون أسوداً ضاريّة وليس دجاجاً كما يحسبون ، وسوف يأتي الوقت الذي سوف يؤكّدون لهم هذه الحقيقة .

هكذا ، وفي إطار هذا السبب ، كان التذمّر ضدّ "الكابتن" بالإجماع ، ولكن نظراً لأنّ هذه القلعة كانت بمثابة الشكيمة التي غالباً ما يستخدمها ملوك "البرتغال" في كبح جماح الأتراك ، وهي من أعظم القلاع أهمية في مناطق الهند ، فقد هدف "دوم الفارو دى نورونها" أن يجعل منها قلعة آمنة خاصّة ، وهو غير متأكّد بشأن ما يحدث في الجيش . أضف لهذا أنّه مازال يعاني آلام مرض الحمّى ، ولهذا لا عجب إن بدا مكتئباً ، واهن العزيمة .

عندما شعر "غونسالو جويديس دى روبيردو" قائد استحكامات منطقة حصن "سانتياغو" برغبة القائد في الحصول على جاسوس ملائم ، تطوّع بالذهاب كي يلقي القبض على واحد من الجواسيس ، وقد وافق القائد على عرضه ، هذا فأمر حوالي مائة جنديّ بالمغادرة في تلك الليلة ، وهنا تقدّم جميع النبلاء والفرسان المميّزين الموجودين داخل القلعة للمشاركة في تلك الغارة ، لكن القائد رفض أن يسمح لهم بذلك .

في منتصف الليل ، وعندما تأهّب الجميع للخروج من البوابة الخلفية

توقّف "دوم الفارو دى نورونها" فجأة، وسواء كان الأمر قد تعلّق بخوفه من حدوث كارثة ما أم ساوره الشكّ بأنّهم تحت مراقبة من جانب العدوّ، فقد أمر "غونسالو غوديس" بالانسحاب، الأمر الذي حزن له الجميع .

استمرّت وتيرة القصف ، ولكن عندما أدرك "بيري ريس" مدى ضآلة التدمير الذي ألحقه بالقلعة عاد إلى مدفعيته فوق السفن كي يأمرهم بتكثيف القصف ، وظلّت المدفعية طيلة ذلك اليوم تقصف بعنف مباني القلعة، فأمطروها بوابل من القذائف التي أطلقت معظمها على سفن "البرتغال"، لكنّهم تلقّوا أيضاً بالمقابل وابلاً من النيران راح ضحيتها عدد وافر من رجالهم .

هنا أفرز عريف الملاحين وجميع رجال البحر أعمالاً رائعة ، بحيث إنّهم اندفعوا بشكل عاجل لسدّ الفجوات الكثيرة التي حدثت بسبب قذائف المدفعيّة .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

ذكر قيام الأتراك برفع الحصار ، والمراسلات التي تمّت بين "بيري ريس" والقائد ، وكيف لجأ العدو إلى نهب جزيرة قشن ، جاءت تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" : [٣٤]

في اليوم التالي من حدوث هذا ، أمر "بيري ريس" بنقل قطع المدفعيّة في السفن .

في الليلة التي عزم فيها على الانسحاب ، قدم "جواو باليرو" "Joao Balero" وهو مدفعيّ من مسقط كان أيضاً من الأسرى ، قدم للتحدّث مع رجال القلعة وأشار عليهم أن يخبروا القائد إنّه بوسعه افتداء جميع الرجال الأسرى في مسقط بكلّ سهولة إذ إنّ "بيري ريس" يرغب في منحه هذه الخدمة ، وأضاف أيضاً الكثير من كلمات الإطراء والتمجيد بحق "بيري ريس" وأسرف في شكره بكلمات أجبر على قولها .

(٣٤) رقم الوثيقة والهامش.

بما أنّ القائد حتّى ذلك الوقت لم يتلقّ أية أخبار ، فقد علم فيما بعد بالأحداث التي جرت في مسقط ، وقد بدأ مستاءً جدّاً خاصّة وهو غير ملمّ بما حدث في هذا الموضوع ، وعن الطريقة التي استخدمت في اقتياد هؤلاء الناس كأسرى ، فرفض أن يعطى أي جواب لـ "جواو باليرو" .

عندما أدرك "الباشا" أنّهم غير راغبين في التحدّث إليه ، فلأجل التمكّن من الرسوّ أعطى أوامره لرجاله كي يقوموا بقصف القلعة التي ردّت بقصف مماثل لا يقلّ قوّة عن قصفهم ، الأمر الذي بثّ الرعب في نفوس الأعداء ، لأنّ هذا القصف استمرّ مدّة ساعتين دون انقطاع .

بسبب أن الترك لم يتخيّلوا أنّ في القلعة موارد كثيرة ، فقد أسرعوا إلى سفنهم بعدما قضوا عشرين يوماً في حصار رجالنا ، وعندما شرعوا في الانسحاب كانوا يتجوّلون في أنحاء المدينة ، وعملوا فيها سلباً ونهباً ، بعدما هزموا مجموعة الثلاثمائة جنديّ التي تقوم بحراستها عندما اعترضت سبيلهم ، لكن بلا شيء من النظام أو التكتيك المرتّب .

بعدما فرغوا من نهب وتدمير المدينة ، عمل الأتراك على الصعود إلى سفنهم ، وتمركزوا بعيداً من الشاطئ ، ومن هناك أطلق "بيري ريس" قذيفة تحيّة .

اتّجهت سفينة صوب القلعة ملوّحةً بعلم أبيض للتفاوض ، وخاطبوا الموجودين داخل الحصن والذين يراقبون موقع المدفعيّة قائلين إنّهم قد أتوا برسالة من "الباشا" لتسليمها للقائد ، فأعطى القائد الأمر بالسماح لهم بالدخول ، وهنا رست سفينة بشراع إيطاليّ تحمل على متنها كلاً من "بارتولوميو رودريجيز دى موريس" ، و"ابولينا ريو منديس" ، وزوجة

"جواو دى لسبوا" ، الجنديّ والمدفعيّ من سفينة "سيماو دا كوستا" (واللذان كما ذكرنا ظلا متشبثين بمجاديف سفينة ابن "بيري ريس") .

بعدما أخذا إلى القائد ، أعلن مسؤول السفينة أن "الباشا" يقدّم له هديّة تتمثل في هؤلاء الرجال ، وهذه السيّدة ، بالإضافة إلى رمح أنيق ، وسرج كان يحمله بيده ، وأضاف قائلاً : "إذا رغب في افتداء جميع الأسرى في مسقط فإن مسؤول السفينة سوف يبقى معه حتّى ينتهي من هذا الأمر" .

بعدما استمع "الكابتن" لحديثه ولكلّ ما تفوّه به ، أمر بالقبض عليه ووضعه فوق أداة التعذيب الخشبيّة هو وكلّ من معه ، وحتّى قائد الزورق الذي أتى برفقتهم ، وظلّوا هناك مدّة يومين ، وفي اليوم الثالث أمر بإحضارهم كي يمثّلوا أمامه فألبسهم جميعاً حللاً قرمزية اللون ومن ثم أخبر مسؤول السفينة أن يأخذ زوجة "جواو دى لسبوا" ، و"بارتلوميو رودريجيز دي موريس" و"ابولينا ريو منديس" كي يعود بهم وإبلاغ "الباشا" أنه لن يقوم بافتداء مجموعة البرتغاليّين الجبناء الذين استسلموا بتلك الطريقة المهينة .

إنّ المرأة يجب أن تعاد وتسلّم إلى زوجها ؛ لأنه يرغب في أن ينال ذلك الزوج حظّه من العقاب على يديها ، وإنّه قبل منه بالجنديّ والبحّار من سفينة "سيماو دا كوستا" إذ إنّه لا لوم عليهما ، وهو يرسل هذه الموادّ كفدية لهما ، وهنا أرسل له طستاً أنيقاً ، وجرّة فضيّة موشّاة بالذهب ، ومعها أرسل أيضاً بندقيّة جميلة ، وسيفاً رائعاً ، وأخبره بأن يبلغ "الباشا" أنّ تلك هي الهدايا التي يستقبل بها قادة ملك "البرتغال"

ضيوفهم من أتباع ملك الأتراك ، وبعدها أمرهم بالصعود على السفينة غير مكترث لنحيب ودموع تلك المرأة والرجلين .

عندما وصل قائد الزورق قام بتسليم الرسالة لـ "الباشا" ، وبما أنّه وصل إلى هناك ليلاً فقد أمره "الباشا" بأخذ المرأة والرجلين وإلقائهما في الجزيرة ، وعندما نشر أشرعة سفينته وبدأ الإبحار عثر على سفينة للبرتغاليّين ، كان البرتغاليّون قد تركوها مهجورة على الجانب الآخر من الشاطئ ، فقام بقطرها خلف سفينته ، ثمّ عبر إلى جزيرة قشن ، حيث أبلغ أنّ كل ثروات مدينة هرمز وأموالها موجودة هناك .

هناك ألقى مراسيه دون أن يواجه أيّة مقاومة ، فقام بأعمال النهب حتّى امتلأت سفينته بالسلع ، وبحكم وجود أكثر من ثلاثين من التجّار الأثرياء ، فقد حصلوا على ثروة تقدّر قيمتها ما بين ثلاثين إلى خمسين ألف "كروزادو" ، وكان من بينهم اليهوديّ الاسباني "سولومان" الذي يملك حوالي ثمانين ألف "كروزادو" من الذهب واللؤلؤ ، والحجارة الثمينة وممتلكات أخرى .

تمكّنوا من أخذها منه كلّها ، وأخذوه مع زوجته وأسرته كسجناء ، أمّا سكان الجزيرة البالغ عددهم عشرين ألفاً فقد قام الأتراك بأسر البعض منهم بعدما عملوا فيها ذبحاً وتقتيلاً بوحشية وقسوة لم يعرف لها مثيل .

تقع جزيرة قشن على مبعدة ميلين على طول الساحل العربي من هرمز ، وتمتدّ هذه الجزيرة بطول ثلاثين ميلاً وعرض ميلين ، وتبدأ بمكان اسمه "لافتا" "Lafta" وتنتهي في "كريماو" "Cremiao" وهذه تمثّل أقصى بقعة فيها .

هناك قضى الأتراك وقتاً طويلاً امتدّ لعدّة أيام ، تجوّلوا فيها حيث شاءوا ، وعندما تعبوا بادروا بالإبحار متجهين إلى البصرة ، وفي هذا الوقت كان الرجلان وزوجة "جواو دى لسبوا" في طريقهم إلى القلعة .

أرسل القائد بعض السفن الخفيفة بغرض التجسّس والتقاط المعلومات .

بعدما تلقّى الأخبار باتّجاههم لـ البصرة ، عاد الملك و"القاضي" للمدينة حيث وجدوها قد نكبت ودمّرت بالكامل ، وبعد ذلك شرع السكّان الذين كانوا في الجانب الآخر من الشاطئ في العودة لإعمار هذه المدينة وإعادة بنائها من جديد .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)

ذكر الرسالة التي وردت إلـى "غوا" بخصوص السفن ، وكيف غادر "د . ديوغو دى نورونها" (الأحدب) و"د . أنطونيو دى نورونها" إلـى هرمز بسفينتهما ، وعن الكلمة التي ألقاها في مجلس "غوا" مناشداً المساعدة والحصول على قرض مالـي ، جاءت تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" " Francisco de Andrade " : (٣٥)

شرع "استيفاو جوميز" ، وكيل قلهات (الذي كنّا قد تركناه يستعدّ للإبحار بسفينته إلى "غوا") في عبور ذلك الخليج العظيم حتى وصل إلى موقع بالقرب من إقليم "باسين" ، وهناك دخل المدينة حيث سلّم تقريره ، وبعدما تزوّد بالمياه والمؤن توجّه إلى "غوا" .

كانت الأخبار بشأن الأتراك قد أحدثت رعباً في "باسين" بحيث

---

(٣٥) رقم الوثيقة والهامش.

شرع الناس فوراً في مغادرتها إلى هرمز ، وكان أوّلهم "أنطونيو دى سا" ، "التركي" الذي استقلّ مركباً صغيراً وأبحر مع مجموعة عشرين من رجاله في صبيحة اليوم التالي .

عندما احتواهم البحر قام بوضع الأغلال في أيدي جميع البحّارة ، وكان قد أتى بهذه الأغلال سرّاً لهذا الغرض ؛ لأنّه كان قد قرّر المرور وسط سفن ومراكب الأتراك ، ولم يرغب في أن يدعهم يفرّون من القارب ويلقون بأنفسهم في البحر ، فأبحر بأقصى سرعة بحيث إنّه وصل إلى هرمز في غضون عشرين يوماً فقط ، وحينها كان الأتراك ما يزالون منتظرين في جزيرة قشن ، وقد أحسن القائد استقباله بكل مظاهر التكريم .

في أواخر شهر أغسطس وصل "استيفاو جوميز" إلى "غوا" ، الأمر الذي كان بمثابة دهشة بالنسبة لرجالنا ، لأنّه تمكّن من عبور ذلك الخليج الخطير في زورق صغير وجوٍّ مليء بالعواصف . عندما وصل هذا الرجل إلى "غوا" ، اتّجه لمقابلة نائب الملك حيث أطلعه على أخبار أسطول الأتراك ، وعدد السفن التي يضمّها ، إذ إنّه حرص على عدّها بكل تروٍ وانتباه .

بالرغم من هذه الحقيقة فقد بدا نائب الملك منزعجاً ، فقرّر أن يهتمّ بنفسه بهذا الأمر ، وعليه استدعى النبلاء والقادة لحضور الاجتماع كي يطلعهم على ما حدث وبالفعل أخبرهم بأنه يعتزم الإبحار في الحال ، وطلب منهم الاستعداد لمرافقته . كان الجميع يمدحونه ويثنون عليه لهذا العمل ، وقبلوا عرضه بسرور عظيم .

بعدما ترك "د . ديوغو دى نورونها" (الأحدب) مع ابن عمه "أنطونيو

دى نورونها" شقيق "دوم ألفارو دى نورونها" كابتن هرمز ، استقلّ كلٌّ مركبه العامل بالمجاديف وجمعا أصدقاءهما وأقرباءهما وأخذ كل منهما خمسين جنديّاً معه ثمّ أبحرا إلى هرمز في اليوم التالي في نفس المسار (وسوف نتركهما هنا ولنا عودة للحديث عنهما) .

انتشرت الأخبار بشكل سريع في المدينة ، بحيث استجاب كلّ فرد من الشباب والشيوخ ، فقدموا أنفسهم إلى نائب الملك . أمّا فئة المواطنين الذين ظلّوا دائماً يقدّمون خدماتهم للملك في الأحوال الطارئة فقد كانوا أوّل من قدّموا ممتلكاتهم وأنفسهم .

اتّجه الملك إلى موقع وجود الأسطول في السفن ، فأعطى الأوامر لتجهيز السفن والمراكب الشراعية وغيرها ، وبما إنّه كان يوجد أكثر من خمسمائة فرد من المسافرين بحراً في حوض السفن ، فقد عملوا على توزيع أنفسهم على جميع السفن ، ومن ثمّ شرعوا في تجهيزها دون ضجيج ، أو تدخّل في شؤون بعضهم البعض ، حيث كان العمل يجري بشكل منتظم . بعد ذلك كان أوّل شيء قام به نائب الملك هو إرسال اثنتين من السفن الخفيفة :

وجّه الأولى لنقل الخطابات للمدن ، وقلاع الشمال ، وبعض الأفراد ، حيث شرح لهم طبيعة الأوضاع الطارئة ، وناشدهم أن يمدّوه بالرجال والسفن .

أمّا السفينــة الثانيــة التي أبحرت بقيــادة القبطان "فيرناو فارتو" "Fernao Varto" وهو من أكثر "القباطنة" خبرة ومعرفة بأمور البحر ، فقد وجّهها إلى هرمز لنقل رسائله إلى "الكابتن" هناك يبلّغه فيها بأنّه شرع في الإبحار وسوف يصل إليه عاجلاً .

استمرّ نائب الملك في تسريع هذه العمليّات ، فأعطى أوامره لجمع كميّات وفيرة من المؤن ، والأغذية ، وإعداد الذخيرة ، وكلّ شيء آخر تتطلّبه الحملة ، ونظراً لأنّ المملكة كانت بحاجة للمال ، فقد قرّر أن يستعين بالمدينة تماماً كما يفعل دائماً غالبيّة الحكّام ونواب الملك ، وعليه اتّجه إلى مقرّ المجلس يرافقه "القباطنة" ومجموعة من النبلاء القدامى وهناك أخذ مجلسه حيث خاطبهم بشكل مطوّل ، وعندما انتهى خطابه ، وقف كبير أعضاء المجلس ، وردّ بالإنابة عن جميع الأعضاء ، قائلاً :

لقد تبيّن للجميع مدى أهمّية تقديم المساعدة في هذه الظروف الطارئة ؛ لأنّ قلعة هرمز هي حقيقة مفتاح الهند بأكملها ، والرائدة لكلّ الحركات التجاريّة مع فارس والجزيرة العربية ، وهي الاسم الذي ظلّ جميع ملوك "البرتغال" يفخرون به ، وعليه فإنّ المدينة بشكل عامّ ، وكلّ فرد من مواطنيها يتفهّم الأمر ، وجميعهم على استعداد تامّ لخدمة ملكهم بأنفسهم وبممتلكاتهم من السفن ، والمراكب ، والأموال ، وكلّ شيء بوسعهم تماماً كما كانوا يفعلون في الأزمات السابقة .

فهم الآن مستعدّون لفعل الشيء نفسه ، وطالما الأمر متعلّق بالأعداء الأتراك أعداء المسيحيّة فلا أعتقد أنّ أحداً ما سيجد العذر لنفسه بالتخاذل ، بل سوف تتجدّد الطاقات والرغبات ، وسوف يقدّمون الآن نفوسهم بكلّ الرضى وهم يشعرون بالأسف العميق ؛ لأنّ ما لديهم من أموال ، وثروات ليست بحجم رغباتهم الأكيدة في تقديمها كمساعدات يحسّون أنّها واجبة عليهم .

هنا شكره نائب الملك بالأصالة عن نفسه وبالإنابة عن الملك ،

وبعدها شرع أعضاء المجلس في جمع المال من عامّة الناس ، حيث بلغت كمية الأموال التي جمعوها حوالي عشرين ألف "بارداو" قدّموها إلى نائب الملك ، الذي شرع في إعداد وتجهيز الأسطول .

وفي العام نفسه (١٥٥٠م)
تمت أحداث ما بين البصرة ومسقط وهرمز ، كما وردت في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" : (٣٦)

بعث الحاكم بـ "غونسالو فاز دي تافورا" مع أربعة مراكب إلى المضيق لجمع معلومات عن الأتراك ، وعين "جواو دا سيلفا دي مينسيس" "Gomez da Silva de Meneses" و"بالتازار دا كوستا" "Balthasar da Costa" و"فرانسيسكو فيرنانديز موريكال" "Francisco Ferbandes Morical" قباطنة على الثلاثة مراكب الأخرى .

عند وصولهم إلى البصرة لأخذ المياه وجدوا "جواو غونسالفس" "Joao Goncalves" هناك والذي كان أرسله قائد "ديو" إلى هناك على مركب شراعي صغير لنفس الغرض ، وهو الحصول على معلومات عن الأتراك .

(٣٦) رقم الوثيقة والهامش.

عندما غادروا جميعاً مع بعضهم البعض ، هبت الرياح الشرقية وأثارت عاصفة هوجاء خارج ميناء "زيلع" ، وخوفاً من الضياع وبناءً على نصيحة الربابنة اضطروا للدخول إلى رأس المضيق .

كان الوقت بداية مارس ، وقد سافروا دون توقف على طول الساحل الحبشي حتى ميناء مصوع حيث وبالرغم من أن المكان كان مهجوراً فقد تمكنوا من إيجاد شخص ما ليطلعهم على أخبار الخمسة برتغاليين الذين كانوا في انتظار السفينة التي كانت على بعد رحلة ثلاثة أيام . (هم أيضاً أفادوا بذلك) وأن السفن يتم إصلاحها في موانئ كثيرة لكنهم لا يعلمون أين تكون .

من حين لآخر كان البعض من أولئك يقومون بزيارة تلك الميناء بحثاً عن الأقمشة ؛ تسبب هذا في تفشي الذعر بين الرجال الذين كانوا يخشون بعض الكوارث وأرادوا المغادرة من هناك في الحال ، وعلى أية حال فإن "غونسالو فاز" الذي كان قد أرسل في ذلك الوقت رسالة إلى البرتغاليين بأنه سينتظر أسبوعاً من أجلهم قرر عدم التزحزح من هناك حتى يمر الأسبوع ، فقام حينها باستطلاعات جيدة .

عندما تحرك البرتغاليون في الوقت المحدد ، قام هو بجمع كميات كبيرة من ألبسة "كامباي" في الزوارق معظمها من الكتان والقطن المخطط والذي كان ذا قيمة كبيرة في المضيق ، ويخص المسلمين الذين هربوا من "مصوع" ، ثم اتجه نحو المدخل متخذاً كل الحيطة لأن البرتغاليين الذين حملهم معه أخبروه أن التجار المسافرين عبر تلك المناطق أفادوا بأن السفن الشراعية تجوب مدخل المضيق ولا تسمح بمرور أي شيء عبره .

بما أن أسطولنا قد جرفته مياه عاتية فقد خاطرنا بالمرور عبر المضيق باكراً في صباح أحد الأيام واثقين من سرعة سفننا والتي لن تستطيع معها السفن الصغيرة أن تسبب لنا أي مشكلة حتى إن اصطدمت بنا .

بعد مغادرتنا مباشرة رأينا في الحال بعض السفن تبحر من ميناء (Malemos) ، في اتجاه فارس ، وعلى عكس رغبة رجاله تأخر الربان "غونسالو" فاز في التقدم للأمام حتى تيقن إن كانت سفناً شراعية صغيرة أو سفناً عابرة في المحيط ، إذا كانت سفناً شراعية ولوحظ أنها تقترب بنوايا شريرة فقد وضع في اعتباره فتح النيران عليها ومن ثم الانسحاب دون مخاطرة طالما أن سرعته قد أعطته أفضلية أكثر ، لم يغير اتجاهه حتى رأى تماماً أنها سبع سفن ضخمة معدة جيداً .

عند رؤيتهم لمراكبنا اتجهوا مباشرة نحوها ، وفي سرعة شديدة وصلوا قريباً جداً حتى أن القبطان ، وقد أدرك أنه لا يستطيع مواجهتهم ومحاولاً تهدئة احتجاجات رجاله ، رفع الأشرعة والمجاديف ووضع نفسه في اتجاه الرياح التي تؤمن له السلامة .

في طريقه استولى على عدة سفن حصل منها على الأخبار التي تقول إن مائة وخمسين شراعاً قد أعدت في الموانئ داخل المضيق ، ومن بينها سفن تجارية وحربية وقوارب وسفن ضخمة وغيرها ، من ضمنها التي تبحر عن طريق المجاديف والتي يفوق عددها المائة ، لكن ليس عليها حتى الآن ربابنة أو أوامر تتعلق بالوجهة التي سيذهبون إليها .

العديد من الأتراك أيضاً ذهبوا براً من جدة إلى البصرة ، بهذه الأخبار قام قائد ميناء بيرار بإرسال القارب الذي جاء من هناك إلى

"ديو" ، وأحد قواربه الخاصة إلى هرمز لإخطار "دوم مانويل دي ليما" قائد القلعة ، مع الثلاثة الأخرى وبمساعدة الجنود والغنائم التي استولوا عليها اتجه نحو "غوا" ليقدم تفصيلاً للحاكم بكل ما اكتشفه هناك ، ووصل إلى هناك في ١٧ مايو من العام ١٥٥٠م .

اعتبر الحاكم هذه الأخبار بأنها رائعة كما تلقاها أيضاً من عادل خان مع الكثير من المنح التي كان يحتاجها منه لتلك الحرب . بعث برسالة براً لقادة "شول" و"باسين" ينصحهم بتجهيز أنفسهم حتى إن جاء الأتراك في سبتمبر ، وهو ما يمكن توقعه دون شك ، طالما أنهم لم يأتوا في مايو ، وقد بدا أنهم واثقون بمهاجمة إحدى تلك القلاع ، بما أنها مناسبة لأهدافهم من أي قلاع أخرى في الهند ، وبعث بنفس الأخبار لكل القلاع الأخرى حتى يقوموا بإرسال أكبر عدد من الرجال يستطيعون توفيره لهم .

بعد ذلك وجه جل وقته لحوض السفن وأعطى أولوية وأهمية بتزويدها وصيانة الأسطول لتكون بنهاية أغسطس كل السفن التي تسلمها من الملك جاهزة ، سفن أخرى كثيرة من أفراد خاصين أيضاً وصلت إلى هناك مزودة تماماً بكل الاحتياجات حتى ترفع أشرعتها في كل وقت يطلب منها فيه الإبحار .

لاعتقاده بأن ذلك مازال غير كاف لمثل هذه المغامرة الهامة فقد طلب أن تقدم له المساعدة من كل الأماكن التي رأى أنه يمكن حصوله عليها منها .

لهذا الغرض منحته مدينة "شول" ثلاثين سفينة معظمها يعمل

بالمجاديف ومعدة جيداً من أجل الحرب ، عشرون تم تسليمها على نفقتها وعشرة قام القائد بتسليمها على نفقة الملك ، وبجانب ذلك فقد جمعوا عشرة آلاف "بردواس" من خزائنهم والتي اقترضوها لاحتياجات أخرى حتى مغادرة الأتراك ، وهم أنفسهم مستعدون لخدمة سيدنا الملك .

قدم سكان "باسين" خمسمائة رجل مع أجور ستة شهور وضعوهم على ظهر عشرين زورقاً ، عشرة قاموا بتسليمها على نفقتهم وعشرة على نفقة الملك ، وهم مستعدون لسداد أجور أربعمائة رجل آخرين من الذين مازالوا في القلعة حتى تنتهي الحرب على الأتراك ، بالإضافة لذلك فإنهم سوف يزودون القلعة بكل شيء تحتاجه .

في عهد الحاكم "دوم جواو دي كاسترو" ، كلف "لويس فالكاو" "Luis Falcao" للقيام بعمل اتفاقية سلام مع ملك "كامباي" ، والتي بعض تفاصيل شروطها لم توضع بطريقة مناسبة وصحيحة ، عندما تولى "جارسيا دي سا" سدة الرئاسة بعده بعث "دوم أنطونيو منديز دي كاسترو" "Antonio Mendes de Castro" كسفير ورسول لنفس ملك كامباي ، ويتعلق الأمر بجدار ساتر قام بتشيده بين المدينة والقلعة والذي قاد للحصار الأخير الذي فرضه على "ديو" .

أمر الملك حالياً "دوم أنطونيو" لإعادة النظر في شروط اتفاقية السلام ، وإن ظهرت له أنها لا تصب في مصالحه فعليه التباحث على أساس كل تلك الأمور التي يحوم حولها الشك وفيما تنص عليه ، وعليه أن يحاول تعديل كل شيء تم الاتفاق عليه وجعله مناسباً ليحقق ضمانة

أكبر للمدينة وأفضل سبل الحراسة والدفاع عن القلعة ، دون المساس بمبدأ السلام والوفاق .

وإن كان قد رأى أن الشروط ضد مصالحه ولا توجد أي طريقه معقوله يمكن تعديلها بها باستثناء أن تعود الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الاتفاقية وإن ملك كامباي لا يريد شروطاً للسلام عادلة ومخلصه ، فعليهم التحول واستمرار الحرب التي كانوا قد شنوها ضده من قبل .

كان الملك قد أخطر في وقت سابق من "باسين" أن عليه أن يعد الكثير من الخطط لأي حدث أو أمر قد يصيب الهند ، بما ان بها الكثير من الأراضي الخصبة الواسعة التي يمكن أن تعيل ستة آلاف رجل ، ونتيجة لذلك أوصى الملك "جارسيا دا سا" أن يحرص بالكتابة إليه عن بناء قوة كافية هناك لتبدد الخوف الذي قد يشعرون به من العدو لأن لهم جيراناً أقوياء .

بالرغم من أن الأمر قد بدا لسموه في تقدم مطرد بناءً على الأهمية التي أولاها له "جارسيا دي سا" وكونها كانت أمراً هاماً لدولة الهند فقد أمر وأوصى بشدة "دوم أنطونيو" بأن عليه محاولة تعزيز ما وجد أنه ابتدأ وإن رأى أن يكون ذلك بقضاء الشتاء هناك فعليه ألا يفرط في أمور هامة أخرى أو يعرضها لأي مخاطر ، وعليه أن يقوم بذلك حتى يواصل في أداء خدمة جيدة ، لكن عليه بالدرجة الأولى أن يذهب وينقذ "ديو" من محنتها . بما أن رواتب وإعاضة أربعة آلاف رجل يمكن سدادها من دخل عائدات القلعة . فسيكون من الممكن دائماً الاحتفاظ بهم هناك لأي وقت تستدعيه مصالحه .

بعد أن استولى الأتراك على البصرة ، وهي مدينة عند مصب نهر الفرات بالقرب من هرمز ، بدا الملك أكثر اهتماماً بشؤون الهند لوجود جار هنا يزرع ويحصد ، وبمنتهى الجدية ، حيث إن المكان هنا يعد مثالياً جداً لرسو السفن الشراعية والمراكب التي تبحر بالمجاديف من كل نوع ، ومع وجود الخشب الذي يتم به بناء السفن وغيرها ، والأهم من ذلك أن العون التركي قريب جداً وفي المتناول دون الحاجة لأن يرسل عبر دول أجنبية .

لذلك السبب والكثير غيره فإن الملك بعد أن اتضحت له أهمية هذا الأمر قرر البحث عن نصيحة رجالنا في هذا الخصوص ، بما أنهم الأقدر على إعطائه أفضل النصح والإرشاد وذلك لخبرتهم في الشؤون الهندية .

كانت رغبته أن يتم ذلك كتابة حتى بعد أن يكون كل منهم قد بحث الأمر من جميع جوانبه في متسع من الوقت ليتمكن من شرح وإيضاح الأمر في وقت كاف .

الرجال الذين طلب نصحهم من الحاضرين والغائبين كانوا : "مارتيم افونسو دي سوزا" ، "دوم ايستيفاو دي جاما" "Estefao da Gama" ، "أنطونيو دي سيلفيرا" "Antonio da Silviera" ، الذي كان قائداً "لديو" خلال فترة حصارها الأول ، "روي لورنزو دي تافورا" "Rui Lorenco de Tavora" ، "دوم جيرونيمو دي نورونها" "D . Jeronimo de Noronha" .

"دوم جواو ماسكارينهاس" "D . Joao Mascarinhas" ، "دوم ألفارو دي كاسترو" "D . Alvaro de Castro" ، "دوم جواو دي كاسترو"

الابــن ، "فيرنــاو رودريـــجـــز دي كـــاستيــــلو بـــرانـــكـــــو" "Fernao Roderigues de Castelo Branco" ، "جورجي دي ليما" "Jorje de Lima" ، "أنطونيو كـــوريا" ، "فـــيرناو بيريز دي اندرادا" "Fernao Perez de Andrade" ، "أليكسو دي سوزا" "Alexo de Susa" و"فرانسيسكو دي سوزا تافاريز" "Francisco de Susa Tavares" .

بعث الملك بكل وجهات نظر أولئك الرجال إلى "بيرو دي الكاسوفا كارنيرو" "Pero de Alcacova Carneiro" ، ، سكرتيره ، ليقدمها لنائب الملك "دوم أفونسو" .

عندما تسلمها جميعاً كان ما يبتغيه الملك منه في هذه المسألة المتعلقة بالبصرة هو ما يلي :

أولاً عليه القيام في الحال وبمنتهى الجدية والاجتهاد بتقوية قلعة هرمز لأنه بالرغم من تلقه أخباراً عبر رسائل من "دوم مانويل دي ليما" الذي كان قائداً لها في ذلك الوقت بأنها كانت قوية ومحصنه تماماً وإنها تستطيع الدفاع عن نفسها بطريقة ممتازة ، إلا أنه يعمل لجعلها أكثر قوة كما ذكر في تقرير كان قد بعث به إليه عن ذلك الموضوع وقال إنه سيزيد من المواد التي سيقوم بإحضارها من أجل ذلك .

كما أن عليه إصدار أوامر للسكان المحليين وعبيد المقيمين والملك أن يعملوا في القلعة حيث إنها شيدت للدفاع عن الكل ، وعليه وضح أنه من المستحسن حثهم على القيام بذلك .

كانت التجارة مع الأتراك ممنوعة تحت طائلة عقوبة كبيرة في هرمز ، وفي أي جزء آخر من الهند ، وعلى البصرة ألا تقوم بأي اتصال مع

تلك الأماكن بالرغم من نقص العائدات لمكتب جمارك هرمز الذي قد يحدث ويتمحض عن هذا المنع ، كما أشار البعض في ملاحظاتهم ، لكنه كان لا يزال أمراً لا يستحق أن يولى باهتمام كبير وبالمثل الفائدة التي قد يجنيها العدو من هذه التجارة معهم .

لتوفير القوة الكافية والشجاعة لتلك الاماكن في ذلك المضيق ولإعاقة وصول الإمدادات والمؤن التي يأتي بها أتراك البصرة من جزر الجزائر ، ولضمان عدم إحضارهم لها بأمان فإن على سموه أن يأمر نائب الملك بإرسال خمس عشرة سفينة ذات مجاديف من زوارق وغيرها لتطوف وتحرس مضيق هرمز ، وأن يجعل من الشخص الذي يراه الأفضل قائداً لها ، وإن كان قد تلقى معلومات بأن الأتراك يأتون بأسطول محترم وضخم فعليه أن يزيد من أسطوله إن كان ضرورياً حتى يتمكن من قتالهم .

ليضمن أمناً كثيراً من هذا الخطر ، أمر نائب الملك العمل ومحاولة الحصول على صداقة شيخ إسماعيل ، وهو الشيء الذي بدا سهلاً لأن الحروب التي كان يشنها مع الأتراك ، وليعرض له بوبضوح أنها كانت رغبة سموه لأن يكون على علاقة طيبة معه .

عند وصوله مباشرة كان عليه أن يستقبله بكلمات ودية ، وبعد تذكيره بخطورة الانسحاب والإضرار التي ستتكبدها دولته بوجود الأتراك بالقرب منها والسماح لهم ببناء حصون في البصرة فعليه أن يمنحه الدعم ومساعدته في طردهم من هناك .

عليه أن يقترح إن كان ذلك سيتحقق فسيكون عوناً له أن يشيد

قلعة على جزيرة مرزع (Murzi) (التي عند مدخل نهر الفرات) قبل أن يصلوا إلى البصرة ، وهذا سيؤدي إلى دمار شامل للأتراك ، ويؤمن الوضع لكل الأماكن التي على ساحل المضيق .

بخلاف هذه الاتفاقية مع شيخ إسماعيل ، أمر الملك نائبه (الأمر الذي أشير به عليه في بعض النصائح التي سلمت له بخصوص هذا الموضوع) محاولة حث ملك جزر "الجزائر" (المقيمين عنده من القوم المقاتلين) بأن لا يثق في الأتراك ، لكن عليه أن يخشاهم ولا يسمح لهم بأخذ المؤن من أراضيهم أو مساعدتهم على حسابه وأن يقدم أسباباً أخرى محسوبة تجعله يكره الأتراك ويبحث على تقوية الصداقة معنا .

أوصاه بشدة أن يحرص على تسارع تلك الأحداث طبقاً لما علمه من تحول الأمور والفائدة أو الضرر الذي قد ينتج من كل واحد منهم .

أعطى تعليمات ، حتى وإن كانت هناك اقتراحات من الهند ، مهما كانت مصادرها ، فإن عليه ان يذهب ويطرد الأتراك من البصرة ، ويقوم بتدميرها (الشيء الذي كان عليه معرفته من تلك التعليمات أنها صدرت له أوامر ليبدي له ذلك) ، ليس عليه القيام بذلك لأن مسؤوليته كان أن يحكم الهند ، وليس عليه في أي وقت أو في أي مناسبة قد تنشأ أن يكون من واجبه السفر بعيداً عن حدود الهند .

وصل "دوم أنطونيو دي نورونها" الذي كان مبحراً من "غوا" إلى هرمز وصل بأمان إلى تلك القلعة حيث استقبل بحفاوة من قبل قائدها ، فيما بعد عندما كان الاثنان يبحثان أمور قلعة القطيف مع الملك تم الاتفاق على أن يسلم له ثلاثة آلاف رجل لتلك الحملة تحت قيادة الريس شرف

(جوازيل) كبير وزراء المملكة ، ومير (Maxet) كبير وزراء "موغستان" ، الذي أمره الملك أن يعد بسرعة شديدة بعض المراكب وزوارق أخرى لأولئك الرجال ليبحروا عليها .

ابتعث "دوم أنطونيو" في الوقت الحالي "مانويل دي فاسكونسيلوس" مع أسطول مكون من اثني عشر زورقاً خفيفاً لمهاجمة القطيف ، ويمنع وصول أي مساعدة يمكن أن يأتي من البصرة .

وصلت كل تلك السفن إلى القطيف بعد أيام قليلة ، ورست في تلك الميناء . كانوا يذهبون كل يوم إلى الشاطئ عند المد العالي لقصف القلعة مغلقين كل منافذ قد يأتي منها العون من البحر بطريقة محكمه تمنع دخول أي شيء ، ونتيجة لذلك تسببوا في خلق مصاعب جمة ويأس كبير لمن فيها .

بعد التزود بالكثير من الأغطية والسلالم والمؤن والذخيرة ومدافع للحصار ، أبحر "دوم أنطونيو" مع أسطول هائل في نهاية يوليو ، وبعد عدة أيام من الطقس الرائع الذي استمر طويلاً أرسى مراسيه في ميناء القطيف ، بعد شهرين من وصول "مانويل دي فاسكونسيلس" إلى هناك ، علم منه بحالة القلعة المزرية ، وفي اليوم التالي أعطى أوامره بالنزول .

عند فحصه لقواته وجد ألف ومائة برتغالي (لأنه لا أحد بقي في هرمز باستثناء أولئك الذين عليهم العناية بالقلعة) وثلاثة آلاف من الفرس ومن أهالي هرمز الذين كان من بينهم العديد من الأمراء والضباط من مملكة هرمز .

في اليوم التالي نقل القائد العام كل رجال الأسطول لسفن صغيرة وزوارق السفن الكبيرة ووضع "مانويل دي فاسكونسيلوس" في الطليعة .

عند وصولهم إلى الشاطئ بسفنهم أثناء المد العالي ، اصطدم رجالنا مع بعض الأتراك على ظهور الخيل الذين اتجهوا لاعتراض نزول الرجال من السفن ، واشتبكوا في مناوشات عنيفة ، وفي هجمة سريعة ردوهم للوراء مجبرينهم على العودة إلى القلعة .

أنزل القائد العام كل رجاله أيضاً وإعلامهم مرفوعة . قسمهم إلى فرقتين إحداها من البرتغاليين والأخرى من الفرس ووضعهما بالقرب من بعضهما بعضاً تماماً بالقرب من القلعة .

حصن المعسكر بخنادق وأكوام ترابية ومتاريس وشيد تله عليها خمس قطع من المدفعية ، ومن ثم بدأ في رشق القلعة بقوة كبيرة حتى أن الجزء السفلي منها تحول إلى حطام ودمر كل الجزء العلوي .

عندما رأى الأتراك الذين يبلغ عددهم أربعمائة رجل بداخل القلعة شدة وانهمار القذائف وتطاير الجدران في أماكن عده بعد أيام قليلة من الحصار ، وكيف أنهم في حالة مذرية وغير قادرين على الدفاع عن أنفسهم ، بدأوا بالمغادرة في هدوء في إحدى الليالي عبر بوابة سرية .

ولم يسمع الأصوات آخر المجموعة ، الذين لمحهم ثلاثة من جنود "بيدرو افونسو دي ألفاريز" الذين كانوا متمركزين في تلك المنطقة وهم : "مارتيم كاسكو" (مواطن من إيفورا) ، "بالتازار دي جويس" (من كيتا) و"بيرو ماشادو" "Pero Machado" .

بينما كان أولئك في نوبة حراسة خارج الاستحكامات سمعوا الضجة هناك ولاحظوا أن الأتراك يغادرون ، وقاموا في حينها بشن هجمه وتمكنوا من إلقاء القبض على أحدهم وقتلوه وجرح الآخرون . عندما رأوا أنهم هوجموا هربوا مباشرة للإمام باتجاه زملائهم الذين كانوا وقتها قد ابتعدوا كثيراً . تأكدوا بأن القلعة قد أصبحت مهجورة . اتجه رجالنا الثلاثة إلى الداخل وتسلقوا الحصن إلى موقع القائد وبدأوا الصراخ "البرتغال ، البرتغال"!

اندهش "بيرو افونسو" لهذا الأمر كما حدث في كل المعسكر ، لكن بعد إدراكهم لما حدث لأن الرجال على السور قد أطلعوا الجنود ، أمر الكل أن يتسلحوا ، وكان صباحاً جميلاً حينما دخل إلى القلعة ، وكان زملاؤنا الثلاثة قد فتحوا بوابات القلعة في تلك اللحظة . كان رجالنا في غاية العجلة حتى أن بعضهم دخل عبر الجدران المهدمة بفعل المدافع .

بعد البحث لم يجدوا سوى قطع صغيرة من المدفعية هناك وبعض الذخيرة وكمية قليلة من الملابس لم يتمكن الأتراك من أخذها معهم . استدعى "دوم أنطونيو" كبير الوزراء ريس شرف وأخبره بأنه يسلمه القلعة ، غير مأهولة وحرة ، وهي تعود لملك هرمز . كان عليه أخذها وتزويدها بما تحتاج ، وقد أجاب عن ذلك بأنه لا يملك الشجاعة للدفاع عنها وعند مغادرة "دوم أنطونيو" سيقوم الأتراك في الحال بالعودة ومهاجمتها ، وهذا من شأنه أن يخلق مشكلة جديدة يمنع هرمز من أن تستعيد عافيتها .

عندما عرض ذلك الأمر على مجلس القادة ، تم الاتفاق على هدم

القلعة حتى لا يعود العدو للاستيلاء عليها مرة أخرى ، وأن تبني معاقل أخرى بداخلها .

أمر "دوم أنطونيو" في الحال أحد المهندسين الذي كان برفقته أن يبدأ في العمل وتلغيم كل المتاريس ، وهو العمل الذي وزعه القائد بين العديد من النبلاء حتى يتم الانتهاء منه بأسرع ما يمكن . بدأ المهندس بالحفريات في الرواق وذهب إلى بعض المراحيض المغطاة التي كانت في استراحة الحصون والتي كانت محصنة جداً بالاسمنت من الناحية الخارجية حيث وضع بعض البراجيل وترك فجوة لإشعالها .

بهذا العمل على الألغام وبلفته سريعة كان "دوم أنطونيو" يقف تحت مظلة أحد المتاريس مع كبار قادة الأسطول عندما اقترب "مانويل دي فاسكو نسيلس" (الذي كان أحد المسؤولين عن ذلك العمل) منه وطلب منه الذهاب ليرى عمود المنجم الذي كان جاهزاً تقريباً . عندها انطلق "دوم أنطونيو" معه يرافقه معظم الذين كانوا هناك .

لم يسافروا لمسافة بعيدة عندما انطلقت شرارة من إحدى النيران المشتعلة في منازل القلعة ، سقطت على البارود المنثور حولنا ويحيط بالبراميل في فتحة برج المنجم القريب من الحصن الذي غادروه "دوم أنطونيو" .

اشتعلت تلك وفجرت البرج والحصن الذي سقط على أولئك الذين تحت مظلته وقتل أربعين من البرتغاليين ودفنهم مع العديد من الآخرين الذين تشوهوا .

من بين الذين تم التعرف عليهم ابن "بيدرو افونسو دي افيلار" ،

"بيرو كويلهو دي كاسترو" ، "بالتازار دو أمارال" ، ابن "فرانسيسكو دياز دي أمارال" ، قاض سابق "بوتيلهو" موظف سابق في التحقيقات في هذه المملكة وفرساناً آخرين من الإشراف والنبلاء .

اندفع "دوم أنطونيو" في الحال باتجاه الانفجار المروع الذي رمى بالمخلفات وراءه .

في حالة ما ، عندما رأى ذلك المنظر الحزين والمأساوي ومن ناحية أخرى رأى المهرب الصعب لتفادي ذلك الخراب والدمار ، كل تلك الأحداث خلفت شعوراً قوياً عليه بطرق مختلفة وأن شجاعته لم تكن كافية لتمنع عينيه من ذرف الدموع التي رآها الجميع .

عندها أخبره مير (Maxet) كبير وزراء "موغستان" كم كانت محزنة تلك الحادثة والفجيعة بالرغم من أن تلك نتائج كثيراً ما تأتي من الحرب ولا يجب أن تكون سبباً لتجاهل العمل الذي التزموا به ، لأن الأتراك كانوا قريبين جداً وقد يفرحون بذلك الدمار والعودة مع العرب الذين يقفون إلى جانبهم هناك والذين من بينهم الشيوخ أحد المسلمين الأشداء والذي يسمى (بن جبر) .

بالرغم من تأثر "دوم أنطونيو" الشديد إلا أن ذلك جعله مدركاً لما حوله وليس بغافل عما يمكن أن يحدث . كما لم يغفل أن يشكر مير (Maxet) على تذكيره أن الأعمال الجيدة التي تؤدي في وقتها المناسب يستحق أن يشكر عليها ، لأنها في جميع الحالات مفيدة . أصدر أوامره لإشعال كل الألغام وانفجرت كل الاستحكامات لعنان السماء . انسحب بعد ذلك إلى المعسكر حيث قضى الليل في حذر وترقب شديدين .

أخطر في اليوم الثاني أن الأتراك قد تقهقروا وأن شيخ (بن جبر) كان على بعد نصف فرسخ بعيداً من هناك مع ثمانمائة من الخيالة ينتظرون ليروا أن كان الوقت سيسمح لهم بشن هجوم .

عندما تلقى رسالة في نفس الوقت عن معسكر الأتراك قرر بناءً على مبادرة شخصية منه أن يصدر أوامره بالهجوم عليهم دون أن يعلم أي أحد بذلك خشية أن يقوم مسلمو هرمز بتحذيرهم .

عند ذلك أصدر تعليماته لبعض ضباطه ليستعدوا مع قواتهم ، وعند الفجر بعث "بيدرو أفونسو دي افيلار" مع مائتين وخمسين رجلاً معظمهم من حملة البنادق ، وعندها أخبرهم بالمكان الذي يريد إرسالهم إليه وما الذي عليهم أن يفعلوه .

بدأ رجالنا بإتباع المسار في ترتيب رائع ، وبالرغم من أن العرب جاؤوا بجواسيس عديدين لمراقبتهم وشاهدوهم من مدة طويلة حتى قبل أن يصلوا فاتخذوا لهم مخابئ بسرعة حتى عندما وصل رجالنا إلى المكان حيث هم ، وجدوا فقط القليل من الخيام البالية وأشياء أخرى قليلة ، وبما أنهم لم تكن لديهم أي أوامر أخرى قاموا بالابتعاد لمسافة من الجيش دون أن يصيبهم أي ضرر .

عندما رأى "دوم أنطونيو" أن القلعة تدمرت تماماً ولا شيء يمكن عمله بعد ذلك هناك قرر التحرك إلى البصرة ، كما كانت توصي بذلك أوامره المحلية ، بدعم ذلك الملك الذي كان ينتظره حتى يقوم بمهاجمة تلك القلعة التي كانت تحت سيطرة الأتراك ، مع حلفائه ؛ لذلك الغرض قام بإرسال السفن عابرة المحيط إلى هرمز مع كبير وزراء هرمز

و"موغستان" برفقة حشودهم . قام في الوقت الحالي بالصعود مع كل رجاله على ظهر ثمانية عشر قارباً وبدأ الإبحار .

عند وصوله إلى نهاية ذلك المضيق هبت عاصفة في إحدى الليالي وفصلت تسعا من السفن منه . أبحرت تلك مع تسع أخرى حتى وصلت إلى مصب نهر الفرات حيث تمركزت سفنه الست في الانتظار ، وهناك تخلص من بعض العرب الذين كانوا في رفقة مبعوث ملك البصرة ، الذي جاء به إلى هناك معه من "غوا" حاملاً رسائل للملك وكبير الوزراء ، والتي أطلعهم فيها بوصوله إلى هناك ، وانه كان في انتظار رسالتهم ليعرف الطريقة والترتيب الذي عليه تبنيه واتباعه في مهاجمة تلك القلعة .

بعد أن ظل هناك لسبعة أيام وصلت التسع سفن الأخرى التي كانت ضمن فوجه والتي دخل بها على نهر الفرات حتى وصل إلى جزيرة وجدها بالقرب من مدخل النهر تسمى "مزيق" (Mouzique) حيث يوجد حصن صغير أمر بعض الرجال بالنزول للشاطئ ووجدوا المكـان مهجوراً ، تركهم الضابط هناك في انتظار رد من ملك البصرة والـ (Gizares) "الجزائر" .

الباشا التركي المعروف في البصرة بـ (علي باشا) كان رجلاً حكيماً وعالماً بالكثير من الأمور . عندما تلقى أنباءً عن أسطولنا ظن أن قائده كان له تفاهم سري مع الـ أهل الجزر (Gizares) والعرب الذين بالدخل ، وكان ذكياً وماكراً وحالما وصل إلى هناك استولى على الطرق التي يرسل عبرها البريد . بتلك الطريقة فإن الرسائل التي كتبها "أدوم

أنطونيو" إلى الملك وأهل الجزر (Gizares) شرح لهم فيها بما انهم من المسلمين ورعايا للأتراك ، فإنه يريد منهم أن يؤدوا له الخدمة التي كانوا قد وعدوا بها من قبل في رسائل تخصهم ، وهي أن يسلموه للاحتفاظ بها كل السفن البرتغالية التي هناك وكبادرة بذلك ، فإنه يبعث لهم بالرسالة التي أرسلها القائد العام للأسطول ، حتى عندما يكونوا جاهزين ، فإنهم لن يتقاعسوا أو يتنكروا لوعودهم .

تلك الرسائل التي كتبها الباشا في سرية والتي عادت إليه قرأها علناً في حضور العديد من الناس . من بين أولئك الناس الذين استمعوا لها شابان اثنان من الذين ألقى الأتراك القبض عليهم ، أحدهما من البندقية والآخر من نابولي وهو الذي وضع رسالة "دوم أنطونيو" عن قصد في يده ليروها ، والتي بالرغم من أنها كانت مكتوبة بالفارسية إلا انها كانت موقعة بتوقيعه المعروف .

بعد أيام قليلة أصدر أوامره بفك أغلال الايطاليين الاثنين وأعطاهما الفرصة للهرب بينما ادعى الكثيرون أنه أطلق سراحهما شخصياً ليذهبا للمكان الذي يريدوه ؛ لكن أياً كان الأمر ففي إحدى الليالي سمع أسطولنا أصوات صراخ من في داخل الأراضي بأنهم في محاولة للقبض عليهم ، والتي جاءت من بعض المسيحيين الهاربين ؛ معتقدين أنها قد تكون حيلة ما .

أصدر "دوم أنطونيو" تعليماته لهم بأن يخبروهم بالدخول إلى المياه حتى يحين الصبح وحتى لا يراهم أحد . "دوم جيرونيمو" الذي كان قريباً من الشاطئ هبط من سفينته وجمعهم عند الفجر دون أن يعلم "دوم أنطونيو" وأخذهم إلى سفينته حيث استقبلوا بحفاوه .

ادعوا بأنهم من المسيحيين الذين أطلق سراحهم الباشا ورأوا أنه من الأفضل لهم أن يلتحقوا بالأسطول بدلاً عن السفر عبر البلاد .

عندما استفسر عن أخبار من البصرة قال أحدهم إن عليه أن يفكر فيما يقوم به ولمن جاء هو ليقدم العون لأنه خدع وتمت خيانته من قبل أهل الجزر (Gizares) الذين استبدلوا الرسائل مع الباشا (بالاتفاق) على أن يقدم له القائد العام كل أسطوله ، وإنهم بعثوا بالرسالة التي كتبها إليهم مع رسالة منهم قدموا فيها بياناً كاملاً للباشا عن الخديعة والحيلة التي رتبوها ، وحتى يؤدوا هذه الخدمة للأتراك فإنهم سيصدرون أوامرهم للاستيلاء على كل السفن .

لفترة ما لم يكن "دوم أنطونيو" مقتنعاً بالأخبار لكنه لم يعتبرها أمراً صعب الحدوث لأنه كان عادياً أن يمارس المسلمون الحيل والخداع ضد المسيحيين ، لذلك سأل الأسيرين إن كانا قد شاهدا رسالته وأجاباه بأنهما قد رأياها .

استدعى كل الضباط إلى سفينته وطلب رأيهم إن كان عليه الثقة فيما قيل من أولئك الرجال أم هي حيلة من الباشا ليجعلهم ينسحبوا من هناك . بعد التباحث في الأمر فيما بينهم ، قام "لورنزو فاز" الذي كان مسافراً كجندي وصديق "لدوم أنطونيو" ، وكان في ذلك الوقت أسفل المعبر الخشبي للسفينة .

حيث تجمع أعضاء المجلس ، قام عند سماعه ما تم التباحث معه وقال إن كل ما هو مطلوب هو توقيع القائد العام ليراه الايطاليان ليتعرفا عليه إن كان مطابقاً لما شاهداه . بدت تلك فكرة جيدة للجميع واتفقوا

على إجراء التجربة ، وكضمانة أكبر وقع كل الحاضرين على ورقة ومن بينهم "دوم أنطونيو" .

تم استدعاء الشابين وسلمت الورقة لهما ليقولا إن كان التوقيع الذي شاهداه موجوداً عليها . كل الأنظار عليهم ، أشارا إلى توقيع "دوم أنطونيو" وقالا إنه مشابه تماماً لما رأياه ، واقتنع الجميع بما قاله الأسيران على أنه الحقيقة واتفقوا على الانسحاب من هرمز وهو ما تم في الحال .

عندما وصلوا إلى هناك أمر "دوم أنطونيو" السفن بالرسو عند الشاطئ والقيام بإصلاحها وصيانتها وصرف أجور الجنود ، وأصدر أوامره بإطعامهم أيضاً .

بعد وقت قصير وصل تاجر مسلم كان قد مر عبر البصرة وقد وصل إلى هناك وكشف عن الخديعة التي استخدمها الباشا ضدنا والتي جعلنا ننسحب بسببها والتي كان فخوراً للقيام بها إلى حد ما .

ظهر "الباشا بيري بيك" أمام عظيم الترك في "القسطنطينية" ، وماذا حدث له .

بعد وصول التقرير إلى "القسطنطينية" الذي بعث به باشا البصرة إلى عظيم الترك عن ما قام به "بيري ريس" في مسقط وهرمز ، وأنه غادر على ظهر ثلاث سفن تعمل بالمجاديف وأن أسطولاً ضخماً وقوياً للبرتغاليين في طريقه لإنقاذ ثلاث سفن تعمل بالمجاديف وأن أسطولاً ضخماً وقوياً للبرتغاليين في طريقة لإنقاذ القلعة التي في هرمز .

وصلت أنباء أخرى أيضاً تفيد بأن أسطولاً آخر للبرتغاليين بقيادة

"بيرو دي أتيدا" كان عند مدخل المضيق في مكة ، لأن عظيم الترك خشي أن تقوم تلك الأساطيل بالتقدم لأن المضيق كان بلا دفاعات في ذلك الوقت ، وقرر إرسال خمس عشرة سفينة من بينها التي كان قد أخذها "بيري ريس" إلى البصرة ، لحراستها والدفاع عنها .

عندما علم بذلك مراد بيك (بارباروسا/ خير الدين) قائد سابق "للقطيف" والذي كان في ذلك الوقت في البلاط ، قلقاً في معالجة الصدع الذي نشأ بعد مغادرة تلك القلعة في سرعة شديدة وتسليمها إلى "دوم أنتاو دي نورونها" ، فاستخدم نفوذه على عظيم الترك وتمكن من إقناعه بالوثوق فيه ليتولى تلك الحملة .

أرسله الأخير قدماً مع أمر بقيادة خمس عشرة من السفن ذات المجاديف التي أخذها "بيري ريس" إلى البصرة ويذهب بها لحراسة مضيق مكة ، وعلى بقية السفن البقاء في البصرة ؛ لتشن الحرب على الجزائر (Gizares) .

عند وصوله إلى السويس قام "بيري ريس" بإرساء سفينته ونقل كل الغنائم والأسرى البرتغاليين الذين جاء بهم بواسطة الجمال إلى الإسكندرية . ذهب من هناك واثقاً من الثروات التي كان يحملها فقدم نفسه تحت أقدام عظيم الترك ؛ لكن ذلك السيد رغم كونه كان وثنياً فهو لا يحتمل أي شك في أوامره على حساب أي نفوذ أو صداقة ، أمر بأن يقطع رأسه في الحال وأن يوضع البرتغاليون على السفن والذين تمت قدية الكثيرين منهم فيما بعد .

منهم من تمكن من الوصول إلى الهند وآخرون إلى أماكن أخرى .

أصاب "بارباروسا" تقدماً جيداً حتى أنه وصل إلى البصرة في نهاية يوليو (عام ١٥٥٣م) . قام بتجهيز الخمس عشرة سفينة كأفضل ما يكون وزودها بأفضل مدفعية وأفضل رجال استطاع ترتيب وجودهم وغادر مبحراً في أغسطس .

غادر "دوم دييجو دي نورونها" هرمز أيضاً في بداية نفس الشهر بكامل أسطوله ، وبينما هو يتمركز خارج "رأس مسندم" بعث "جوميز دي سيجويرا" و"لويس دي أجوير" إلى البصرة ليستكشف أمر السفن . إذا تلقوا أخباراً عنها فعلى أحدهم إبلاغه بها ويبقى الآخر يتجسس عليهم .

عندما وصلت تلك السفن إلى مصب نهر الفرات ، استولوا على مركب عليها بعض المسلمين الذين أخبروهم بأن "بارباروسا" قد أعد أشرعته وكان جاهزاً للمغادرة . أخذت إحدى السفن هذه الأخبار "لدوم دييجو" الذي طلب منها العودة في الحال والانضمام للأخرى وإن تأتي له بالأخبار عند تحرك السفن مباشرة . قرر حينها أن يبجر من رأس مسندم إلى جزيرة "هنجام" "Henjam" حيث على السفن أن تعرج عليها .

عند بداية نفس شهر أغسطس هذا ، جاءت السفينتان بأنباء "لدوم دييجو" بأن خمس عشرة سفينة تقتصي أثرهما . بعد وقت قصير بدأت تلك السفن بالظهور في كامل أشرعتها على طول ساحل فارس تحركها وتدفعها الرياح الغربية .

أسطول "دوم دييجو" الذي كان بأكمله راسياً خارج الساحل العربي أفرد أشرعته وبدأ بعبور الجانب الفارسي . عندما وصل إلى مدى إطلاق

النيران للسفن قام بقذفهم من مدافعه إلا أنه لم يجرأ على الاقتراب من الشاطئ حيث كانت السفن ذات المجاديف تواصل إبحارها بقدر ما تستطيع بينما كانت تطلق مدافعها .

قذيفة من جسر إحدى السفن أصابت السفينة الشراعية الصغيرة التي يقودها القائد العام عند خط مستوى المياه المواجه لاتجاه الريح الذي دخلت منه القذيفة .

وبدأ التسرب . اندفع ضباط السفينة الشراعية إلى الأسفل ورأوا أنها تغرق ، لذلك طلبوا من القائد العام أن يغير اتجاهه لأنهم كانوا يغرقون ، قام بكل ما يمكن ضد رغبته لأنه كان مجبراً على ذلك ؛ بسبب تغيير المسار تسبب الضباط في إحدى التجويفات في سرعة شديدة .

عند الساعة العاشرة صباحاً بدأت الرياح تخف ، وبقيت السفن مبعثرة على سطح المياه دون أن نتمكن من تغيير اتجاهها أو التحرك ، بينما ظلت سفينة "غونسالو بيريرا ماراماك" مغروسة على الجانب الفارسي على بعد قذيفة مدفع من الأسطول الآخر .

لرغبته في اغتنام تلك الفرصة الرائعة قام "بارباروسا" بإيقاف كل أشرعة السفن وجذف باتجاه سفينة "غونسالو بيريرا" . بعد أن أطلق مرة أخرى كل مدفعيتهم عليها ، قاموا بالانسحاب ، أعادوا تلغيم مدافعهم مرة أخرى وأطلقوا القذائف من الجانب الآخر ، مستخدمين نفس التكتيك كرروا ذلك عدة مرات . لم تكن السفينة بلا حراسة أو غير جاهزة لأن "غونسالو بيريرا" الذي كان معه مائة وخمسون رجلاً من

بينهم العديد من السادة الشجعان والفرسان والنبلاء ، عندما رأوا أن السفن قادمة لمهاجمته ، استعدوا جيداً للنزال .

عندما وصلوا ، أطلق مدفعيته تجاههم وحطم معظم صواريهم ، لكن بما أن السفينة ظلت مكانها واستمرت السفن في التحرك أينما أرادت وتركوها في وضع لم يبق فيها من شيء سليم ، وذلك لتحطم كل الأجزاء العليا إلى آلاف القطع وحولت القذائف الأشرعة إلى خرق ممزقة . كلا الصاريين كانا مبعثرين لأكثر من مكان والأشرعة طارت وجرفتها المياه .

لكن حتى هذا لم يكن كافياً ليحبط من معنويات الجنود الشجعان ولو لدرجة واحدة ، ولا حتى الانفجارات المستمرة من المدفعية أن تعيق السفينة التي تسبب في الكثير من الضرر للعدو ، ولم يتجرؤوا على الصعود إلى سطح السفينة بالرغم من وجودهم حولها من جميع الجوانب .

من مواقعهم أطلقوا عدداً لا يحصى من طلقات البنادق عليها وعدداً كثيفاً من الأسهم وزخماً من قذائف المدافع . أصيب الكل بجراح جراء ذلك والربان والقبطان قتلا بينما كانا يؤديان واجباتهما ، دون أن يكترثا للخطر المحدق بهما .

أظهر الضباط "غونسالو بيريرا" قدراً كبيراً من الحماسة وشجاعته الطبيعية . كان دائماً يشاهد في أخطر المواقف ويشارك الجميع معاناتهم وجراحهم ، لأنه هو شخصياً تلقى ثلاثة جروح ليست بسيطة من ثلاثة أسهم .

عندما رأى "دوم دييجو" المقاومة والخطر المحدق بسفينه "غونسالو

بيريرا" ، الأمر الذي لم يكن قادراً على مد يد العون فيه ، تملكه الإحباط والقلق والكثير من الغضب . أمر في الحال بأن يوضع رجال على المراكب ذات الصاري الواحد من السفن وإنزالها في البحر مع حبال للسحب ليرى ما يمكن عمله لهم ، إلا أن كل تلك الجهود كانت بلا فائدة .

أمر بعد ذلك كل سفن التجديف أن تأتي لمساعدته . بالرغم من أن كافة قباطنتها قد بذلوا جهداً كبيراً في ذلك العمل ، إلا أنهم لم يتمكنوا من الوصول إليه ، ذهب البعض قريباً من السفن لأنها كانت في شكل دائرة تحيط بهم .

كانت السفينة المنكوبة في هذا الموقف الصعب حتى ساعة صلاة المغرب ، عندما بدأت تهب رياح ونسيم طيب وفي ذلك الوقت بدأت السفن بالوصول إليها . عندما رأى أن النسم والرياح تصبح أقوى وأن سفنه قد تضررت كثيراً ، وغادر "بارباروسا" سفينته الشراعية وأفرد أشرعته وأبحر في اتجاه الساحل الفارسي .

وواصل رحلته إلى البصرة تتبعه في الخلف السفينة التجاريه الضخمة التي كانت في السابق تخص "جواو نونيز هوميم" ، والتي كان قد استولى عليها "بيري ريس" في هرمز . أخذها الاتراك وهي مجهزة بالمدفعية والذخيرة وعليها مؤن كثيرة لتزود أسطولهم .

عندما وصل "دوم دييجو" إلى سفينة "غونسالو بيريرا" ، ذهب إليه في المركب الصغير ووجده في انتظاره على سطح السفينة وبرفقته كل جنوده وتغطيهم الدماء والعرق . العديد منهم كان لا يزال يحمل في

جسمه السهام التي رشقوا بها . عندما وصل "دوم دييجو" إلى السطح اقترب منه "غونسالو بيريرا" .

ليحتضنه ،لكنه قال له : "اذهب وقف هناك . أنا لا أرغب في ضمك لأنك بالرغم من الجهد والعمل الكثير الذي بذلته فإن القليل فقط هو الذي يحسب لك طالماً إنك أذعنت لالتزامات سمعتك ومركزك . دعني أضم أولئك الجنود الذين يستحقون أكثر مما تستحق بالرغم من أن القليل كان يرجى منهم ، وذهب إليهم وضمهم فرداً فرداً يلطخه دمهم ويبلله عرقهم وهو يلهج بالثناء عليهم .

القادة الذين هنا مع "غونسالو بيريرا" هم : "دوم أفونسو هنريكس" ، "لويس فرير دي أندراد" "Luis Friere de Andrade" ، "جورجي دي سوزا" "Jorje de Susa" عمه ، "أندريه بيريرا دي بيريدو" ، "دوم ليونيس بيريرا" "D . Leones Perriera" ، ابن "كونت فيرا" .

"دوم لويس بيريرا" "D . Luis Perriera" ، "مانويل فيرنادو ماشادو" "Manuel Fernado Machado" ، "سبيستياو ماشادو" "Sebastiao Machado" ، "دييجو نونيز بيدروسو" "Diego Nunes Pedroso" ، "فاسكو دي ريبوريدو" "Vasco Reporedo" ، "ليونيل بيريرا" "Leonel Perriera" ، "فرانسيسكو دا كونها" ، "كريستيفاو دي أروجو ايفانجيلهو" "Christofao de Arogo Evangilho" ، والعديد من السادة الآخرين والفرسان .

أمر "دوم دييجو" بعض قواربه بمرافقة "غونسالو بيريرا" إلى هرمز بينما واصل هو وبقية الأسطول لمتابعة السفن التي أبحرت بجوار الساحل .

سفننا الحقيقية التي ظلت معه . ذهبت في إثر السفينة الضخمة حتى أجبروها على التوغل في الرمال عند جزيرة قشن ، حيث قفز الأتراك داخل المياه لإنقاذ أنفسهم بالهروب نحو الشاطئ . توفي معظمهم هناك وسقطت السفينة في أيدي رجالنا بكل ما كانت تحمله .

واصل "دوم دييجو" مطاردته للسفن الشراعية الصغيرة لسبعة أيام متتالية كانت حثيثة دون أن يتمكن من القبض عليهم حتى علقوا بين الجزر والبر الرئيسي ودخلوا إلى مدخل مضيق البصرة وواصلوا السير للداخل على طول نهر الفرات حيث عندما رأى "دوم دييجو" أنهم جميعاً في أمان لأن سفنه لم تكن قادرة على الدخول إلى هناك عاد مع كامل أسطوله إلى "مسندم" ، حيث قرر الانتظار حتى هدوء الرياح الغريبة ومن ثم ذهب إلى هرمز ليرتب أمر مغادرته للهند ، الذي كان عليه القيام به بناءً على الأوامر المحلية التي معه .

نائب الملك يوقع سلاماً مع ملك "شيمبي" (Chembe) ويضع الشروط .

(...) عند وصول نائب الملك إلى "غوا" نظم في الحال أسطولاً لابنه ، "دوم فيرناندو" ليبحر به إلى مضيق مكة وانتظار السفن التي غادرت البصرة في أغسطس وأن يذهب لقضاء الشتاء في هرمز . أبدى اهتماماً وسرعة كبيرة في إعداد هذا العمل وبنهاية فبراير (عام ١٥٥٤م) كان قد أعد الأسطول بألف ومائتين من الرجال دفعت أجورهم ليبحروا فيه . تكوّن الأسطول من ست سفن شراعية وستة مراكب شراعية صغيرة وأكثر من ثلاثين زورقاً .

(...)

بعث نائب الملك بخمسمائة رجل إضافيين إلى هرمز ، وقد أصدر تعليماته بدفع أجورهم ، قسمهم بين أربع أو خمس سفن تجارية عالية الجوانب ، والتي كان عليها الإبحار مع "برنارديم دي سوزا" ، الذي أعطاه سفينة شراعـية غاية في الروعة والتي كان ربانها "روي دي كاسترو" "Rui de Castro" ، صعد على ظهرها ثلاثمائة رجل . أعطاه أيضاً مركبين إضافيين يبحران عن طريق المجاذيف بأمر رسمي .

عندما وصلوا إلى هرمز كان عليه تسليم الرجال لابنه "دوم فيرناندو" وأن يسلم السفينة إلى "دوم أنتاو دي نورونها" ليبحر عليها إلى الهند . غادر كل أولئك الربابنة "غوا" خلال شهر مارس .

عندما وصل أسطول "دوم فيرناندو دي مينسيس" ، ابن نائب الملك الذي غادر "غوا" مبكراً قبل وقت قصير إلى جبل "فيليكس" ، ترك ليجوب ويتفقد المنطقة هناك في طلعات شجاعة وجريئة بينما كان ينتظر السفن الكبيرة من "آشن" و"كامباي" .

أمر بعض الزوارق الخفيفة أن تذهب حتى مدخل المضيق لتأتي بالأخبار عن السفن الشراعية . ألقت تلك الزوارق القبض على بعض السفن التجارية وعلمت من أصحابها أنه لا يوجد سوى ثلاث أو أربع سفن تجارية في ميناء مكة تحت قيادة الربان (ظفر) الذي حاربه "لويس فيجويرا" .

جاءوا بتلك الأخبار للقائد العام ، كان الوقت عندها بداية إبريل ، حيث كان من الضروري الانسحاب إلى هرمز . رفع أشرعته إلى هناك وسافر بطول ساحل الجزيرة العربية حتى وصل إلى قلعة ظفار حيث

ألقى مراسي كل الأسطول لأنه كان يحمل أمراً رسمياً من والده بأن عليه طرد الـ (Fartakans) من هناك الذين عادوا مرة أخرى .

في اليوم التالي انتقل الكل إلى السفن ذات المجاديف وإلى زوارق السفن والمراكب الصغيرة وانطلق رجالنا نحو اليابسة ، وبدأوا النزول بصعوبة لأن الأمواج كانت تقترب بشدة هناك . خرج حوالي الثلاثمائة من الـ (Fartakans) من القلعة على خيول عربية والجمال المدربة على المواجهة وبدأوا بالاشتباك مع أول فوج من رجالنا الذين نزلوا على الشاطئ .

مثل كل الرجال الذين لا يخشون الموت ويدركون حتميته ، هجموا عليهم بتحرك عظيم مما أدى عند أول اشتباك أن أصابوا عشرة أو اثني عشر من رجالنا بين قتيل وجريح كان من بينهم "جواو فيلهو" ربان إحدى السفن ، "لوبو غوسالفيس ماراكوت" "Lopo Goncalves Maracot" و"تومي فيجويرا" "Tomi Viguiera" ، كلهم من الفرسان النبلاء .

الكثير من رجالنا الذين كانوا يغادرون السفينة ببطء شديد بسبب الأمواج عندما شاهدوا رفقاءهم على الشاطئ يناضلون العدو ، حركتهم فورة من الغضب الحقيقي ولم يستطيعوا الانتظار فرموا أنفسهم في البحر واتجهوا نحوهم مطلقين زخات من بنادقهم ضد العدو فقتلوا وجرحوا العديد منهم (تم جمعهم أخيراً من قبل رفقائهم) .

انسحب أولئك الأعداء حيث أعادوا تنظيم أنفسهم وأحكموا دفاعاتهم . وصل "دوم فيرناندو" إلى الشاطئ مع كل قواته واستشار ضباطه فيما يجب عليهم القيام به ، واتفق الجميع على عدم القيام بأي

هجوم على القلعة طالما أنهم لا يستطيعوا إنزال المدفعية لضرب القلعة ، فذهبوا إلى موقع يبعد مسافة قذيفة مدفع وراء الميناء حيث البحر أكثر هدوءاً ويمكن للسفن الوصول إلى أطراف اليابسة .

صعدوا على ظهرها وأبحروا بطول الساحل العربي ، "كوريا موريا" ، "مادرانكاه" ، مصيرة و (Palheiros) حتى وصلوا إلى "رأس الحد" ، فذهبوا إلى مسقط التي دخلها ذلك الأسطول الجبار . سلمها "دوم فيرناندو" إلى "مانويل دي فاسكونسيلوس" وهو نبيل كبير السن ، محارب وبحار قديم من الهند ، المشهور هناك بمآثره الكبيرة . طلب منه نائب الملك أن ينزل مع ابنه كمستشار وناصح له وأن يبقى هناك ويقضي الشتاء مع ذلك الأسطول ، لأنه كان من الأهمية "لدوم فيرناندو" العبور إلى هرمز .

عندما علم هناك أن "برنارديم دي سوزا" لم يواصل التقدم ، بعث بخمس من السفن ذات المجاديف لانتظاره خارج "رأس الحد لتجميع سفن التجار حيث ذهب "بيرنارديم" فيما بعد لمقابلتهم ، ولأن الرياح كانت أمامية ، مر بهم وذهب إلى مسقط حيث استقبل بحفاوة من قبل "دوم فيرناندو" .

بعد أيام قليلة وصلت السفن الكبيرة التي كانت ضمن مجموعته حيث غادر إلى هرمز مما جعل "دوم انتاو دي نورونها" يثير الكثير من الأقاويل عنهم وسلم القلعة على الفور إلى "بيرنارديم دي سوزا" ، ثم تولى قيادة سفينته التي كان ذاهباً فيها إلى الهند ، وأمرها بقضاء الشتاء مع الأخرى في مسقط .

عظيم الترك يبعث "علي شلبي" لأخذ (١٥) سفينة ذات مجاديف من البصرة إلى السويس .

بعد المعركة الشرسة التي تمت بينه وبين "غونسالو بيريرا ماراماك" هرب "بارباروسا" من "دوم دييجو دي نورونها" وأنسحب إلى البصرة مع السفن التي تحت أمرته . تلقى عظيم الترك في الحال أخباراً عما حدث في اليابسة ، الأمر الذي أحزنه كثيراً وجعله تواقاً للانتقام . حدث في ذلك الوقت أن كان هناك قرصاناً في البلاط يدعى "علي شلبي" وهو موظف كبير سابق في البلاط بـ القاهرة ، رجل ثري جداً ومحبوب عند الباشوات .

كان هذا الرجل شغوفاً بأن يؤدي تلك الخدمة لعظيم الترك ، الذي شعر نحوه بتعاطف شديد ، لذلك اقترح على الباشوات أن يذهب ويأخذ معه الخمس عشرة سفينة إلى السويس ، وكان عظيم الترك قد أمر "بارباروسا" أن يقوم بذلك ، مضيفاً أن تلك لم تكن عملية حكيمة أن يوكل مثل هذه المهمة الهامة لرجل تنازل وسلم قلعة القطيف للبرتغاليين دون أن يسمع صليل سيف واحد .

بما أن الباشوات كانوا أصدقاءه ، ناقشوا الأمر مع عظيم الترك حتى يقبل بالعرض وغادر "علي شلبي" في الحال متجهاً نحو البصرة ، وتولى قيادة الأسطول وبدأ في إعداده وترتيب أموره حتى يغادر في بداية أغسطس .

في أول يوليو بعث "دوم فيرناندو دي مينسيس" ابن نائب الملك الذي كان وقتها في هرمز ومعه أسطول قوي ، بعث بثلاث سفن خفيفة كان ربابنتها هم :

"جوميز دي سيجويرا" ، "لويس دي أجويار" و"سباستياو دي

ماسيدو" ، ومعهم أوامر بأن يتمركزوا عند مدخل مضيق البصرة ليتجسسوا على السفن . إحدهما كان عليه أن يأتيه بالأخبار عما يستجد والآخران أن يبقيا في مراقبة دائمة حتى مغادرة تلك السفن .

عندما وصل أولئك الربابنة إلى الموقع الذي حدد لهم ، علموا من بعض المراكب التي استولوا عليها بأن "علي شلبي" قد وصل ، وانه كان مع تلك السفن في المياه يستعد للمغادرة . عند تلقي هذه المعلومات غادر "جوميز دي سيجويرا" في الحال .

"بيرنارديم دي سوزا" قائد القلعة كانت له خطته الخاصة ، حيث قام بإرسال بعض الجواسيس متنكرين في زي صيادي الأسماك لبيعها للسفن التركية ولاحظوا عن قرب ما كان يحدث عندهم دون أن يشك فيهم أحد ، وكان "بيرنارديم دي سوزا" يتلقى منهم أخباراً بصورة مستمرة .

في أيام قليلة من بداية أغسطس ظهر "علي شلبي" من المضيق مع سفنه ، وكان قد تمت رؤيته من قبل سفننا التي كانت تجوب المياه هناك ، وصلت الأخبار في الحال إلى "دوم فيرناندو" الذي كان قد صعد في نفس اليوم على سفن المجاديف التي كانت جاهزة وغادر إلى مسقط حيث بقية الأسطول . رافقه "دوم أنتاو دي نورونها" على سفينة شراعية مع أربعين من الجنود والعديد من النبلاء ، وعند وصولهم إلى تلك الميناء انتقلوا إلى السفن الأخرى ، وبرفقة كل الأسطول ذهبوا في إثر السفن .

حالما غادر "دوم فيرناندو" قام "بيرنارديم دي سوزا" بتسليح سفينة أخرى تعود ملكيتها "لجوميز فارينها" الذي كان هناك مع ثلاث أو أربع سفن تابعة للتجار ، والتي وضع عليها مدفعية وذخيرة وقوات من الرجال .

صعد على ظهر السفينة مع فكرة أن يتمركز عند مدخل مضيق البصرة عندما تمر تلك السفن ، لأنهم إن هربوا من أسطولنا يكون قد أغلق المنافذ التي قد يتراجعون عبرها ، وبذلك لن يستطيع أي منهم الفرار .

بعث برسالة في هذا الخصوص إلى "دوم فيرناندو" ، الأمر الذي كان مستحقاً من ضابط وربان عظيم مثله ، وأخطره إن تمكنت السفن من الهرب منه تجاه المناطق الداخلية من المضيق فعليه اقتفاء أثرها حتى البصرة حيث يكون هو في الانتظار وتكون نهايتها جميعاً .

حالما غادر "دوم فيرناندو" مسقط قام بالطواف في المناطق الداخلية من ساحل الجزيرة العربية ، وأرسل بعض القوارب الخفيفة أمامه لتتجسس على السفن . عند وصولها إلى رأس "مسندم" وقع بصرهم عليها ، كانت خمسة عشر في مجموعها تبحر على خط مستقيم .

بعثت القوارب بسرعة تحذيراً عنها إلى "دوم فيرناندو" ، الذي أعد السفن وأصدر تعليماته عن الطريق التي ستهاجم بها سفن العدو ، كونه كان في المقدمة واجههم أولاً ، لكنه أرسل المراكب والزوارق أمامه لمهاجمتهم لأنها كانت مراكب خفيفة وسريعة . قامت سفننا بذلك في إلحاح وتفان عظيم وتبادلوا معهم إطلاق نيران جانبيه .

عندما رأى "علي شلبي" أسطولنا ، فرد كل أشرعته واتجه نحو الشاطئ مستمراً في إطلاق مدافعه .

"دوم أنتاو دي نورونها" ، الذي كان مبحراً في ذلك الوقت على سفينته ، انتقل إلى سفينة شراعية مع العديد من النبلاء والجنود حتى

يتباحث مع القائد الأول ، لأن نائب الملك كتب له أن يقوم بذلك ، وإن على إبنه أن لا يفعل أي شيء دون مشورته ونصيحته .

كانت الرياح في ذلك الوقت طيبة والسفن تقترب من الشاطئ . كانت سفينة "جوميز دا سيلفا" الشراعية الضخمة قريبة جداً من مدافعهم ، وبما أن "دوم أنتاو" كان يعلم أن السفينة ينقصها الرجال فقد كان يخشى عليها من الدمار لأنها كانت على مسافة من بقية الأسطول ، لذلك طلب من النبلاء الذين كانوا يبحرون معه إن كانوا يرغبون في الانضمام للسفينة الشراعية الضخمة .

وبذلك يكون قد قدم خدمة جليلة لسموه ، بعد الموافقة على كل شيء ، إقترب منها مخاطراً بالهجوم عليه من كل سفن العدو ، بعد أن نقل إليها حوالي ثلاثين رجلاً عاد لسفينة القائد الأول وصعد عليها ، وكانت سفن العدو قد تحركت لمسافة أقرب إلى داخل الشاطئ ، وانسحبت إلى أبعد جزء للداخل ، حيث لا تستطيع السفينة الشراعية الضخمة الوصول إليه .

عندما رأى "دوم فيرناندو" سفن العدو وهي تلتصق بالشاطئ ، طلب المشورة والنصيحة فيما يجب عليه القيام به . كانت هناك العديد من الاقتراحات المتناقضة ولم يتمكنوا في الوصول إلى قرار . كان مع الأسطول ربان كبير السن وله خبرة ، جاء للأمام وأشار إليهم بما أن الرياح أمامية فلا توجد أي فرصة لسفن العدو على الإبحار في ذلك الطريق أو الوصول إلى مسقط .

في رحلة أخرى وفي مناسبة أخرى كتلك وخلال رياح المونسون قام

هو بإتباع نفس الطريق والمسار ووجد رياحاً مناسبة على الساحل الآخر والتي بسسببها تمكن من الإبحار كيفما شاء وعبر من "رأس جاسك" ووصل بسهولة إلى مسقط . اتفق الجميع على ما أشار به وابتعوا نفس المسار في طريقهم إلى مسقط ، وبعث القائد المسؤول سفناً إضافية لتذهب وتتجسس على سفن العدو .

في ذات يوم بينما كان الأسطول متوقفاً هناك ليتزود ببعض المؤن الضرورية دخل وحش بحري إلى الخليج الذي كانوا يرسون فيه ، كان أكبر من حوت وله مظهر غريب لم يشاهده أحد من قبل . انطلق نحو سفينة القائد المسؤول الضخمة ودار حولها ببطء شديد .

عند سماع الخبر وضع بعض العرب المحليين وبعض صيادي الأسماك على مركب ضخم مع بعض الحبال المتينة التي صنعوا منها أنشوطة وضعوا عليها الطعم ، وفي سرعة اتجه الوحش نحوها وعلق فيها . عندما تأكد المسلمون من ذلك بدأوا في إرخاء كل الحبال حتى لا يقوم بالغطس إلى الأعماق وبدأ يجرهم إلى خارج الحاجز ، لأنه كان على درجة كبيرة من القوة ، وبدأ يتحرك من جانب إلى آخر ساحباً معه المركب .

استغرق الوحش زمناً طويلاً طويلاً وهو يقوم بذلك حتى بلغ به الأعياء أشده ، بدأ بعدها المسلمون في جره نحو الداخل خلفهم حتى خليج (Mukallah China) حيث أوثقوه بالمزيد من الحبال وسحبوه للشاطئ . تجمع حشد كبير من الناس وبدأوا جميعاً في سحب الوحش إلى حافة المياه حيث قاموا بتقطيعه لعدم قدرتهم على سحبه كاملاً للشاطئ .

الزورق الذي ذهب للتجسس على سفن العدو بعث برسالة للقائد المسؤول هنا أنهم يغادرون جزر صحار الصغيرة التي تبعد اثني عشر فرسخاً عن مسقط . من صباح الخامس والعشرين من شهر أغسطس شوهدوا في خط مستقيم أمامهم وهم يجدفون مبتعدين عن اليابسة مع رياح مع المقدمة . أبحروا لمقابلة اسطولنا وسط جزر صغيرة على بعد فرسخين من مسقط بعيداً عن أنظف وأصفى وأجمل شاطئ على كل ساحل الجزيرة العربية .

اتجه القائد المسؤول لمهاجمة سفن العدو بالسفن ذات المجاديف التي في المقدمة ، ومن خلفها مباشرة المراكب الشراعية . كانت السفن الضخمة مبعثرة على سطح المياه ، وبما أنها كلها ترفع أعلامها فقد كان منظرها رائعاً .

عندما رأى "علي شلبي" أنهم استحوذوا على الساحل وأنه من المستحيل الآن أن يعود أدراجه ، زاد من سرعة التجديف بكل قدرة العبيد الذين كانوا على تلك السفن حتى يتمكن من المرور من مقدمة سفننا ويصل إلى الشاطئ ، ومن هناك بعد قمة الجبل تمكن من الهرب نحو البحر .

اقترب "دوم فيرناندو" بسفينته حتى وصل إلى مياه بعمق ثماني قامات ، أمر بألقاء المرساة وواصلت القوارب اقترابها من الشاطئ في اتجاه سفن العدو . "على شلبي" الذي كان مبحراً في المقدمة وصل إلى رأس البر مع تسع من أخف سفنه قبل أن تصل سفننا ، لكن الست التي بقيت في المؤخرة لم تتمكن من العبور ، لأن المراكب

كانت أصغر وتحتاج إلى مياه أقل من السفن الضخمة فقد تمكنت من الإبحار والوصول إلى الشاطئ .

عندما مرَّ "دوم جيرونيمو دي كاستيلو برانكو" ، الذي كان يبحر من أمام سفينة القائد المسؤول الضخمة ، تعرف عليه "دوم أنطونيو دي كاستيلو برانكو" ، شقيقه الأكبر الذي كان على نفس السفينة ، عند رؤيته له وهو يتخطاهم جميعاً ، صاح به من على عمود مقدمة السفينة . "كيف أنت أيها الشاب" (لأنه كان مازال صغير السن) .

"أوقف ذلك المركب لي" وقد قام بتنفيذ ذلك حرفياً لأنه بتوجيهه للمقدمة باتجاه الرياح بقدر المستطاع ، وصل إلى الشاطئ في مقدمة سفن العدو ، في اللحظة التي انطلقت فيها قذيفة القائد الأول وأصابت إحدى سفن العدو التي كانت تبحر في المقدمة ، مما جعلها تنحرف واندفعت الأخرى نحو الشاطئ . تحرك عندها "دوم جيرينمو" بين السفن ومطلقاً من زورقه على إحداها وقتل كل الأتراك الذين عليها بحد السيف .

عندما وصل "دوم مانويل ماسكارينهاس" الذي كان خلفه لمسافة قصيرة إلى سفن العدو التي انخرط بينها بسرعة ، أطلق العديد من القذائف السريعة على إحداها التي اشتعلت فيها النيران وتقدم للأمام ضرب أخرى استسلمت أيضاً .

بدأت القوارب السريعة الأخرى في الوصول ، كل منها يدك بنيرانه إحدى سفن العدو . عندما اتخذ "دوم فيرناندو دي مونروي" و"أنطونيو دي فالارديز" طريقهما نحو السفن صعدوا في الحال على سطحها ،

وجرى قتال عنيف بالسيوف مع الاتراك ، قتلوا فيه العديد وأجبروا آخرين على إلقاء أنفسهم في المياه . بعد أن استولى على سفينتين كان مع "دوم جيرونيمو" حبل قطر ألقاه في المياه وعن طريق السحب خلص نفسه من الضفة الرملية وأخذ معه السفينتين .

لأن النفوس الكريمة والشجاعة لا تحتاج لبرهان أحقيتها للآخرين فقد قام بالإعلان جهراً وعلناً أن "دوم مانويل ماسكارونهاس" قد استولى على إحدهما ودمرها .

الرجال الذين على السفن الستة والذين هربوا من رجالنا ، قفزوا جميعاً إلى البحر ، لكنهم حتى هناك لم ينجوا من قبضة رجالنا الذين على الزوارق والذين وضعوا أنفسهم بين سفن العدو واليابسة ولم يسمحوا لكل الذين كانوا في المياه بالنجاة .

"علي شلبي" الذي عبر مع التسع السفن تمركز بعيداً عن البحر يشاهد القتال مع أسطولنا ، وعندما رأى مصير السفن الست التي تم الاستيلاء عليها أسرع بالإبحار نحو الساحل الآخر معتزماً الوصول إلى "كامباي" ، لأنه كان يعتقد أنه إذا قرر العودة إلى "القسطنطينية" ، فإنه سيرتكب مخاطرة عظيمة لأن عظيم الترك سيقطع رأسه ، وعلى أية حال عندما رأت قواربنا الشراعية الصغيرة تلك السفن تغادر قاموا بمطاردتها بكل سرعة .

سعداء بذلك الانتصار حالياً رجع "دوم فيرناندو" إلى مسقط للعناية بالجرحى ، حيث أمر بإعادة إصلاح ست من سفن المجاذيف . كما قام أيضاً بفدية عبيد السفن من أيدي الجنود وطلب من الكهنة مباركة

تلك السفن ، مطلقاً على كل منها أسماء تعرف بها ومقسماً رئاستها بين عدد من ضباط الزوارق .

سلم السفينة "سانتا إيلينا" إلى "سبستياو دي ماسيدو" ، والسفينة "سانتا لوسيا" إلى "مانويل دي سيجويرا" و"كونسيساو" و "سانتياجو" إلى "جورجي بيريرا" و"سانت ميجيل" إلى "غونسالو جويدس" . حمّلوا في تلك السفن سبعا وأربعين قطعة من المدفعية المصنوعة من البرونز والتي كان من بينها كانت ذخيرة ، كرات دائرية ومدافع معها قرابة الأربعين قذيفة مع بعض الجمال والصقور . بعث "دوم فيرناندو" في الحال برسالة عن هذا النصر لوالده وقام أثناء ذلك بتزويد الأسطول بما يحتاجه .

مراكبنا الشراعية الصغيرة التي كانت تبحر خلف السفن ظلت وراءها حتى ساحل الهند ، سبعة منها اتخذت ملجأ لها في سورات حيث تمركز "دوم جيرونيمو دي كاستيلو برانكو" ، و"نونو دي كاسترو" و"دوم مانويل ماسكرينهاس" عند الحاجز وحاصرهم هناك . ذهب "دوم فيرناندو دي مونروي" و"أنطونيو دي فالارديس" خلف السفينتين الأخريين ومنعوهما من التحرك بطريقة أجبرتهما على اللجوء إلى الشاطئ ، إحداها في "دامان" والأخرى في "دانو" حيث حطمتا لقطع ومن ثم ذهبوا إلى "باسين" .

عندما علم "فرانسيسكو دي سا دي مينسيس" قائد تلك القلعة أن السفينتين الأخريين لجأتا إلى "سورات" ، رتب عشراً أو اثنتي عشرة سفينة وذهب بها وتمركز عند ذلك الحاجز مع المراكب الأخرى ،

وعندما تلقى "جورجي دي ميندوزا" قائد "شول" تلك الأخبار ، قام بسرعة بتسليح عشر أو ست من السفن الإضافية وذهب للانضمام إلى "فرانسيسكو دي سا" . تقريباً بعد مرور عشرين يوماً من سبتمبر عام ١٥٥٤م بهذه الطريقة وفي الثالث والعشرين من نفس الشهر ظهر "بيدرو ماسكارينهاس" عند حاجز "غوا" كنائب للملك في دولة الهند .

أرسل عظيم الترك ، ظفر قائده ، ليتولى السفن التي تعمل بالمجاديف التي جاء بها "علي شلبي" .

بعد أن بعث عظيم الترك "علي شلبي" لتولي السفن التي تكرها "بارباروسا" في البصرة خلال فترة رئاسة نائب الملك "دوم أفونسو دي نورونها" (كما ذكر) ، خشي أن يصيبه مكروه أو كارثة لأنه وضع ثقته في رجل أكثر جرأة عن كونه حكيما ، لذلك أرسل "ظفر جنزارو" وهو قرصان ذو خبرة ، وثق فيه (وسنتحدث عنه مطولاً فيما بعد) ليتولى قيادة سفن "علي شلبي" أينما كانت ، وأن يأخذها إلى ميناء مكة .

وصل ظفر في الحال إلى السويس وغادرها في سفينتين بمجاديف وسفنتين تجاريتين وأبحر في البحر الأحمر في أغسطس عام ١٥٥٤م ، وعندما أخطر وهو في خليج (Maceira) الذي يقع على ساحل الجزيرة العربية بفقدان سفينة "علي شلبي" ، بقي هناك حتى تلقى أخباراً بأن أسطولنا قد غادر إلى الهند ، ومن ثم تبعه حتى ساحل "ديو" .

خلال وجوده هناك وقعت تحت يده أربعا من سفن التجار غير المسلحة ، كانت متجهة نحو هرمز ، ووجد فيها الكثير من الغنائم . عندها عاد إلى السويس وأبلغ عظيم الترك عن فقدانه لسفنه . امتعض

الأخير بمرارة لتلك الأخبار بسبب النفقات الكبيرة التي تكبدها وأيضاً بسبب ما أصاب سمعته من أذى ، وحقيقة إن المضيق الآن بدون أسطول ليقوم بحراسته .

عند ذلك أصدر أوامره للعديد من السفن ذات المجاديف التي ما زالت في السويس من أسطول سليمان باشا بأن تعاد صيانتها .

في العام ١٥٣٧م ذهبت تلك السفن لتفرض الحصار على قلعة "ديو" التي كان قائدها "أنطونيو دي سيلفيرا" .

أسف نائب الملك كثيراً لخسارة التجارة الضخمة ، وقرر في الحال إرسال أسطول للبحث عن سفن "ظفر" ، لكنه بعث أولاً "جوميز دا سيلفا" كقائد أول لسفينة ذات مجاذيف وخمسة من القوارب لحماية ساحل "ملالابار" . كان هذا أسطولاً كافياً بما فيه الكفاية حالياً ، وغادر في بداية يناير عام ١٥٥٥م .

(...)

تقريباً في نفس الوقت (أحد عيد الفصح) وصلت السفينة "اسبادارت" (Espadaerte) إلى "غوا" . كانت تخص شركة "دوم بيدرو دي ماسكارينهاس" ، والتي كانت قد ذهبت لقضاء الشتاء في هرمز ، وكان ربانها هو "فيرناو جوميز دا سوزا" ، الذي عين حاكماً "لكوتشين" .

(...)

بعث نائب الملك بكاهنين من جمعية يسوع على ظهر سفينة تجارية إلى (Prester John) ، وماذا حدث لهما .

كبير أساقفة الجمعية اختار القس المعلم الأب "غونسالو" ، وهو

رجل متعلم وذو سلوك مثالـي ، ومعه رفيقه الأخ "فولجينسيو فرير" "Volgincio Freire" ، وكيل تجاري سابق في "باسين" .

أمر نائب الملك بأن تعد سفينة تجاريه لأخذهما وقد اختار كربان لها "فيرناو فارتو" لأنه كان الأكبر سناً والأكثر خبرة والموجود في المضيق حتى ذلك الوقت .

غادر "غوا" في فبراير مع "مانويل دي فاسكونسيلس" الذي جعله نائب الملك القائد الأول للأسطول الذي طلب منه إعداده ليبحر فيه للبحث عن القرصان ظفر ، تكوّن في ثلاث سفن عابرة للمحيط وخمسة من المراكب التي كانت أسماء قباطنتها ، بخلاف القائد العام ، غير معروفة لي ولم أكن أعرف أياً منهم .

واصل "مانويل دي فاسكونسيلس" رحلته حتى أصبح على مرأى من ساحل الجزيرة العربية فرمى مرساته عند جبل "فيليكس" ، وكما كانت تقول أوامره المحلية أن ينتظر هناك السفن الشراعية الضخمة التي كانت ستأتي من "أشن" .

ظل هناك دون أدنى فائدة حتى انتهت رياح "المونسون" . ذهب لقضاء الشتاء في مسقط ، ثم ليأخذ السفن من هرمز ويرافقها حتى غوا لأنهم كانوا يخشون القرصان ظفر . فعل كل ذلك دون أن يكون شيئاً يستحق الذكر قد حدث له .

عندما وصل "فيرناو فارتو" على مرأى من ساحل الجزيرة العربية ، شق طريقه نحو مدخل المضيق على الجانب الحبشي ، حيث ذهب من هناك في اتجاه "مصوع" وأنزل القساوسة و"دييجو" لأجل "Prester John"

من ميناء "اركيكو" ، ثم ذهب بعد ذلك يجوب المضيق ليحصل على معلومات عن سفن العدو ، وعند تلقيه أخباراً إيجابية بعدم وجود أخرى باستثناء تلك التي تخص ظفر هناك ، والتي تم إرساؤها على الشاطئ ، بدأ بعد ذلك في العودة إلى "غوا" ، وقدم تقريراً لنائب الملك بكل ما حدث .

(...)

في هـذه السنة ، خمس سفن تجارية غـادرت هذه المملكة إلـى الهنـد ، فقدت إحداها ، لكن تم إنقـاذ الناس ، وماذا فعلوا حتى يصلوا إلـى الهند .

في العاشر من سبتمبر عام ١٥٥٥م ، أربع أو خمس من السفن الحربية "القرقور" غادرت هذه المملكة ، وكان القائد الأول لها هو "ليوناردو دي سوزا" الذي وصل إلى حاجز "غوا" . الربابنة الثلاثة الآخرون هم :

"فرانسيسكو دي أزيفيدو" "Francisco De Azevido" ، "فاسكو لورنزو كاراساو" "Vasco Lorenco Carasao" و"جاكومي دي ميلو" "Jacomi de Milo" " ، الذي انغرست سفينته في الرمال بينما كانت ترسو خارج جزيرة "تيركييرا" عند رحلة العودة إلى هذه المملكة .

القائد الآخر "فرانسيسكو نوبر" "Francisco Noberi" في هذه المجموعة اتخذ مساراً حول المنطقة الخارجية لجزيرة "مدغشقر" ، لكنه خلال إبحاره باتجاه "كوتشين" ، ارتطم بالرمال نتيجة إهمال واضح عند

الضفاف الرملية لـ "بيرو دوس بانهوس" "Pero Dos Banhos" ، التي تقع عند خط طول سبع درجات من الشاطئ الجنوبي ، وقد تم إنقاذ الجميع .

بعد إنزال كل الأشياء التي تمكنوا من إنقاذها من السفينة ، غامر الربان بالإبحار على مركب مع القليل من المعاونين للبحث عن زوارق لنقل الأربعمائة شخص الذين بقوا هناك .

وصل بعون الرب إلى "كوتشين" بعد أيام قليلة وواصل حتى "غوا" حيث أعطاه الحاكم مركبين كبيرين ليستطيع بسهولة نقل أولئك الأشخاص وعاد للبحث عنهم . لا يهم كيف واجه كل الصعاب والمحاولات إلا أنه لم يصل إليهم ، وذلك بسبب الضفاف الرملية فرجع خالي الوفاض .

ذلك لأن السفينة الضخمة ظلت واقفة كما هي ولم تتحطم ، فإن الذين بقوا على الجزيرة بعد مغادرة "فرانسيسكو نوبر" ، نزلوا ومعهم كل المؤن وخزينة الملك والكثير من السلع وكل الأسلحة ، وقاموا بتخزين كل شيء داخل ملاجئ شيدوها من أوراق النبات والأشجار ، وجمعوا كل الأغطية وحبال الأشرعة والبكرات وكل شيء يساعد في بناء قارب يتمكنون من الإبحار عليه .

بالرغم من وجود القليل من معرفة ما يتعلق بالسفن إلا أن الحاجة أم الاختراع ، فقد تحول الجميع إلى مهرة في تلك الصنعة ، واستطاعوا بناء طوافة جيدة حتى إن أكثر الناس مهارة قد لا يتمكن من تشييدها أفضل من ذلك . صعد كل الأشخاص عليها مع خزينة الملك وكل البضائع التي يمكن أن تتحملها وغادروا ذلك الموقع في نهاية مارس ،

ووصلوا سالمين إلى "كوتشين" في نهاية إبريل . جاءوا بأخبار بأن على الجزيرة التي تحطمت عليها السفينة "القرقور" توجد كمية هائلة من الأسماك والمياه العذبة .

(...)

في نفس شهر يناير (عام ١٥٥٦م) بعث الحاكم "جواو بيكسوتو" ، وهو فارس نبيل وعظيم الصفات ، على ظهر سفينتين شراعيتين إلى المضيق ليرى إن كانت السفن التركية التي هناك مسلحة أم لا ، وأن يأتي بالأب "غونسالو" العضو في الجمعية اليسوعية الذي كان نائب الملك قد بعث به إلى "Prester John" في السنة الماضية .

أبحر في رياح هادئة ، دخل "جواو بيكسوتو" إلى مدخل المضيق بعد أيام قليلة وعلم من بعض الـ (guelvas) الذين أسرهم هناك بعدم وجود أي سفن إضافية للعدو في أي مكان بالمضيق ، باستثناء تلك التي تخص "ظفر" والراسية في السويس .

(...)

في فبراير في نفس السنة تلقى الحاكم أخباراً عن طريق رسائل من قائد هرمز بأن سبع سفن من مجموعة "بيري ريس" التي بقيت في البصرة قد تم إعدادها وتجهيزها حتى تواصل مسيرتها إلى مضيق مكة . كما تلقى أخباراً أخرى من ملك البصرة بما يفيد أن الأتراك قد اتخذوا من المملكة وتلك التابعة للسادة أصحاب الجزر (Gizares) حلفاء لهم .

وقد التمس منه أولئك بإصرار شديد بأن عليه مساعدتهم بالأسطول

لأنهم قد أحاطوا بالأتراك وأحرقوا أسطولاً معهم حتى يقضوا عليهم ويدمروهم تماماً ويستعيدوا مدينتهم . من أجل هذه المساعدة فإنهم على استعداد لمنحهم القلعة التي على الحاجز وأيضاً نصف العائدات المالية لمبنى الجمارك لسيدنا الملك ، مثلما منحوا ذلك في وقت سابق لنائب الملك "دوم إنتاو دي نورونها" عندما بعث "دوم أنطونيو دي نورونها" إلى هناك مع أسطول قوي . لم يتمحض أي شيء عن هذا وذلك للأسباب التي ذكرت في السابق .

بعد أن طرح هذا الأمر على المجلس تم الاتفاق على قبول العرض وأن أسطولاً معتبراً وكبيراً يجب أن يرسل له . أمر الحاكم في الحال أن يتم إعداد الأسطول ، وقد تألف من سفينة شراعية وأربعة قوارب وعشر سفن تجارية (غاليوت) .

عين "دوم الفارو دي سيلفيرا" "D . Alvaro de Silviera" كقائد أول في السفينة الشراعية ، وكان قادة المراكب الشراعية هم : "دوم بيدرو دي مينسيس" ، "تريستاو فاز دا فيجا" "Tristao Vaz da Vega" ، "إيريس جوميز دا سيلفا" "Aires Gomez da Silva" ، ابن "براس تيليس" "Bras Teles" و"جيرونيمو دي ميزكويتا" "Jeronimo de Mesquita" .

أولئك الذين ذهبوا كقادة على تلك السفن هم : "أنطونيو دي سامبايو" ، "بيرو دي كروز" "Pero de Cruz" ، "فاسكو كوريا" "Vasco Correia" ، "جواو كاليجو" "Joao Calego" ، "سيغال بنهيرو" "Segal Benheiro" ، "غاسبار فاز دي ميزكويتا" "Gaspar Vaz de Mesquita" .

"مانويل دي ماجيلهاس" "Manuel de Maguilheis" ، "جواو فالكاو"

"Joao Falcao" ، "جورجي باريتو" "Jorje Barreto" و"فرانسيسكو غونسالفيس" "Francisco Goncalves" الذي ذهب كوكيل تجاري للأسطول الذي أعد وجهز بطريقة كاملة تماماً وبسرعة حتى تمكنوا من مغادرة "غوا" في مارس ، ، ووصل في وقت قصير إلى هرمز حيث سلح ستة زوارق غادر بها إلى البصرة في يونيو من نفس السنة .

لم يكن هناك أي نزاع أو مجابهة وذهب ليلقي مراسيه بالقرب من مصب نهر الفرات حيث عندما كان ينتظر لرسالة من ملك البصرة وحلفائه عندما ضربته عاصفة أجبرته على طي أشرعته وإرخاء حباله وتركها تسير تحت رحمة الرياح .

تسبب هذا في بعثرة كل الأسطول في اتجاهات مختلفة ، ولم تنضم مع بعضها إلا في هرمز ، لكنها كانت قد أصيبت بأعطاب مما صعب مهمة مواصلتها الرحلة مرة أخرى .

ذهب "دوم ألفارو" مع الأسطول الذي كان يحرس السفن التجارية والحربية الضخمة القادمة من الهند حيث وصل سالماً دون حدوث أي شيء له يستحق الذكر .

(...)

أحداث عام ١٥٥١م

بعث الأب "أنطونيو جوميز اس جى" ، رسالة إلى الكاهن "اغناسيو دي لويولا" في "روما" ، "كوتشين" ، السادس عشر من شهر يناير ، عام ١٥٥١م ، يخبره عن "غاسبار" الذي كان يعمل لزيادة اعتناق المسيحية في هرمز : (٣٧)

مقتطف :

٤- لأنني لا أعرف ما إذا كانوا في الوقت الحاضر سيقدّمون الرسائل التي كتبتها إلى حضرتكم(أ) في السنة الماضية ، فسوف استعرض هنا باختصار ما ذكرته فيها :

يوجد السيد "غاسبار" في هرمز ، وهي جزيرة في الخليج الفارسي

(أ) في الحقيقة ما يزال الخطاب الذي أرسله الأب "جوميز" إلى الكاهن "اقناثيوس موجوداً حتى الآن- انظر في مكتبة الهند ، المجلّد الأوّل ، الصفحات ٥١٨-٢٣ .

---

(٣٧) رقم الوثيقة والهامش.

تبعد خمسمائة فرسخ من مدينة "غوا" ، وحقيقة أنجز المذكور أعمالاً عديدة في تلك المدينة فيما يتعلّق بالتبشير والاعترافات التي قام بها . وكانت هذه الأعمال عظيمة ورائعة بحيث شدّت انتباهنا وأعطتنا الباعث والدافع لتمجيد الربّ الذي يفعل الكثير للإخوانيّة .

في قلعة "بيسين" يوجد أيضاً "بلشيور غونساليفس" مع كاهن آخر لدينا هناك مدرسة تدرّ دخلاً قدره ثمانمائة "كروزادوس" أو أكثر لكن أيضاً يوجد القصور في أعداد الناس الذين يرتادونها ، وبشكل عامّ ينفق هذا المال (١٨٢r) على المسيحيّين الذين يتمّ تنصيرهم .

على بعد أربعة فراسخ توجد مدينة "ثانا" وفيها يوجد أفضل موقع لنا في الهند ، فهو موقع فسيح رحب مليء بالعديد من البرك والأشجار .

أنشئت الآن كنيسة خصّصت لأجل حماية أمّ الربّ ، لأنّنا نتطلّع إلى أن تكون لنا في القريب العاجل مدرسة لتدريس الأطفال المحليّين ، ونأمل أن نحصل على مساعدة لهم من دخل "بيسين" .

بلطف الربّ في جزيرة ثانا هذه ، إذ قدم حوالي أربعمائة من العرب والوثنيّين كي يستلموا ماء التعميد في خلال شهر .

كان الكاهن "بلشيور غونساليفس" هو المتسبّب في كلّ هذا .

تعتبر "بيسين" مدينة ذات كثافة سكانيّة عالية ، وتفصلها مسافة اثنين وسبعين فرسخاً من "غوا" .

يتمتّع الملك هناك بدخل(أ) جيّد جداً .

(أ) أشار "سايمون بوتلهو" للعديد من مصادر دخل "بارزيو" .

وفي العام نفسه (١٥٥١م)

ورد خطاب من "دي جواو الثالث" إلـى "الفارو دي نورونها" ، نقيب هرمز ، بتاريخ عام ١٥٥١م ، يقرر عدم التعامل تجارياً مع الأتراك : [٣٨]

"دون الفارو دي نورونها" .

أرسل لك أنا الملك تحيات . لقد كتبت لك بالتفصيل من خلال الأسطول الذي أرسلته العام الماضي ، لأنّه كان من الآمن أن أرسل لك بتلك الطريقة ، والتي أود أن يكون قد وصل بسلام . لقد ظننت أنه من المناسب جداً أن أقوم به بتلك الطريقة ، وأن أخبرك بأنّي في العام الماضي أرسلت إلى تلك المناطق جيشا كبيرا من الجنود والذّخيرة ، وكلّ ما هو ضروريّ من أجل الدفاع عنهم والحفاظ عليهم .

أتمنى أن أقوم بمثل ذلك في العام الماضي ، وسوف تستخدم نفس الوسائل كي تخبرني كيف تسير الأمور معك ، ومع الجنود ، وأخبار

(٣٨) رقم الوثيقة والهامش.

القلعة والمدينة ، وأيضاً عن البصرة وعن حال الأمور هناك ، والتي يجب أن تكون كما أريد ، وقد أرسلت لك أوامر حول طريقة تعاملك معهم ، وهو ما أوصيك به ، أن تعاملهم كما تعامل الأعداء . آمرك بأن تبلّغني بالتفصيل عن كلّ شيء ، وأن تعتني بشكل كبير وخاصّ بالدفاع عن تلك القلعة والمدينة ، وهو ما أتوّقعه بثقة من حكمتك وجرأتك .

يمكن أن تكون متأكّدا أنه في حال حدوث أي طوارئ -لا قدر الله- فإنّ الأوامر التي أعطيتها إلى نائبي في تلك المناطق ، والاهتمام المستمر الذي طلبت منه أن يحافظ عليه ، سوف يؤكّد لك أنّك سوف تحصل على مساعدة منه بشكل سريع ، لذلك وبمساعدة الربّ فإنّ أعداءنا هم من سيعانون من الدّمار والخراب ، وسوف يسعده أنّهم سوف يحاولون القيام بشيء في كلّ وقت .

يجب أن يتمّ ملاحظة وبشدّة ، أنّه لا يجب أن يكون هناك تبادل تجاريّ بين "القلعة" والبصرة ، كما أمرت ، وهو في مصلحتي جدّاً وأنا آمرك -بشدّة- أن تضع ذلك في الاعتبار .

سوف ترسل لي معلومات بخصوص الصفوي (Sophy) والأوامر التي أعطيتها حول هذا الموضوع ، والتي أنتظر رسالة منك حولها .

(إلى "دوم الفارو دي ميندونسا" [sic ، ؟ نوروونها"] ، نقيب هرمز)

ملاحظة : تم تعيين "دي الفارو دي نورونها" كنقيب لـ هرمز في مارس ، عام ١٥٤٩م ، فربّما يعود تاريخ هذا الخطاب إلى عام ١٥٥١م .

وفي العام نفسه (١٥٥١م)

وردت الأخبار من الهند ، من "ديوغو بوتلهو بيريرا" (أ) "Diogo Botelho Perriera" ، "تيرسيرا" (أزوريس) "غوا" ، الخامس عشر من شهر يوليو ، عام ١٥٥١م ، وكذلك احتلال الأتراك عدن والبصرة والقطيف وكذلك البحرين : (٣٩)

في يوم الثالث والعشرين من شهر مارس ، عام ١٥٤٩م غادرت

(أ) ليس معروفاً إلى من أُرسل هذا الخطاب الهامّ . فكاتب الخطاب "ديوغو بوتلهو بيريرا" عُرف في هذا الوقت بأنّه من أمهر الملاحين وهو ابن غير شرعيّ للمدعوّ "أنطونيو ريل" قائد "كوتشين" إبّان فترة حاكمية نائب "د . فرانسيسكو دي ألميدا" [١٥٠٥م-١٥٠٩م] والعدوّ اللّدود "لألفونصو دي البوكيرك" . وأمّه هي "أريا بيريرا" من "البرتغال" ولقد رُوي أنّها رافقت "أنطونيو ريل" عندما ذهب للهند .

وفي عام ١٥٣٥م أصبح "ديوغو بوتهلو بيريرا" مشهوراً عندما قام بمغامرته الشهيرة التى تمثّلت في رحلته من "ديو" إلى "لشبونه" في أحد المراكب التى قام ببنائها بنفسه ، وأبحر فيها كي ينقل للملك الأخبار العظيمة الخاصّة بالاستيلاء على "ديو" .

الرسالة هنا كتبت بكاملها ، بالرغم من صعوبة أسلوب مؤلّفها ، الذي تناول بالنقد العنيف بعض سمات حياة "البرتغاليّين" في الشرق ، وهذا ما جعلها مثيرة الاهتمام .

(٣٩) رقم الوثيقة والهامش.

"البرتغال" مارّاً بمدينة "رأس الرّجاء الصالح" في العاشر من شهر يوليو، وفي الثامن عشر من شهر أغسطس، لاحت لي "موزمبيق"، وغادرنا في يوم الثاني والعشرين، وبسبب ضآلة الرياح والصعوبة التي واجهتنا في توجيه السفينة، فقد وصلت الهند في يوم العشرين من شهر أكتوبر، وحينها نفذ منّا كلّ شيء، كالمياه والخمور والمؤن الغذائيّة. ليس هذا فحسب؛ بل بلغ عدد المرضى من الرجال حوالي خمسين رجلاً. أمّا القتلى فكانوا ثمانية أشخاص.

بما أنّي لم أتمكّن من الذهاب إلى "غوا" حيث كنت أعرف بوجود "جورج كابرال" حاكماً هناك، كما يوجد هناك ما يمكن تحميله، فقد عملت على الإبحار إلى "كوتشين".

بما أنّه لا يوجد فلفل هناك، وبالمثل لا يوجد أيّ مال فقد تأخّر تحميل السفن، بل حدث التأخير بالنسبة لي أيضاً، ونتيجة ذلك فإنني لم أتمكّن من تحميل أيّ شيء حتّى يوم الثالث والعشرين من شهر فبراير، سيما في ظلّ وجود نقص يتجاوز مائتي قنطار من الفلفل والبضائع الأخرى التي ما كان يمكن للسفينة أن تستوعب هذه الحمولة لو كانت هنالك(أ) أية بضائع بغرض الشحن.

حقيقة يبدو الأمر مشوّقاً أن يرى المرء ما يحدث في العالم، وفي هذه الحالة فإنّ من يرى بأمّ عينيه بوسعه أن يروي ما يحدث في الهند وعن أوضاعها، والآن مضى على اكتشاف وجود الفلفل ستّون عاماً.

(أ) انظر رسالة "جورج غابرال" حاكم الهند إلى جلالة الملك بتاريخ الحادي والعشرين من شهر فبراير، عام ١٥٥٠م.

في تلك البلاد ، لكن لم توجد حينها أيّة أموال لشرائه ، ولم توقّع بشأنها أيّة اتّفاقية قطّ ، فهناك لا توجد مقاييس لوزن الفلفل أو حراس يقومون بمنع عمليات نقله إلى مكّة والأماكن الأخرى ، كما أنّه لم يتّخذ أيّ إجراء لوضع هذه الأمور في نصابها الصحيح ، فبالرّغم من أنّ مولانا الملك يقدّم المزيد من الجوائز للفئات التي يستخدمها أكثر من أيّ أمير أو ملك آخر في هذا العالم .

لقد استولى الأتراك على عدن ، في مضيق مكة ، والبصرة والقطيف في مضيق هرمز ، وكذلك البحرين المجاورة لها ، فالقلعة لم تتلقّ المساعدات التي كانت في حاجة ماسّة لها ، ولم يعد هناك ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع .

المقتطف ص ٢٩

عندما اكتملت عملية تحميل السفينة غادرتُ "كوتشين" في يوم الثامن عشر من شهر يناير ، عام ١٥٥١م ، ومررتُ بـ "رأس الرجاء الصالح" في السابع من شهر إبريل .

في يوم الرابع والعشرين أو الخامس من ذلك الشّهر ، رسوتُ بسفينتي على بعد من جزيرة "استا هيلينا" "Santa Helena" ، حتى وصلت إلى جزيرة "تيرسيرا" في يوم الرابع عشر من شهر يوليو .

وفي العام نفسه (١٥٥١م)

ورد خطاب من "ديوجو بوتيلهو بيريرا" "Diogo Botelho Perriera" إلى "دي رودريجو لوبو" "D . Roderigo Lopo" ، "بارون دالفيتو" "Dalvito" ، الخامس عشر من شهر يوليو ، عام ١٥٥١م ، ويذكر أن الأتراك أخذوا القطيف : [٤٠]

سيدي . أنا متأكّد أنّ أسوأ شيء من المشا إنّها التي مرّت هو تذكّرها ، لأنّه عندما تأتي من كلّ جانب ، فإنّه تأتي في ذلك الوقت رياح شديدة من المحن التي مررنا بها ، وبالتالي يكون هناك شعور يصله كبيرة ، وأنا أقول ذلك سيّدي بنفسي ، حيث إنه يبدو أنّه وقت حاسم هناك ويجب إيقاف من يقومون ببيع الفاكهة عن طريق الصراخ ، " ويأتي مرّة أخرى "ديوجو بوتيلهو بيريرا" .

(٤٠) رقم الوثيقة والهامش.

وفي كلّ مرّة يكون أقلّ احتراماً واستحساناً ، ولكني أحبّ جدّاً مقامك الرفيع ، وحتى إن كان ذلك سيعذّبني أكثر ، ولكنّي سأكون ممتنّاً للقيام بذلك إذا كان ذلك سيسّر مقامك الرفيع وسيكون في خدمتك ، هناك بعض الأخبار حول رحلتي و حول الهند ، قد يسرّك سماعها وسوف أرويها لك .

لقد غادرت "البرتغال" في الثالث والعشرين من مارس ، ومررت بـ "رأس الرجاء الصالح" في العاشر من يونيو ، وأخذت "موزمبيق" في الثامن عشر من أغسطس ، وغادرتها في الثاني والعشرين ، ولأنّ الريح كانت قليلة والسفينة لم تكن جيّدة ، فقد وصلت الهند في العشرين من أكتوبر ، وكنّا مجهدين جدّاً بسبب قلّة المياه والخمور والمرطّبات ، وكان هناك أربعون أو خمسون مريضا وسبعة أو ثمانية موتى .

وقد توجّهت على الفور إلى "كوتشيم" ، لأنّي لم أستطع الإكمال إلى "غوا" ، وقد علمت هناك أن "جورج جابرال" كان الحاكم ، وأنّه كان يجب عليّ الذهاب إلى هناك ، وقد تمّ ذلك ، ولأنّه لم يكن هناك فلفل أسود ، وكما قيل أيضا إنّه لم يكن هناك نقود حتى ، فقد تمّ تحميل السّفن متأخّراً ، وقد كنت أنا أكثر تأخّراً عنهم ، لذلك لم أتمكّن من المغادرة حتى يوم الثالث و العشرين من فبراير ، ومعي حوالي ألفي قنطار أو أقلّ من الفلفل الأسود ، وبضائع أخرى ، وكان من الممكن أن يتمّ أخذ بضائع أخرى إذا توفّر أيّ منها .

في الحقيقة هناك الكثير ممّا تتعجّب له عندما تشاهد ما يحدث حول العالم ، ولا يمكن قول أيّ شيء آخر في تلك القضية ممّن يرون الهند

بأعينهم ، وما هو موجود هناك ، و نجد هناك الأرض التي قد تمّ اكتشافها منذ ستّين عاما ، والتي تشتهر بفلفلها الأسود ، ولا يمكن لأموال الدنيا أن تشتريه ، ولم يتمّ إبرام عقد شرائه أبداً : ولا يوجد ميزان لقياسه ، ولا يوجد ما يكفي من الحراس لمنع أخذه من "ميكوا" أو أماكن أخرى .

وما زال لا يوجد هناك أيّ ترتيبات لتحسين تلك الأوضاع ، في غضون ذلك منح سيّدنا الملك الكثير من الفضل على من قد جعل منهم أمراء حول العالم : وقد أخذ الأتراك عدن في مضيق "ميكوا" ، و"باكورا" ، و"قطيفا" أو التي توجد في هرمز ، بالإضافة إلى ذلك "فاريم" التي تقع بالقرب منها .

عندما يكونون في حاجة القلعة لن يجدوا أي دعم ، لم يتمّ إنجاز أيّ شيء في ذلك الموضوع سوى الكلام ، يقوم ملك "كومبايا" بتشكيل أسطول ضخم ، ولذلك فإنّه في كلّ الجوانب لا يوجد هناك شيء سوى labor et dolor وما يتمّ ممارسته هنا ضدّنا يكفي ليدهش أي شخص ليعرف قيمتهم ، فهو يقول ، كيف يمكنه أن يتحدّث بعقل مع رجال الهند ، وفي كلّ يوم يتمّ التأكيد على أنّه تائه بالنسبة إلينا .

يمكنني أن أرى جيداً أنّه من يريد أن يظلّ على موقف حاسم مع العدوّ ، سيكون ذلك في مصلحته على الفور ، أكثر ممّا يحتاج وأكثر من "أمريك بيكسوتي" "Amerique Pixote" (sic) ولكن ذلك يمكن أن يتمّ فقط ، في حالات مشابهة ، عندما يتمّ تطبيق الحقّ ، لأنّه لن يتوقّف حتّى يتمّ عزله على قدر فهمي ، وهم يؤكدّون هنا ويتأكّدون من أنّه حاذق جدّاً عندما يكتشفون أنّه كان يخدعهم ، وعندما تتحوّل

شؤونهم التي يقومون بها إلى الفشل ، وهو ما لن أتحدّث عنه هنا ، وقد أثبت بشدّة النّقطة التي كانوا يفكّرون بها بدون بذل المزيد من الجهد ، فهم يقولون أنّ الشّيطان حصيف جدّاً .

أعود إلى الهدف من ذلك الخطاب : عندما وصلت إلى الحدّ الفاصل في بداية مارس وقد أكملت بامتداده ، حتى اليوم السابع والعشرين من الشهر ، وكانت الرياح معاكسة ، ووجدت أنّي لا يمكنني العبور لجزيرة "ساو لورينكو" "Sao Lorenco" وإمضاء الشتاء في "موزمبيق" ، لأنّ الطقس لم يعطنا أيّ أمل في التحسّن .

وقد انحرفت مرّة أخرى دائراً باتّجاه الهند بعد أخذ رأي مرشد السفينة واستشارته والربّان وكلّ من على متن السفينة ، وبالرغم من ذلك فقد فكّرت وحدي في القيام بذلك ، فقد فكّرت في أنّه كم سيخدم ذلك الربّ وسيدنا الملك ، وعلى حدّ علمي أنّه منذ أن تمّ اكتشاف الهند لم يكن هناك مثل هذا المجلس ، لأنّه لا يبدو أنّه كان قد تمّ أخذ موقع السّفن التي كانت تغادر مؤخّراً ، لأنّهم لن يفهموها جيداً مثلي .

فأنا أعلم الكثير من مهارات الجنديّ في المناورات البحريّة وهو ما يسعد سيدنا ، وأنا ليس عندي شكّ في أن تلك الأشياء صحيحة ، بخصوص إن كان من الأفضل العودة أو لا ، ولكن ما أعلمه حتى الآن أنّني كنت على حق ، وقد توجّهت إلى ميناء "امجيديفا" ، حيث أمضت السفينة الشتاء هناك ، لأنّها لم تتمكّن من الذهاب إلى "غوا" القديمة ، ومنذ ذلك الوقت ردّ "جورك جابرال" على خطاباتي خلال

سبعة أيام أو ثمانية ، و أرسل إلي أخباراً ، ذات ثقة ، حول مجيء الروم إلى الهند عند بداية الصيف ، وقد كان يقوم باستعدادات بسبب النقص الكثير الذي كان لديهم ، وحيث إنّه تحدّث عن أشياء كثيرة تبدو أنّها ضروريّة ؛ فقد كانت كلّ واحدة من تلك النقاط جوهريّة بالنسبة لحكومة الهند ، والتي يبدو أنّها كانت مفروضة عليه بشكل كبير ، مثلما تدقّ الساعة على مسامع من يسمعها .

لكتابة كلّ نقطة ومناقشتها سيأخذ وقتا لا نهاية له ، وقد يكون من الهيّن أن نقول إنّه لا يليق أن يرتدي رجل ثيابا طويلة والتي ليست له ، ولكن هناك ميزة أسوأ في تلك القضيّة ، والتي أكره أن أتطرّق إليها ، لدرجة أنّني ذهبت إليه بعد ذلك ، وهو أنّه سيقوم بتعيين نقيب آخر للسفينة ، ومع عجزي ومستشاريّي الضّعاف ، قمت بما تعلم به سموك الآن ، ولكن كون تلك المسألة بتلك الطريقة ، قبل أن تنتهي فترة الحكومة .

وصل للحاكم إنذار بأنّ الروم لن يأتوا ، وذلك يعود لحقيقة أنّه خلال تلك الفترة كان هناك حرب مع ملك "كاليكات" بخصوص ملك "كوتشيم" ، وحول الفلفل الأسود مع "امريك دي سوزا تشيكورو" "Amerique de Susa Chicoro" وهو نقيب هناك ، ومع "مانويل دي سوزا دي سيبولفيدا" "Manuel de Susa de Sipulveda" ، الذهب ذهب من "غوا" إلى هناك في الشتاء ، والذي تمّ إرساله مع قوات للمساعدة .

وبمجرّد أن تمّ الانتهاء من الأسطول الذي كان الحاكم يقوم بالتجهيز له ، توجّه به إلى بعض الأماكن في ساحل "مالبار" ، وقد وصل إلى "كوتشيم" ، و تجشّم أكثر حتّى وصل إلى مرسى في الجزيرة يطلقون

عليه "بارديلا" والذي أبقاه محاصراً ، بينما كان يرتّب للسّلام مع ملك "وتانور" ، وهو حامل الراية لملك "كاليكات" ، ويجب أن لا يؤثر البرابرة على ذلك .

أنا أكتب لك باختصار عن تلك الأمور تاركاً أمورا أخرى وقد أمضيت وقتاً رائعا في كتابتها ، لأنّني لم أكن لأكتب أفضل من ذلك ، لأنّي متأكّد أنّه سوف يعلم بها من خلال الرسائل التي سيكتبها آخرون ، واللذين لم أتمكّن من الاجتماع معهم كي أحكي عنها ، وذلك بسبب الثورة الكبيرة التي كانت هناك ، والتي حدثت أيضاً بين الحاكم الذي سيأتي والحاكم الذي سيبقى ، إلا أن هناك شيئا واحدا أودّ أن أخبر سموّك عنه ، وهو مهم جداً حيث إنّه بدا لي دائماً أنّه يوجد في مجالس الهند فقط أحد أكبر مخاطرها .

حيث إنّه يوجد سبب كبير يؤكّد على ذلك ؛ فإنّه عندما يكون هناك شخص أو الكثير من الأشخاص الذين يدخلون ، هم أشخاص أصحاب شرف وكرامة ، مستعدين لاتّخاذ قرارات متغطرسة بأنفسهم عندما تصبح كلّ الأمور سيّئة ، ويعود ذلك إلى الاختلاف الكبير بين الحكّام والأمراء ، والذي لا يجرؤ أحد في حضور جلالته على أن يقول أو يؤكّد أبداً سوى ما يعبّر عن رأي الجميع ، وأنا أقول لك لسموّك بناءً على ما مررت به في "غوا" مع أسقف الهند في مجلس ، بخصوص السلام أو الحرب مع ملك "كاليكات" و"مالبار" .

قد خدمت من خلالها سيّدنا الملك ، وكذلك في بعض الإجراءات التي سوف أقولها الآن ، وعندها استنتجت أن اجتماع المندوبين في

الهند يجتمعون دائماً في مجلس يعتبر كارثة كبيرة ، لأنّه في مواضع الحرب في مثل حالات الاحتلال الكبيرة مثل التي في الهند ، فإنّه في كلّ يوم يتمّ اكتشاف رجال حكيمين قديرين بالحكم أكثر من الموجودين وقتها ، وبالتالي يصبح اختيار هؤلاء كونهم أكثر أهليّة هو موضع النقاش .

يمكنني أن أتحدّث بشكل مستفاض حول ذلك الموضوع ، حيث إنّ الكثيرين يهربون من تلك المهمّة ، إذا كان لي الحقّ في ذلك ، ولكن كوني رجلا أُعتبر غير ممتطيّ لخيل ، فإنّه يبدو من العقلانيّة أنّه لا يجب أن يتذمّر مثل خيل الحرب .

لذلك ولأعود لموضوعي ، فإنّ التاريخ في الوقت الحاليّ هو السادس من نوفمبر ، وقد وصل الآن إلى "كوتشين" "دوم أفونسو" كنائب للملك ، وبعد ذلك سفينة "الغليون" الكبيرة ، في السادس والعشرين من ديسمبر ، كان "فرول دي لا مار" "Frol de la Mare" يمضي الشتاء في "موزمبيق" وهو ما تعلمه سموّك بالفعل ، ثمّ حمل السفن الأخرى من قبل سيدنا بأمان ، وبمجرّد دخول سفينة "ساو بيدرو" جاء "جورج كابرال" ، ولكن كان متأخّراً كثيراً بسبب تأخّر موعد المغادرة .

من هنا ، ومع وصول نائب الملك ، وساء الطقس ، كالمعتاد ، حدثت أمور أخرى هناك ، وبعد ذلك كان هناك استعداد بعد تحميل السفن ، وقد غادرت "كوتشيم" في الثامن عشر من يناير لهذا العام ، عام واحد وخمسين ، ومررت بـ "رأس الرجاء الصالح" في السابع من إبريل ، وفي الرابع والعشرين من الشّهر ذاته أو الخامس والعشرين رسوت في

ميناء "سانت هيلينا" ووصلت هنا في جزيرة "تيركيرا" في الرابع عشر من يوليو .

إنّ كلّ طاقم تلك السفينة بصحّة جيّدة وفي سلام ، الحمد لله ، ولكن الربّ وحده يعلّم ما قد كلّفه ذلك ، كونهم أشخاص وظروف مختلفة ، وأنا متوعّك بشكل حزين بسبب شرب المياه الكثيرة ، ولكن عندما أحصل على القليل أكون أكثر أماناً .

حيث إن الله يزيد من مكانتك ويطيل في عمرك . كتبت في الخامس عشر من يوليو ألف وخمسمائة واحد وخمسين ، "ديوجو بوتيلهو بيريرا" .

عنوان الخطاب : إلى السيد "دوم رودريجو لوبو" ، "بارون دالفيتو" .

وفي العام نفسه (١٥٥١م)

بعث الريّس نور الدين رسالة إلـى جلالة الملك ، هرمز ، بتاريخ الخامس من شهر أكتوبر عام ١٥٥١م ، ويخبر فيها عن وضع الأتراك في شط العرب ، وحرب "الشاه طهماسب" مع تمرد داخلي في فارس : (٤١)

الرسالة التي أرسلها الريّس نور الدين إلى جلالة الملك ، وأخبره عن جدوى ومحاسن توليه مقاليد الأمور في تلك البلاد ، حتى أصبحت بفضل ذلك على ما هي عليه الآن ، وأبلغه أيضاً عن جملة عائدات مركز الجمارك ، وعن تلك التي أجرها نائب الملك إلى "أنطونيو منديس دي كاسترو" بثمن بخس ، وألا يذكر الخسائر التي طالت خزينة الملك بسبب تدهور الدخل .

بالإضافة لكلّ ذلك أرسل تقريراً عمّا فعله "أنطونيو دي نورونها" في خدمة الملك عندما طرد الأتراك ، كتب في هرمز بتاريخ الخامس من شهر أكتوبر ، عام ١٥٥١م .

---

(٤١) رقم الوثيقة والهامش.

سيدي .

أتمنّى أن تجد دائماً كلمات الاستحسان والرضا نتيجة الأعمال التي أنجزها أبي .

في العام المنصرم كنت قد أرسلت لك أبلغك بوصولي إلى هذه المملكة هرمز وعن الأوضاع التي كانت سائدة وقت وصولي ، وسوف أحرص على هذا العمل طالما بقيت في خدمتكم ، إذ يبدو لي أنّني بذلك أؤدي عملي في خدمة جلالتكم ، لأنّني لا أرغب في شيء آخر سوى خدمة سموّكم .

إنّني على بيّنة تماماً إنّه ليس لسموّكم أيّة قلاع في طول بلاد الهند وعرضها ، وليست هنالك أيّة مدينة أو مملكة أروع من هرمز ولا عناصر أكثر إخلاصاً ، ولا مملكة أكثر نفعاً وفائدة عن هذه المملكة ، لأنه من ميناء هرمز هذا وعبره تمرّ البضائع والسلع التي تعود بفوائد عظيمة لمركز جمارك سموّكم والقلاع في الهند . أضف إلى هذا ، إنّ مركز الجمارك يدرّ دخلاً متنامياً بشكل سنويّ يزيد عن المائة ألف "أشرفي" خاصّة في ظلّ الألفي جواد التي ترسل من هنا سنوياً ، إذ يتمّ استيفاء رسم ، قدره اثنان وأربعون "برادواسا" ذهباً عن كلّ خيل في "غوا" أو "شول" .

هناك أيضاً شحنات الحرير والبضائع الأخرى التي يتمّ إرسالها ، وتلك أيضاً تعود بدخل جمركيّ معتبر لخزينة سموّكم .

لكنّني ألاحظ حجم التدهور الناتج الآن بحيث إنّ هذه البلاد تسير من سيئ إلى أسوأ ؛ إذ تبرز هنا مشكلة جديدة كلّ يوم ، ولقد قرّرت أن أكتب لسموّكم تقريراً وافياً عنها ، إذ يسوؤني كثيراً أن تصبح

الأوضاع في طريقها للدمار ، نتيجة أخطاء فادحة يرتكبها قادة سموّكم والمسؤولون ضدّ التجار والأجانب ، وضد السكان المقيمين في هذه المنطقة ، نتيجة أطماعهم وتصرفاتهم غير المسؤولة .

هم يعاملونهم بقسوة وعنف ، ويأتون بأعمال أجد نفسي خجلاً كي أكتب عنها لجلالتكم ، ويترتّب على سموّكم اتّخاذ إجراءات صارمة ضدّهم ، وأناشد جلالتكم بقوّة أن تفكّروا في أمر هذه المنطقة ، لأنه إذا ما استمرّت الأوضاع بهذا الشكل فلا شكّ أنّ البلاد سوف تؤول إلى دمار كامل .

لقد أبلغت سموّكم في العام الماضي عن وصول الأتراك إلى القطيف ، وعلى الرغم من أنّهم لم يتمكّنوا من الاستيلاء عليها إلا أنّهم تمركزوا بقوّة في المنطقة . بعد ذلك أرسلت إلى الحاكم كي أخبره كيف سيكون الأمر صعباً علينا في ظلّ وجود أناس سيئين بجوارنا ، ووضّحت له عدم رغبة سموّكم في السماح لهؤلاء الناس بالاقتراب وجلب "الريازس" (Riazes?) (أهل الرياض؟!!) قريباً من هذه القلعة .

عندما تمّ استلام هذا الخطاب كان "د . أفونصو دي نورونها" قد وصل بالفعل وقد بدا الأمر وكأن العناية الإلهيّة قد أرسلته لإنقاذ الموقف ، إذ سارع في الحال بإرسال أسطول قويّ قوامه ألف ومائتا جنديٍّ تحت قيادة ابن أخيه "د . انتاو دي نورونها" ، وفي ظلّ هذه الحملة عملت على دعمها بتجهيز خمسمائة محارب ... ، غير أنّ والدي لم يسمح لي بمرافقة هذه الحملة ....

وقال إنّ الربّ لن يسمح له طالما ظلّ حيّاً ، وهو قادر على أداء خدمة

جلالتكم أن يتركني أقوم بهذه المهمّة ، ويرى في نفسه أنّ من واجبه القيام بها عندما تأمره بذلك ، لأن ذلك كان أمراً ضرورياً لأجل حماية هذه القلعة .

يعتقد والدي أنّ أمر وقيادة هذه الحملة ملقى على عاتقه شخصيّاً ، وأنّ أمامي متّسعاً من الوقت لخدمة سموّكم بشتّى السبل الممكنة ، وربما أنّه لن يعيش أكثر من ذلك للقيام بمهمّة مماثلة ، ولهذه الأسباب فقد رغب في الذهاب في هذه الحملة ... ، وقد بدا لي أنه أكثر شباباً منّي ، ولهذا رافق مجموعة الخمسمائة جنديّ على حسابه الخاصّ ، واعتبر أنّه ينفق هذا المال في سبيل طرد الأتراك .

هكذا أمرني بالبقاء في هذه المدينة كي أتولّى أعباء مهامه والخدمات التي يؤدّيها لسموّكم .

إنّني لن أجرؤ على إبلاغك بشأن هذه الرحلة ، لأنني آمل أن تطّلع على ذلك من الجنود الذين ذهبوا في هذا الأسطول ، وإن تلك هي حقيقة رغبته ورغبتي ، وإنّني أعتبر أنّ كلّ هذا لا يساوي شيئاً ، لأنّنا مدينون لسموّكم بالكثير من الفضل والعرفان لقاء الامتيازات التي شرّفتنا بها .

بعد الاستيلاء على القطيف أقدم "د . انتاو" على تدمير "القلعة" تنفيذاً لأوامر وتوجيهات نائب الملك ، لكن لم تكن تلك وصيّة أبي ... ، لقد كان من الممكن أن يكون الأمر أفضل للقاضي بالتواجد هناك مع مائتين من رماة السهام ، وخمسين من الجنود "المسكيتيين" ... ، ولما تمكّن الأتراك من العودة سريعاً كما فعلوا ، إذ إنني ساعة كتابة التقرير

كنت قد تلقيت أخباراً تفيد بمائة من الجنود "للقعلة" ... ، وقد أصبحوا على بعد ميل في البرّ من القطيف التي دمّرتها عندما ذهبت إلى هناك في مناسبة أخرى .

عندما قام "د . انتاو" بتدمير "القلعة" كان قد سمح لجميع من في الأسطول بالمغادرة واتّجه مع أربعمائة من رجاله في "كاتور" "Caturs" إلى البصرة حيث استولى على جزيرة تسمى "مورقز" "Murgis" ، حيث توجد بها قلعة كان الأتراك قد قاموا بإخلائها بمجرّد سماعهم عن تقدم "د . انتاو" وزحفه نحوها ، وعندما أنجز ذلك عاد مجدّداً إلى هرمز ....

وحين ذاك تلقّيت إخباريّة مؤكّدة تفيد أنّه لو كان قد اتّجه لـ البصرة بكامل أسطوله وقواته ، لكان إنجازه عظيماً ولأمكنه طرد جميع الأتراك ... ؛ إذ ساعتها كان العرب قد ثاروا ضدّ الأتراك ، معتقدين أنّ أسطولنا قد توجّه إلى هناك للاستيلاء على البصرة . بل حتى الأتراك قد بدوا خائفين ويائسين . [.....] .

لن أستمر في كتابة المزيد من الأخبار عن البصرة ، إذ أحسب أن "د . أنطونيو" سوف يتناول ذلك بشكل مطوّل ومفصّل . لكنيّ أدعو الربّ أن يمكننا من طرد هؤلاء الأشرار من البصرة ، لأن هذا يعدّ أمراً ضرورياً لمصلحة هذه المملكة ولمصلحة الهند بكاملها .

يترتّب على سموّكم أن تصدّروا أوامركم بإقصائهم وطردهم بعيداً ، لأنهم لن يتسبّبوا في إلحاق أيّ ضرر بنا إلا من خلال هذه القاعدة .

أفادت الأخبار الواردة من هرمز أن جميع الجيران على حدودنا قد كفّوا عن إزعاجنا وتركونا في سلام ، ومنذ أن عدت إلى هنا لم تكن هناك

أيّة عمليّات حربيّة من جانبي ، ولم يحدث أن واجهتنا أيّة صعوبات ، وإنّني أبذل قصارى جهدي كي يعمّ السّلام بيننا وبين الآخرين .

الأخبار التي تلقيتها عن "الشاه طهماسب" منذ مضيّ ستّة شهور تفيد عن وجوده بالقرب من بحر قزوين يشن حرباً ضدّ أحد النّبلاء الذي يحكم بلدة تسمّى "شكيم" "Xequim" وإنّه وفّق في الاستيلاء عليها بصعوبة بالغة .

يقال إن سفيرنا هناك قادم في طريقه بشكل عاجل إلى هنا ، كما يقال إن سفير "الشاه طهماسب" لدى نائب الملك قادم أيضاً معه ، ولا شكّ أنّ وصولهما قد أصبح وشيكاً .

في هذا العام ١٥٥١م ، أقدم الحاكم "جورج كابرال" على تأجير مركز الجمارك في هرمز للمدعو "أنطونيو منديس دي كاسترو" لقاء خمسة وتسعين ألف "أشرفيٍّ" ... ، وبهذا سيكون قد تسبّب في إحداث خسارة جسيمة لخزينة سموّكم ، لأنّ الإيجار هذا يعتبر متدنّياً .

جميع التجّار هنا يعلنون احتجاجهم بالرّغم من أنّني أعمل على إقناعهم ومساعدتهم تنفيذاً لأمر نائب الملك ، وقد كتب لي قائلاً : إنّه ليس بوسعه عمل شيء سوى احترام عقد الإيجار الذي نفّذه "جورج كابرال" ... ، وإنّ هذا الأمر لن يستمرّ أكثر من عام واحد .

لقد بلغ إيراد مركز الجمارك مائة وستة عشر ألف "أشرفيٍّ" ومن الممكن أن يدرّ أيضاً حتّى بداية شهر يناير حوالي عشرة آلاف أو اثني عشر ألف "أشرفيٍّ" وعندها سوف ينتهي عقد الإيجار ، وبالتالي يمكن

للمستأجر الذي يقوم بتحصيل الدّخل أن يستلم ثلاثين ألفا أو خمسة وثلاثين "أشرفيّ" .

عموماً سوف يكون كلّ ذلك عبارة عن خسائر ، بسبب تأجير مركز الجمارك هذا العام ، ومن الممكن أن تخسر البلاد أكثر من ذلك ، لأنّ ذلك المبلغ يعتبر زهيداً بل إنّه أدنى إيجار سنويّ خاصّة إذا كان حجم السّلع التّجارية القادمة بمثل ما ورد هذا العام .

ليس هنالك من أخبار أخرى يمكنني أن أوافيك بها عن هذه المملكة ، باستثناء ما يمكنني تأكيده ، إنّ والدي وشخصي لا نرغب في شيء سوى أن نسخّر ما بقي من عمرنا في خدمة سموّكم ، كي نتمكّن من تقديم خدمة أفضل .

سوف يكون من دواعي سعادتنا أن نتشرّف بتكرّم سموّكم على الموافقة بمنحنا المزيد من الامتيازات ، حتّى نتمكن من المحافظة على مملكة هرمز والدفاع عنها .

نسأل الربّ في السماوات العلا أن يطيل في عمر سموّكم ويحفظ دولتكم المجيدة .

مرسل هذا الخطاب من مملكتكم هرمز بتاريخ الخامس من شهر أكتوبر ، عام ١٥٥١م

الريّس نور الدين .

وفي العام نفسه (١٥٥١م)
بعث الأخ "مانويل تيكسيرا" "Manuel Texiera" رسالة إلـى الجمعيّة "اليسوعيّة" في "كويمبرا" ، "غوا" ، الخامس عشر من شهر نوفمبر ، عام ١٥٥١م ، ويخبر عن "غاسبار" المبشر في كل مكان يذهب إليه : (٤٢)

لقد سررنا بالوصول إلى "غوا" وقضاء أمسية واحدة في الحاجز ، وفي صبيحة اليوم التالي ، حضر أحد الآباء والأخوة الرهبان من مقر أخويّتنا الدينيّة في "ساو بولو" وبعد ذلك رافق السيّد "بلشيور" أحد الإخوة للمدينة ، كما رافق الراهب "أنطونيو" المرضى في إحدى المراكب . أما "الراهب غونسالو" وبقية أفراد جماعتنا فقد آثروا الانتظار والمعاناة ، بسبب مكوثنا يومين وليلتين دون أن نتمكن من بلوغ المكان الذي طالما منينا أنفسنا منذ وقت طويل بالوصول إليه .

في اليوم التالي اتّجهنا إلى الشاطئ ووجدنا إخوتنا في حالة طيّبة ،

(٤٢) رقم الوثيقة والهامش.

وكانوا يتوقّعون وصول السيّد "غاسبار" [بارزيو] القادم من هرمز في طريقه إلى "اليابان" ، وكنّا نأمل جميعاً في الذهاب معه .

ها نحن الآن ننتظر لنرى ما إذا كان من الممكن أن يتم إرسال بعض الإخوة ، لأنّ السيّد "فرانسيسكو" كان قد كتب بما يفيد أنّه سوف يتمّ إرسالنا جميعا ، إذا ما كان هنالك من مجال لذلك .

ظلّ الراهب "أنطونيو" موجوداً هنا مدّة سبعة أيام أو ثمانية ، وبعدها أُرسل إلى "كوتشين" لأجل التبشير ، وكذلك كان السيّد "غونسالو رويس" موجوداً لعدّة أيّام أرسل بعدها إلى هرمز أي إلى المنطقة التي كان السيّد "غاسبار" موجوداً فيها ، وقد أتى ومعه ثلاثة من الأخوة الرهبان المتميّزين ... ، وحقيقة فهو شخصية تتمتّع بروح معنويّة عالية وخادم عظيم في خدمة الربّ .

عموماً تمّ استقبال هذا الرجل في احتفال بهيج ، ولكن قبل وصوله إلى مقرّ الأخويّة كان قد قام بالتبشير في موقع قريب من الحاجز ، وطيلة فترة مكوثه هنا كنّا نقوم بالإنشاد والغناء في صلاة القدّاس في جميع أيّام الأحد ، وبعد الفراغ من جمع الصدقات كان يأخذ رداء الكاهن وينطلق للتبشير .

وبعدما ينتهي من التبشير يعود لإنشاد القدّاس مرة ثانية ، وبعدما يتناول عشاءه يقوم بالتجوّل مدّة ساعتين في شوارع المدينة ويقرع الجرس تماماً كما كان يفعل في هرمز ، وعندما يتجمّع حوله السود ، يشرع في التحدّث إليهم لتعليمهم مبادئ الديانة المسيحيّة .

أقبل الكثيرون على الاعتراف وكان هذا عملاً جليلاً في هذه المناطق .

وفي العام نفسه (١٥٥١م)

بعث الأب "غاسبار بارزيو ، اس . جي ." رسالة إلـى الكاهن "اغناسيو لويولا" في "روما" (عيسى ومريم) ، "غوا" ، السادس عشر من شهر ديسمبر ، عام ١٥٥١م ، ويتحدث عن فترة عمله في هرمز : [٤٣]

الكاهن المحترم

ندعو سيّدنا المسيح أن يسبغ عليك من فضله السلام والأمن ... ، آمين

مقتطفات :

١- في إطار إرسالي إلى هنا بواسطة سعادة "فرانسيسكو" صاحب الأمر ، رئيساً للرابطة المقدّسة في هذه المنطقة ورئيسا للكنيسة في إخوانيّتنا المقدّسة في المقاطعة المسمّاة بـهرمز في الخليج الفارسيّ [أ] ،

(أ) انظر الوثيقة رقم ٥٥-١ .

(٤٣) رقم الوثيقة والهامش.

والتي عرفت في وقت سابق بأنّها من أقوى الممالك وما تزال حتى الآن ، فقد تمّ إخطاري بواسطة الكاهن "أنطونيو جوميز" الذي كان حينئذٍ قسّيساً في إخوانيّة القديس "باولّ في مدينة "غوا" ، عن جملة التّوجيهات والأوامر التي أعطاني إيّاها حضرة مقامكم السامي ، كي أسلّمها له حتّى يتبيّن له ما حققته إخوانيّة رهبنتنا[أ] بفضل الربّ من إنجازات في هذه المنطقة .

لا شكّ أَن الأمر سوف يبدو ضرباً من الحماقة والعبث ، إذا ما استطردت في وصف الرضا والارتياح الذي استشعرته بعد وصول هذه المراسلة .

الإيعاز لشخصي للامتثال إلى أوامر مقدّسة ، كان كافياً بتبديد عجزي وقصوري كي أعوّض عن الكثير من الإخفاقات -التي حتّى هذا الوقت- توقّفت عن الوقوع فيها .

٧- لقد تمّ إرسالي للخليج الفارسيّ برفقة راهب آخر اسمه "ريماو بيريرا" ، وهناك ، وبعد مضي شهرين واجهنا فيها صعوبات بالغة نصارع الرياح والعطش ، قبل أن ندخل مضائق مكة التي تقع على جانب البحر الأحمر ، وصلنا إلى ميناء مسقط في الجزيرة العربيّة ، وهناك تم احتجازي واحتجاز "سفينتي" مدّة ثلاثة أيام حتّى أتمكّن من الاستماع إلى اعترافاتهم والتبشير بكلام الربّ ، لأن الغالبيّة العظمى منهم كانوا من المرتدّين ، والآثمين الذين لم يسبق قطّ أن أدلوا باعترافات طيلة فترة حياتهم .

(أ) تعرض خطاب الراهب "أنطونيو جوميز" للضياع (انظر الوثيقة ٤٩ أ) .

بالنسبة لي لم يكن الأمر غريباً عندما علمت أن البلاد تؤول للعرب خاصّة ، ومن الصّعب على المرء أن يميّز بينهم وبين المسيحيّين ، لكن هنا يتبيّن المرء ويلمس بوضوح ثمار الجهود التي بذلها جلالة الملك من خلال التوهّج والاندفاع الذي تتّسم به هذه الفئات .

٨- غادرنا من هناك مبحرين ، وقد حظينا بهبوب رياح مواتية ، حتى وصلنا في هرمز المليئة بالسكان عاصمة المملكة التي تقع في وسط الخليج الفارسي .

وهي (هرمز) مدينة تقع على بُعد فرسخ أو اثنين من فارس ، وتبعد قليلاً عن الجزيرة العربيّة ، وهي ملك للأحباش (السود؟!) ويسكنها العرب والفرس وجميع أجناس العالم قاطبة . تعتبر هرمز ميناءً بحريّاً عظيماً يجتذب جميع أنواع السلع التجارية ، من فارس والجزيرة العربية وتركيا وبلاد "ما بين النهرين" و"البندقية" ومكة ، وأقاليم التتار الكبرى والصغرى .

حقيقة ، إذا كانت هناك بابل أخرى في العالم ومدينة أكثر فساداً عنها فهي هرمز لأنّني اكتشفت أنّها موبوءة بثلاثة من أسوأ أنواع الرذائل التي تمارس على المستوى المجتمعي ... ، ونظراً لأنّها مستشرية في هذا المجتمع فلن أتردّد في الحديث عنها .

وفي ظلّ السمعة السيّئة الملازمة لهذه الأعمال ، فإنّ سعادة الآمر "فرانسيسكو" كان قد عقد العزم على توجيه اهتمامه لها لولا العوائق التي وضعت في طريقه والتي تمثّلت في الرحلة إلى "اليابان" ، وعموماً فهو قد أمرني بأن أسارع فوراً بالتّوجّه إليها خشية أن يُصار إلى تدميرها بالكامل .

٩- أولى هذه المفاسد هي ظاهرة اللواط المنتشرة بشكل كبير بين العرب وحقيقة لا أرغب في التحدّث عن بيوت الدعارة التي يملكها البعض من المسيحيين المحلّيّين ، وقد قمت بتدميرها وأخذت الموجودين فيها أسرى إلى إخوانيّة كنت قد قمت ببنائها .

ثانيا : تلك المفاسد هي أنه لا وجود لأية اختلافات بين المسيحيّين والعرب فيما يتعلّق بعادات الأكل والشرب ، وبالمثل محادثاتهم اليوميّة والمسائيّة ، وانطلاقاً من ذلك قناعة العرب ، إنّه في السنة التي وصلت فيها أنّ المسيحيّة سوف تعمل على التبشير لديانة النبيّ محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) .

ثالث المفاسد هي ظاهرة الربا الفاحش ، وهذه الظاهرة تحتاج إلى شخص كي يقوم بتدريسهم وتوبيخهم بكافّة الوسائل التي تعتمد على تقويم الأخلاق .

عموماً هذه المفاسد أمكن تغييرها لتصبح مزايا حسنة انتشرت في جميع مناطق الهند .

١١- على كلّ حال ليس في مقدوري أن أكتب بالتفصيل عن الجدب والقحل الذي يسود جزيرة هرمز ، وذلك نظراً لعدم كفاية الوقت ، ولكن بشكل عام يمكنك الإلمام بأن (١١٩ـ ر) منطقة هبوب الرياح الجنوبيّة تقع مجاورة للبلدان العربيّة ، أما منطقة الرياح الشماليّة فهي قريبة من فارس ، وأما شروق الشمس فيكون من جهة المحيط الهنديّ .

تتمتّع جزيرة هرمز بعلاقات سليمة مع المناطق المجاورة ، وعموماً

ففي المنطقة الغربيّة ، وبخاصّة في بلاد ما بين النّهرين تقع الكثير من الصراعات والاشتباكات الحدوديّة ، لأن المنطقة تؤول للأتراك .

تتكون المناطق الجبليّة في هذه الجزيرة من الملح الذي يعرف باسم الملح الصخريّ ، ومنها تنحدر أنهار وجداول مالحة المياه تصبح صلبة قاسية على الطّرقات بسبب حرارة الجوّ الحارقة .

الحرارة هنا تبدو عظيمة بحيث يعتقد البعض أنّها تفوق حرارة الحزام الملتهب الذي يقع في أسفل دائرة البروج .

١٥- لقد تحدّاني أهل الإسلام بنفس الطريقة قائلين : بما أنّ محمد (صلّى الله عليه وسلّم) يمنع الجدل والنقاش في ديانته حتّى تتمّ حمايتها بقوة السّلاح ، فقد طلبوا مني مقابلة أحد الأشخاص ، وهو فيلسوف عظيم وطبيب بشري ومنجّم ، ممثلاً عن دينهم في المحاورة ، وذلك في جبال فارس ... ، ومن يصمد لأطول مدّة دون أن يتناول الطعام والشراب ، فسوف يكون ذلك دليلا على أنّه ينتمى للدّيانة الأفضل [١٢٠ آر] .

بناء على هذا ، أجبتهم أن في ذلك أبلغ برهان على زيف ديانتهم وبطلانها .

على كلّ حال ، وبسبب إيماني الراسخ وقناعتي بنقاء ديانتنا وعقيدتنا ، فإنّ ما طلبوه منّي لن يكلّفني الكثير ، لولا أنّه أوعز إلي بموجب أوامر عُليا ، عدم مغادرة هذه الجزيرة قبل مضى ثلاث سنوات .

على كلّ حال ففي هذا الأمر تعاليم ودراسات يمكن أن تزيل كلّ

عوامل التشكّك من العقيدة ، حتى لا يصار إلى تجريب الربّ فيما لا ضرورة له .

وإذا ما سقط هذا في جدالنا ، فسوف يظل ما طلبوه مني باقياً .

١٦- لم تمض سوى أيام قليلة حتّى أرانا الربّ قوّته وعظمته ، وذلك كي تظهر قدسيّة ديانتنا ، فقد قرّرت كلّ من زوجة وابنة ذلك الفيلسوف الذي رُشّح لمجادلتي بعدما رأتا ضعف زوجها أن تدخلا في الدّيانة المسيحيّة .

إذ كانتا من النساء النبيلات بحكم انتمائهما إلى حاكم "شيراز" ... ، وهذه المملكة من الممالك الرائدة في الإمبراطورية الفارسيّة ، كما أنّهما تنتميان إلى زعماء قبيلة النّبي محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، وعموماً قمت باستقبالهما في منتصف الليل في منزل أحد أبنائي المتديّنين ، بغية رؤية ما سيقرّره المسلمون .

في اليوم التالي انتشر في هذه البلاد هرج كبير في وسط المجتمع المسلم ، حيث دهش الناس لما حدث .

في النهاية استدعيت الزوج كي يتحدّث للجميع أمام زوجته وابنته ، ومن خلال التحاور والمناظرة اعترف بقدسية الثالوث ، وقد كان تأثّره بالمسيحيّة واضحاً ، وتوسّل إليّ أن أمنحه المزيد من الوقت لدراسة الأمر ، ولكنّه اختفى بسبب بعض النصائح التي تلقّاها من المسلمين ، وقد هجر زوجته وابنته كي يتحاشى الإساءة إلى دينه ، لا سيما وهو رجل يتمتّع بثقة الجميع .

بعد مضى عدّة أيام ، حاول تبرئة نفسه بصوغ بعض المزاعم ، حيث شرع في الكتابة من مملكة "لار" في فارس زاعماً أنّني لست سوى ساحر ومشعوذ قد ناشد جميع الناس بضرورة الابتعاد عنّي ، وأنّني اشتغل بالسحر من خلال الجرس الذي أحمله لاستقطاب الأطفال للتعليم الشفهي .

منذ ذلك الوقت ، لاحظت أن معظم الأطفال صاروا يضعون أصابعهم في آذانهم ، كلّما سمعوا رنين الجرس في الطرقات .

هكذا تحوّل ذلك الحب والاحترام الذي كانوا يستقبلونني به إلى نوع من التقزّز والاشمئزاز .

لكن بشكل عامّ لم يكن ذلك كافياً لتثبيط الجهود التي بذلتها في سبيل توجيههم لمذهب الحقّ والطريق القويم .

١٧- بعد مضي أيام قليلة أخرى تمّت هداية ابنة أخ ملك الصحراء العربيّة ، وهي من عائلة محمد (صلّى الله عليه وسلّم) من بيت زيد الذي يعتبرونه مقدّساً .

لقد قمت بتزويج أولئك النّسوة مقابل مهر ضخم (١٢٠ في) كنت قد تلقّيته من خلال الصدقات الثلاثة من خيرة الرجال "البرتغاليّين" ، أحدهم يدعى "جواو باتيستا" "Joao Batista" وهو بائع كتب من "كويمبرا" .

بالرغم من المهانة والاستخفاف الذي قيل ، إنّ إمبراطور فارس يرغب في شنّ الحرب كي يستعيد النّسوة اللواتي أصبحن مسيحيات[أ]

(أ) لقد برزت أعظم الصعوبات عندما تم تنصير زوجة السفير زيد مدني ، والتي تزوجها "جورج فيريرا" (انظر أعلاه الوثيقة ٢١ ، ١ والوثيقة ٢٧ ، ١).

للبرتغاليّين ، لكن بما أنّه من الخطأ أن يقدّم كلّ ما هو مقدّس للكلاب[أ] ، فإنّ الخطر من جانب الملحدين قد توقّف تماماً .

٢٣- من المؤكد أن شهداء ديانة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) لا يتمتّعون بالحقّ والمثابرة كما يفعل المسيحيّون .

بعد مضي عدة أيّام تحول اهتمامه ، وما زال الأمر حتّى الآن يسير بصورة حسنة ، وبالمثل أصبح جميـع أقربـائه في حيرة من أمرهم ففعلوا مثلما فعل ، واتّبـعوا الملك في أخطائه ، ومنذ ذلك الوقت وإلى ما بعده ، شـدّدوا رقابة محكمة على كلّ الطرق حتّى لا أتمكّن من دخولها لأنّني ساحر عظيم ، بالرّغم من أنّ الملك حاول بشتّى السبل الممكنة كي يزورني .

لقد كان حزني وأسفي عظيماً ، حينما فقدت جائزة كان من الممكن أن أصبح من خلالها ثريّاً حتى آخر عمري ، ولهذه فإنّني أعزّي كلّ آثامي ، وكثيراً ما يحدث هذا لأنّ هناك آفة داخل كياني ، وهي ظاهرة استدراج الحزن الذي ينشأ منه اليأس والذي بسببه أفقد جزءاً من الحماس المتوهّج في دواخلي ، وهذا ينشأ من كبريائي العظيم ، وافتراضي أن ما أقوم به من عمل هو شيء يخصّني أكثر مما يخصّ الربّ الذي بفضله يتمّ تدبير كلّ شيء ... ، فأرجو أن تدعو لي .

على كلّ ، إنّني أحسّ أنّ الربّ أكثر عطفاً عليّ وكثيراً ما يمدّني بالسلوان والتعزية ، إذ إنني ألاحظ أن أعدادا من يعتنقون المسيحيّة

(أ) انظر ماثيو في أسفار العهد الجديد ٧ ، ٦ – "لا تعطي كل ما هو مقدس للكلاب" .

يزداد يوماً بعد يوم ، ولا ينقص ... ؛ ولعلّ في ذلك تأسية لي تساعدني في نسيان أحزاني القديمة . (١٢٢ آر) .

بعد مغادرته هرمز

٢٦- لقد غادرت هرمز بالفعل ، حرصاً على التقيّد بالأمر المقدّس وإذعاناً للاستدعاء الخاصّ بذهابي لليابان و"الصين" .

هكذا حلّ مكاني الراهب "غونسالو رودريغيز" .

قد شاء الربّ أن تتحقّق رغبتي الجامحة في العمل في تلك المناطق التي استدعيت بشأنها ، وفي هذه السنة كنا ننتظر أخباراً هامّة من سعادة الكاهن الأعظم "فرانسيسكو" والأخوة الذين توّجوا حياتهم بالاستشهاد .

حقيقة لا أعرف ما هو الأفضل وأيّ أمر سوف يختاره لي جلالة الملك .

لكن يبدو لي أن "الصين" وخاصّة أقاليم التتار الكبرى[أ] والتي يرغب في هداية سكّانها مع ألمانيا ستكون الأفضل خاصّة ، وإن حضرتك سوف تلاحظ من بعض أنواع "الراوند" (عشب طبي) الذي يبدو مثل "السلجم" ، والذي عملت على إرساله لكم عن طريق البر بواسطة تتار "الصين" إلى ميناء هرمز ، سوف يرى سموّكم قدرة الربّ فيما يخلق من عجائب .

٢٧- لكن عودة إلى موضوعي : إنّني موجود الآن في هرمز ، وقد صدر الأمر لي بواسطة الكاهن الأعظم الآمر "فرانسيسكو" كي أرحل

(أ) في أوروبا نشأ مفهوم مماثل ، وعلى سبيل المثال يكتب "اقناثيوس" عن "بروسيا" التي تقع على حدود أقاليم التتار .

في أوّل سفينة تغادر المنطقة ، غير أنّني لم أغادر وذلك بسبب (١٢٢ آر) المعارضة الكبيرة والمعوّقات التي وضعت في طريق رحيلي ، بل إنّ الناس قد تآمروا كي يتمّ احتجازي إلى حين انتهاء موسم "المونسون" وذلك حتى لا أتمكّن من الإبحار .

الشيء نفسه أيضاً حدث لي مع "دوم أنطون" "D . Antone" ابن أخت نائب ملك الهند الذي اتّجه للميناء هنا في أسطول ضخم كان في طريقه لمحاربة المماليك[أ] وقد استخدم كلّ الوسائل الممكنة كي يؤخّر رحيلي ... ، وبالفعل لم تُجْد كلّ محاولاتي لإطلاعه على وثائق الأمر الملزم بتنفيذه والإذعان له .

قد حدّثني عن مدى ضرورة بقائي هنا لأجل مصلحة خدمة الربّ وخدمة ملك البرتغال ، وأيضاً لأجل رفع الروح المعنويّة في الجنود وشحذ هممهم وتشجيعهم على الحرب ، وبثّ الحماس في نفوسهم .

عموماً لم تكف مدّة أسبوعين كاملين بنهارها وليلها كي أفرغ من الاستماع إلى اعتراف خمسمائة شخص ، وبما أن كهنة القديس "بيتر"[ب] قد أثاروا احتجاجهم أنّهم قد ظلّوا طيلة الثلاث سنوات الماضية يستمعون لاعترافات لم تنته ، فإنّهم يطالبون أن يمنحوا فترة من الراحة ، فإنّني لم أُرد أن أضايقهم بمشكلة الاستماع إلى اعترافات الموجودين في هذا الأسطول .

(أ) هذا بالنسبة إلى "كوتو" ، الذي قدم وصفاً للحملة بكاملها . وقد أخذ "أنطونيو دي نورونها" معه حوالي ألف ومائتين جندياً - (العهد السادس ، الكتاب ٩ ، الفصول "٤ ١٥") .

(ب) كهنة عموميون .

في نهاية الأمر ، قرّر القبطان وبحارته عدم الإبحار للاشتراك في الحرب دون مرافقتي ، وإلا فإنّهم سوف يحرّضون من يريدون الاعتراف على اتّخاذ قرارهم .

إنّني إذا لم أرافقهم طائعاً فسوف يأخذونني قسراً ، أو أضطرّ إلى بثّ فهم مغاير عن الأمر في نفوس المعترفين .

لأجل إبعاد أي خزي أو افتراء عن هذا المجتمع يمكن أن ينشأ من هذه المشكلة ، وفي إطار إدراكي لعدالة مطلبهم الذي أعتبره نابعاً من حبّهم لي ، فقد قبلت برأي الكهنة الذين قرّروا فوراً ضرورة ذهابي للحرب ضاربين بعرض الحائط بوثيقة الطاعة الملتزم بها والتي أطلعتهم عليها .

الربّ وحده هو العالم بمدى اليأس الذي تسرّب إلى نفسي حينها ، وليس هذا بسبب قرار ذهابي للحرب ، ولكن بسبب إحساسي بأنّني ذاهب في مهمّة اضطررت بسببها أن أخلف وعدي بالطاعة والإذعان .

لقد رفعت للربّ شكواي كي يغفر لي ، إذ ليست لدي يد في هذا ودعوته قائلاً : "ربي إنّني في محنة كبيرة فلتأتي لمساعدتي ، لقد قمت بكتابة وصيتي[أ] وقد نذرت نفسي للكتابة وبعدها شرعت في الصعود على متن السفينة .

٣١- هناك تلقّيت أخباراً من البلاد العربيّة تفيد أن "الأمونيّين" Ammonites والإسماعيليّين الذين يعيشون في مدن معيّنة ينتظرون

(أ) عموماً كان قد كتب وصيته الأخيرة التى أرسلها إلى أوروبا في عام ١٥٥٢م .

قدومي[أ] وهم أكثر استعداداً لاعتناق المسيحيّة ، لكنّ امتثالي لتلك الأوامر لم يسمح لي بانتهاز تلك الفرصة .

لقد تلقّيت رسائل من مناطق عديدة من كلّ من بابل والبصرة ، وكذلك "القسطنطينيّة" ، حيث علمت أن أعداداً كبيرة من الإنكشاريّة تستعدّ للهروب للارتماء في أحضان الكنيسة ، ومن بين هؤلاء أحد الأشخاص من القطيف ينتمي لأسرة المماليك وقد أصبح الآن من جماعتنا[ب] .

قد كتب لي مستخدماً حبر البارود بثلاث لغات هي اللغة الفلمنكيّة واللاتينيّة والفرنسيّة ، طالباً منّي أن أرسل له مذكرة وترخيصاً بالمرور يسمح له بالحضور ، فأجبته أنّه يجب أن يحضر حالاً ، وأنّني سوف أتوق لانتظاره كي استقبله بصدر رحب ، ولقد كتبت له كلاماً كثيراً أشجّعه على الحضور إلينا[ت] .

هذا الرجل يدعى "جون كلوجن" "John Clogen" ، وهو ابن أحد أبرز التجار الأثرياء من مدينة "كولون" نفسها ، وكان اسمه قد ذكر في نفس الرسالة التي أرسلها قائد القلعة المذكور ، إذ عرف أنه ظل هناك سجيناً في الحبس مدة عشر سنوات ، والآن فهو يعتبر من أهم وأشهر مصنعي البارود .

(أ) فيما يتعلق بهذا الأمر ، انظر رسالة الوكيل بدرو لوباتو الوارد ذكرها أعلاه إلى السيد بارزيو – الوثيقة ٢٣.

(ب) القطيف ، مدينة وقلعة سابقة في الجزيرة العربية وتقع بالقرب من جزر البحرين التى وصلها "البرتغاليون" في الثامن من شهر يونيو من عام ١٥٥١م . انظر اسكاهامر– ٤٧٤٦ .

(ت) لقد تعرضت كل من رسالتي جون من كولون وكذلك رسالة بارزيو للضياع انظر الوثيقة ٤٩– بي – سي .

عندما سألته في رسالتي ، أشار قائلاً إنّه مسيحيّ ، وقد سعى كي ينال شرف الشهادة في الحرب .

بالفعل هذا ما حدث له تماماً في الغزوة[أ] حيث توفي وهو يدافع عن دينه بحماس كثير ، ولقد تمّ العثور على رسالتي هذه إبان الاستيلاء على القلعة ، وقد جاؤوني برأس شهيد على رأس رمح ، عملنا على دفنه في هرمز .

٣٥- بما أنّ الملك يريدنا أن نعمل بكلّ السبل الممكنة والمناسبة لتحقيق الأهداف والغايات المرجوة ، والتي تتمثّل في إعادة أرواح المسيحيّين والملحدين إلى راعيها الحقيقيّ ، فقد اعتمدنا في خطة عملنا على تنظيم البلاد اعتماداً على مصادرها بالوسائل التي تمكّننا من تحقيق الأهداف المذكورة أعلاه .

خلال الفترة التي أمكن فيها استقطاب ملك هرمز للدخول في المسيحيّة ، كنت قد أعطيت توجيهاتي بضرورة إغلاق المسجد ، وهو عبارة عن برج طويل يقوم المسلمون من خلاله برفع الآذان للصلاة عدّة مرات في اليوم ، مبشّرين بديانة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) المزعومة وبالطبع فإنّ في ذلك ما يشجعهم -ليس فقط- على تعزيز الأخطاء المتأصّلة في نفوسهم ، وإنّما أيضاً على إيذاء الفئات المسيحية التي لم تستقرّ الديانة المسيحيّة في نفوسها بعد .

(أ) غزوة- تعنى في اللغة العربية معركة ، ويقول بلوتياو عن هذا اللفظ أنها تعنى في أوساط المسلمين حملة أي نفس ما تعنيه الكلمة عن المسيحيين وهي تعني تجمع الكثير من المحاربين الذي يستخدمهم الأمراء المسلمون للدفاع وأيضاً لنشر ديانتهم الزائفة .

قد أصدر الملك المذكور قراراً بإغلاقها وإشعاراً نصّ على ضرورة وقف تلك النداءات الخاصة بالنبيّ محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ولعل الهدف الذي كان يساورني في هذا الأمر تماماً كهدف القدّيس "سبستيان" هو عدم إجبارهم على أن يصبحوا مسيحيين[أ] لأن ذلك (١٢٤ في) لن يمنعهم من إقامة مناسباتهم الرسميّة التي يقومون بها متى وكيفما شاءوا ، وليست لأي غرض آخر أكثر من كبت حرّياتهم حتى لا يذنبوا ، وبالتالي يدركون سريعاً الأخطاء التي وقعوا فيها .

كان الكاهن العام في هذه المقاطعة قد كتب لي من "ساو دومنقو"[ب] عن هذا الموضوع ، سيما الخطاب المرفق مع هذه الرسالة سيبيّن مع خطاب آخر أرسلته بدوري إلى هناك رداً عليه ، حتّى تكون على علم بأنّه في كلّ طريق يوجد حيّز أو مجال سيّئ في أيّ مكان[ت] .

٤١- هنا في "غوا" وجدت السيّد الراهب "باولو" كقسّيس بعدما تقاعد الراهب "أنطونيو جوميز" ، الذي كان يشغل المنصب المذكور ، لأجل تهذيب الناس ، وخلق كيان متجانس يتّسم بالكمال في الرهبنة ، وأحسب أن هناك حوالي ستة وثلاثين فرداً منهم أبلغوا جميعاً آباءً وإخواناً بالإضافة للمجموعة التي جئت بها من هرمز ، وأدعو الربّ أن يؤلّف بين قلوبهم بالمحبّة .

(أ) Cf . Acta Sanctorum (Acts of saints) 11, 268-70, (20 January) .

(ب) "ديداقو برمودس" الكاهن العام في "رهبنة المبشرين" (الدومينكيين) في الهند ١٥٤٨-٥٩- شورهامير "سيلان" ٥١٤ .

(ت) لم يبق من تلك الرسالة أي أثر- انظر الوثيقة ٢٦-أ- ب . اقرأ الانذارات من شافير إلى الراهب "بارزيو" في إبريل ١٥٢٢م في غوا بخصوص وسائل التعامل مع الدومانيكيين والفرانسيسكيين الذين اختلفت وجهات نظرهم مع أعضائنا في المقتطف رقم ٢ ، ٢٤٢ - ٢٥ - ٢٣٤ .

كان وصول الآباء والإخوة الكهنة هذا العام من المملكة قد بعث في نفوسنا سعادة لا حدود لها ، والربّ وحده هو العالم كم كانت حاجتنا لهم .

أرجو من حضرتك ألا تتوقّف عن إرسالهم مهما كانوا ، لأن الأجانب لهم أهمّيتهم تماماً كـ "البرتغاليّين" حتّى ولو لم يكونوا يجيدون التحدّث ، لكن أحرص على أن يكونوا ضليعين في الأمور العقائديّة خاصّة الأمور ذات الصّلة بالخشوع والفقر والتواضع ... ، وبالقليل من المعرفة بوسعهم أن يحقّقوا نتائج رائعة في خدمة الربّ .

دليل الباحثين

الوثيقة رقم : ١

بعث الأب "فرانسيسكو شافير" "Francisco Xavier" رسالة إلى الأب "سيماو رودريغيز" "Simao Rodregues" ، "كوتشين" "Cochin" في العشرين من شهر يناير عام ١٥٤٩م ، ويذكر المسيحية في سوقطرة .

(صفحة رقم ٩)

الوثيقة رقم : ٢

بعث الأب "فرانسيسكو شافير" "Francisco Xavier" (جمعية يسوع) رسالة إلى الأب "سيماو رودريغيز" "Simao Rodregues" (جمعـــية يســـوع) ، "كوتشـــين" "Cochin" ، في العشرين من شهر يناير عام ١٥٤٩م ، ويذكر فيها زيادة المسيحية في هرمز وسوقطرة .

(صفحة رقم ١٤)

الوثيقة رقم : ٣

بعث الأب "فرانسيسكو شافير" "Francisco Xavier" رسالة إلى الأب "سيماو رودريغيز" "Simao Rodregues" ، "كوتشين" "Cochin" في الثاني من شهر فبراير عام ١٥٤٩م ، ويذكر فيها تقوية المسيحية في هرمز .

(صفحة رقم ١٥)

الوثيقة رقم : ٤

رسالة من الملك "جواو الثالث" "Joao III" يمنح بموجبها الريّس نور الدين ابن الريّس شرف ، استحقاق أن يكون رئيس وزراء وحاكم هرمز على أثر وفاة والده ، الرسالة يؤكّدها الملك "دوم سباستياو" "Dom Sebastiao" ، "الميريم" "Almeriem" ، في الثامن من شهر فبراير عام ١٥٤٩م .

(صفحة رقم ١٧)

الوثيقة رقم : ٥

أمر من الملك "جواو الثالث" "Joao III" يمنح بموجبه الريّس شرف والريس نور الدين ابنه ، كلّ صلاحيّات "القضاة" على هرمز طوال حياتهما ويؤكد المنحة الملك "دوم سباستياو" "Dom Sebastiao" ، لشبونه ، في السادس والعشرين من شهر فبراير عام ١٥٤٩م .

(صفحة رقم ٢١)

الوثيقة رقم : ٦

صدرت تعليمات من الأب "فرانسيسكو شافير" "Francisco Xavier"

إلى الأب "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" ، تتضمّن تذكيراً بما عليه القيام به في هرمز ، والقوانين التي عليه الالتزام بها خلال فترة تواجده هناك ، لزيادة التنصير في هرمز ، بتاريخ بداية شهر إبريل عام ١٥٤٩م .

(صفحة رقم ٢٥)

الوثيقة رقم : ٧

بعث "لوبو هيرتادو دي ميندوزا" "Lopo Herotado de Mendonca" رسالــة إلــى الملك "شارلز الخامس" "Charles V" وملكة إسبانيا ، بشأن تحصين "جبل طارق" و"مليلة" ، ووفاة "دوم جواو دي كاسترو" "D . Joao de Castro" ، والنجاح التركي في الهند ، والمعاهدة مع فارس بخصوص مضيق هرمز في خطر ، "لشبونه" في الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٥٤٩م ، ويذكرهما باحتلال الأتراك لعدن والبصرة .

(صفحة رقم ٤٧)

الوثيقة رقم : ٨

جاءت رسالة تتعلق بالأب "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" إلى اليسوعيّين المقيمين في "غوا" "Goa" هرمز في شهر سبتمبر عام ١٥٤٩م ، وذكر فيها وصف هرمز والأوضاع هناك .

(صفحة رقم ٥٠)

الوثيقة رقم : ٩

بعث الكاهن "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" رسالة إلى

اليسوعـيين المقيمـين في الهـند و"أوروبا" ، هرمز في الأول من شهـر ديسمبر عام ١٥٤٩م ، جاء فيها شرح واف عن هرمز وبلاد فارس والأتراك .

(صفحة رقم ٥٦)

الوثيقة رقم : ١٠

رسالة من الكاهن "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" إلى اليسوعيّين المقيمين في الهند و"أوروبا" ، هرمز ، العاشر من شهر ديسمبر عام ١٥٤٩م ، ويذكر فيها وصفاً للمنطقة حول هرمز والأحداث التي جرت هناك .

(صفحة رقم ١٢٢)

الوثيقة رقم : ١١

بعث "كوسمي يانيس" "Cosmi Ianis" رسالة إلى "دوم جواو الثالث" "D . Joao III" ، "كوتشين" "Cochin" ، في الثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٥٤٩م ، ويذكر فيها عدن ومكة ، ومعاهدات مع شاه طهماسب .

(صفحة رقم ٢٢٤)

الوثيقة رقم : ١٢

بعث "ريّس نور الدين" رسالة إلى الملك ، "كوتشين" "Cochin" ، الثاني من شهر يناير عام ١٥٥٠م ، يعرض فيها بيان إجراءات القبطان "مانويل دي ليما" "D . Manuel de Lima" في قلعة هرمز ، ويشرح الأوضاع في هرمز .

(صفحة رقم ٢٣٥)

الوثيقة رقم : ١٣

بعث الأب "نيكولاو لانسيلوتو" "Nicolao Lanceloto" رسالة إلى الأب "إغناسيو دي لويولا" "Inacio de Loyola" ، "كويلون" "Quilon" ، السابع والعشرين من شهر يناير عام ١٥٥٠م ، وفيها يخبر عن نشاط التبشير .

(صفحة رقم ٢٤٠)

الوثيقة رقم : ١٤

بعث حاكم الهند "جورج كابرال" "George Cabral" رسالة إلى "د . جواو الثالث" "D . Joao III" ، "كوتشين" "Cochin" ، في الحادي والعشرين من شهر فبراير عام ١٥٥٠م ، يخبر عن غزو عدن .

(صفحة رقم ٢٤٢)

الوثيقة رقم : ١٥

بعث حاكم الهند "جورج كابرال" "George Cabral" رسالة إلى الأب "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" ، "غوا" "Goa" ، في الرابع والعشرين من شهر مارس عام ١٥٥٠م ، يخبره بأنه يطالب ملك هرمز الدخول في الدين المسيحي .

(صفحة رقم ٢٤٤)

الوثيقة رقم : ١٦

بعث حاكم الهند "جورج كابرال" "George Cabral" رسالة إلى ملك هرمز ، "غوا" "Goa" ، في الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٥٥٠م ، ويطلب منه اعتناقه للمسيحية .

(صفحة رقم ٢٤٦)

الوثيقة رقم : ١٧

بعث "هنريك دي ماسيدو" "Henrique de Macedo" رسالة إلى الأب العالم "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" ، "تبريز" ، في الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ١٥٥٠م ، ويذكر فيها تنصير زوجته المسلمة ، وتدخل الشاه طهماسب واحتجاز "هنريك" ومن معه رهينة حتى وصول زوجة "زيدي" .

(صفحة رقم ٢٤٨)

الوثيقة رقم : ١٨

وردت نسخة من رسالة الأب "غاسبار" "Gaspar Barzio" التي كتبها بتاريخ الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٥٥٠م ، ردّاً على رسالة "هنريك دي ماسيدو" "Henrique de Macedo" ، الذي غادر للعمل سفيراً في بلاط "الشاه طهماسب" ، ويذكر فيها موقف شاه طهماسب ، وأن شكوى "زيدي" باطلة .

(صفحة رقم ٢٥٣)

الوثيقة رقم : ١٩

بعث المستشار "توماس سيراو" "Thomas Sirao" رسالة إلى "دوم جواو الثالث" "D . Joao III" ، ملك "إسبانيا" ، يشرح ادعاء زيد الفارسي المسلم ، من هرمز في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م .

(صفحة رقم ٢٦٢)

الوثيقة رقم : ٢٠

بعث "توماس سيراو" "Thomas Sirao" قاضي هرمز ، رسالة إلى جلالة الملك "دوم جواو الثالث" "D . Joao III" ، فيما يتعلق بأخبار تلك المنطقة وأخبار زواج المرأة المسلمة التي تمّ تنصيرها ، هرمز ، في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م ، ويشرح تنصر المرأة المسلمة وزواجها من رجل مسيحي برتغالي وهي على ذمة رجل مسلم .

(صفحة رقم ٢٦٦)

الوثيقة رقم : ٢١

بعث الكاهن "غاسبار بارزيو" "Gaspar Barzio" رسالة إلى الأعضاء اليسوعيين المقيمين في "كويمبرا" "Coimbra" وبقية أفراد المجتمع ، هرمز ، في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر ، عام ١٥٥٠م ، ويدّعون عن ادعاء المرأة بعجز زوجها عن الدفاع عن دينه .

(صفحة رقم ٢٧٢)

الوثيقة رقم : ٢٢

بعث "د . ألفارو دي نورونها" "D . Alvaro de Noronha" ، حاكم هرمز رسالة إلى جلالة ملك "البرتغال" "دوم جواو الثالث" "D . Joao III" ، هرمز ، في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م ، بشأن الرحلة من "غوا" "Goa" إلى هرمز ، الأتراك ، والشؤون الحربيّة ، ويذكر موقف الشاه طهماسب من قضية زيد .

(صفحة رقم ٢٩٧)

الوثيقة رقم : ٢٣

بعث "كابتن" قلعة هرمز "د . ألفارو دي نورونها" "D . Alvaro de Noronha" رسالة إلى "د . جواو الثالث" "D . Joao III" ، هرمز ، في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٥٠م ، ويذكر سخط الناس على إغلاق المسجد في هرمز .

(صفحة رقم ٣٠٦)

الوثيقة رقم : ٢٤

أمر عظـيم الترك الباشا "بير بيك" أن يفرض الحصار على قلعة هرمز بخمس وعشرين سفينة ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "سـيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفـه "فـرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" .

(صفحة رقم ٣١١)

الوثيقة رقم : ٢٥

فرض الباشا "بيري" حصاراً على قلعة هرمز ، وقصفها بالقذائف لعدّة أيّام . حدّد الضابط "دوم ألفارو دي نورونها" المواقع للدفاع عنها ، وردت التفاصيل في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" .

(صفحة رقم ٣٢١)

الوثيقة رقم : ٢٦

يتلقّى نائب الملك أنباء حصار هرمز ، ويعدّ نفسه للذهاب وإنقاذها ، وردت

تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" .

(صفحة رقم ٣٢٩)

الوثيقة رقم : ٢٧

يصل "دوم أنطونيو دي نورونها" إلى هرمز مع أسطول كبير ، ويصدر أوامره بالتجسّس على السفن التركية ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، للمؤرّخ "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" .

(صفحة رقم ٣٣٥)

الوثيقة رقم : ٢٨

عظيم الترك يبعث "علي شلبي" لأخذ خمس عشرة سفينة ذات مجاديف من البصرة إلى السويس ، فأرسل "دوم فيرناندو دي مينسيس" و"بيرنارديم دي سوزا" "Bernardim de Susa" للتجسّس عليهم ، كلّ على طريقته الخاصّة ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" .

(صفحة رقم ٣٤١)

الوثيقة رقم : ٢٩

كيف تم قصف قلعة القطيف وانبراء الأتراك للدفاع عنها ، والمحنة التي ألمت برجالها هناك ، جاءت تلك الأحداث في

كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرخ البرتغالي "ديوغو دو كوتو" "Diogo do Couto" .

(صفحة رقم ٣٥٢)

الوثيقة رقم : ٣٠

ذهاب "دوم أنتاو" إلى البصرة ودخوله في نهر "الفرات" ، حيث استولى على قلعة تابعة للأتراك ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرّخ البرتغاليّ "ديوغو دو كوتو" "Diogo do Couto" .

(صفحة رقم ٣٦١)

الوثيقة رقم : ٣١

أرسل ملك الأتراك أسطولاً يضمّ خمساً وعشرين سفينة بقيادة الجنرال "بيري ريس" إلى البصرة ، وردت تلك الأحداث في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرخ البرتغالي "ديوغو دو كوتو" "Diogo do Couto" .

(صفحة رقم ٣٦٧)

الوثيقة رقم : ٣٢

ذكر كيف أبحر "بيري ريس" إلى مسقط ، وكيف غادر وكيل قلهات بالرسالة إلى "غوا" ، جاءت تلك الأحداث في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرّخ البرتغاليّ "ديوغو دو كوتو" "Diogo do Couto" .

(صفحة رقم ٣٧٤)

الوثيقة رقم : ٣٣

ذكر وصول الأسطول التركي إلى هرمز ، والحصار الذي فرضوه على القلعة والأحداث التي تخلّلت ذلك ، كما جاء في كتاب : "عقود آسيا" "Da Asia Nova" ، للمؤرّخ البرتغاليّ "ديوغو دو كوتو" "Diogo do Couto" .

(صفحة رقم ٣٧٩)

الوثيقة رقم : ٣٤

ذكر قيام الأتراك برفع الحصار ، والمراسلات التي تمّت بين "بيري ريس" والقائد ، وكيف لجأ العدو إلى نهب جزيرة قشن ، جاءت تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade " .

(صفحة رقم ٣٨٧)

الوثيقة رقم : ٣٥

ذكر الرسالة التي وردت إلى "غوا" بخصوص السفن ، وكيف غادر "د . ديوغو دي نورونها" (الأحدب) و"د . أنطونيو دي نورونها" إلى هرمز بسفينتهما ، وعن الكلمة التي ألقاها في مجلس "غوا" مناشداً المساعدة والحصول على قرض مالي ، جاءت تلك الأحداث في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade " .

(صفحة رقم ٣٩٢)

الوثيقة رقم : ٣٦

الأحداث التي تمت بين البصرة ومسقط وهرمز ، كما وردت في كتاب : "سيرة دوم جواو الثالث" ، لمؤلفه "فرانسيسكو دي أندرادا" "Francisco de Andrade" .

(صفحة رقم ٣٩٧)

الوثيقة رقم : ٣٧

بعث الأب "أنطونيو جوميز أس جي" ، رسالة إلى الكاهن "اغناسيو دي لويولا" في "روما" ، "كوتشين" ، السادس عشر من شهر يناير ، عام ١٥٥١م ، يخبره عن "غاسبار" الذي كان يعمل لزيادة اعتناق المسيحية في هرمز .

(صفحة رقم ٤٤٥)

الوثيقة رقم : ٣٨

ورد خطاب من "دي جواو الثالث" إلى "ألفارو دي نورونها" ، نقيب هرمز ، بتاريخ عام ١٥٥١م ، يقرر عدم التعامل تجارياً مع الأتراك .

(صفحة رقم ٤٤٧)

الوثيقة رقم : ٣٩

وردت الأخبار من الهند ، من "ديوغو بوتلهو بيريرا" ، "تيرسيرا" (أزوريس) "غوا" ، الخامس عشر من شهر يوليو ، عام ١٥٥١م ، وكذلك احتلال الأتراك عدن والبصرة والقطيف وكذلك البحرين .

(صفحة رقم ٤٤٩)

الوثيقة رقم : ٤٠

ورد خطاب من "ديوجو بوتيلهو بيريرا" "Diogo Botelho Perriera" إلـى "دي رودريجو لوبو" "D . Roderigo Lopo" ، "بارون دالفيتو" "Dalvito" ، الخامس عشر من شهر يوليو ، عام ١٥٥١م ، ويذكر أن الأتراك أخذوا القطيف .

(صفحة رقم ٤٥٢)

الوثيقة رقم : ٤١

بعث الريّس نور الدين رسالة إلى جلالة الملك ، هرمز ، بتاريخ الخامس من شهر أكتوبر عام ١٥٥١م ، ويخبر فيها عن وضع الأتراك في شط العرب ، وحرب "الشاه طهماسب" مع تمرد داخلي في فارس .

(صفحة رقم ٤٦٠)

الوثيقة رقم : ٤٢

بعث الأخ "مانويل تيكسيرا" "Manuel Texiera" رسالة إلى الجمعيّة "اليسوعيّة" في "كويمبرا" ، "غوا" ، الخامس عشر من شهر نوفمبر ، عام ١٥٥١م ، ويخبر عن "غاسبار" المبشر في كل مكان يذهب إليه .

(صفحة رقم ٤٦٧)

الوثيقة رقم : ٤٣

بعث الأب "غاسبار بارزيو . أس . جي ." رسالة إلى الكاهن

"اغناسيو لويولا" في "روما" (عيسى ومريم) ، "غوا" ، السادس عشر من شهر ديسمبر ، عام ١٥٥١م ، ويتحدث عن فترة عمله في هرمز .

(صفحة رقم ٤٦٩)

هوامش المجلد التاسع

1- Arquivo Nacional da Torre do Tombo (TT), Lisboa, *Documentacao*: Documentacao para a História das Missoes do Padroado Português do Oriente. Coligida e anotada por António da Silva Rego, Lisboa, Agencia-Geral das Colónias. volumes: I (1499-1522), 1947; II (1523-1543), 1949; III (1543-1547), 1950; IV (1548-1550), 1950; VI (1555-1558), 1951; VII (1559), 1952, vol. IV, pp. 234-239.

2- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 248-250.

3- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 275-285.

4- TT, Arquivo Portugues Oriental. Nova Goa, Imprensa Nacional. 1861 (fasc. 3. , p.II); 1865 (fasc. 5. P. I); 1876 (fasc. 6. , suplementos), (Arquivo 1) , Fasc. 5, p. I, d. 103,

- Arquivo de Goa (AG), Livro 4 de registos antigos f 279v.

5- TT, Arquivo 1, Fasc. 5, p. I, d. 104,

- AG, Livro 4 de registos antigos f 285v.

6- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 286-300.

7- Arquivo Nacional da Torre do Tombo (ANTT), Lisboa, Arquivo de Simancas, Secretarias do Estado, Legajo 374, No. 139.

8- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 317-320.

9- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 373-417.

10- TT, *Documenta*: Documenta Indica. Edidit Iosephus Wicki S. I. Romae. Apud «Monumenta Historica Soc. Iesu». volumes: I (1540-1549), 1948; II (1550- 1553), 1950, vol. I, pp. 641-698.

11- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 469-476.

12- TT, Corpo Chronologico (CC), Parte I, Maco 242, Document No. 1.

13- TT, Documentacao, vol. VII, pp. 12-13.

14- TT, Documentacao, vol. IV, p. 492,

- TT, CC, Parte I, Maco 83, Document No. 90.

15- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 500-501.

16- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 505-506.

17- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 515-517.

18- TT, Documenta, vol. II, doc. 25.

19- TT, Documenta, vol. II, doc. 27.

20- TT, *Gavetas*: As Gavetas da Torre do Tombo. 9 volumes. Lisboa, Centro de Estudos Históricos Ultramarinos. I (Gav. I-II), 1960; II (Gav. III-XII), 1962; III (Gav. XIII-XIV), 1963; IV (Gav. XV, macos 1-15), 1964; V (Gav. XV, macos 16-24), 1965; VI (Gav. XVI-XVII, macos 1-3), 1967; VII (Gav. XVII, macos 3-9), 1968; VIII (Gav. XVIII, macos 1-6), 1970; IX (Gav. XVIII, maços 7-13), 1971, Gavetas V, pp. 38-40.

21- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 523-539.

22- TT, Documenta, vol. II, doc. 30.

23- TT, Documentacao, vol. IV, pp. 542-545,

- TT, CC, Parte I, Maco 85, Doc. 105.

24- Chronica do muyto alto e muyto poderoso rey destes reynos de Portugal dom Joao o III deste nome, Francisco de Andrade, 1540-1614, Part IV, Chapter 92, pp. 372-378.

25- Chronica do muyto alto e muyto poderoso rey destes reynos de Portugal dom Joao o III deste nome, Francisco de Andrade, Part IV, Chapter 93, pp. 378-383.

26- Chronica do muyto alto e muyto poderoso rey destes reynos de Portugal dom Joao o III deste nome, Francisco de Andrade, Part IV, Chapter 94, pp. 383-388.

27- Chronica do muyto alto e muyto poderoso rey destes reynos de Portugal dom Joao o III deste nome, Francisco de Andrade, Part IV, Chapter 98, pp. 405-408.

28- Chronica do muyto alto e muyto poderoso rey destes reynos de Portugal dom Joao o III deste nome, Francisco de Andrade, Part IV, Chapter 107, pp. 446-452.

29- Da Asia Nova, ed. vols, Barros Joao de and Diogo Couto, (Lisboa, Na Regia Officina Typografica, 1777-1788, Deacade VI, Book 9, chapter 14, pp. 325-332.

30- Da Asia Nova, ed. vols, Barros Joao de and Diogo Couto, Deacade VI, Book 9, chapter 15, pp. 333-337.

31- Da Asia Nova, ed. vols, Barros Joao de and Diogo Couto, Deacade VI, Book 10, chapter 1, pp. 404-410.

32- Da Asia Nova, ed. vols, Barros Joao de and Diogo Couto, Deacade VI, Book 10, chapter 2, pp. 411-415.

33- Da Asia Nova, ed. vols, Barros Joao de and Diogo Couto, Deacade VI, Book 10, chapter 3, pp. 415-422.

34- Da Asia Nova, ed. vols, Barros Joao de and Diogo Couto, Deacade VI, Book 10, chapter 4, pp. 423-427.

35- Da Asia Nova, ed. vols, Barros Joao de and Diogo Couto, Deacade VI, Book 10, chapter 5, pp. 427-435.

36- Chronica do muyto alto e muyto poderoso rey destes reynos de Portugal dom Joao o III deste nome, Francisco de Andrade, 1540-1614, Part IV, Chapter 61, pp. 234-236, Part IV, Chapter 71, pp. 271-275, Part IV, Chapter 87, pp. 341-348, Part IV, Chapter 102, pp. 421-426, Part IV, Chapter 105, pp. 437-442, Part IV, Chapter 112, pp. 469-472, Part IV, Chapter 113, pp. 473-475, Part IV, Chapter 118, pp. 498-504.

37- TT, Documenta, vol. II, doc. 42.

38- TT, Colleccao de Sao Vicente (SV), vol I, f 89r-90v.

39- TT, Documentacao, vol. V, pp. 24-29,

- TT, CC, Parte I, Maco 86, Document No. 68.

40- TT, Corpo Chronologico (CC) 1500-1630. I/3/144, 1548-1630, Part 1st Maco 86 Document No. 89.

41- TT, CC, Parte I, Maco 87, Document No. 2.

42- TT, Documentacao, vol. V, pp. 30-35.

43- TT, Documenta, vol. II, doc. 56.

ISBN 978-9948-721-97-0
9 789948 721970
www.alqasimipublications.com